ستيفن فراي



ميثوس

الأساطير اليونانية تُحكى من جديد



ترجمة: محمد أ. جمال

ستيفن فراي



الأساطير اليونانية تُحكى من جديد

ترجمة

محمد أ. جمال





ΓΙΑ ΤΟΝ ΈΛΛΙΟΤΤ ΜΕ ΑΓΆΠΗ

المحتويات

مقدمة

كنت محظوظًا بما يكفي ليقع تحت يدي كتاب (حكايات من اليونان القديمة) في طفولتي، ووقعت في حبه من أول نظرة. ومع أني استمتعت بعدها كثيرًا بأساطير وحكايات ثقافات وشعوب أخرى، إلا أنّ ثمة أشياء في الأساطير الإغريقية لمست وترًا في قلبي؛ الطاقة والفكاهة والشغف والتفرد والتفاصيل المحبوكة فتنتني منذ البداية. أتمنى أن تجد فيها ما وجدتُه. ربما أنت على دراية مسبقة ببعض الأساطير المذكورة هنا، لكنّي أرحّب على الأخص بمن لم يقابلوا من قبل شخصيات وحكايات الأساطير الإغريقية.

أنت لست بحاجة لأي معرفة مسبقة لتقرأ هذا الكتاب، فهو يبدأ بكَون خاوٍ، لا حاجة بكل تأكيد لأي «تعليم كلاسيكي»، ولا لمعرفة بالفرق بين النكتار والنيمفات، ولا الساتير والسنتورات، ولا ربات القدر والفيوريات. ليست الميثولوجيا اليونانية أكاديمية أو نخبوية أبدًا، بل هي يسيرة وسائغة يسهل إدمانها، وشديدة الإنسانية.

لكن من أين جاءت أساطير اليونان القديمة هذه أصلًا؟ ربما بوسعنا شد طرف خيط يوناني واحد من ضفيرة التاريخ البشري وتتبّعه حتى المصدر، لكنّ اختيار حضارة بعينها وقصصها قد يؤدي لأن يُظنّ بنا أننا نختار المصدر الأصلي للأسطورة الكونية على هوانا. تساءل البشر الأوائل في شتى أنحاء العالم عن مصادر القوى التي تغذي البراكين والعواصف الرعدية والمد والجزر والزلازل، واحتفوا واحتفلوا بإيقاع تعاقب المواسم ومسيرة الأجرام السماوية ومعجزة شروق الشمس اليومية، وتساءلوا عن كيف بدأ ذلك كله. حكى اللاوعي الجمعي لحضارات متعددة قصصًا كثيرة عن آلهة غاضبة، وعن آلهة تموت وأخرى تتجدد، وعن ربّات الخصوبة، وعن كيانات سماوية وشياطين وأرواح النار والأرض والماء.

بالطبع لم يكن اليونانيون الشعب الوحيد الذي غزل نسيجًا من الأساطير والحواديت من خيوط الوجود الملَغزة. بأخذ وجهات نظر علم الآثار Archaeology وعلم مستحاثات البشر Palaeoanthropology يمكن تتبع آلهة اليونان إلى آباء السماء وربّات القمر وشياطين الهلال الخصيب في بلاد ما بين النهرين، حيث العراق وسوريا وتركيا اليوم. كان للبابليين والسومريين والآكاديين وباقي الحضارات التي ازدهرت قبل اليونانيين، قصص خلق وحكايات وأساطير شعبية خاصة بهم، يمكن تتبع أسلافها - مثل لغاتهم التي حكوا بها - إلى الهند، ومنها غربًا إلى ما قبل التاريخ، إفريقيا، حيث مهد جنسنا البشري.

لكن لنحكي أيّ قصة، علينا أن نقصّ خيط السرد في مكان ما ليصبح نقطة بداية، ويَسهُل فعل ذلك مع الميثولوجيا اليونانية، فهي قد نجت بتفاصيل وثراء وحياة وألوان تميّزها عن غيرها من الأساطير، واقتنصها الشعراء الأوائل وحفظوها، ووصلت إلينا عبر سلسلة لم تنقطع تقريبًا منذ عُرفت الكتابة وحتى يومنا الحاضر. رغم أنّ هناك الكثير من العوامل المشتركة بين الأساطير الإغريقية ونظيرتها الصينية والإيرانية والهندية والإفريقية والروسية والعبرية والنوردية وعند المايا والأمريكان الأصليين، إلّا أنها تتفرد عنهم جميعًا - مثلما تقول الكاتبة وجامعة الأساطير إديث هاميلتون Edith Hamilton - بأنها «من إبداع شعراء عظام». كان اليونانيون أول من وضع سرديات محكمة، بل وحتى أدبية، لآلهتهم ووحوشهم وأبطالهم.

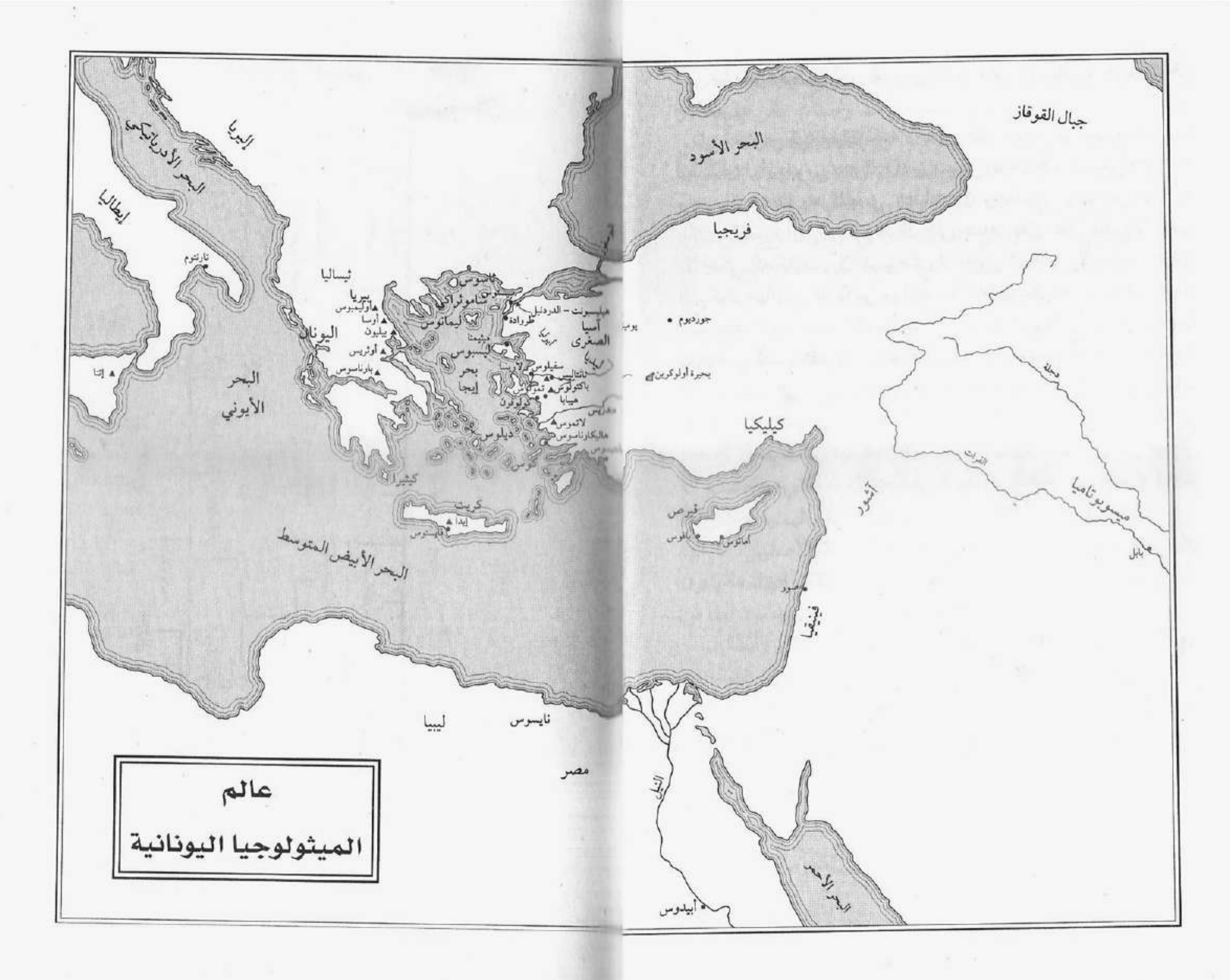
تتبعت الأساطير اليونانية نهضة الإنسان، وصراعنا لتحرير أنفسنا من تدخلات الآلهة من إساءاتهم وعبثهم وطغيانهم على الحياة البشرية والحضارة. لم يتذلل الإغريق أمام آلهتهم. كانوا مدركين لحاجتهم العبثية لأن يُعبدوا ويُبجّلوا، لكنهم كانوا واعين أنّ لهم أندادًا. أساطيرهم فهمت أنّ أيًا كان من خلق ذلك العالم المحيِر بكل قسوته وعجائبه وتقلبه وجماله وجنونه وظلمه، لا بد أنه هو نفسه كان قاسيًا عجيبًا متقلبًا جميلًا مجنونًا وظالمًا. خلق الإغريق آلهة على شاكلتهم: محاربين لكن مبدعين، حكماء

لكن شرسين، محبين لكن غيورين، ليّنين لكن متوحشين، رحيمين لكن منتقمين.

يبدأ ميثوس في البداية لكنه لا ينتهي عند النهاية. لو كنت ضمّنت فيه أبطالًا أمثال أوديبوس Oedipus وبيرسيوس Perseus وثيسيوس Theseus وجيسون Jason وهرقليطس Herakles، وتفاصيل حرب طروادة، كان الكتاب ليصبح أثقل من قدرة تيتان على حمله. علاوة على ذلك، لا يهمني إلا حكي الحكايات، لا تفسيرها، ولا تحري الحقائق الإنسانية والرؤى السيكولوجية التي قد تكمن وراءها. الأساطير، بكل تفاصيلها المزعجة، المفاجئة، الرومانسية، الكوميدية، التراجيدية، العنيفة، والساحرة، مذهلة بما يكفي لتُقدَّم كقصص مستقلة بذاتها. لو وجدت نفسك، بينما تقرأ، أنك لا تقدر على منع نفسك من التساؤل عمّا ألهم اليونانيين اختراع عالم شديد الثراء والدقة في الشخصيات والأحداث، ووجدت نفسك تتفكر في الحقائق العميقة التي تجسدها الأساطير... فهذا بلا شك جزء من المتعة.

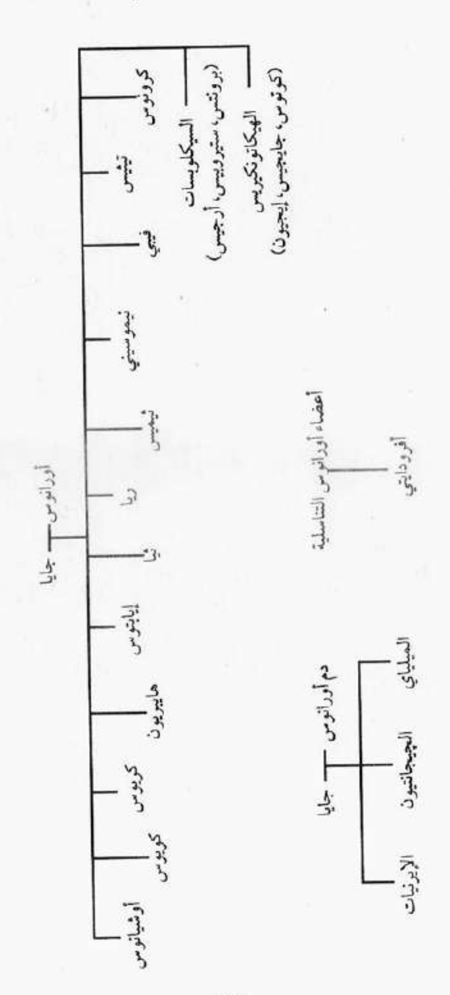
والمتعة، هي الغاية والنتيجة من الانغماس الكامل في عالم الأساطير الإغريقية.

ستيفن فراي

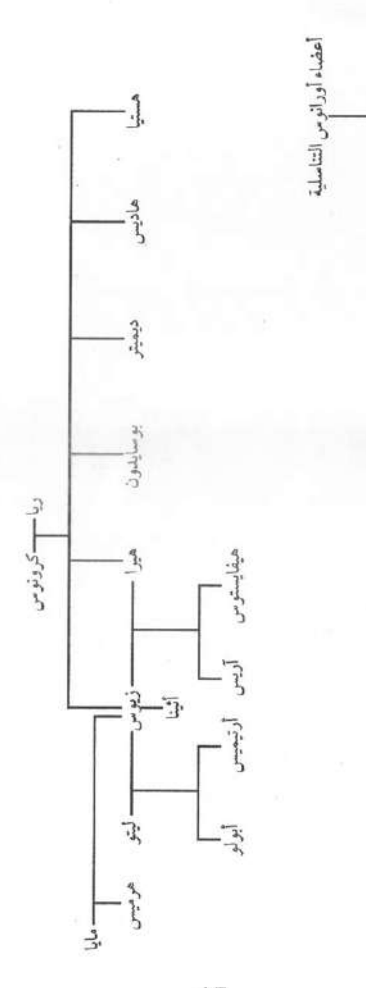


عالم
الميثولوجيا اليونانية
جبال القوقاز
البحر الأسود
فريجيا
إيطاليا
البحر الأيوني
اليونان
ثيساليا
آسيا الصغرى
كيليكيا
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
كريت
ليبيا
نايسوس
مصر
فينيقيا
ميسوبوتاميا
أشور
أبيدوس

النظام الثاني



الأوليمبيون



البداية

الجزء الأول

من الخواء

في أيامنا هذه يفسرون الكون بافتراض حدوث انفجار كبير. حدث وحيد جلب للوجود فور حدوثه كل المادة التي يتكون منها كل شخص وكل شيء.

اليونانيون القدامى كانت لديهم فكرة مختلفة، قالوا إن كل شيء بدأ ليس بانفجار، وإنما من الخواء

هل كان الخواء ربًا، كيانًا سماويًا؟ أم كان ببساطة حالة من اللاشيء؟ أو كان الخواء مثلما نستخدم كلمة chaos اليوم في الإنجليزية، حالة من الفوضى التامة مثل تلك التي تجدها في غرفة نوم مراهق، لكن أسوأ؟

تخيل الخواء وكأنه تثاؤبٌ كونيٌّ هائلٌ، مثل هوّة متثائبة أو خواء متثائب.

قد يكون الخواء قد جلب الحياة والمادة من الخواء، أو تثاءب الحياة من داخله، أو حلم بها، أو استحضرها بشكل أو بآخر، لا أعرف، فأنا لم أكن هناك، ولا أنت. ومع ذلك كنا جميعًا هناك في الوقت ذاته، لأن كل الذرات التي نتكون منها الآن كانت هناك. يكفي أن نقول إن الإغريق اعتقدوا أن الخواء، بتنهيدة عظيمة أو بهزة أكتاف هائلة أو بفواق أو بتقيؤ أو بسعال، بدأ سلسلة طويلة من الخلق وصلت إلى البط والبنسلين وعيش الغراب والضفادع وكلاب البحر والكلاب والبحر والبشر والورود والقتل والفن والحب والارتباك والموت والجنون والبسكويت.

أيما كانت الحقيقة، فالعلم اليوم موافق على أن مصير كل شيء العودة إلى الخواء. يُسمي هذا المصير الحتمي إنتروبي Entropy، وهو جزء من الدورة العظمى من الفوضى إلى النظام ثم إلى الفوضى مجددًا. بدأ وجود بنطالك كذرات عشوائية في مكان ما من الكون اندمجت في شكل مادي

نظّم نفسه على مدار دهور إلى مادة حية تطورت ببطء لتصبح نبات القطن الذي حاكوه ليصبح الشيء اللطيف الذي يغطي رجليك الجميلتين الآن. مع الوقت ستتخلى عن بنطالك - أتمنى ألا يكون ذلك الآن - وسيتعفن في مكب نفايات أو سيحترق، في كلتا الحالتين ستتحرر المادة التي تكونه لتصبح جزءًا من بيئة الكوكب. عندما تنفجر الشمس وتأخذ كل ذرات هذا العالم معها، بما فيها مكونات بنطالك، ستعود كل الذرات التي كانت تكونه إلى الفوضى الباردة. وما سيصير لبنطالك، سيصير مثله بالطبع لك.

إذًا فقد بدأ الخواء كل شي وسينهي الخواء أيضًا كل شيء.

والآن، قد تكون من الأشخاص الذين يسألون: «لكن من، أو ماذا، كان قبل الخواء؟»، أو «من، أو ماذا،كان قبل الانفجار الكبير؟ لا بد أنّه كان هناك شيء ما».

لم يكن هناك شيء. علينا أن نتقبل أنّه لم يكن هناك أيّ «قبل»، لأن الزمن لم يكن قد وُجد حينها بعد. لم يضغط أحد زر بداية الزمن، لم يصح أحدهم قائلًا: «الآن!». وبما أنّ الزمن لم يكن قد وُجد، فالكلمات مثل «قبل» و«خلال» و«عندما» و«ثم» و«بعد الغداء» و«الأربعاء السابق» لم يكن لها أي معنى. أعلم أن هذا يصيبك بالصداع، لكن هذا ما كان.

الكلمة اليونانية التي تعني «كل شيء موجود»، ما نسميه نحن «الكون»، هي كوزموس Cosmos. في تلك اللحظة - مع أنّ 'لحظة' هي كلمة زمنية واستخدامها الآن لا يعني شيئًا (ولا كلمة 'الآن' أيضًا) - الكوزموس هو الخواء ولا شيء غير الخواء، لأن الخواء هو الشيء الوحيد الموجود. يتمدد، يدوزن أوتاره...

لكن كل شيء على وشك التغير بسرعة شديدة.

النظام الأول

من الخواء عديم الشكل انبثق للوجود كائنان: إيربوس Erebus ونيكس Nyx. إيربوس كان الظلام ونيكس كانت الليل. تزاوجا على الفور وثمرة اتحادهما المشرقة كانت هِميرا Hemera، اليوم، وإيثر Aether، النور.

وفي الآن ذاته - لأن كل شيء يجب أن يحدث على التوازي حتى يصير هناك زمنٌ يفصل بين الأحداث - جلب كي - أوس كيانين أخرين: جايا Gaia، الأرض، وتارتاروس Tartarus، الأعماق والكهوف تحت الأرض.

أستطيع تخمين ما قد يدور في عقلك. هذه الكيانات تبدو رائعة، اليوم والليل والنور والأعماق والكهوف، لكنها ليست أربابًا وربّات، بل هي حتى ليست شخصيات. بل ربما تخامرك أيضًا فكرة أنه مادام لا يوجد زمن، فلا يمكن أن تكون هناك سرديات درامية ولا قصص، فالقصص تعتمد على (كان يا مكان) و(ما حدث بعد ذلك).

أنت محق في هذا التفكير. أول ما انبثق من الخواء كان مبادئ عنصرية بدئية تفتقر إلى الألوان والشخصيات والاهتمامات الحقيقية، كيانات أولية، الجيل الأول من الكيانات الإلهية الذي منه سيأتي كل آلهة وأبطال ووحوش الأساطير اليونانية. امتدوا فوق كل شيء وتمددوا أسفله... وانتظروا.

خواء ذلك العالم الساكن امتلأ عندما وضعت جايا ابنين منها وحدها[1]. أول الابنين كان بونتوس Pontus، البحر، والثاني كان أورانوس Ouranos، أو كما يُشاع تسميته يورينوس يورانوس؟ Uranus، بالنطق الذي لم يفشل قط في إضحاك الأطفال من سن تسعة لتسعين[1]. تكاثر هِميرا وإيثر أيضًا، وحصيلة جماعهما كانت ثالاسا Thalassa، المقابل الأنثوي لبونتوس البحر.

---

(1) سبب الضحك هنا، أن نطق Uranus يقترب من نطق جملة your anus. [المترجم]

أورانوس، الذي يفضل أن يُنطق اسمه أوورانووسس، كان السماء وما فوقها، مثلما كانت كل الكيانات الأولية في البداية المبكرة الشيء الذي تمثله وتحكمه في الوقت ذاته[2]. يمكنك القول إن جايا كانت الأرض والتلال والوديان والكهوف والوهاد، ومع ذلك كانت قادرة على جمع نفسها في هيئة بوسعك أن تمشي وتتحدث معها، فوقها امتدت سماء أورانوس وغيومه، لكنها أيضًا كانت قادرة على الاتحاد في شكل بوسعك تمييزه. كان الوقت مبكرًا جدًا في حياة كل شيء، ولم يستقر بعد إلا أقل القليل.

النظام الثاني

أورانوس السماء غطى أمه جايا الأرض في كل مكان؛ غطاها بكلا المعنيين: غطاها كما تغطي السماء الأرض حتى يومنا هذا، وغطاها كما يغطي الفحل الفرس. وعندما فعل ذلك، حدث شيء عظيم: بدأ الزمن.

شيء آخر بدأ أيضًا... ماذا يسعنا تسميته؟ الشخصية؟ الدراما؟ النفس بكل نواقصها وعيوبها، ونزواتها ورغباتها، ودسائسها وأحلامها؟ يمكنك أن تقول بدأ **المعنى**. تخصيب جايا منحنا المعنى، إنبات الشكل من الفكرة.هو علم المعاني والرموز والسيميائيات من منيّ السماء. سأترك مثل هذه التكهنات لمن هم مؤهلون أفضل مني، لكنها كانت بلا جدال لحظة عظيمة. بخلق أورانوس، ابنها الذي صار زوجها واجتماعها به، فكت جايا زمام الحياة التي تجري عبر التاريخ البشري كله وصولًا لكل نفس، بما فيها نفسي ونفسك.

منذ البداية، كان اتحاد أورانوس وجايا مثمرًا لدرجة مرضية، نتج عنه أولًا اثنا عشر طفلًا سليمًا معافًى، ستة ذكور وست إناث. الذكور كانوا أوشيانوس Oceanus وكويوس Coeus وكريوس Crius وهايبريون Hyperion وإيابتوس Iapetus وكرونوس Kronos. والإناث هن ثيا Theia وثيميس Themis ونيموسيني Mnemosyne وفيبي Phoebe وتيثيس Tethys وريا Rhea. كان مصير هؤلاء الاثني عشر طفلًا أن يصبحوا **النظام الثاني** من الكيانات المقدسة، مستحقين بذلك سمعة أسطورية.

وبينما يخطو الزمان أول خطواته، بدأت الساعة تدقّ، ساعة التاريخ الكوني التي لا تزال تدق حتى اليوم، ربما كان أحد حديثي الولادة هؤلاء هو المسؤول عن ذلك، بوسعنا التحرّي عن ذلك لاحقًا.

لم يقنع أورانوس وجايا بالأشقاء والشقيقات الاثني عشر، فمنحا العالم مزيدًا من الذريّة: مجموعتين مختلفتين لكن بلا شك غير جميلتين من التوائم الثلاثية. أولهم كان السيكلوبسات Cyclopes الثلاثة، وهم ثلاثة عمالقة لكل منهم عين واحدة، وجودهم منح أباهم السماء مدى جديد واسع من أساليب التعابير والتشكيلات. أكبر السيكلوبسات كان يُدعى برونتس Brontes، الرعد[3]، الثاني كان ستيروبيس Steropes، البرق، والثالث هو أرجيس Arges، السطوع. بات بوسع أورانوس ملء السماوات بالبرق الساطع وهزيم الرعد، فتمجَد وسط الجلبة واللمعان. بيد أن مجموعة التوائم الثلاثية الأخرى التي وضعتها منه جايا أصابته وأصابت كل من رآهم برعدة أشد.

ربما من الألطف أن نقول إنهم كانوا طفرة تجريبية لن تتكرر، طريق جيني مسدود، فقد كان لكل من هؤلاء المواليد الجدد، الهيكاتونكيريس Hecatoncheires[4]، خمسون رأسًا ومئة يد، وكانوا أبشع وأشرس وأعنف وأقوى من أي شيء عرفه الوجود قبلهم. أسماؤهم كانت كوتوس Cottus، الغاضب، وجايجيس Gyges، طويل الأطراف، وإيجيون Aegaeon، ماعز البحر. أحبتهم جايا، واشمأز منهم أورانوس. ربما كان أكثر ما روّعه فكرة أنه هو، رب السماء، يمكن أن تُولد منه أشياء بهذه القباحة، لكن أعتقد أن كراهيته كانت، كأغلب الكراهية، متجذرة في الخوف.

بقرف شديد، لعنهم: «عقابًا لكم على إهانة عينيّ، لن تروا النور مرة أخرى!». وبينما كان يزأر بتلك الكلمات الساخطة، دفعهم مع السيكلوبسات إلى رحم جايا مرة أخرى.

انتقام جايا

لدينا سبب وجيه لنتساءل هنا عمّا يعني بالضبط «دفعهم إلى رحم جايا». يرى بعض الناس أن هذا يشير إلى أنه دفن الهيكاتونكيريس في الأرض. الهوية الإلهية في تلك الأزمنة المبكرة كانت مائعة. يصعب تحديد إلى

أي مدى كان الرب شخصًا وإلى أي مدى كان سمةً. جايا الأم، كانت في الوقت ذاته الأرض ذاتها، وأورانوس الأب، كان والسماء شيئًا واحدًا.

المؤكد هنا أنه بِرَد فعله هذا على أبنائه الهيكاتونكيريس الثلاثة، وبمعاملته لزوجته بهذه القسوة البغيضة، كان أورانوس يرتكب أول الجرائم؛ جريمة أولية لن تمضي بلا عقاب.

عصفت بداخل جايا آلام لا تُحتمل، فبالإضافة إلى تلوي وتخبط ثلاثمئة يد مخلبية ومئة وخمسين رأسًا ناطحة للهيكاتونكيريس، تولدت بداخلها الكراهية، كراهية حقودة مُريعةموجَّهة إلى أورانوس، الابن الذي حملت، والزوج الذي منه وضعت جيلًا جديدًا. مثل لبلاب يزحف متسلقًا شجرة، ترعرت نبتة الانتقام.

بينما لا تزال تعاني من آلام نهش الهيكاتونكيريس الحادة، زارت جايا أوثريس Othrys، وهو جبل هائل يطل على ما ندعوها الآن مقاطعة فثيوتيس Phthiotis في وسط اليونان. تستطيع أن ترى من قمته سهل ماجنيسيا Magnesia يمتد حتى غرب مياه بحر إيجة Aegean sea ويحتضن جزر سبورادیس Sporades المتناثرة هناك، لكن غضب جايا العارم وألمها الجارف منعاها من الاستمتاع بواحد من أجمل مشاهد العالم. على قمة جبل أوثريس جلست لتصنع من صخوره أداة هي الأكثر غرابة وإثارة للخوف، لتسعة أيام وتسع ليالٍ عملت حتى أنتجت شيئًا، وخبأته في صدع الجبل.

ثم أخذت نفسها وذهبت لتزور أبناءها الاثني عشر الحلوين الأقوياء.

سألتهم واحدًا تلو الآخر: «هلّا قتلت أباك أورانوس وحكمت العالم معي؟ سترث منه السماء، ومعًا سنسود فوق الخلق كلهم».

ربما نتخيل جايا الأم الأرض رؤوم حنون كريمة عطوفة، هي كذلك أحيانًا، لكن تذكر أنّ في داخلها تضطرم نارٌ أحيانًا ما تكون أقسى وأعنف وأكثر تخويفًا من أجمح البحار.

وعلى ذكر البحار، أول أبناء جايا الذين حاولت استمالتهم لصفها،

كانا أوشيانوس وشقيقته تيثيس[5]، لكنهما كانا يتفاوضان على جزء من المحيطات مع ثالاسا، ربة البحر الأولية. كل أبناء هذا الجيل كانوا يشدون عضلاتهم ويستعرضونها في ذلك الوقت، يرسّخون لنطاقات حكمهم وخبراتهم، يخدشون ويعضّون ويهدرون ويختبرون قوى ومساحات بعضهم، مثل جراء في سلة. أوشيانوس كان قد جاء بفكرة خلق المد والجزر والتيارات، التي ستجري في العالم كله مثل أنهار من الملح، وتيثيس كانت على وشك أن تضع طفله. في هذه الأيام المبكرة لم يكن هذا ذنبًا، فالتكاثر كان سيصبح مستحيلًا من دون جماع المحارم. كانت تيثيس حاملًا في نيلوس Nilus، نهر النيل، وستتابع لاحقًا ولادة أنهارٍ أخرى وما لا يقل عن ثلاثة آلاف أوشيانية Oceanid أو نيمف بحر Sea Nymph [حوريات البحر]، وهي كائنات جذابة تتحرك على اليابسة بسهولة حركتها في مياه البحر. كان لديهما بالفعل ابنتان ناضجتان: كلايميني Clymene، التي كانت حبيبة إيابتوس، والماهرة الحصيفة متيس Metis، التي ستلعب، عندما يحين الوقت، دورًا مهمًا في ما سيحدث لاحقًا[6]. كان الزوجان سعيدين ومتشوقين للحياة على موجات المحيط، لذا لم يكن لدى أيّ منهما سببًا يدعوه للمساعدة في قتل أبيهما أورانوس.

بعد ذلك ذهبت جايا لزيارة ابنتها نيموسيني، ذات الاسم غير القابل للنطق. بدت كائنًا في غاية الضحالة والسخافة والغرور، لا يعلم شيئًا ولن يفهم شيئًا. لكن مظهر نيموسيني كان مخادعًا، فهي تزداد ذكاءً بمرور الأيام، وتزداد معرفة ومهارة أيضًا. اسمها يعني «الذاكرة»، ومنه حصلنا على كلمة mnemonic [استذكار، أو ما يتعلق بالذاكرة]. كان العالم والكوزموس لا يزالان صغيرين جدًا وقت زيارة أم نيموسيني لها، لذا لم تكن قد حظِيَت بعد بفرصة لتعزيز نفسها بالمعرفة أو الخبرة. كما أن قدرتها اللانهائية على تخزين المعلومات والخبرات الحسّية بمرور السنين، ستجعلها أحكم من كل ما عداها تقريبًا. ذات يوم ستصبح أمًا لتسعة بنات، الميوزات The Muses، اللواتي سنقابلهنّ لاحقًا.

«أتريدينني أن أساعدك في قتل أورانوس؟ السماء الأب لا يمكن أن يموت بالطبع!».

«إذن لنخلعه عن عرشه أو لنعيقه نهائيًا... ليس هذا أكثر مما يستحق».

«لن أساعدك».

«لماذا؟».

«هناك سبب، عندما أعرفه سأتذكره وسأخبرك به».

ذهبت جايا بعدها باستياء إلى ثيا، التي كانت أيضًا مقترنة بأحد أشقائها، أخيها هايبريون. عندما يحين الوقت سينجبان هيليوس Helios، الشمس، وسيليني Selene، القمر، وإيوس Eos، الفجر، وهي مهام أسَرية كافية لانشغالهم، فصرف كلاهما النظر أيضًا عن خُطط جايا لإسقاط أورانوس.

يائسة من ذريتها الباهتة الخاضعة التي ترفض أن تضطلع بما حسبته جايا مصيرهم الإلهي، ناهيك عن ذكر اشمئزازها من أنهم بدوا مروَّضين ركنوا إلى الحياة الأسرية. جربت جايا حظها مع فيبي، التي هي ربما أذكى وأحصف الاثني عشر طفلًا. أظهرت فيبي المشرقة من صغرها أنها مُنيت بهبة التنبؤ.

قالت فيبي عندما سمعت خطة جايا: «لا يا أمي الأرض، لا أقدر على الاشتراك في مثل هذه المَكيدة، لا أرى من ورائها خيرًا. بالإضافة إلى أنني حامل...».

قالت جايا بحدة: «تبًا لكِ... مِن مَن؟ أراهن أنه كويوس».

كانت محقة، فكويوس شقيق فيبي كان بالفعل قرينها. اندفعت جايا بغضب متجدد إلى من تبقى من ذريتها. بالتأكيد لدى أحدهم على الأقل قلبُ مقاتل؟

راحت لثيميس، التي ستُعَدُّ ذات يوم في كل مكان تجسيدًا للعدالة والمشورة الحكيمة[7]. أشارت ثيميس على أمها بحكمة أن تعزف عن فكرة تدمير أورانوس. استمعت لها جايا بعناية، ومثلما نفعل جميعًا سواء كنا خالدين أو فانين، تجاهلتها واختارت عوضًا عن ذلك أن تختبر عزيمة ابنها كريوس الذي اتخذ من يوريبيا Eurybia، ابنتها من بونتوس، رفيقة.

حدق كريوس في أمه غير مصدّق، «أقتل أبي؟ لكن كيف؟... أعني... لماذا؟... أعني... أوه».

سألتها يوريبيا التي تُعرف بـ(ذات القلب الصوّان): «ما مصلحتنا في هذا يا أمي؟».

أجابتها جايا: «لا شيء غير العالم وكل ما فيه».

«لنتشاركه معك؟».

«لتتشاركوه معي».

قال كريوس: «لا، ارحلي يا أمي».

قالت يوريبيا: «يستحق هذا التفكير».

قال كريوس: «بل هو في غاية الخطورة، أرفضه تمامًا».

استدارت جايا مزمجرة، وسعت إلى ابنها إيابتوس.

«إيابتوس، ابني الحبيب. دمِّر أورانوس الوحش واحكم الكون معي».

الأوشيانية كلايميني، التي أنجبت لإيابتوس ابنين وكانت حبلى بالثالث، تقدمت إلى الأمام. «أيّ أم تلك التي تطلب مثل ذلك؟ إن قتل ابن لأبيه سيكون من أشنع الجرائم، الكوزموس بأكمله سيبكي حدوثه».

قال إيابتوس: «أنا مضطر للموافقة على ما تقول كلايميني يا أمي».

قالت جايا وهي تبصق: «إني لألعنك، وألعن أبناءك».

لعنة الأم شيء مريع. وسنرى لاحقًا كيف ستكون نهاية أبناء إيابتوس وكلايميني: أطلس Atlas وإبيميثيوس Epimetheus وبروميثيوس Prometheus.

ريا، الابنة الحادية عشرة التي تسألها جايا المشاركة، قالت إنها لن تشارك في الخطة، لكنها - وبينما ترفع يديها لتوقف عاصفة الإساءات التي شرعت أمها في إطلاقها - أشارت إلى أن شقيقها كرونوس، آخر الأبناء الأقوياء الحلوين، الذي ربما سيحب فكرة إسقاط أبيه، فقد سمعته ريا مرات عديدة يلعن أورانوس وسلطته.

صاحت جايا: «حقًا؟ أصحيح ما تقولين؟ أين هو إذًا؟».

«هو على الأرجح يتسكع في كهوف تارتاروس، هو وتارتاروس ينسجمان معًا، كلاهما قاتم المزاج ومتقلب وعظيم وقاس».

«يا ربي! لا تقولي لي إنك تحبين كرونوس...».

«اذكريني عنده بالخير يا ماما أرجوك! كم هو حالم بعينيه السوداوين اللامعتين، وحاجبيه المدوّيتين، وفترات صمته الطويلة».

اعتقدت جايا دومًا أن فترات صمت ابنها الأصغر الطويلة لم تشر إلى شيء يتجاوز بَلادة الفكر، لكنها امتنعت عن قول ذلك. بعد أن طمأنت جايا ريا أنها بلا شك سترشّحها بإخلاص لكرونوس، أسرعت هابطة إلى أعمق أعماق كهوف تارتاروس بحثًا عنه.

لو ألقيتَ كتلة برونز من السماء ستستغرق تسعة أيام لتبلغ الأرض، ولو ألقيتَها من الأرض ستستغرق تسعة أيام أخرى لتبلغ تارتاروس، أي إن الأرض في منتصف الطريق بين السماء وتارتاروس، أو يمكنك أن تقول إن تارتاروس يبعد عن سطح الأرض بقدر ما تبعد الأرض عن السماء، إذن فتارتاروس مكان سحيق جدًا، لكنه أكثر من مجرد مكان، تذكّر أنه كائن أوليّ أيضًا، وُلد من الخواء في الوقت نفسه الذي وُلدت فيه جايا، لذا عندما اقتربَت منه، حيّاها مثلما يُحيّي أفراد الأسرة بعضهم.

« زاد وزنك يا جايا».

«تبدو في أسوأ حال يا تارتاروس».

«ما الذي جاء بكِ إلى هنا بحق الجحيم؟».

«اخرس ولو لمرة وسأخبرك...».

هذه المعاملة النزقة لن تمنعهما من الالتقاء في المستقبل وإنجاب تايفون Typhon، أسوأ الوحوش وأخطرها على الإطلاق[8]، لكن جايا الآن ليست في المزاج المناسب للحب أو لتبادل الإهانات.

«اسمع، هل ابني كرونوس قريب من هنا؟».

صدر من شقيقها أنين منزعج.

«على الأرجح. أتمنى لو تخبريه أن يتركني لحالي، فهو لا يفعل شيئًا

طوال اليوم إلا التلكّؤ في الأنحاء والتحديق بي بأعين رخوة وفاه مفتوح، أعتقد أنه مُعجب بي. إنه يقلد تسريحة شعري ويستند بوهن إلى الشجر والصخور، ويبدو بائسًا، يائسًا، يصعب فهمه، وكأنه ينتظر أن يرسمه أحدهم أو شيء من هذا القبيل. عندما لا يحدق بي يحدق بحفرة اللاقا هناك، في الواقع هو هناك الآن، انظري... حاولي أن تعقّليه بكلامك».

اقتربت جايا من ابنها.

المنجل

لم يكن كرونوس الشاب المتألم، الواهن، والأقرب للإيمو الذي ربما نتخيله من وصف ريا وتارتاروس له، فقد كان الأقوى من جنسه، قوّته لا يمكن تخيّلها. كان وسيمًا وسامة مظلمة، ونعم كان متقلب المزاج. لو كانت لدى كرونوس الأمثلة ليقارن بها نفسه، كان سيتماهى على الأرجح مع هاملت Hamlet في استبطانه، أو جاكويس Jaques في الانغماس بلا نهاية في الاكتئاب، أو كونستانتين Konstantin من النورس مع لمسة من موريسي Morrissey، ومع ذلك، فيه بعض من ماكبث Macbeth أيضًا، وشيء غير قليل من هانيبال ليكتر Hannibal Lecter مثلما سنرى[1].

كرونوس كان أول من اكتشف أن الصمت المتأمل غالبًا ما يُفهم على أنه علامة على القوة والحكمة والسلطة. كره أصغر إخوته أباه من البداية، وتحول حقده وغِلّه واحتقاره إلى سمّ ينهش في قواه العقلية، لكنه تمكن من إخفاء شدة كراهيته عن الجميع عدا شقيقته التي تعشقه ريا، والتي كانت الوحيدة من أسرته التي شعر معها براحة كافية لإظهار حقيقة نفسه.

(1) هاملت وماكبث أبطال مسرحيات لوليام شكسبير تحمل أسماءهم، جاكويس على الأرجح من مسرحية شكسبير (كما تشاء As you like it)، وكونستانتين من أبطال مسرحية النورس لأنطون تشيخوف، موريسي قد يكون المقصود به المغني وكاتب الأغاني الإنجليزي ومؤسس فرقة The Smiths، أما هانيبال ليكتر فهو شخصية خيالية من ابتكار المؤلف توماس هاريس، ظهرت في عدة روايات وأفلام ومسلسلات رائجة، وهو قاتل وآكل لحوم البشر. [المترجم]

بينما كانا يصعدان من تارتاروس، صبت جايا مزيدًا من السم في الأذن المتعطشة له.

«تعال يا بني، تعال. أورانوس قاسٍ ومجنون، أخشى منه على نفسه، وأخشى عليكم جميعًا يا أبنائي الأحباء».

كانت تقوده إلى جبل أوثريس. أتَذكُر الأداة المريعة التي أخبرتك أنها صنعتها وخبأتها في صدع الجبل قبل أن تزور أبناءها؟ أخذت جايا كرونوس إلى هذا المكان، وعرضت عليه ما صنعت.

«التقطها، هيا».

التمعت عينا كرونوس السوداوان بينما تستوعبان شكل ومعنى ذلك الشيء الغريب.

كان منجلًا. مِحَشّ هائل، صُنع نصله العظيم الملتوي من الأدامانتين adamantine، الذي يعني «غير القابل للترويض»، وقبضته من مزيج هائل من الصوّان الرمادي والجرانيت والماس والأفيوليت. شُحِّذ النصل الهلالي حتى صارت له أحَدّ الحواف، حادّة لدرجة تمكنّه من قطع أي شيء.

انتزع كرونوس المنجل من مكمنه بالسهولة التي نلتقط بها أنا وأنت قلمًا، وبعدما شعر بتوازنه وثقله في يده، طوَّحه مرة، ومرة ثانية. الصوت القوي لقطع النصل الهواء جعل جايا تبتسم.

قالت: «بني، كرونوس، علينا أن نترقب حتى يغطس إيثر وهميرا في مياه الغرب ويتجهّز إيربوس ونيكس لنشر الظلام على...».

قال كرونوس بنفاد صبر وانعدام لأيّ أثر للشاعرية ورهافة المشاعر: «تقصدين أن ننتظر حتى المساء».

«نعم، حتى الغسق، حينما يفضّل أبوك أن يأتيني مثلما يفعل دومًا. يحب أن...».

أومأ كرونوس باقتضاب. لم يرغب في سماع تفاصيل جماع والديه.

«اختبئ هنا، في الصدع نفسه الذي خبأتُ فيه المنجل. وعندما تسمعه يغطيني، ويعلو زئير عشقه وزمجرة رغبته... اضرب».

الليل والنهار، النور والظلام

مثلما توقعَت جايا، تعب إيثر وهميرا بعد اثنتي عشرة ساعة من اللعب، وشيئًا فشيئًا استسلما للوقوع في البحر غربًا، وفي الوقت ذاته أخرجت نيكس عباءة العتمة وغطى إيربوس بها العالم، مثل مفرشٍ مائدة أسود لامع.

بينما انتظر كرونوس في الصدع والمنجل في يده، حبست الخليقة كلها أنفاسها. أقول «الخليقة كلها» لأن أورانوس وجايا لم يكونا الوحيدين اللذان تكاثرا، فثمة آخرون توالدوا وتكاثروا أيضًا. إيربوس ونيكس كانا الأكثر انتاجًا بفارق كبير، أنجبا أطفالًا كثر، بعضهم شنيع، وبعضهم رائع، وبعضهم جميل، رأينا بالفعل كيف أنجبا هميرا وإيثر. لكن نيكس من دون مساعدة إيربوس أنجبت موروس Moros، الهلاك، الذي سيصبح أكثر الكائنات إثارة للرعب بين الخلق كلهم. يأتي الهلاك للكائنات كلها، خالدة أو فانية، لكنه خفيٌّ على الدوام. حتى الخالدون كانوا يرهبون الهلاك كليّ القدرة، كليّ المعرفة وكليّ الهيمنة على الكوزموس.

بعد موروس جاءت على عجل سلسلة طويلة من الذريّة، واحدًا تلو الآخر، مثل غزو جيش وحشيّ. أولًا جاءت أباتي Apate، الخِداع، سمّاها الرومانيون فروس Fraus، ومنها اشتققنا كلمات fraud [احتيال] وfraudulent [محتال] وfraudster [نَصّاب]. انتقلت أباتي إلى كريت حيث ستقضي وقتها. ثم بعدها جاء جيراس Geras، الشيخوخة، في حين قد ينتزع جيراس الرشاقة والصغر والخفة، عوض جيراس الإغريق عنهم بمنحهم المهابة والحكمة والسلطة. اسم جيراس عند الرومان سينيكتوس Senectus، وهي كلمة تشترك في الجذر مع Senior [أقدم/ أكبر/ أعلى مقامًا] وSenate [سيناتور/ عضو مجلس الشيوخ] وSenile [خرِفٌ].

بعد ذلك جاء توأمان تقشعر لهما الأبدان: أويزيس Oizys (أو ميزيريا Miseria باللاتينية)، وهي روح البؤس Misery والاكتئاب والهلع، وشقيقها القاسي مومس Momos، وهو تجسيد الاستهزاء والتوبيخ واللوم[9].

نيكس وإيربوس كانا لا يزالان في أول انتاجهما فقط، طفلتهما التالية إيريس Eris (ديسكورديا Discordia)، النزاع، وهي المسؤولة عن كل خلاف وطلاق وشجار ومشادّة ومعركة وحرب، وكانت هديتها الخبيثة: تفاحة الشِقاق الشهيرة، هي سبب بدء حرب طروادة، وإن كانت تلك الحرب الملحمية لا تزال تكمن في مستقبل بعيد بعيد عن الآن. أخت إيريس هي نيمسيس Nemesis، القصاص، مجسدًا الذراع المنتقم للعدالة الكونية التي تعاقب بلا رحمة التكبر والطموح المتجاوز حَدّه، وهي الخطيئة التي يسمّيها الإغريق هوبرس Hubris. ثمة عناصر مشتركة بين نيمسيس وفكرة الكارما Karma الشرقية، ونستخدمها اليوم للإشارة إلى العاقبة المصيرية التي سيلاقيها المتغطرس والشرير حتمًا وستقضي عليه. أعتقد أن بوسعنا قول إن شيرلوك هولمز هو نيمسيس بالنسبة لموريارتي، وجيمس بوند كذلك بالنسبة لبلوفيلد، وجيري بالنسبة لتوم[10].

أنجب إيربوس ونيكس أيضًا كارون Charon، الذي ستنتشر سمعته السيئة ما إن يتسلم مهامه كمراكبي الموتى، وأنجبا أيضًا هيبنوس Hypnos، تجسيد النوم، وكانا كذلك سلفي الأونيروي The Oneroi، وهم آلاف الكائنات المسؤولة عن صنع الأحلام وتوصيلها للنائمين. نعرف من بين الأونيروي: فوبيتور Phobetor، إله الكوابيس، وفانتاسوس Phantasos، المسؤول عن الأحلام الفانتازية التي تتحول فيها الأشياء إلى أخرى. عمِل الأونيروي تحت إشراف مورفيوس Morpheus ابن هيبنوس، الذي يقترح اسمه نفسه فِعل التحول Morphing والتبدّل الذي يتسم به عالم الأحلام[11]. كلمات مثل مورفين Morphine وفانتازيا Fantasy ومنوِّم Hypnotic وتفسير الأحلام Oneiromancy وغيرها الكثير من الكلمات المنحدرة من النوم اليوناني، نجت ووجدت طريقها للغتنا المعاصرة. شقيق النوم ثاناتوس Thanatos، الموت نفسه، منحنا كلمة euthanasia [الموت الرحيم]. سمّاه الرومان مورس Mors، ومنه جاءت mortals [الفانون] وmortuaries [أماكن حفظ جثث الموتى] وmortification [الإهانة العميقة / الإماتة / تهذيب النفس بإماتة الشهوات].

هذه الكائنات الجديدة كانت مرعبة وكريهة إلى أقصى حد، وتركت على الخليقة أثارًا مريعة لكن ضرورية، فقد بدا أن العالم لن يقدّم أبدًا أي شيء ذي قيمة دون أن يقدّم معه نقيضه المريع.

غير أنّه كانت هناك ثلاثة[12] استثناءات طيبة، ثلاث شقيقات جميلات: الهسبيريديس Hesperides، نيمفات الغرب وبنات الليل، هنّ من يبشّرنَ بالقدوم اليومي لوالديهما، لكن من خلال غسق ذهبي بدلًا من دهمة الليل المباغتة. وقت الهسبيريديس هو ما يسميه اليوم المصورون السينمائيون والفوتوغرافيون بالساعة الذهبية، عندما تكون الشمس في قمة سحرها وجمالها.

هؤلاء إذًا كانوا ذرية نيكس وإيربوس، اللذين يغلفان الأرض الآن بظلمة الليل بينما تستلقي جايا في انتظار قدوم زوجها لآخر مرة بقدر ما تتمنى، وكرونوس يتلكأ في ظلال شق جبل أوثريس، بقبضة حازمة ملتفّة على المنجل العظيم.

خَصْي أورانوس

أخيرًا سمع جايا وأورانوس وقع خطوات وارتجافًا هائلًا من جهة الغرب، ارتعشت أوراق الشجر على فروعها، أما كرونوس الواقف صامتًا في مكمنه، فلم يهتزّ... كان جاهزًا.

هدر أورانوس بينما يقترب: «جايا، جهزي نفسك، سننتج الليلة شيئًا أفضل من المتحوّرين ذوي المئة يد والمسوخ ذوي العين الواحدة...».

قالت جايا: «تعال إليّ يا زوجي السماوي»، فكّر كرونوس أن لهجتها تبدي لهفة مقنعة لدرجة تثير القرف.

الصوت المريع للكيان السماوي ينخر ويقبع ويصفع جعل كرونوس يظن أن والده يحاول نوعًا من المداعبة المسبقة للّقاء.

تنفّس كرونوس بعمق خمس مرات في تجويفه. لم يحاول ولو لثانية أن يفكر في المعنى الأخلاقي لما هو على وشك أن يرتكب، تفكيره اقتصر

على توقيت وتكتيك الهجوم. رفع منجله بشهيق عميق وخرج بخفة من حيث يختبئ.

أورانوس، بعدما كان يتجهز لاعتلاء جايا، قفز على قدميه مطلقًا زمجرة متفاجئة. كرونوس، بينما يمشي بهدوء ناحيته، رفع منجله للخلف ثم طوّحه إلى الأمام في قوس هائل. النصل، بعدما هسّ وهو يقطع الهواء، بتر أعضاء أورانوس الجنسية عن جسده.

الكوزموس كله كان بوسعه سماع صرخة أورانوس المتألمة الملتاعة الغاضبة، لم يسبق في تاريخ الخلق أن تردد صوت بهذا العلو أو بهذه اللوعة، كل الكائنات الحية سمعته وخافت.

قفز كرونوس إلى الأمام بصيحة انتصار فاحشة، والتقط جائزته قبل أن تقع وتبلغ الأرض.

وقع أورانوس متلويًا في وجع كونيّ مبرح، وصرخ بهذه الكلمات:

«كرونوس، يا أرذل ذريتي وأرذل الخليقة، يا أسوأ الكائنات، يا أبشع من السيكلوبسات القبيحة والهيكاتونكيريس البغيضة، بهذه الكلمات ألعنك... ليدمرنّك أبناؤك مثلما دمرتني».

نظر كرونوس إلى أورانوس في الأسفل، لم تُظهر عيناه السود شيئًا، لكن ارتسمت على فمه ابتسامة قاتمة.

«ليس لديك قوة تلعن بها يا بابا، قوتك بين يدي».

هزّ أمام عينيّ أبيه غنيمة انتصاره الفظيعة، المتفجرة الموحلة بالدماء، والمقطِّرة الزلِقَة بالمني. شدّ كرونوس ذراعه خلف ظهره ضاحكًا ثم ألقى بحزمة الأعضاء بعيدًا عن مجال الرؤية، وطارت فوق سهول اليونان واختفت في البحر المعتِم.

تابع ثلاثتهم أعضاء أورانوس الخلّاقة تختفي عبر الماء.

اندهش كرونوس عندما استدار لأمه ووجدها قد غطّت فمها فيما بدا له وكأنه رعب، وتقطرت من عينيها الدموع.

هزّ كرونوس كتفيه.

الإيرنيات والچيجانتيون والميلياي

في تلك الأزمنة تميّز الخلق بخصوبة مذهلة، خاصة وهو تحت رعاية كيانات أولية يبدو أن طاقتها الكاملة كانت موجَّهة نحو التكاثر. التربة كانت مباركة بخصوبة وثراء لدرجة أن الواحد يكاد يصدّق أنك لو زرعت فيها قلم رصاص ستطرح الورود. حيثما يقع الدم الإلهي، لا تملك الحياة إلا أن تنبثق من الأرض.

هكذا، لا يهمّ كم كان أورانوس قاتلًا قاسيًا مدمرًا، فقد كان في النهاية حاكم الكون كله، لذا كان يُعدّ تشويه ابنه له وإخصاءه أبشع جريمة في حق الكون.

ربما لهذا لم يكن ما حدث بعد ذلك مدهشًا للغاية.

أحواض عظيمة من الدماء تكوّنت حول مشهد إخصاء أورانوس. من هذا الدم المُراق من حيث كانت أعضاء أورانوس التناسلية، انبثقت كائنات حية.

أول من دفعنَ بأنفسهن خارج الأرض المرتوية كنّ الإيرنيات Erinyes، اللائي نُطلق عليهن الفيوريات Furies: ألكتو Alecto (عديمة الشفقة)، وميجيرا Megaera (الغضب الغيور)، وتيسيفوني Tisiphone (الانتقام). ربما كانت غريزة أورانوس اللاواعية هي ما سببت خلق مثل هذه الكائنات المنتقمة، التي باتت مسؤوليتها الأبدية، منذ لحظة ولادتها/ خروجها من الأرض، معاقبة الجرائم العنيفة: مطاردة الجناة بلا هوادة إلا عندما يدفع المذنب الثمن الكامل المريع. تسلخ الفيوريات اللحم من على عظام الجناة بأسواطهن المعدنية القاسية. اليونانيون بسخريتهم المعهودة أطلقوا على تلكم المنتقمات: (الطيبات).

بعدهنّ خرج من التربة المخصّبة الچيجانتيون The Gigantes. منهم ورثنا كلمات Giant [عملاق] وgiga [جيجا] وgigantic [عملاقي]، لكن رغم أنه كانت لهم بلا شك قوى عظيمة، لم يكونوا أقوى ولا أكبر في الهيئة من إخوتهم وأخواتهم[13].

وأخيرًا، في تلك اللحظة من الخراب والدمار، خُلقت أيضًا الميلياي Meliae، وهنّ نيمفات طيبات سيصبحن حارسات شجرة دردار ينتج عن لحائها مَنًّا حلوًا صحيًا[14].

خرجت كل هذه الكائنات الجديدة غير المتوقعة حيّة من الأرض المنقوعة بالدماء، وحدّق فيها كرونوس بقرف، ثم بعثرها بحركة من منجله، وبعدها استدار لجايا.

قال: «وعدتك يا أمي الأرض أني سأحررك من ألمك الذي ينهشك... اثْبَتي».

بحركة أخرى من منجله شق جانب جايا، ومن الشق اندلق السيكلوبسات والهيكاتونكيريس. نظر كرونوس إلى والديه، وقد صار كلاهما ينزف ويلهث ويزمجر مثل الحيوانات المصابة الغاضبة.

قال كرونوس لأبيه: «لن تغطي جايا مرة أخرى، أحكم عليك بالنفي الأبدي تحت الأرض، مدفونًا تحت أعمق حتى من تارتاروس، لتتعفن هناك في غضبك، بلا حولٍ ولا خِصية».

قال أورانوس بهسيس: «لقد تجاوزت حدودك، سيكون هناك انتقامٌ. أنا ألعن حياتك، ستقضيها في عذاب أبدي بطيء بلا رحمة، خلودها الأبدي سيكون عبئًا لا يطاق ولا ينتهي، أبناؤك أنفسهم سيدمرونك كما...».

«كما دمرتك، نعم، أعرف، قلت ذلك من قبل. سنرى».

«ألعنك أنت وإخوتك وأخواتك، طموحكم المشدود سيدمركم».

«المشدود، الساعي بلا هوادة»، أو التيتان Titan، هو اللقب الذي احتفظنا به لكرونوس وإخوته الأحد عشر و(الكثير من) ذريتهم. قصد أورانوس بالكلمة الإهانة، لكن بشكل ما، ترددت الكلمة عبر الأزمنة كختم العظمة. لا أحد حتى يومنا هذا يشعر بالإهانة إن قلت عنه تيتان.

تلقى كرونوس اللعنة بسخرية، وجمع أباه الممزق وأشقاءه المشوَّهين الذين حررهم لتوّه بحافة منجله، وقادهم نزولًا إلى تارتاروس. سجن السيكلوبسات والهيكاتونكيريس في الكهوف، لكنه دفن أباه أعمق من

ذلك، أبعد عن السماء، نطاق حكمه الطبيعي، بأكثر من قدرة أورانوس على الاستيعاب[15].

بينما كان أورانوس يغلي غضبًا وقهرًا وحنقًا في أعمق أعماق الأرض التي كانت تحبه ذات يوم، ضغط كل سخطه وطاقته الإلهية في الصخور ذاتها، متمنيًا أن ذات يوم قد يستخرجها كائنٌ نابشٌ في مكان ما ويحاول أن يحصد قوتها الخارقة التي تشعّ منها. لن يحدث هذا بالطبع، فهذا سيكون شديد الخطورة. أي جنس هذا الذي لم يولد بعد قد يكون أحمق بما يكفي ليحاول أن يطلق سراح قوة اليورانيوم Uranium؟

من الزَّبَد

نعود الآن إلى القوس الهائل في السماء الذي طوَّح عبره كرونوس أشياء أورانوس المقطوعة. كرونوس كان قد ألقى بأعضاء السماء الأب التناسلية عبر البحر، لو أنك لازلت تذكر.

بوسعنا رؤية أعضاء كرونوس بالقرب من جزيرة كيثيرا Cythera الأيونية، تنثر الرذاذ وتطفو وتعلو وتهبط وتكاد تغطس تحت الأمواج، وتترك خيوطًا طويلة من المني في إثرها مثل ذيل طائرة ورقية، رغوة هائلة تكوَّنت وضربت سطح الماء. عما قريب سترغي كل المياه وتفور. ثمة شيء ما ينهض. الشيء الذي يأتي من كل فظائع الإخصاء الأبوي والطموح الشاذ لا شكّ أنه سيكون شيئًا شديد القباحة، شيئًا شنيعًا، شيئًا عنيفًا، شيئًا مريعًا لا يجلب إلا الحرب والدم والألم؟

دوامة من الدماء والمني أخذت تفور وترغو وتزبد، وتنبثق من بين رذاذ الأمواج المتكسرة وسائل الحياة قمة رأس، ثم جبين، ثم وجه... أي نوع من الوجوه هذا؟

وجه أجمل بما لا يقاس مما عرفته الخليقة أو ستعرفه في أي وقت. ما يخرج من الزَّبَد ليس شخصًا جميلًا بل هو الجمال ذاته، الجمال كامل الهيئة والتكوين. تعبير «من الزبد» في اليونانية يمكن أن يُختصر في كلمة أفروديتي

Aphrodite، وذلك هو اسم هذه التي ترتفع خارجة من الرذاذ والرغوة، تقف على صحن صدَفة ضخمة، ترتسم على ثغرها ابتسامة رقيقة رزينة، وببطءٍ تترجّل على شاطئ في قبرص. حيث تخطو تنبت الأزهار وتحوم الفراشات، وحول رأسها تطير الطيور في دوائر وتغني بنشوة وسعادة. وصلت (الحب والجمال) إلى الأرض، والعالم لن يعود كما كان قط.

سمّاها الرومان فينوس Venus، ومشهد ولادتها ووصولها إلى رمال قبرص على صحن صدفة لم يمثله أحد قط مثلما فعل بوتيتشيللي في لوحته المذهلة، التي إن رأيتها مرة لن تنساها أبدًا.

لنترك الآن أفروديايتي تصطنع لنفسها بيتًا في قبرص، ولنعد إلى كرونوس الذي يقطع طريقه عائدًا من كهوف تارتاروس المظلمة.

ريا

عندما عاد كرونوس إلى جبل أوثريس وجد شقيقته ريا في انتظاره. أثارها مشهد أخيها يحمل في يده منجلًا هائلًا يقطّر الدماء، حتى باتت على حافة الانفجار الداخلي.

سلطة كرونوس باتت راسخة، لا يوجد من بين أشقائه وشقيقاته التياتنة من يجرؤ على مساءلة سلطته، أمسى أبوه عاجزًا، وأمه التي لم تجد أي بهجة في الإطاحة العنيفة بأورانوس التي تسببت بها، تراجعت إلى مملكتها واستقرت في نوع من الوجود الساكن. لم تفقد جايا أيًا من قوتها أو سلطتها أو مكانتها كالأرض الأم وسلف الجميع، لكنها لم تعد تبادر بالتفاعل أو الانضمام.

صار كرونوس السيد الآن. بعد احتفال كبير صدحت فيه الأغاني بأنشز الألحان عن إنجازه في القضاء على رجولة أورانوس وإزاحته، دار كرونوس ليواجه ريا المتوردة المرتجفة، وأخذها جانبًا ومارس الحب معها.

اكتملت سعادة ريا، فقد لعبت دورها في مساعدة أخيها الذي تعشق ليحقق سيطرته على الخلق أجمعين، وصارا الآن متحدين، والأهم من ذلك، بدأت تشعر مع مرور الوقت بطفل يتحرك داخلها، بل طفلة، عرفت هذا يقينًا. لكن سعادة ريا لن تستمر.

أما كرونوس في المقابل، فمزاجه المعتِم ازداد قتامة بفعل شيء أخر، كلمات أبيه أورانوس التي بدأت تتردد في رأسه:

«سيطيح بك أبناؤك مثلما أطحت بي».

راقب كرونوس بمُحيّا متجهم بطن زوجته تتورم وتمتلئ على مدى الأسابيع والشهور التالية.

أبناؤك... أبناؤك...

وعندما حان موعد وضع ريا، استلقت في صدع بالجبل، في الواقع، كان الصدع ذاته الذي خبأت فيه جايا المنجل واختبأ فيه كرونوس، وهناك أنجبت طفلة جميلة أسمتها هستيا Hestia.

كانت ريا بالكاد قد نطقت اسم ابنتها قبل أن يظهر كرونوس وينتزعها من بين ذراعيها، ويبتلعها مرة واحدة، ثم دار وغادر من دون أن تصدر عنه حتى حازوقة، تاركًا ريا مصدومة.

أبناء ريا

كرونوس بات الآن سيد الأرض والبحر والسماء، منجله رمز سلطانه. الأرض أخذها من جايا، والسماء من أورانوس، وبتهديدات بالعنف انتزع السلطة على البحر من بونتوس وثالاسا وأشقائه أوشيانوس وتيثيس. حكم كرونوس وحده، ولم يثق بأحد.

مع ذلك ظلت رغبة كرونوس في ريا، وظلت ريا منصاعة له، تحبه بلا أمل وتعتقد أن التهامه المتوحش لأول مولودة لهما كان نزوة عابرة.

لم تكن نزوة. ابنهما التالي، ولد أسمته هاديس Hades، التهمه كرونوس بالطريقة نفسها، وبعده طفلة أسمتها ديميتر Demeter، ثم ولد أخر، بوسايدون Poseidon، وأخيرًا فتاة، هيرا Hera، ابتلع كرونوس كلّ منهم مرة واحدة بسهولة ابتلاع الواحد منا لمحارة أو لملعقة جيلي.

تحول حب ريا لكرونوس إلى كراهية بعد ابتلاعه لطفلتها الخامسة. وفي الليلة ذاتها أحاط كرونوس بها ومارس الحب معها مرة أخرى، فأقسمت

لنفسها أنها لو صارت حبلى مجددًا فلن تدعه يأخذ طفلها السادس، لكن كيف يسعها منعه؟ إنه كليّ القدرة.

ذات صباح، استيقظت ريا وشعرت بالغثيان المألوف، صارت حامل. غرائزها الإلهية أخبرتها أن سادس مواليدها سيكون ولدًا.

غادرت أوثريس وانطلقت بحثًا عن أمها وأبيها. رغم مشاركة ريا في اسقاطهما، إلا أنها احتفظت بثقة الابنة في حكمة وحسن نية أبويها، وعلمت جيدًا أن سخطهما عليها لدورها في الإطاحة بهما لا يقارن بكرههما اللا - نهائي لكرونوس.

ظلت نداءاتها على جايا وأورانوس تتردد في كهوف العالم وجباله لثلاثة أيام.

«أبي السماء، أمي الأرض، اسمعا لابنتكما وتعالا لمساعدتها. الابن الذي قطعكما ونفاكما صار غولًا كريهًا، صار أكثر كائنات العالم فسادًا وشذوذًا. لقد التهم خمسة من أحفادكما. في بطني الآن حفيد سادس يستعد للمجيء إلى العالم، علماني كيف أنقذه، أتوسل إليكما، علماني، وسأربيه على توقيركما دائمًا».

سمعت دمدمة مرعبة من أسفلها، وارتجّت الأرض تحت قدميها، زأر صوت أورانوس في أذنيها، لكن تعرفت أيضًا في طيّاته على نبرة الصوت الأهدأ لأمها.

وعمل ثلاثتهم على وضع خطة مذهلة.

الاستبدال

لتمضي ريا بهذه الخطة المذهلة قدمًا، ذهبت إلى كريت لتتشاور مع الماعز التي تدعى أمالثيا Amalthea. كانت تعيش على الجزيرة أيضًا الميلياي، نيمفات شجرة دردار المنّ، لو تذكر، فهنّ قد انبثقن من التربة المشبعة بدم أورانوس مع الفيوريات والعمالقة. بعد محادثة مشجعة مع أمالثيا، تشاورت ريا مع النيمفات الدمثات، ثم عادت إلى جبل أوثريس

راضية عن تحقيق ما احتاجت لتحقيقه في كريت، وشرعت تستعد لأوان ولادتها القادم.

كرونوس كان قد رأى أن زوجته تتوقع مولودًا وجهز نفسه لليوم السعيد الذي سيلتهم فيه سادس أبنائه. لن يدع مجالًا للصدفة، لا تزال نبوءة أورانوس تتردد في أذنيه، ونوبات البارانويا الخرافية التي تعصف بكل مغتصب مستبد تزداد حدة في رأسه الستاليني يومًا بعد يوم.

كانت جايا قد أخبرت ريا عن حجر من نوع معين، قطعة من الماجنتيت بالحجم المناسب بالضبط لهدفهم، ملساء وتبدو كحبة الفاصوليا، ويمكن إيجادها بسهولة على التلال غير البعيدة عن جبل أوثريس نفسه[16].

كل صباح، كان كرونوس يحب أن يقطع اليونان من أقصاها إلى أدناها ليزور كل أشقائه وشقيقاته التياتنة، ظاهريًا ليتشاور معهم، وفعليًا ليتأكد من أنهم لا يتآمرون عليه. ذهبت ريا إلى المكان الذي وصفته لها جايا في الوقت الذي تعرف أن كرونوس سيكون فيه على الشاطئ يزور أوشيانوس وتيثيس، ووجدت الحجر وأخذته معها إلى البيت في جبل أوثريس، حيث لفّته في الكتان. كانت عناصر الخطة تكتمل.

وذات أمسية، ليست بعد ذلك بكثير، كان فيها كرونوس قريبًا بما يكفي ليسمع، لكن بعيدًا بما يكفي ليستغرق وصوله وقتًا، شرعت ريا في الصراخ كمن تعاني آلام المخاض، صارت صرخاتها المتوجعة تتعالى أكثر فأكثر، تمزّق نسيج الهواء، ثم بعد سكوت مفاجئ، استبدلتها بأفضل محاكاة تقدر عليها لطفل يطلق صرخاته الأولى.

وبطبيعة الحال جاء كرونوس، وغطى ظله ريا.

قال: «أعطني الطفل».

حدجته ريا بنظرة متوسلة: «سيدي وزوجي المهيب، هلّا تركت لي هذا فقط؟ انظر إليه، انظر كم هو جميل وبريء وغير مؤذٍ».

انتزع كرونوس الطفل الملفوف بإحكام بضحكة خشنة من بين ذراعي ريا الحانيتين، والتقمه فبلعه مرة واحدة بقماطه الكتاني، ونزل الطفل بيسر

مثل الآخرين. خبط كرونوس على صدره مرتين وهو يتجشأ بصوت عال، وترك زوجته المعذبة المنكوبة تنتحب وذهب.

ما إن ذهب حتى تحول نحيب ريا إلى شهقات وصيحات هيستيرية تكتمهما بالكاد، شهقات وصيحات ضحك.

التقطت أنفاسها ونهضت من سريرها، ونزلت على جانب الجبل واتخذت طريقها إلى كريت، مسافرة بأسرع ما يسع أي امرأة في هذه المرحلة المتأخرة من الحمل أن تفعل.

الطفل الكريتي

ولادة ريا في كريت كانت يسيرة، فقد ساعدتها الماعز والميلياي اللواتي جهّزنَ من قبل كهفًا على جبل إيدا لتلد في أمان وراحة، ولم يمض وقت طويل قبل أن تضع ولدًا رضيعًا شديد الجمال، أطلقت عليه اسم زيوس Zeus.

مثلما جنّدت جايا من قبل أصغر أبنائها كرونوس لينتقم لها من ابنها وزوجها أورانوس، أقسمت ريا أن تربّي أصغر أطفالها على أن يدمر زوجها وشقيقها كرونوس. دورة الجشع والقتل والتعطش للدماء الجهنمية التي ختمت شهادة ميلاد العالم الأوّلي، ستستمر في الجيل التالي.

علمت ريا أنها بحاجة للعودة إلى جبل أوثريس قبل أن يلاحظ كرونوس غيابها ويرتاب في حدوث شيء خاطئ. سيرضع زيوس من ضرع الماعز أمالثيا لبنها الثري المغذّي مثلما وُضعت الترتيبات، بينما تطعمه الميلياي منًّا حلوًا مفيدًا من الذي ينزّ صمغه من شجرة دردارهم. هكذا سيكبر زيوس الصغير في كريت قويًا سالمًا متغذيًا، وستزوره ريا كلما تُتاح لها فرصة لتدربه على فنون الانتقام.

مع أن هذه أكثر رواية معروفة لكيفية هروب زيوس من انتباه كرونوس العظيم رب السماء والأرض والبحر، إلا أن ثمة حكايات عدة مختلفة، واحدة منها تقول إن نيمفة تُدعى آدمنثيا Adamanthea علقت زيوس

الرضيع بحبل من شجرة، وهكذا ظل متدليًا بين الأرض والسماء والبحر، مخفيًا عن عينيّ أبيه. هذا بلا شك مشهد سوريالي يثير الابتسام، فالرضيع الذي سيصبح أعظم الكائنات ذات يوم يبكي ويضحك ويثرثر في منتصف الهواء، معلقًا بين العناصر التي قدره أن يحكمها ذات يوم.

قسَم الولاء

بينما يكبر زيوس ويزداد قوة متغذيًا على لبن الماعز والمنّ في كريت ويتعلم المشي والكلام ويفهم العالم من حوله، استدعى كرونوس أشقاءه التياتنة إلى جبل أوثريس ليجدّدوا عهدهم له بالولاء والطاعة.

قال لهم: «هذا عالمنا. حتّم القدر عليّ ألّا يكون لي ذرية، وأني الأصلح للحكم، لكن عليكم أن تقوموا بواجبكم، تكاثروا، إملأوا العالم تياتنة، وربّوهم على طاعتي في كل شيء، وسأمنحكم الأراضي والاقطاعيات... والآن اركعوا لي».

ركع التياتنة أمام كرونوس الذي صدرت عنه زمجرة رضا، هي أقصى شيء يمكن أن يصدر منه تعبيرًا عن السعادة. لقد تجنّب نبوءة والده الانتقامية، وصار أخيرًا من الممكن بدء عصر التياتنة.

الولد الكريتي

ربما صدرت عن كرونوس زمجرة رضا، لكن موروس، تجسيد القدر والهلاك، ابتسم مثلما يفعل دائمًا عندما يستعرض الأقوياء ثقتهم بأنفسهم. ابتسم موروس حينها لأنّ بوسعه رؤية زيوس في كريت ينمو ليصبح أجمل وأقوى ذكَر بين الخليقة كلها، صار متألقًا لدرجة تكاد تؤلِم العيون الناظرة[17]. جودة لبن الماعز والثراء الغذائي للمنّ منحا زيوس عظامًا قوية وبشرة صافية وعيونًا براقة وشعرًا لامعًا. قَطَع طريقه، بحسب المصطلحات اليونانية، من الصبا pais، إلى المراهقة ephebos، ثم إلى الشباب kouros، ومن ثم إلى أفضل مثال لما نحب أن نسميه اليوم بالشاب اليافع. حتى في

ذلك الحين كان يمكن رؤية الخطوط الزغبية على وجنتيه وذقنه التي ستصبح ذات يوم مثالًا عظيمًا على فن تربية اللِحى[18]. حاز زيوس الثقة بالذات وهالة القيادة الطبيعية التي تميز من يعِدُّهم القدر للقيادة، كان أقرب للضحك منه إلى الغضب، لكن عندما يشتعل غضبه فهو قادر على إرهاب كل كائن حي قريب منه.

أبدى منذ البداية مزيجًا من التَوْق إلى الحياة وقوة الإرادة أصاب حتى أمه بالذهول، والبعض يدّعي أن حليب أمالثيا منح زيوس الشاب قدرات خارقة بينما يكبر. لا يزال المرشدون السياحيون الكريتيون حتى يومنا هذا يمتّعون زوارهم بحكايات عن قدرات زيوس الصغير المذهلة، ويحكون كيف أن زيوس الرضيع (وكأن هذا حدث إبان حياتهم) غير المدرك لحدود قوته، بينما يلعب مع مربيته الماعز كسر عرَضًا أحد قرنيها[19]، وبفضل بركته الإلهية الموجودة بالفعل ملأ القرن نفسه على الفور بأشهى الطعام؛ خبز طازج وخضروات وفواكه ولحم مقدَّد وسمك مدخن، مخزون من الطعام لم ينفذ قط مهما أُخذ منه، ومن هنا وُلد تعبير «قرن الوفرة Cornucopia».

أم زيوس العنيدة كانت تزور كريت كلما شعرت أنها قادرة على الانسلال من نطاق رؤية أعين كرونوس اليقظة على الدوام.

«لا تنس أبدًا ما فعله أبوك، لقد أكل إخوتك وأخواتك وحاول أن يأكلك، إنه عدوّك».

كان زيوس ينصت لوصف ريا لتعاسة العالم تحت حكم كرونوس.

«إنه يحكم بالخوف، ولا يعرف معنى الولاء ولا الثقة، هذه ليست الطريقة السليمة يا زيوس».

«ألا يجعله هذا قويًا؟».

«بل يجعله ضعيفًا. التياتنة هم أسرته، أشقاؤه وشقيقاته وأبناؤهم وبناتهم، بدأ بعضهم بالفعل يحتقر طغيانه الوحشي. عليك أن تستغل هذا الاحتقار عندما يحين الوقت».

«حاضر يا أمي».

«القائد الحقيقي يبني التحالفات، القائد الحقيقي مبجّل وموثوق فيه».
«حاضر يا أمي».
«القائد الحقيقي محبوب».
«حاضر يا أمي».
«أعلم أنك تضحك عليّ، لكن ما أقوله صحيح».
«حاضر يا...».
صفعت ريا ابنها.
«كن جادًا. أنت لست أحمق، بوسعي رؤية ذلك بوضوح. تقول آدمنثيا عنك أنك ذكي لكنك طائش، تقضي وقتًا أكثر من اللازم في صيد الذئاب وإزعاج الماشية وتسلق الأشجار وإغواء نيمفات شجرة الدردار. حان الوقت لأن تتعلم الانضباط، أنت في السادسة عشر وقريبًا سيكون علينا أن نتحرك».
«حاضر يا أمي».

الأوشيانية والمزيج

طلبت ريا من صديقتها متيس، ابنة أوشيانوس وتيثيس، أن تجهز ابنها لما هو آت.
«إنه ماهر، لكنه مشاكس وطائش، علّميه الصبر والحيلة والحذاقة».
فُتن زيوس بمتيس من البداية، لم يسبق له رؤية جمال مماثل. كانت التيتانة أصغر حجمًا من أغلب بني جنسها، لكنها مُنحت من الخفة والوقار ما جعلاها تشرق، كانت لها خفة غزال ومكر ثعلب وقوة أسد ونعومة حمامة، امتزاج كل هذا مع حضور قوي وعقل وهّاج جعل الفتى يدوخ.
«استلقي أرضًا معي».
«لا، بل سنذهب لنتمشى، ثمة أشياء أود أن أقولها لك».
«قوليها هنا، على العشب».
ابتسمت متيس وأخذت بيده. «لدينا عمل يا زيوس».

«لكني أحبك».
«إذن ستفعل ما أقول، عندما نحب أحدهم، نسعى دائمًا لإرضائه، أليس كذلك؟».
«ألا تحبينني؟».
ضحكت متيس، وإن كانت في الواقع مسحورة بهالة البريق والجاذبية المشعّة من هذا الشاب الوسيم الجريء، لكن ريا صديقتها سألتها أن تضطلع بمسؤولية تعليمه، ومتيس ليست بالشخص الذي يخون الثقة.
علّمته طوال عام كامل كيف ينظر في قلوب الآخرين ويحكم على نواياهم، كيف يتخيل وكيف يفكر بالمنطق، كيف يجد القوة الكافية لترك مشاعره تهدأ قبل أن يتصرف، كيف يضع خطة وكيف يعرف متى تحتاج الخطة للتغيير ومتى تُهجر، وكيف يجعل عقله يحكم قلبه، وكيف يجعل قلبه يسرق قلوب الآخرين.
رفْضِها السماح لعلاقتهم بأن تأخذ منحى جسدي جعله يحبها أكثر، وبادلته هي أيضًا الحب رغم أنها لم تخبره بذلك قط، لذلك كانت هناك دائمًا كهرباء في الهواء أينما اجتمعا عن قرب.
ذات يوم، رأى زيوس متيس تقف عند صخرة ضخمة وتقرع سطحها المسطح بصخرة صغيرة مستديرة الحواف.
«ما الذي تفعلينه؟».
«أطحن حبات الخردل وبلورات الملح».
«آه، حسنًا».
قالت متيس: «اليوم هو عيد ميلادك السابع عشر، صرت جاهزًا للذهاب إلى أوثريس وتحقيق مصيرك، ستكون ريا هنا عمّا قريب، لكني أحتاج قبل ذلك أن أنتهي من تحضير شيء بسيط من ابتكاري».
«ماذا في هذه الجرة؟».
«مزيج من عصارة الخشخاش وكبريتات النحاس، مُحلّى بدبس المنّ الذي جلبته الميلياي، صديقاتنا نيمفات الدردار. سأضع هذه المكوّنات معًا وأرجّها هكذا».

«لا أفهم».

«انظر، جاءت أمك، ستشرح لك كل شيء».

راقبتهم متيس بينما شرحت ريا الخطة لزيوس، حدّقت الأم والابن بعمق في عيني بعضهما، وأخذ كلٌّ منهما نفسًا عميقًا، وحلف يمينًا، يمين الابن لأمه، ويمين الأم لابنها. كانا جاهزين.

الولادة الثانية للخمسة

منتصف الليل. العباءة السميكة التي ألقاها نيكس وإيربوس فوق الأرض والبحر والسماء لتؤشر على نهاية الدورة النهارية لهميرا وإيثر حجبت العالم. في وادٍ عالٍ على جبل أوثريس، كان سيد الأشياء كلها يخطو ذهابًا وإيابًا وحده ساخطًا بائسًا يضرب على صدره. أمسى كرونوس أكثر التياتنة سخطًا وأسوأهم طبعًا، لم تمنحه السلطة الكلية أيّ رضا، ومنذ أن حرمته ريا بلا تفسير من سرير الزوجية صار النوم عنه غريبًا. افتقاره للمسة النوم الشافية جعل مزاجه وقدرته على الهضم - اللذين لم يكونا بحال جيدة في أي وقت أصلًا - أسوأ حالًا. آخر طفل ابتلعه سبب له على ما يبدو ارتجاعًا حمضيًا حادًّا لم يسببه أيٌّ من الخمسة السابقين. أين المتعة في أن تكون كليّ القدرة عندما تتيبّس معدتك ويتوه عقلك في ضباب الأرق الكثيف؟

غير أن قلبه ارتقى لحالة تقترب نوعًا من السعادة عندما سمع فجأة ريا تدندن بصوتها الحلو الخفيض لنفسها، بينما تصعد على المنحدر متجهة إلى قمة الجبل. الأخت الأجمل والزوجة الأعز! طبيعي أنها انزعجت قليلًا من التهامه لأطفالهما الستة، لكنها بلا شك تتفهم أنه ليس لديه خيار آخر، فهي تيتانة، وتعلم ماذا يعني الواجب والقدر.

نادى عليها: «ريا؟».

«كرونوس؟ مستيقظ في هذه الساعة؟».

«أنا مستيقظ منذ أيام وليال تفوق قدرتي على إحصائها، جافاني هيبنوس وعافني مورفيوس، وعاثت العقارب في رأسي فسادًا يا زوجتي العزيزة».

قاتل آخر محروم من النوم ومُبتلى بالنبوءات المظلمة اسمه ماكبث سيقول الشيء نفسه، لكن لن يكون هذا إلّا بعد سنوات كثيرة.

«دع عنك هذا الكلام يا حبيبي، أثمة شيء لا تستطيع تيتانة ماهرة حاذقة أن تتفوق فيه على شياطين النوم الحمقى هؤلاء؟ لا يوجد ما يستطيع هيبنوس ومورفيوس فعله لتهدئة جسدك المتألم وعقلك المتسارع وروحك المجروحة، ولا أستطيع أنا مجاراته بشيء حلو ودافئ من عندي».

«ثغرك الحلو الدافئ، وفخذك الحلو الدافئ، و....».

«هذه الأشياء في وقتها يا سيدي عديم الصبر، لكني أولًا جئتك بهدية: فتى جميل ليكون حامل قدحك».

وخطا زيوس خارجًا من مخبئه بابتسامة بهية تضيء وجهه الوسيم. انحنى زيوس أمام كرونوس وقدم له كأسًا مرصعًا بالجواهر، انتزعه منه التيتان بجشع.

قال كرونوس بينما يلقي على زيوس نظرة إعجاب ويتجرع محتويات الكأس برشفة واحدة جشعة: «جميل، جميل جدًا، ربما أجرّبه لاحقًا، لكن يا ريا... أنا أحبك أنت».

كان الظلام أشد من أن يسمح له برؤية ريا وقد ارتفع أحد حاجبَيْها في قوس متشكك مشمئز.

قالت بفحيح: «أنت تحبني؟ أنت؟ تحبني؟ أنا؟ أنت؟ يا من أكل كل أبنائي الأعزاء إلا واحدًا؟ أتجرؤ على أن تحدثني عن الحب؟».

رد كرونوس بحازوقة غير سعيدة، بات يشعر بشيء غريب، عبس وحاول أن يركّز، ما الذي تقوله ريا؟ بالتأكيد هي لا تعني أنها لم تعد تحبه. ازدادت كثافة الضباب في عقله وتقلّبت بطنه أكثر من المعتاد، ماذا يحدث له؟ و... آه، ثمة شيء أخر فيما قالت، شيء لا معنى له على الإطلاق.

سألها بصوت يثقله التشوّش والغثيان: «ما الذي تعنيه بقولك إني أكلت أبناءك 'إلا واحدًا'؟ لقد أكلتهم كلهم، أنا أذكر جيدًا».

فرقع صوت قويٌّ شاب عبر هواء الليل الثقيل مثل سوط: «ليس 'كلهم' تمامًا يا أبي».

استدار كرونوس مصدومًا، وغثيانه يتصاعد إلى درجة مخيفة، ليرى حامل قدحه الشاب يخرج من الظلال.

«من... من... مـــــاااااوووووع!»، تحول سؤال كرونوس إلى وابل مفاجئ من القيء، ولفظت أحشاؤه بحركة متشنجة قوية صخرة ضخمة، والكتان الذي كان ذات يوم يلفها لم يعد موجودًا بفضل أحماض المعدة. حدق كرونوس في الصخرة بغباء، بعيون غائمة ووجه شاحب، لكن قبل أن يفهم ما الذي يراه باغته ذلك الشعور المعروف المريع الذي يخبر المُتقيئ أن البقية في الطريق، بقية أكثر بكثير.

قفز زيوس برشاقة إلى الأمام، والتقط الصخرة المتقيَّأة، وألقاها بعيدًا، بعيدًا جدًا، بالضبط كما ألقى كرونوس من قبل أعضاء أورانوس بعيدًا جدًا. سنعرف لاحقًا أين وقعت الصخرة وماذا حدث لها.

داخل كرونوس، تابع خليط الملح والخردل وعرق الذهب عمله في التحفيز على التقيؤ، وواحدًا تلو الأخر قذف كرونوس أبناءه الخمسة الذين ابتلعهم. أولهم كانت هيرا[20]، ثم جاء بوسايدون وديميتر وهاديس وأخيرًا هستيا، قبل أن ينهار التيتان في نوبة من اللهاث المنهك.

مزيج متيس لو تذكر كان يتضمن بعض من زهرة الخشخاش، وعلى الفور بدأ تأثيرها المنوّم يقوم بمفعوله، إذ أخرج كرونوس زمجرة هادرة أخيرة، ثم تقلب جانبًا ووقع في نوم عميق جدًا.

انحنى زيوس بصيحة جذلة على أبيه الغافي ليقبض على المنجل الهائل ويستخدمه في ضربة الرحمة الأخيرة، سيبتر رأس كرونوس بضربة واحدة ويرفعها بانتصار أمام العالم في مشهد ملحميّ لن يُنسى، سيُخلّده الرسامون في لوحاتهم حتى نهاية الزمان. لكنّ المنجل الذي صنعته جايا لكرونوس لا يمكن استخدامه ضده. رغم قوة زيوس الهائلة، لم يقدر حتى على التقاط المنجل، حاول مرة، لكنه شعر وكأنه جزءٌ من الأرض.

قالت ريا: «لقد منحته له جايا ولن يقدر على أخذه منه إلا جايا نفسها، اتركه».

قال زيوس: «لكن يجب أن أقتله، لا بد أن ننتقم».

«أمه الأرض تحميه، لا تغضِبها، ستحتاجها عندما يحين الوقت، ستنال انتقامك».

تخلى زيوس عن محاولاته لتحريك المنجل. كان من المحبط أنه لم يتسن له نحر أبيه النائم يغطّ كما الخنزير، لكن أمه على حق، بوسع الانتقام أن ينتظر، لا يزال هناك الكثير ليحتفل به.

في ضوء النجوم فوق جبل أوثريس، ضحك زيوس وأشقاؤه الخمسة المحرَّرون لتوِّهم، وتدافعوا وتصايحوا في فرحة، وضحكت أمهم معهم أيضًا وصفقت بيديها مبتهجة برؤية أبنائها وبناتها بخير وسعادة، وقد خرجوا للعالم أخيرًا جاهزين لاستلام إرثهم. احتضن الناجون الخمسة واحدًا تلوَ الآخر زيوس، أخاهم الأصغر الذي صار الأكبر، منقذهم وقائدهم، وأقسموا له بالولاء الأبدي. معًا، سيطيحون بكرونوس وجنسه القبيح بأكمله، وسيبدأون نظامًا جديدًا...

لن يقولوا على أنفسهم «تياتنة» رغم نسبهم إليهم، سيسمون أنفسهم آلهة، وليس أيّ آلهة، بل الآلهة.

البداية

الجزء الثاني

صدام التياتنة

على قمة جبل أوثريس تمدد كرونوس على الأرض. لم يعلم بقية التياتنة بعد بإنقاذ زيوس لأخوته، لكن بدا أنهم لو عرفوا سيكون رد فعلهم عنيفًا. انسلّت ريا وأبناؤها الستة هاربين تحت ستر الظلام، ليجعلوا المسافة بينهم وبين بلد التياتنة أبعد ما في وسعهم.

فهم زيوس أن الحرب قادمة لا مناص، لن يهدأ لكرونوس بالٌ مادام أبناؤه أحياءً، وزيوس عازم بالقدر نفسه على الإطاحة بأبيه. سمع زيوس أعلى من أي وقت مضى الصوت الذي يتردد بداخله منذ كان في المهد، الهمس المُلحّ الخافت لموروس يخبره بأن القيادة هي مصيره الحتمي.

يعرف المؤرخون النزاع الدموي العنيف المدمِّر الذي وقع بعد ذلك باسم التيتانوماكي Titanomachy[21]. مع أن أغلب تفاصيل حرب العشرة أعوام هذه قد تكون غائبة عنا، نعلم أن كمّ السخونة والغضب والقوة المدمرة والطاقة الهائلة التي نتجت عن تلاقي التياتنة والآلهة والوحوش في ساحة المعركة جعل الجبال تنفث النيران والأرض تهتز وتتشقق. أراضٍ وجزر عديدة تشكلت نتيجة لهذه المعارك، وقارات كاملة تزحزحت وتغير شكلها، وكثير من شكل العالم الذي نعرفه الآن يدين بجغرافيته لهذه الاضطرابات الزلزالية الناجمة عن هذا النزاع الذي هزّ الأرض حرفيًا.

في قتال مباشر لن يكون هناك مفَرّ من أن تهزم القوة المتكتلة للتياتنة خصومهم الصغار، كانوا أقوى وأكثر وحشية بما لا يقاس. اصطف كل التياتنة مع كرونوس عدا بروميثيوس وإيبميثيوس ابنَي كلايميني، ما جعلهم أكثر عددًا بكثير ممن يدعون أنفسهم بالآلهة تحت قيادة زيوس. لكن مثلما دفع أورانوس ثمنًا غاليًا لحبسه السيكلوبسات والهيكاتونكيريس داخل جايا، كرونوس كان على وشك أن يدفع ثمن مشابه لخطئه الفادح بحبسهم في كهوف تارتاوس.

كانت متيس الحكيمة هي من نصحت زيوس بالنزول إلى تارتاروس وتحرير الثلاثة ذوي العين الواحدة والثلاثة ذوي المئة يد، وعرض عليهم زيوس الحرية الدائمة مقابل مساعدتهم له في هزيمة كرونوس والتياتنة، ولم يكونوا بحاجة إلى تشجيع أكثر من ذلك. الچيجانتيون أيضًا اختاروا الاصطفاف مع زيوس، وأثبتوا أنهم محاربين عظام لا يَكِلّون[22].

في المعركة الحاسمة الأخيرة، امتزجت ضراوة الهيكاتونكيريس عديمي الشفقة - ناهيك عن وفرة رؤوسهم وأياديهم - بتوافق مذهل مع القوة الكهربية الجامحة للسيكلوبسات الثلاثة، الذين كانت أسماؤهم لو كنت لا تزال تذكر: السطوع والبرق والرعد، أرجيس وستيروبيس وبرونتس، هؤلاء الصُنّاع المهَرة وضعوا خلاصة سيادتهم على العواصف في الصواعق الرعدية، وأهدوها لزيوس ليستخدمها كسلاح، وتعلّم زيوس استخدامها بدقّة تصويب مذهلة لاستهداف أعدائه، وسحقهم إلى ذرات متناثرة. التقط الهيكاتونكيريس الأحجار وألقوها بسرعة جهنمية بناءً على توجيهات زيوس، ومعهم أذهل السيكلوبسات أعداءهم باستعراضات البرق وضربات الرعد المرعبة. أيادي الهيكاتونكيريس الثلاثمئة حملت وقذفت عددًا لا يحصى من الأحجار على العدو مثل مئات المقاليع المجنونة، حتى صرخ التياتنة المحطمين المسحولين منادين بنهاية القتال.

لنتركهم برؤوسهم العملاقة الدامية محنية في استسلام نهائي، ولنأخذ لحظة لاستكشاف ما الذي كان يحدث في العالم إبّان سنوات الحرب العشرة المريعة.

التكاثر

نار الحرب وعنفوانها أحرقا وخصّبا ولقّحا الأرض. حيوات جديدة انبثقت لتصنع عالمًا أخضرَ نضرًا جاهزًا لترثه الآلهة المنتصرة.

لو أنك تذكر، فالكون لم يكن فيه شيء في البداية إلا الخواء، ثم من الخواء انبثقت أول أشكال الحياة: الكيانات الأولية ومبادئ النور والظلام. مع كل جيل يتطور كانت تولد كيانات جديدة وتتكاثر بدورها، فيزداد

التعقيد. المبادئ القديمة الأولية البدئية تحولت إلى أشكال حياة أكثر تنوعًا واختلافًا وثراءً. الكائنات الجديدة التي ولدت مُنحت شخصيات متفردة متمايزة متنوعة الألوان. بلغة الكمبيوتر، كان الأمر وكأن الحياة تحولت من 2 بت إلى 4 بت إلى 8 بت إلى 16 بت إلى 32 بت إلى 64 بت وما بعد ذلك. كل تكرار جديد بات يمثل ملايين ومليارات التحولات في الحجم والشكل، ما بوسعك تسميته بالريزليوشن. عرف الوجود شخصيات عالية الدقة أو HD، مثل تلك التي نهنئ أنفسنا على امتلاكها كبشر معاصرين، وصار هناك انفجار في ما يحب علماء البيولوجيا تسميته نشوء الأنواع speciation بينما أخذت أشكال الحياة الجديدة تملأ الوجود.

أحب أن أتخيّل المرحلة الأولى من الخلق كشاشة تلفاز عتيق الطراز تُلعب عليه اللعبة أحادية اللون بونج Pong. أتذكر بونج؟ كان فيها مضربَيْن مستطيلين وكرة على شكل نقطة مربعة، كان الكون بدائيًا مثل لعبة كرة تنس مبكسلة (pixellated)، وبعد حوالي 35 أو 40 عام تطور الجرافيك ثلاثي الأبعاد فائق الدقة والريزليوشن والواقع الافتراضي المعزّز. هكذا كان الكوزموس اليوناني، بدأ خلقه بخطوط عريضة لكيانات أولية بسيطة منخفضة الدقة، وينفجر الآن لحياة غنية متنوعة.

جاءت أخيرًا كيانات وآلهة غامضة غير متسقة لا يمكن التنبؤ بسلوكها ومثيرة للاهتمام ولا سبيل للإحاطة بها. باستخدام تعبير إ. م فوستر E. M. Forster الروائي البريطاني عندما تحدث عن شخصيات الروايات، تحول العالم من الشخصيات المسطحة إلى الشخصيات الدائرية، إلى الشخصيات المتطورة إلى حد يجعل أفعالها قادرة على إدهاشك... بدأت المتعة.

الميوزات

نيموسيني (الذاكرة)، إحدى التياتنة الأصليين، أنجبت من زيوس تسع بنات عاليات الذكاء والإبداع: الميوزات، اللواتي عشْنَ في أزمنة متفرّقة على جبل هيليكون Helicon (حيث ستكون نافورة هيبوكريني لاحقًا)

وعلى جبل بارناسوس Parnassus فوق دلفي Delphi، وفي إقليم بيريا Pieria بإقليم ثيساليا Thessaly حيث النبع البيري Pierian Spring، الذي يُعدّ المصدر المجازي الذي تنبع منه كل الفنون والعلوم[23].

نحب أن نفكر في الميوزات اليوم كقدّيسات راعيات للفنون في المطلق، وكمصادر خاصة للإلهام على الأخص. في مفتتح مسرحية هنري الخامس لشكسبير تصدح الجوقة «آه يا ميوز النار»، ونقول على من يلهموننا الإبداع ويساعدوننا على السموّ إنه أو إنها «ميوزي». نجد أثر الميوزات Muses في الموسيقى Music والملاهي amusements والمتاحف museums والتأمل musing. الشاعر البريطاني و. ه. أودن. W. H. Auden آمن أن صورة الربّة متقلبة المزاج تهمس في أذن الشاعر بالأفكار هي أفضل وسيلة للتعبير عن عدم القدرة على الاعتماد على الإلهام الإبداعي، أحيانًا تمنحك الذهب، وأحيانًا تقرأ ما أملته عليك وتجده خبث الحديد. قد تكون أم الميوزات هي الذاكرة، لكن أباهن هو زيوس، الذي كانت سرعة تقلب مزاجه وخيانته موضوع حكايات عديدة ستأتي لاحقًا.

لكن دعنا نقابل تلكم الشقيقات التسعة، اللواتي تعَدّ كل واحدة منهن راعية نوع معين من الفنون.

كاليوبي

نهاية لغوية مخزية تنتظر كاليوبي Calliope، ميوز الشعر الملحمي. بشكل ما صارت آلة الأورغن تعمل على البخار وتُلعب عادة في المعارض، وهي الأماكن الوحيدة التي قد تسمع فيها اسمها منطوقًا هذه الأيام. عند الشاعر الروماني أوفيد Ovid كانت زعيمة الميوزات. اسمها يعني «الصوت الجميل»، وهي أم أورفيوس Orpheus، أهم موسيقي في التاريخ اليوناني. أعظم شعراء التاريخ، مثل هومر Homer وفيرجيل Virgil ودانتي Dante، كانوا يسألونها المدَد عندما يشرعون في ملاحمهم العظيمة.

كليو

كانت كليو Clio أو Kleio (الاسم الأشهر) ميوز التاريخ، لكن اسمها الآن بات مرتبطًا بأحد طرازات سيارات الرينو Renault وسلسلة من الجوائز في صناعة الإعلانات. كانت المسؤولة عن الإشهار، عن صنع جلبة في العالم وجعل أحدهم شهيرًا بأفعاله العظيمة. أقدم اتحادات المناظرة في أمريكا الذي أسسه جيمس ماديسون وآرون بور وآخرون، يُدعى مجتمع الكليوسوفيكال Cliosophical Society تمجيدًا لها.

إيراتو

إيراتو Erato كانت ميوز الشعر الغنائي والغزل، اسمها متعلق بإيروس والإيروتيكية/ الشهوانية Erotic وأحيانًا ما تُمثل في الفن بسهم ذهبي لاقتراح علاقة بينها وبين إيروس. السلحفاة والحمامات ونبات الآس من ضمن رموز عديدة متعلقة بها، والآلات الموسيقية الوترية كذلك.

يوتيربي

ميوز الموسيقى ذاتها، يعني اسمها «المبتهجة» أو «الفرِحة». أنجبت يوتيربي Euterpe من رب النهر سترايمون Strymon الملك التراقي ريسوس Rhesus، الذي سيلعب دورًا ثانويًا جدًا في حرب طروادة. لسنا متأكدين إن كان هو من أعطى اسمه للقرد المكاك الريسوسي Rhesus macaque الذي أعطى اسمه للنظام الدموي لاحقًا أم لا.

ميلبومني

ميوز التراجيديا ميلبومِني Melpomene (التي يُشتقّ اسمها من فعل يوناني معناه الاحتفال بالرقص والغناء) مثلت في الأصل الجوقة، ثم بعدها التراجيديا بالكامل، وهي احتفال يوناني شديد الأهمية تمتزج فيه الموسيقى والشعر والدراما والأقنعة والرقص والأغاني والدين. يرتدي

الممثلون التراجيديون أحذية سميكة الكعب[24] تسمى بالإنجليزية buskin وباليونانية cothurnus، تُصوَّر ميلبومني عادة وهي ترتدي أو تحمل أحد هذه الأحذية، بالإضافة إلى القناع التراجيدي الشهير بالطبع، بشفاهه الممثَّلة بقوس مقلوب.

هي وأختها تيربسيكوري Terpsichore يُعتبرنَ أمهات السايرنات Sirens، اللواتي سيحين وقتهن لاحقًا.

بوليهيمنيا

هيمنوس Hymnos هي الكلمة اليونانية التي تعني (مدح)، وبوليهيمنيا Polyhymnia هي ميوز التراتيل والموسيقى والرقص والشعر والنثر المقدس، وكذلك الزراعة والتمثيل الإيمائي والهندسة والتأمل، وهو شيء فيه بعض العشوائية كما ترى، أعتقد أنّ بوسعنا اليوم اعتبارها «ميوز التأمل الواعي». تُمثَّل عادة في شكل رصين، بإصبع مرفوع بجوار فمها كمن يتأمل بوقار. هي منافسة لكاليوبي على أمومة البطل أورفيوس.

تيربسيكوري

صاحب محل الجبن: أوه، حسبتك منزعج من موسيقى البوزوكي.

الزبون: أوه، استغفر الله، أنا شخص يجد السعادة في كل تجسيد ممكن للميوز تيربسيكوري.

هذا الحوار من مشهد «متجر الجبن» الخالد لمونتي بايثون Monty Python كان أول من عرَّف الكثيرين، بمن فيهم أنا، على تيربسيكوري، ميوز الرقص.

ثاليا

ألطف وأظرف وأطيب ميوز منهنّ جميعًا، ثاليا Thalia، كانت المسؤولة عن الفنون الكوميدية والشعر الريفي. اسمها مشتق من الفعل اليوناني الذي

يعني (الازدهار)[25]. ترعى ثاليا الممثلين مثل نظيرتها التراجيديا ميلبومني، وتُمثّل بالحذاء والقناع (القناع الذي يمثلها، هو المبتهج بالطبع)، لكنها تُكلل باللبلاب وتحمل بوق وترومبيت.

يورانيا

اسم يورانيا Urania مشتَقّ من أورانوس، الرب الأوَّلي للسماوات (والجدّ الأكبر للشقيقات التسعة). هي الميوز التي ترعى التنجيم والنجوم، وتُعتبر أيضًا رمزًا للحب الكوني، نوع من المقابل اليوناني للروح القدس المسيحي.

ثلاثات

الميوزات الثلاث، على ثلاث دفعات، ذكَّرنني بأن أقدِّم المزيد من المجموعات الثلاثية. فكما نعلم أنجبت جايا وأورانوس ثلاثة هيكاتونكيريس وثلاث سيكلوبسات وثلاث مرّات أربعة تياتنة. وقابلنا بالفعل الإيرنيات الثلاثة (ويُطلق عليهن أيضًا اليومنيديات Eumenides)، تلكم المنتقمات الفيوريات اللواتي انبثقن من الأرض المخصَّبة بدماء أورانوس ساعة إخصائه. يبدو أن الرقم ثلاثة كان رقمًا سحريًا جدًا عند الإغريق.

الكاريتات

كان زيوس يجد لنفسه الوقت دائمًا على مدار أعوام التيتانوماكي الكارثية العشر ليشبع رغباته، ربما كان يعدّ ذلك نوعًا من القيام بواجبه في تعمير الأرض، وزيوس كان بلا شك يحب إنجاز مهمته.

ذات يوم، وقعت عينا زيوس على أجمل أوشيانية من بنات أوشيانوس وتيثيس: يورينومي Eurynome. بينما كانت يورينومي مختبئة في كهف من الحرب الضارية في الخارج، أنجبت من زيوس ثلاث بنات فاتنات: أجليا

Aglaea، التي يعني اسمها الروعة، ويوفروسني Euphrosyne التي تُعرف أيضًا باسم يوثايميا Euthymia، أي البهجة والسرور والمرح، وثاليا[26]، أي البشاشة. عُرفت ثلاثتهم بالكاريتات Charites، أو عند الرومان بالجراتياي Gratiae، ندعوهم نحن بالنِعَم الثلاثة، وهنّ المفضَّلات لدى النحّاتين والرسّامين على مَرّ التاريخ الذين يبحثون عن عذر لتمثيل العري الأنثوي كامل الجمال. طبائعهن اللطيفة قدمت للعالم مقابلًا للأذى والقسوة المريعة للإيرنيات.

الهوراي

يتكون الهوراي Horai، أو الساعات Hours، من مجموعتين من الشقيقات التوائم الثلاثية، وهنّ بنات ثيميس (تجسيد القانون والعدالة والأعراف). كانت الهوراي في الأصل تجسيدًا للمواسم، ويبدو أنهن كنّ في البداية اثنتين فقط، الصيف والشتاء، أوكسيسيا Auxesia (أحيانًا أوكسو Auxo فقط) وكاربو Carpo. أصبحن ثلاثة لاحقًا بإضافة ثالّو Thallo (أو فلورا Flora عند الرومان)، تجسيد الربيع وجالبة الزهور والازدهار. الميزة الأكثر قيمة للهوراي ورثْنَها عن أمهنّ: هبة اللحظة المواتية؛ العلاقة الحميدة بين القانون الطبيعي ومرور الزمن، أي ما يمكنك أن تسميه «البرَكة الإلهية».

مجموعة الهوراي الثانية كانت مسؤولة عن نوع أكثر دنيوية من القانون؛ يونوميا Eunomia، ربة القانون والتشريع، وديكي Diké، ربة العدالة والنظام الأخلاقي (المقابل الروماني لها كان جوستيتيا Justitia)، وأيريني Eirene ربَّة السلام (باكس Pax عند الرومان).

المويراي

المويراي Moirai، بنات نيكس الثلاثة: كلوثو Clotho ولاكيسيس Lachesis وأتروبوس Atropos، ربّات القدر. تجلس المويراي الثلاثة

حول عجَلة مغزل دوارة، كلوثو تغزل الخيط الذي يمثل الحياة، ولاكيسيس تقيس طوله، وأتروبوس (العنيدة، عديمة الشفقة، تعني حرفيًا 'التي لا تدور') تختار أين تقص الخيط وتنهي الحياة[27]. أتخيلهنّ كحيزبونات غائرات الخد يرتدين أسمالًا سوداء ويجلسن في كهف ويثرثرن ويومئن بينما يغزلن، لكن العديد من الشعراء والنحاتين مثلوهن كشابات متوردات الوجنات يرتدين أروابًا بيضاء ويبتسمن برزانة. اسمهن مشتق من كلمة تعني (قِسمة) أو (نصيب) مثلما في (هذا هو نصيبك)، أو (لم يكن الحب مقسومًا لها)، أو (كانت التعاسة من نصيبه)، استخدم الإغريق كل تلك التعبيرات لوصف المصائر والصفات التي تعينها المويراي للأفراد، حتى الآلهة عليها أن تخضع لمراسيم ربات القدر القاسية[28].

الكيريات

الكيريات Keres، آكلات الجيفة، بنات نيكس الثلاثة، هنّ أرواح الموت العنيف المفترسة. إنهنّ كالفالكيريات Valkyries في الميثولوجيا النوردية في تجميعهن لأرواح المحاربين المقتولين في المعركة، غير أن الكيريات على عكس الربات المحاربات النورديات الطيبات، لا يصحبن أرواحهن البطولية لينالوا الجزاء الطيب في فالهالا، بل يتنقلن بين جثة نازفة وأخرى ليمتصِصن الدماء المتدفقة منهم، ثم عندما تجف الجثة تمامًا يلقينها بإهمال ويبحثن عن غيرها.

الجرجونات

رب البحر الأولي بونتوس أنجب من جايا ابنًا اسمه فورسيس Phorcys وابنة تدعى سيتو Ceto، ذرية فورسيس وسيتو كانت الشقيقات الجرجونات Gorgons الثلاثة ساكنات الجزر: سثينو Stheno ويوريلي Euryale وميدوسا Medusa. كان شعرهنّ أفاعي سامة متلوية، وعيونهن محدقة حادة، وابتساماتهن قبيحة لا تتبدل، وأسنانهن أنياب خنازير. مظهر

الشقيقات الثلاث كان قبيحًا بما يكفي لتجميد الدم في العروق، لكن من صادفت عينه عين أي جرجونة وبادلها النظرات ولو لجزء من الثانية، سيتحول حرفيًا ولحظيًا إلى صخرة. الكلمة التي تعبّر عن ذلك هي « 'petrified' والتي تعني تجمّد من الخوف».

أرواح الهواء والأرض والماء

تلك الثلاثات لم تكن الكائنات الهامة الوحيدة التي انبثقت للوجود في تلك الآونة، فبينما كانت التيتانوماكي مشتعلة في جميع أنحاء العالم، أرواح وأشباح الطبيعة من كل شكل ولون كانوا يتكاثرون ويضعون أياديهم على نطاقات نفوذهم. يكاد الواحد يتخيلهم يُهَرولون بحثًا عن ملجأ أو يرتجفون خلف أجَمَة أو صخرة بينما تقطع صاعقة رعدية الهواء وترتج الأرض من عنفوان الحرب. بشكل ما تمكنت تلك الكائنات - الهشّة غالبًا - من النجاة والازدهار، ومن إثراء العالم بالجمال والسحر والإخلاص.

ربما الأكثر شهرة من بين هؤلاء كانت النيمفات، صنف رئيس من الربات الثانوية، ينقسمن إلى عشائر أو أنواع فرعية طبقًا لبيئة كل منهنّ. الأوريادات Oreads اتخذن من جبال اليونان وتلالها ومغاراتها سكنًا، بينما النيريادات (مثل أسلافهنّ من الأوشيانيات) فضّلنَ السكن في الأعماق، أما نظائرهنّ في المياه العذبة النايادات Naiads، كان يمكن إيجادهنّ في البحيرات وجداول المياه الجارية، أو بين الأعشاب التي تحف ضفاف الأنهار. مع الوقت بدأت بعض نيمفات المياه في تخصيص أنفسهنّ ببعض النطاقات الأكثر تحديدًا، فبات هناك البيجايه Pegaeae، اللواتي يعتنين بمنابع المياه الطبيعية، والبوتاميديات Potameides، اللواتي يسكنّ حول الأنهار[29]. على الأرض، رعت الأولونياديات Auloniades المراعي والبساتين، بينما عاشت الليماكيديات Leimakides في المروج. أرواح الغابات تضمّنت الدرايادات Dryads ذوات الأجنحة الضوئية والهمادريادات Hamadryads، وهنّ نيمفات غابات ترتبط حياتهن

بالأشجار التي اتخذنها بيوتًا، ويمتن عندما تموت تلك الأشجار أو تُقطع. ثمة المزيد من النيمفات المتخصصة تسكن أشجار التفاح والغار، ولقد قابلنا بالفعل الميلياي، نيمفات شجر دردار المنّ.

مصير الدرايادات يوضح أن النيمفات يمكن أن يهلكن. إنهنّ لا يمتن أبدًا، ولا يمرضن، بيد أنهنّ لسن خالدات على الدوام.

هكذا كان العالم الطبيعي ينضج ويتبلور ويتكاثر ببسالة مذهلة، ويعزز نفسه بأنصاف الآلهة والخالدين، بينما كانت الأرض ترتجف وتنتفض من ضراوة الحرب. كل هذا التكاثر أكد أن المنتصر من هذه الحرب، بعدما ينقشع دخان المعركة وغبارها، سيحكم عالمًا مترعًا بالحياة والألوان والشخصيات. زيوس الظافر سيرث أرضًا وبحرًا وسماءً أغنى بما لا يقاس من ذاك الذي وُلد فيه.

المخلص السامي وقاضي الأرض[1]

الآن يتجه زيوس ليتأكد أن التياتنة المهزومين لن يستطيعوا أن ينهضوا أبدًا لتهديد نظامه. أقوى وأعنف خصومه في هذه الحرب لم يكن كرونوس، بل أطلس، الابن الأكبر والأعنف والأقوى لإيابتوس وكلايميني[30]. كان أطلس في قلب كل معركة، يثير حماسة رفاقه التياتنة ليقاتلوا، ويصيح مناديًا بهجمة جماعية خارقة أخيرة حتى بينما كان الهيكاتونكيريس يمطرونهم بقذائف الهزيمة. حكم زيوس على أطلس برفع السماء إلى الأبد عقابًا له على عداوته، هكذا ضرب زيوس عصفورين بحجر واحد. سلفي زيوس، كرونوس وأورانوس، كانا مضطرَّين لإضاعة قوتهما وطاقتهما في فصل السماء عن الأرض. خفَّف زيوس عن عاتقه ذلك الحمل الهائل، ووضعه حرفيًا على عاتق عدوه الأخطر. وقف التيتان الهائل عند نقطة التقاء ما

(1) Disposer Supreme, and Judge of the earth: عنوان هذا القسم هو اسم قصيدة للشاعر الإنجليزي والمبشِّر المسيحي تشارلز ويزلي Charles Wesley (1707 - 1788). [المترجم]

نطلق عليهما اليوم إفريقيا وأوروبا، بجسده الجبار منقبضًا ويَنُوءُ بثقل السماء الهائل على ظهره، عضلاته منتفخة وأرجله ترسخت في الأرض. لدهور طويلة ظلّ يتأوّه مثل رافع أثقال بلغاري، ومع الوقت تحجّر في جبال أطلس في شمال إفريقيا التي ترفع السماء في يومنا هذا. صورته مشدودًا جاثمًا يمكنك أن تجدها على نسخ أول الخرائط المرسومة للعالم، والتي لا تزال حتى يومنا هذا تسمّى على شرَفه «أطلس»[31]. على أحد جانبيه يقبع البحر الأبيض المتوسط، وعلى الآخر يوجد المحيط الذي لا يزال يسمى على اسمه (المحيط الأطلنطي)، حيث يُقال إن جزيرة المملكة الأسطورية أطلانطيس Atlantis كانت مزدهرة ذات يوم.

أما كرونوس، الروح القاتمة التعيسة الذي كان ذات يوم سيد الجميع، الطاغية المتجهِّم الشاذ الذي التهم أبناءه خوفًا من نبوءة، فعقابه كان مثلما تنبأ أبوه أورانوس أن يجوس في العالم بلا توقف، يقيس الأبدية في منفاه الوحيد الأبديّ القاسي. حكم زيوس على كرونوس أن يحصي حتى المالانهاية، عليه أن يؤشِّر على كل يوم، كل دقيقة، وكل ساعة تمر. يمكننا أن نراه في كل مكان حتى اليوم، بهيئته المزرية المشؤومة حاملًا منجله، وقد صار له اللقب الرخيص المهين «أب الزمن العجوز Old Father Time»، ملامحه الغائرة الشاحبة تخبرنا بدقات ساعة الكوزموس الحتمية عديمة الشفقة، وتحملنا جميعًا إلى النهاية. يتحرك منجله رائحًا غاديًا ويقطع كبندول لا يعرف الرحمة، يقاوم اللحم الفاني هجماته كما تقاوم الحشائش آلة جز العشب. نجد كرونوس في كل الأشياء المزمنة chronic أو المتزامنة synchronized، وفي الكرونوميتر chronometers والكرونوجراف chronograph والسجلات chronicles[32]. أطلق الرومان على هذا التيتان العابس الشاحب المهزوم اسم ساتورن Saturn. ويتجول ساتورن [كوكب زحل] في السماء بين أبيه أورانوس وابنه جوبيتر[33].

لكن لم يتعرض كل التياتنة للنفي والعقاب، فقد منح زيوس الكثيرين

منهم الرحمة وأظهر الشهامة، أما القلّة التي اصطفت معه في الحرب منهم فقد أغرقهم بالعطايا[34]. بروميثيوس شقيق أطلس كان على رأس من اتصفوا بالبصيرة الكافية ليقفوا مع زيوس أمام بني جنسهم[35]. منحه زيوس شرف مرافقته، ووجد في مصاحبة التيتان الشاب سعادة غامرة، إلى أن جاء اليوم الذي أدّت فيه هذه الصحبة إلى عواقب هائلة تخص الجنس البشري، عواقب تؤثر فينا حتى الآن. قصة هذه الصداقة ذات النهاية المأساوية سنحكيها عمّا قريب.

مثلما ذكرنا من قبل كان السيكلوبسات قد منحوا زيوس إبان الحرب شرف استخدام سلاحهم الذي سيرتبط به زيوس على الدوام: صاعقة الرعد، وأشقاؤهم الهيكاتونكيريس بقوّتهم الهائلة ضمنوا له النصر. كافأ زيوس الهيكاتونكيريس بإعادتهم إلى تارتاروس، لكن ليس كمساجين هذه المرة، بل كحراس لبوابات الأعماق السحيقة. جائزة السيكلوبسات كانت تعيينهم صناعًا شخصيين لزيوس، حداديه وحرفيّيه وصنّاع دروعه.

النظام الثالث

كان الدخان لا يزال يتصاعد من العالم الذي هشَّمته وحشية الحرب. رأى زيوس أن العالم بحاجة للتعافي، وعلم أن على جيله، النظام الثالث من الكيانات الإلهية، أن يجد طريقة أفضل من النظامَيْن السابقَيْن لإدارته، حان وقت بناء نظام جديد مُطهّر من شهوة إراقة الدماء والوحشية البدائية اللذين كانا جزأين لا يتجزآن من النظامين السابقين.

والغنائم كانت للمنتصرين. زيوس، مثل مدير تنفيذي أتمّ لتوّه استحواذًا عدوانيًّا على شركة منافسة، أراد إزاحة الإدارة القديمة ووضع أناسه محلها. عيّن لكل من إخوته نطاقه وحصته من المسؤولية الإلهية. اختار رئيس الخالدين مجلس وزرائه.

اختصّ نفسه بالقيادة العامة بصفته قائدًا أعلى وإمبراطورًا وسيّد القبة الزرقاء وآمر الطقس والرياح، ملك الآلهة وأبو السماء وجامع الغيوم، البرق والرعد رهن إشارته. شعاراه كانا طائر العُقاب وشجرة البلوط، رمزي القدرة العاتية والعظمة المتعالية من وقتها وحتى الآن. كلمته قانون، قوته أبعد ما يكون. لكنه لم يكن كاملًا... لم يكن كاملًا على الإطلاق.

هستيا

هستيا، أول من التهم كرونوس وآخر من خرجوا منه. هي، على الأرجح، أقل من نعرف من بين كل الآلهة، ربما لأن النطاق الذي عيّنه لها زيوس بحكمته كان أرض المدفأة Hearth[1]، وهي شيء لم نعد نوليه

(1) تعني كلمة hearth الأرض الحجرية تحت المدفأة والمحيطة بها، والتي قد تشمل الغرفة كلها. [المترجم]

ذات القدر من الاهتمام مثل أسلافنا في عصرنا الأقل تشاركية، حيث نظم التدفئة المركزية والغرف المستقلة لكل أفراد الأسرة. مع ذلك، فحتى بالنسبة لنا لا تزال الكلمة تعني ما هو أكثر من المِدفأة، فنحن نقول «المدفأة والبيت hearth and home[1]»، وكلمة hearth تشارك جذورها مع كلمة (قلب heart)، بالضبط مثلما يُقابلها في اليونانية المعاصرة كلمة kardia، والتي تعني القلب أيضًا. المفهوم الواسع للمدفأة والبيت كان يُعبَّر عنه في اليونان القديمة بكلمة oikos، والتي لا تزال حية معنا في كلمات مثل «اقتصاد economy» و«علم البيئة ecology»، والمقابل اللاتيني لأرض المدفأة هو focus، والتي تعني في الإنجليزية اليوم (التركيز). إنه لشيء غريب ورائع كيف أنّ من مرادفات للمدفأة جاءت كلمات مثل (طبيب قلب cardiologist) و(تركيز عميق deep focus) و(محارب بيئي – eco warrior)، المعنى الضمني في المركزية التي تربط تلك الكلمات ببعضها يُعرِب أيضًا عن الأهمية الكبرى لأرض المدفأة عند الإغريق والرومانيين، وبالتالي أهمية هستيا، ربّتها الراعية.

رفضت هستيا عروض زواج من غيرها من الآلهة، وكرّست نفسها للعذرية الدائمة. راضية رائقة عطوفة مضيافة بيتية[36]، تنزع للنأي بنفسها عن صراعات السلطة والمكائد السياسية اليومية لبقية الآلهة. كانت هستيا تُصوَّر دائمًا كرَبَّة متواضعة، في ثوب بسيط تُقدّم بعض اللهب في صحن أو تجلس على وسادة صوف خشنة على عرش خشبي متواضع. جرى العرف في اليونان على ترديد تحية لهستيا قبل تناول أي وجبة.

عدَّها الرومان – الذين أطلقوا عليها فيستا Vesta – شديدة الأهمية لدرجة أنهم كرّسوا لها مدرسة راهبات كاملة، معروفة باسم عذارى فيستا Vestal Virgins، مسؤوليتهنّ الأساسية، بالإضافة إلى الحفاظ على العفّة الدائمة بالطبع، كانت التيقن من أن النار التي تُمثل الربّة لا تنطفئ أبدًا. كنّ أول حارسات للّهب المقدس.

---

(1) قول مأثور شائع يعني البيت والأسرة وكل ما فيه. [المترجم]

يمكنك القول إذًا إنّه لا توجد الكثير من القصص الجيدة عن هذه الربّة الرقيقة اللطيفة. أنا لا أعلم إلا قصة واحدة، ستسمعها بعد وقت غير طويل، وطبعًا ستخرج هستيا منها على خير.

القرعة

اتّجه زيوس بعدها لشقيقَيه مثيري المشاكل مظلمَيّ المزاج: هاديس وبوسايدون. كانا قد أثبتا في أثناء الحرب أنهما يمتلكان القدر نفسه من المهارة والشجاعة والمراوغة، وفكر زيوس أن العدل يقتضي أن يُقترعا على الولايتين اللتين لم يُعين لهما حاكمًا بعد: البحر والعالم السفلي.

كرونوس، إن كنت لا تزال تذكر، كان قد بسط هيمنته فوق وداخل وتحت البحر من ثالاثا وبونتوس وأوشيانوس وتيثيس، والآن ذهب كرونوس وباتت مملكة الماء المالح بين يدي زيوس يهديها لمن يشاء. أما العالم السفلي فكان يتضمن تارتاروس ومروج أسفودل Asphodel الغامضة (ستعرف المزيد عنها لاحقًا) والظلمة تحت الأرضية التي يحكمها إيربوس، وحان الوقت ليخضع كل هؤلاء لسلطة إله واحد من جيل زيوس.

لم يَكِنّ بوسايدون وهاديس أي محبة لبعضهما، وعندما وضع زيوس يديه خلف ظهره ثم قدمهما لهما بقبضتين مضمومتين، ترددا. حالات النفور الأخوي المشابهة تتضمن عادة أن يريد الأخ ما يريده أخوه.

تساءل بوسايدون في نفسه: «أيتمنى هاديس الحصول على البحر أم على العالم السفلي؟ إن أراد العالم السفلي فأنا أيضًا أريده، فقط لأغضبه».

تفكير هاديس لم يختلف، قال لنفسه: «أيًا كان ما سأحصل عليه، سأهتف في انتصار، فقط لأضايق ذاك الوغد بوسايدون».

في كلتا اليدين الممدودتين أخفى زيوس حجرًا كريمًا: في واحدة حجر ياقوت أزرق كالبحر وفي الأخرى كهرمان أسود كإيربوس ذاته.

تقافز بوسايدون ببهجة عندما لمس ظهر يد زيوس اليمنى ورآها تنفتح لتكشف عن الياقوتة الزرقاء اللامعة، وصاح: «البحر لي».

فهتف هاديس: «هذا يعني أن...»، ولوَّح بقبضته في انتصار، «أن العالم السفلي لي»، وضحك عاليًا.
لكنه كان يغلي في أعماقه. الآلهة أطفال.

هاديس

تلك كانت آخر لحظة رأى فيها أحدهم هاديس يضحك، هجره بعدها أي أثر للبهجة أو المرح. ربما تقضي واجبات ملك العالم السفلي على أي بقايا لحيوية الشباب وخفة الوجود التي كانت موجودة في صاحبها من قبل.

نزل هاديس إلى الأعماق لينحت مملكته. مع أن اسمه سيظل مرتبطًا دومًا بالموت والحياة الأخرى، وستظل مملكة العالم السفلي (التي تشاركه اسمه) مرتبطة بالألم والعقاب والمعاناة الأبدية، إلا أنّ هاديس سيصبح أيضًا رمزًا للثراء والسعة، فالمجوهرات والمعادن الثمينة تُستخرج من مملكته السحيقة، والمحاصيل التي لا تقدر بثمن من الحبوب والخضروات والزهور التي تنبت من تحت الأرض هي تذكِرة أنّ من الموت والتعفن تنبثق الحياة والكثرة والوفرة. سماه الرومانيون بلوتو Pluto، والكلمات مثل (حكم الأثرياء/ بلوتوقراطية Plutocracy) و(بلوتونيوم plutonium) تقول الكثير عن ثرائه وقوته العظيمين[37].

تحت لواء هاديس مباشرة صار يعمل نيكس وإيربوس وابنهما ثاناتوث (الموت ذاته). شقّت العالم السفلي شبكة من الأنهار أكثر ظلمة ورهبة من أن تتدفق في الهواء الطلق، أهمها كان نهر ستيكس (الكراهية)، ابنة لأوشيانوس وتيثيس التي لا يزال اسمها وصفاتها تُستدعى حتى اليوم كلما أردنا وصف شيء مظلم خبيث قاتم، شيء جهنّمي أسود كئيب. صبّ فيها فليجثون Phlegethon، نهر النار الملتهب، وأكرون Acheron، نهر الويل، وليثي Lethe، مياه النسيان، وكوسايتوس Cocytus، مجرى العويل والنواح. كارون شقيق ستيكس عُين مراكبيًا، في الوقت الحاضر يقف

منتظرًا مستندًا إلى سارية مركبه على ضفاف ستيكس. كان كارون قد رأى في منام أنّه ذات يوم ستأتي الأرواح بالآلاف إلى شاطئ النهر ويدفعون له مقابل العبور... ذات يوم، عما قريب.

مَنح هاديس مساحة للفيوريات، الإيرنيات المولودات من الأرض، ليعشنَ في قلب مملكته القاتمة، من هناك صار بوسع ثلاثتهن الطيران إلى شتى أرجاء العالم للانتقام من الجناة الذين بلغت شناعة جرائمهم درجة استحقاق انتباه المنتقمات.

مع الوقت سيكون لهاديس حيوان أليف، كلب عملاق ثعبانيّ الذيل ثلاثي الرؤوس، من الذرية الوحشية لجايا وتارتاروس وإيكدنا وتايفون، اسمه كيربروس Kerberos (وإن كان يستجيب أيضًا لاسمه الروماني سيربروس Cerberus)، وهو كلب الجحيم الأصلي، الحارس اليقظ المرعب الذي لا يكّل للعالم السفلي.

عند بحيرة ليرنا Lerna التي يمكن استخدامها كمدخل للعالم السفلي، وضع هاديس هايدرا Hydra، وهي ابنة أخرى لتارتاروس وجايا. ذكرتُ من قبل التحورات المريعة التي قد تنتج عن جماع الوحوش، البَوْن الشاسع بين سيربروس وأخته هايدرا مثال صارخ على ذلك؛ من ناحية نجد كلبًا برؤوس ثلاثة قابلة للتعامل معها بشكل ما وذيل ثعباني يتلوى بأناقة، ومن ناحية أخرى نجد شقيقته وحشًا بحريًّا متعدد الرؤوس قتلها شبه مستحيل، إن قطعت لها رأسًا تستطيع إنبات عشرة رؤوس مكانها.

رغم هواية تجميع الحيوانات الشاذة، يظل هاديس مكانًا هادئًا في الوقت الحالي، يحكمه ربٌّ لا يجد الكثير ليفعله. كي يضج الجحيم بالانشغال يجب أن يصبح هناك فانون، كائنات تموت. لذا سنترك بلوتو الآن جالسًا وحيدًا على عرشه الجهنمي البارد يتأمل في اكتئاب، بذات عدوانية وبرود بُعد الكوكب الذي يحمل اسمه[38]، ويلعن سرًا الحظ السعيد الذي منح أخاه الذي يكرهه حكم البحار.

بوسايدون

بوسايدون إله من نوع مختلف إلى حد كبير عن هاديس، فهو قادر أحيانًا على أن يكون شرسًا عاصفًا مغرورًا متقلبًا هوائيًا قاسيًا مضطربًا لا يُسبَر له غَور، بالضبط كالمحيطات التي يحكمها، لكن يمكنه أن يكون وفيًا وممتنًا أيضًا. قد يُعرب بوسايدون كذلك عن رغبات جسدية فورية وعن حب روحي عميق وعن كل شعور على الخط الممتد بينهما، وهو في ذلك مثل أشقائه كلهم وبعض شقيقاته. بوسايدون مثل كل الآلهة متعطش للعبادة والقرابين والطاعة والحب. لو صاحَبك مرة فهو صاحِبك إلى الأبد، ولو عاداك مرة فهو عدوك إلى الأبد. طموحه كان يتجاوز القرابين المذبوحة والمراقة والصلوات، فقد أبقى عينًا يقظة متعطشة دومًا على أصغر إخوته، ذاك الذي يطلق على نفسه «الأكبر» و«الملك»، إن ارتكب زيوس العظيم أخطاءً أكثر من الممكن تداركها، فبوسايدون سيكون هناك فورًا ليطيح به من على عرشه.

مثلما صنعت السيكلوبسات صاعقة الرعد لزيوس، صنعت سلاحًا عظيمًا لبوسايدون أيضًا: رمح ثلاثي. رمح الصيد الهائل المتشعب لثلاث رؤوس يمكن استخدامه لإثارة الأمواج والدوامات، بل وحتى لهزّ الأرض بالزلازل، ما منح بوسايدون لقب «مُرجِف الأرض». رغبته في أخته ديميتر جعلته يخترع الحصان ليبهرها ويرضيها، لكنه فقد اهتمامه بديميتر بينما ظل الحصان مقدسًا عنده دائمًا.

بنى بوسايدون قصرًا شاسعًا من المرجان واللآلئ تحت ما نسميه الآن بحر إيجة، واستقر فيه مع زوجته أمفيترايتي Amphitrite، ابنة نيريوس ودوريس، أو ربما بحسب قول البعض ابنة أوشيانوس وتيثيس. منح بوسايدون أمفيترايتي كهدية زفاف أول حيوان دولفين. أنجبت له زوجته ابنًا يُدعى ترياتون Triton، نوع من المقابل الذكَري لعروس البحر، يُصوَّر عادةً جالسًا على ذيله وينفخ من وجنتيه المنفوختين في صدفة. بدت أمفيترايتي في الواقع بلا شخصية مميزة، ولم تظهر في القصص المثيرة

للاهتمام إلا نادرًا. قضى بوسايدون أغلب وقته في مطاردة كمية يصعب حصرها من الفتيات الجميلات والفتيان، وأنجبت منه البنات عددًا أكبر من الوحوش وأنصاف الآلهة والأبطال البشر، منهم بيرسي جاكسون Percy Jackson وثيسيوس Theseus على سبيل المثال لا الحصر.

المقابل الروماني لبوسايدون هو نبتون Neptune، كوكبه العملاق محاط بأقمار منها ثالاثا وترايتون وناياد[39] وبروتوس[40].

ديميتر

ديميتر كانت التالية من أبناء كرونوس في طابور توزيع حصص الواجبات الإلهية. شعرها كان بلون القمح اليانع، بشرتها كانت كالقشطة، وعيناها أكثر زرقة من وردة الذرة. كانت ذات جمال حالم ثري مثل بقية الربّات، ربما باستثناء.... حسنًا، سؤال من كانت الربّة الأجمل، سيتضح أنه أكثر سؤال شائك مثير للجدل وذو عواقب كارثية، سُئل على الإطلاق.

كانت شديدة الجمال لدرجة أنها جذبت الانتباه غير المرغوب فيه لأخوَيْها زيوس وبوسايدون. لتتفادى بوسايدون حوّلت نفسها لفرس، فحوّل نفسه لفحل كي يطاردها، نتيجة اتحادهما كانت مُهرًا يدعى أريون Arion، سيكبر أريون ليصبح حصانًا خالدًا ذا قدرة سحرية على الكلام[41]. أما من زيوس فأنجبت فتاة تُدعى بيرسفوني Persephone، سنتعرض لحكايتها لاحقًا.

منح زيوس ديميتر مسؤولية الحصاد والسلطة على النمو والخصوبة والمواسم. اسمها الروماني كان سيريس Ceres، منه حصلنا على كلمة (حبوب cereal)[42].

مثل هستيا، ديميتر من الربّات ذوات الشخصيات الأقل حضورًا في عقولنا اليوم من بقية أفراد أسرتها ذوي الكاريزما والعاطفة المشتعلة. لكنها، مثل هستيا، نطاق سلطتها كان ذا أهمية عظيمة للإغريق، المعابد والطوائف المكرَّسة لعبادتها دامت أكثر بكثير من تلك المكرَّسة لآلهة أكثر

بهرجة منها. القصة الوحيدة العظيمة عن ديميتر هي قصة ابنتها وهاديس، وهي قصة جميلة بقدر ما هي درامية وصادقة وبعيدة التأثير.

هيرا

هيرا، خامس من أنجبت ريا. لا تزال كلمات مثل «مغرورة» و«غيورة» و«مستبدة» و«متغطرسة» و«منتقمة» تنطبق عليها، وإن كانت على الأرجح ستصيبها بالجنون إن سمعتها، ويضاف على ذلك تمثيلها في الفن والثقافة الشائعة بهيئة تمثالية تميل للامتلاء المهيب.

لم يكن القدر والأجيال اللاحقة طيبين مع ملكة السماء، فعلى عكس أفرودايتي وجايا، لم تحصل هيرا على كوكب باسمها[43]، وعليها أن تتحمّل عبء السمعة التي تصاحبها كشخصية متفاعلة لا فاعلة، تحركها دائمًا الخيانات الفاحشة لزوجها/ أخيها زيوس.

يسهل وصم هيرا بأنها طاغية مزعجة غيور مرتابة مضجرة، تثور وتوبِّخ مثل الصورة النمطية للزوجة المزدرية العجوز المشاكسة (يكاد المرء يتخيلها تلقي بالخزف الصيني على الخدم معدومي الحول والقوة)، تنتقم بِغِلٍّ من النيمفات والفانين الذين ضايقوها، أو فشلوا في حرق ما يكفي من الحيوانات كقرابين على مذابحها، أو ارتكبوا الجرم الألعن على الإطلاق: ناموا مع زيوس، سواء كان ذلك برضاهم أو من دونه فهي لن تغفر لهم، وبوسعها الاحتفاظ بضغينتها مشتعلة إلى الأبد. غير أنها بقدر ما كانت متعجرفة ومتحفّظة ومتشدّدة في الحفاظ على التراتبية والنظام القائم ونافدة الصبر أمام كل بدعة وجديد - إذ كانت هيرا هي الصورة الأولية النمطية خلف الكثير من العمّات في الأدب والأرامل الثرية في السينما - لم تكن هيرا مضجرة قط[44]، القوة والعزيمة اللذان واجهت بهما إلهًا بوسعه سحقها تمامًا بصاعقة رعدية واحدة، تظهران ثقتها بنفسها وشجاعتها.

أنا مولع بها، ورغم أني سأتلعثم وأتورَّد وأبتلع ريقي بغرابة في

حضورها، ستجد فيّ معجبًا ولهانًا. لقد منحت الآلهة الرسوخ والثقل، والهدية التي لا تقدَّر بثمن: ما كان يسميه الرومانيون auctoritis [السلطة]. ولو أنّ هذا يجعلها تبدو كمَفسَدة المتع، فالمتَع أحيانًا تحتاج لمن يفسدها، لمن ينادي الأطفال ليعودوا إلى البيت من ساحة اللعب. نطاق سلطتها كان الزواج، والحيوانات التي ترمز إليها كانت الطاووس والبقر.

تطورت علاقتها بزيوس خلال الحرب ضد التياتنة بشكل طبيعي، وبات من الواضح له أنها الوحيدة ذات الحضور والمنزلة والهيبة الكافية لتصبح زوجته التي ستنجب له آلهة جديدة.

رغم التوتر المستمر ونفاد الصبر وقلة الثقة، كان زواجهما بلا شك زواجًا عظيمًا.

بيت جديد

طموح زيوس كان حقبة جديدة، نظام جديد يشمل ما يزيد عن مجرد توزيع السلطات والمسؤوليات على أشقائه وشقيقاته، تخيلَ زيوس شيئًا أكثر استنارة وعقلانية من الديكتاتوريات الدموية التي سبقته.

رؤية زيوس كانت لمجلس من اثني عشر إلهًا أساسيًّا، أو دوديكاثيون dodecatheon مثلما قالها هو باليونانية[45]، قابلنا حتى الآن منهم ستة: أبناء كرونوس وريا، وهناك إلهة أخرى مررنا بها أكبر منهم جميعًا، أفروديتي المولودة من الزَّبَد. عندما ثارت التيتانومكي، جلب زيوس أفروديتي من قبرص، لإدراكه أنها ستساوي ثمنًا هائلًا لو اختطفها التياتنة وطلبوا فدية أو جندوها، وطوال السنوات العشر الماضية عاشت أفروديتي راضية بين الآلهة، وهكذا بات عددهم الآن سبعة[46].

مثلما اصطنع التياتنة من جبل أوثريس لأنفسهم بيتًا، اختار زيوس جبل أوليمبوس Olympus أعلى جبال اليونان مقرًا للآلهة. سيُعرف زيوس وآلهته من الآن فصاعدًا بلقب الأوليمبيين، وسيحكمون مثلما لم يفعل كيان رباني قبلهم ولا بعدهم.

المسخ

عندما انتقل الآلهة إلى الأوليمبوس كانت هيرا حبلى. كانت في أقصى حالة رضا ممكنة؛ طموحها كان أن تحمل لزيوس أبناء ذوي قوة وجمال ملوكيَين، ما يضمن مكانها كملكة السماء إلى الأبد، فهي تعلم أن عين زيوس زائغة وتعتزم ألّا تدع أي جزء أخر منه يزوغ أيضًا. خطة هيرا هي أن تنجب له ابنًا سيكون أعظم الآلهة، تنوي أن تسميه هيفايستوس Hephaestus، ثم سيتزوجها زيوس زواجًا ملائمًا وسيُخضع نفسه لإرادتها إلى الأبد. لكن خطط الخالدين كانت عرضة لألاعيب موروس القاسية بقدر خطط الفانين بالضبط.

حينما آن أوانها، تمددت هيرا ووُلد هيفايستوس، لكن ما أصابها بغاية القنوط كان أن الطفل جاء داكنًا وقبيحًا وضئيلًا إلى حد أنها، بعد نظرة مشمئزة سريعة، التقطته وقذفته من حافة الجبل. راقبت الآلهة الأخرى الرضيع الباكي وهو يرتطم بجوانب الجبل ويختفي في البحر، ثم ساد صمت مريع.

سنعرف ماذا حدث لهيفايستوس عما قريب. دعنا في الوقت الحاضر نبقى على الأوليمبوس، حيث ستصبح هيرا حاملًا مرة أخرى من زيوس قريبًا. هذه المرة اعتنت بنفسها جيدًا، وصارت تأكل طعامًا صحيًا وتتمرن باستمرار ولطف بما يتوافق مع كل مبادئ وتعاليم الحمل والمخاض. أرادت هيرا أن تحظى بابن مناسب، وليس مسخًا لا يصلح إلا لإلقائه بعيدًا.

إنه الحرب

عندما حان الوقت وضعت هيرا هذه المرة الطفل القوي الوسيم المفعم بالحيوية الذي أرادته دائمًا.

آريس Ares، مثلما أسمته، كان من البداية صبيًا مشاكسًا عدوانيًا عنيفًا، أثار الشجارات مع الجميع، ولم يفكر في شيء عدا صليل السيوف والأحصنة والعربات الحربية والرماح وفنون القتال. كان من الطبيعي أن يعيّنه زيوس، الذي نفر منه منذ اللحظة الأولى، ربًا للحرب.

آريس، أو مارس Mars كما يسميه الرومانيون، بالطبع لم يكن ذكيًا، وكان بطيء التفكير ومعدوم الخيال، فالحرب كما يعرف الجميع غبية. مع ذلك، حتى زيوس اعترف على مضض أنه كان إضافة ضرورية للأوليمبوس، فربما تكون الحرب غبية لكنها أيضًا حتمية، وفي بعض الأحيان - لو تسمحوا لي بقول ذلك - ضرورية.

بينما كان آريس يخطو عتبات الرجولة بسرعة، وجد نفسه مُنجذبًا بلا مقاومة لأفروديتي، ومَن مِن الآلهة ليس كذلك؟ لكن ربما كان المربك أنها كانت مُنجذبة له بنفس القدر، بل في الواقع أحبته، عنفه وقوته لمسا وترًا حساسًا فيها. بادلها آريس بدوره الحب، بقدر ما يستطيع هذا الوحش العنيف أن يشعر بالحب. الحب والحرب، فينوس ومارس [الزهرة والمريخ]، كانت على الدوام ثمة ألفة بينهما لا أحد يعرف سببها بالضبط، لكن بعضهم حصد أموالًا كثيرة في محاولةٍ للوصول إلى إجابة.

العرش المسحور

هيرا، لترسّخ مكانتها كملكة السماء المعترف بها كونيًا وزوجة زيوس التي لا ينازعها أحد، شعرت بالحاجة إلى إقامة وليمة عظيمة ومراسم زفاف عامة ستقيد زيوس برباط الزواج بها إلى الأبد.

غريزتا هيرا التوأمتان: التحفظ الاجتماعي والطموح، كانتا خلف كل شيء تفعله تقريبًا. كانت سعيدة برؤية ابنها مغرمًا بأفروديتي، لكنها مع ذلك لم تثق بها. لو وافقت أفروديتي على إعلان ارتباطها جهرًا بآريس مثلما سيفعل زيوس مع هيرا، عندها سيكون كل شيء مُلزم ورسمي، وسيسهّل عليها أكثر إتمام انتصارها النهائي. سيكون أول زفاف في العالم يُحتفى فيه بزواجين لا بواحد.

حُدِّد موعدٌ وأُرسلت الدعوات، وبدأت الهدايا في الوصول. اتفق الجميع على أن أجمل الهدايا على الإطلاق كان كرسي ذهبي بديع موجه مباشرة إلى هيرا. لم تقع عينٌ من قبل قط على شيء بهذه الفخامة والمهابة،

أيًا كان المُرسل المجهول لهذا الكرسي، فقد كان من الواضح، بحسب رأي هيرا، أنه صاحب أرقى الأذواق على الإطلاق. انحنت هيرا لتجلس على العرش بابتسامة رضا، وعلى الفور حلت الحياة في ذراعي المقعد واندفعتا لتحيطا بها في حضن محكم. قاومت بكل قوتها لكنها لم تتمكن من الهرب، انغلقت الذراعان حولها تمامًا وعرفت أنها باتت محاصرة.

صوت الصراخ كان مريعًا.

الأعرج

ثمة شكٌ وخلاف وتكهنات حول ما حدث لهيفايستوس بعدما رُمي من السماء، يقول البعض أن الأوشيانية يورينومي هي من اعتنت بالربّ الرضيع، أو ربما التيتانة تيثيس أم يورينومي، أو النيريدية ثيتيس Thetis (من بنات نيريوس ودوريس) التي ستنجب أخيل Achilles بعد سنوات عديدة. لكن الأكيد على ما يبدو أن هيفايستوس نشأ على جزيرة ليمنوس Lemnos حيث تعلّم كيف يشكل الحديد ويصنع أكثر الأشياء إتقانًا وتعقيدًا. أظهر بسرعة موهبة استثنائية في صناعة الأدوات المفيدة والزخرفية بل وحتى السحرية، ضع هذا مع قوته في نفخ الكير وحصانته على ما يبدو من الاحتراق بنيران الأفران، تحصل على أعظم الحدّادين.

خلال ارتطامه بحواف جبل أوليمبوس تضررت قدمه، ما أصابه بعرج دائم. مظهر هيفايستوس بمشيته الغريبة وملامحه المشوهة نوعًا ما وشعره الأسود المجعد غير المنتظم كان مخيفًا، غير أنّه اشتهر بعد ذلك بولائه وعطفه وروحه المرحة ومزاجه المعتدل. الأساطير اليونانية مفعمة بالرُضَّع المنبوذين في الخلاء أو المهجورين على قمم الجبال ليموتوا وحدهم، عادة بسبب نبوءة تتكهن بأنهم سيجلبون ذات يوم الخراب على أهلهم أو قبيلتهم أو مدينتهم، أو لأنهم أُعتُبِروا ملعونين أو مشوَّهين أو قبيحين، ويبدو أن هؤلاء المنبوذين يجدون طريقهم دومًا للعودة وتحقيق النبوءة، أو الانتصار والحصول على حقهم بالولادة.

اشتاق هيفايستوس للعودة إلى الأوليمبوس الذي كان يعلم أنه وطنه المُستحق، لكنه كان واعيًا أنه لن يستطيع فعل ذلك دونما ضغينة أو بشروط ملائمة إلا لو سمح لنفسه بفعل انتقامي واحد محكوم، يثبت به قوة شخصيته وحقه السماوي ويستخدمه كبطاقة دخوله إلى السماء.

هكذا تعلّم هيفايستوس صنعته واشتغل على منفاخ الهواء، ووضع عقله الماهر السريع خطة حولتها أصابعه الماهرة السريعة بسرعة إلى واقع مدهش.

يد أفروديتي

صاحت هيرا بغضب وإحباط وهي مربوطة بإحكام في العرش الذهبي، لا قوّتها ولا حتى قوة زيوس ذاته كانت قادرة على تحريرها من لعنته. كيف ستدعو عالم الفانين إلى وليمة تجلس على رأسها حبيسة كرسيها مثل مجرم في أغلاله؟ ستكون مَسخَرة. أيّ سحر هذا؟ من الذي فعل بها هذا؟ كيف يمكنها أن تتحرر من تلك اللعنة؟

زيوس قليل الحيلة، تحت طائل وابل التساؤلات والشكاوى الصارخة، اتجه لبقية الآلهة سائلًا المساعدة، وأعلن أن من سيتمكن من تحرير هيرا، سينال يد أفروديتي زوجة له، أعظم جائزة زوجية وُجدت على الإطلاق.

أعرب آريس عن انزعاجه بصخب من هذا المرسوم القاطع، ألم يكن من المفهوم أنه هو الموعود بيد أفروديتي؟

قال زيوس: «اِهدأ، أنت أقوى من بقية الآلهة ولو اجتمعوا، زواجك بها مضمون».

أفروديتي أيضًا كانت واثقة بحبيبها وحثّته على تحرير هيرا بكلمات مشجعة، بيد أن كلّ شد وجذب ودفع وركل وسباب آريس لم يكن له أدنى تأثير، بل بدا أنه كلما شدّ أكثر أحكم العرش قبضته على هيرا أكثر. قام بوسايدون بمحاولة قوية أيضًا رغم زواجه بالفعل من أمفيترايتي، لكنها كذلك لم تكن ذات جدوى. حتى هاديس صعد من العالم السفلي ليجرب حظه في تحرير هيرا من مأزقها المُحرج، بلا فائدة.

بينما كان زيوس نفسه يجذب بعنف وعبثية أذرع العرش، متحمّلًا المزيد من شتائم هيرا المُهانة المهتاجة، سعال مهذب لكن ثقيل قطع الاضطراب الحاصل في المكان، فاستدار الآلهة المتجمعون.

في قلب قاعة السماء، بابتسامة على وجهه غير المتناسق، وقف هيفايستوس.

قال: «أهلًا يا أمي، أثمة ما يضايقك؟».

«هيفايستوس؟».

عرج إلى الأمام. «سمعتُ أن هناك جائزة من نوع ما...؟».

حدقت أفروديتي في الأرض وعضّت على شفتها، وزمجر آريس وشرع في التحرك إلى الأمام، لكن زيوس منعه، وانقسمت بقية الآلهة لتسمح للكائن الدميم الصغير بشق طريقه عارجًا بينهم إلى حيث تجلس هيرا مغلولة على عرشها الذهبي. انفتحت ذراعا العرش بعد لمسة واحدة من أصابع هيفايستوس وباتت هيرا حرة[47]. وقفت على قدميها، عدّلت رداءها، شدّت نفسها بطريقة تخبر العالم أن الموقف برمّته كان تحت سيطرتها من البداية. بدأت وجنتا أفروديتي بالاحمرار، لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا!

تلك كانت لحظة الانتقام الجميل بالنسبة لهيفايستوس، لكن طبيعته الطيّبة منعته من التبجّح. رغم آلام الرفض التي عانى منها طوال حياته – أو ربما بسببها – لم يكن مدفوعًا بالغضب أو بالامتعاض، بل فقط برغبته في الإرضاء، في جعل نفسه سببًا لإسعاد الآخرين. عَلم أنه كان قبيحًا، وعلم أنّ أفروديتي لا تحبه، وأنه لو طالب بها كجائزة له فستخونه وتتسلل إلى سرير أخيه آريس باستمرار، غير أنه كان ببساطة سعيدًا بعودته إلى البيت.

أما فيما يخص هيرا، بعدما عرفت أنها دفعت ثمن خيانتها القاسية الشاذة لغرائز الأمومة، فقد حافظت على صمت جليدي ملوكي، بينما كان جزءٌ منها في السر فخورًا بابنها الأكبر، وبمرور الوقت ستصبح مولعة به بصدق، وكذلك سيكون الأوليمبيون كلهم.

سيصنع هيفايستوس الهدايا لأفروديتي ولكل الآلهة، وسيثبت جدارته بمقعده المستَحق بين الاثني عشر إلهًا. مُنح هيفايستوس واديًا كاملًا من الجبل ليبني فيه فُرنَه، وستصبح ورشته هي الأكثر إنتاجًا في العالم. اختار السيكلوبسات، الذين هم في الأصل من أمهر الصنّاع كما عرفنا، مساعدين له. كل ما لم يعرفه هيفايستوس بعد سيُعلمونَه له، ومع الوقت سيعملون معًا على تصميماته ليصنعوا أشياءً مذهلة ستغير وجه العالم.

عاد هيفايستوس، ربّ النار والحدّادين والحرفيين والنحّاتين وعمّال الحديد، إلى بيته. سَيُسميه الرومانيون فولكان Vulcan، الاسم الذي سيعيش في البراكين volcanoes والمطاط المفلكن vulcanized rubber[48].

وليمة الزفاف

طارت الدعوات لزفاف زيوس وهيرا، بعد تعديلها على عجل لتشمل زواج أفروديتي وهيفايستوس. كل من تلقّوا دعوة لحضور الزفاف المزدوج قبلوها بحماسة وبهجة، فمثل هذا الشيء لم يُعرف من قبل عند الخليقة كلها، لكن الخليقة كلها أيضًا لم تعرف من قبل ربّة كهيرا، بكل إحساسها باللياقة الاجتماعية ورغبتها في إرساء النظام والمراسم والشرف العائلي.

لم تعد نيمفات الأشجار والأنهار والرياح والجبال والمحيطات تتكلم إلا عن الزفاف لأسابيع، وأرواح الخشب أيضًا - الفونيون fauns الشهوانيون والدرايادات والهمادريادات - شقّوا طريقهم إلى الأوليمبوس من كل غابة وأيكة وبستان. بالغ زيوس في احتفاله بالزفاف إلى حد العفو عن بعض التياتنة، ليس من بينهم أطلس طبعًا ولا كرونوس المنفي إلى الأبد، لكن الأقل خطرًا وتهديدًا مثل إيابتوس وهايبريون، ونالوا العفو والحرية.

أعلن زيوس عن تحدٍّ لإضافة مزيد من الحماسة على المناسبة المرتقبة بهَوسٍ بالفعل: من سيصنع أفضل الأطباق وأكثرها إبداعًا لوليمة الزواج سيكونُ بوسعه أن يطلب منه أي معروف. اهتاج الخالدون الأقل مكانة والحيوانات من كل نوع لهذه الفرصة في الظهور، ابتُكرت الفئران

والضفادع والسحالي والدببة والقنادس والطيور وكل أنواع الوصفات، ليقدموها إلى هيرا وزيوس، صُنعت الكعكات والفطائر والبسكويت وأنواع الحساء وأطباق من لحم ثعبان البحر وعصائد الطحالب والفطريات، وكل ما هو حلو وحادق ومر وحامض وسائغ وُضع على منضدة عريضة ترتكز على حاملَيْن أمام الملك والملكة ليحكّما.

لكن قبل التحكيم يجب إتمام الزيجات. زوُجت أفروديتي من هيفايستوس، ثم هيرا من زيوس. عقدت هستيا مراسم الزواج ببساطة ساحرة، إذ مسحت أربعتهم بزيوت عطرية وعطور وبخور نفاذة، بينما تغني بصوت موسيقي رخيم ترانيم الصداقة والخدمة والاحترام المتبادل. تابعتهم الأسرة والضيوف، وكثير منهم استنشق الرائحة وجاهد لمنع الدموع من النزول. ارتكب أحد الفونيون خطأً غير محسوب بإعلانه بين شهقات البكاء أن أفروديتي وهيفايستوس زوجان جميلان، فتلقّى ركلة خاطفة عنيفة على مؤخرته من آريس الساخط.

الآن وقد انتهينا من الأمور الرسمية، حان وقت تحديد الفائز بمسابقة الطبخ الكبرى. تهادى زيوس وهيرا ذهابًا وإيابًا، يتشممان ويجسّان ويحركان ويتذوقان ويرتشفان ويلعقان على طول طريقهما بين الأطباق المشاركة مثل نُقّاد طعام محترفين. حبس المتنافسون على الناحية الأخرى من المائدة أنفاسهم، وعندما أومأ زيوس بالإيجاب على هلام متراقص من زهرة الخبيزة والخنافس وعين الجمل، خرجت عن مارجرت Margaret البلشونة الصغيرة، صانعة الهلام، صرخة حماس قصيرة، ثم فقدت الوعي على الفور.

غير أن الجائزة لم تكن من نصيب البلشونة، بل كان الفوز من نصيب مشارَكة تبدو متواضعة لكائنة صغيرة خجولة اسمها ميليسا Melissa. قدمت ميليسا للآلهة قارورة صغيرة جدًا مليئة حتى الحافة بسائل لزج عنبريّ اللون.

قال زيوس بينما يغمس إصبعه في السائل بإيمائة موافقة: «أها، نعم، راتنج الصنوبر، أعرفه»[49].

لكن ما كان في القنينة لم يكن راتنج الصنوبر، بل شيء مختلف تمامًا، شيء جديد، شيء لزج من دون أن يكون دهنيًا، يسيل ببطء من دون ثقل، حلو من دون إفراط، وعطري ذو نكهة تشعل الحواس من المتعة. الاسم الذي تطلقه ميليسا عليه كان: «عسل». شعرت هيرا بعدما أخذت ملء معلقة منه أن شذا أجمل زهور المروج وأعشاب الجبال يرقص ويغني داخل فمها، ولعق زيوس ظهر ملعقته وهمهم باستمتاع. نظر الزوج والزوجة لبعضهما، وأومَآ، ألّا حاجة لمزيد من التشاور.

قال زيوس: «آه... همهم، كان المستوى... عاليًا هذا العام... أحسنتم صنعًا. لكن الملكة هيرا وأنا اتفقنا على أن هذا الـ... العسل... يستحق المركز الأول».

وضعت بقية الكائنات تعبيرات مغتبطة رياضية على وجوهها في محاولة لإخفاء إحباطها، بينما وقف الجميع في نصف دائرة ضخمة وتابعوا ميليسا تندفع إلى الأمام لتنال جائزتها: أمنية سيحققها لها ملك الآلهة ذات نفسه.

ميليسا كانت صغيرة الحجم للغاية، وبدت أكثر صغرًا بينما تقترب من منصة الفائز، طارت (إذ كانت قادرة على الطيران، برغم أن هيئتها تبدو منتفخة ومتضخمة في أماكن غير مناسبة للطيران) إلى أقرب حدّ سمحت به جرأتها في وجه زيوس، وقالت له تلك الكلمات:

«مولاي المهيب، يشرفني أنك أحببت ما صنعت، لكن يجب عليّ إخبارك بأن في صناعته مشقة لا يتخيلها عقل، فأنا مضطرة للطيران بين زهرة وزهرة لتجميع الرحيق الكامن في كل منها، ولا أستطيع امتصاص وحمل إلا أقل القليل. اليوم كله يا مولاي، ما دامت إيثر تمنحني ضوءًا أرى به، أبحث عن الزهور وأرتشف الرحيق وأعود للعش، أبحث وأرتشف وأعود، أبحث وأرتشف وأعود، وكثيرًا ما أضطر للسفر لمسافات بعيدة. حتى بعد ذلك كله، لا أجد عندي في نهاية اليوم إلا أقل قدر من الرحيق أحوّله باستخدام وصفتي السرية إلى المعجون الذي أثار إعجابكم. القارورة الصغيرة تلك التي تحملها استغرقت مني أربعة أسابيع ونصفًا

لملئها، هكذا بوسعك أن ترى كم هو شاقّ عملي. بل والأدهى، رائحة العسل ثقيلة وفاتنة ولا يمكن مقاومتها لدرجة تجتذب الكثيرين ليَغيروا على عشّي، ويفعلون ذلك بأريحية، فأنا ضئيلة، وكل ما أقدر على فعله هو الطنين حولهم بغضب طالبة منهم الرحيل. تخيَّل مجهود أسبوع كامل يضيع بضربة من مخلب ابن عرسٍ أو بلعقة من شبل دبٍّ. لا أريد منك إلا سلاحًا يا مولاي. العقرب الذي لا فائدة منه منحته لسعة قاتلة، والثعبان الذي لا يفعل شيئًا إلا التمطي تحت الشمس طوال اليوم منحته عضة سامة. امنحني يا زيوس العظيم سلاحًا شبيهًا، سلاحًا قاضيا، سلاحًا يقتل كل من يجرؤ على سرقة مخزوني الثمين من العسل».

اقترب حاجبا زيوس من بعضهما في تجهّم قاتم منزعج، هزم الرعد في السماء واحتشدت السحب المعتمة وتكتلت فوقهم، تململت الحيوانات وراقبت بقلق بينما يخفت الضوء وتشتد الرياح وتُلَوّح بمفارش الموائد وتطير ذيول عباءات الربّات اللامعة.

زيوس كان مثل كل الكائنات ذات الشأن المنشغلة، نافد الصبر عندما يتعلق الأمر برثاء الذات والثرثرة الفارغة. كيف تجرؤ تلك النقطة الحمقاء الطائرة على المطالبة بلسعة قاتلة؟ سيريها كيف تفعل ذلك بكل تأكيد.

هدر زيوس: «أيتها الحشرة التعيسة! كيف تجرئين على المطالبة بمثل هذه الجائزة الوحشية؟ هبة مثل هبتك يجب أن تُشارك لا أن تُكتنز. أنا لن أكتفي برفض طلبك فقط، بل ســ...».

انفجرت ميليسا في أزيز غاضب حاد: «لكنك وعدت».

صدرت عن الحضور كلهم شهقة عالية. أهي فعلًا جرؤت على مقاطعة حديث زيوس ومُساءلة شرفه؟

دمدم الربّ باللهجة الثلجية لمن يكبح غضبه، لهجة كانت مخيفة أكثر من أي هدير غاضب: «اعذريني، لكني أعتقد أنك ستجدين أني أعلنت أن الفائز يمكنه أن يطلب أي معروف، ولم أعِد بأي شكل أن ذلك الطلب سيُمنح».

تهدّل جناحا ميليسا في إحباط[50].

قال زيوس بيد مرفوعة: «لكن، من الآن فصاعدًا، تجميعك الرحيق لعسلك سيكون أسهل، فلقد قررت أنك لن تعملي وحيدة بعد اليوم. ستصبحين ملكة على مستعمرة كاملة، سِربٌ كامل منتج سيعمل تحت إمرَتَك، علاوة على ذلك، سأمنحك اللسعة القاتلة المؤلمة التي أردت».

انتصب جناحا ميليسا بابتهاج.

تابع زيوس: «عدا أن اللسعة ستكون مؤلمة لمن تلسعين، لكن قاتلة.. لكن قاتلة لكِ أنتِ. هذا ما سيكون».

هدر الرعد مرة أخيرة ثم بدأت الغيوم تنقشع.

شعرت ميليسا على الفور بحركة غريبة بداخلها، نظرت إلى أسفل فرأت شيئًا طويلًا رفيعًا حادًّا مثل حربة يخرج من أسفل بطنها، ذلك كان اللاسع، دقيق الحافة مثل الإبرة، لكنه ينتهي بشوكة ملتوية مريعة شريرة. بانتفاضة عنيفة طارت ميليسا بعد أزيز ملتاع أخير وابتعدت.

لا تزال الكلمة اليونانية لنحلة العسل هي ميليس Meliss، وصحيح أنّ لسعتها هي سلاح انتحاري لا يُلجأ له إلا كملاذ أخير، فهي إن حاولت أن تطير مبتعدة بعدما تخترق إبرتها جلد ضحيتها، فإن الشوكة ستغرز في الجلد وستُخرج أحشاء النحلة الداخلية في محاولتها لتحرير نفسها. في المقابل حشرة الدبور عديمة الفائدة ليس لديها شوكة مماثلة، وبوسعها لسع من تريد وقتما تريد من دون أي خطر على نفسها. لكن الدبابير بقدر ما هم مزعجون، لم يتجرؤوا على مطالبة الآلهة بأي مطلب أناني متغطرس قط.

صحيح أيضًا أنّ العِلم يسمي رتبة الحشرات التي تنتمي إليها نحلة العسل Hymenoptera [غشائيات الأجنحة]، والتي تعني باليونانية «أجنحة الزفاف».

طعام الآلهة

ربما ما جعل زيوس يعاقب ميليسا - التي كان عسلها لذيذًا لدرجة مذهلة - بهذه الحدة كان أكثر من مجرد نفاد صبر أو انفعال لحظي، ربما

كانت تلك سياسة، فعالم الخالدين كله كان مجتمِعًا ليشهد اللحظة، وذلك كان درسًا لهم عن تصلب رأي ملك الآلهة.

الصمت الذي يخيم على وليمة الزفاف أمسى الآن مظلمًا بغيضًا كالعاصفة والغيوم المتكتلة قبل قليل. رفع زيوس قارورة العسل فوق رأسه.

«لأجل ملكتي وزوجتي الحبيبة، أبارك هذه القارورة فلن تفرغ بعد الآن أبدًا، ستطعمنا إلى الأبد، ومن يتذوّق عسلها لن يشيخ ولن يموت. من الآن ستصبح طعام الآلهة، وعند مزج عسلها بعصير الفواكه ستصبح شراب الآلهة».

تصاعد تهليل عظيم، وطارت الحمامات فوق الرؤوس، وتبدّد الصمت والغيوم. تقدمت الميوزات كاليوبي ويوتيربي وتيربسيكوري إلى الأمام وصفقن بأيديهن، فعُزفت الموسيقى وأنشدت أناشيد المديح وبدأ الرقص. أطباق كثيرة كُسرت في نشوة، وهو تقليد لا يزال يتبعه اليونانيون اليوم أينما اجتمعوا ليأكلوا ويحتفلوا ويكسبوا أموال السواح.

الكلمة اليونانية للخالد هي أمبروتوس Ambrotos وللخلود نفسه هي أمبروزيا Ambrosia، وأمبروزيا هي الكلمة التي صارت تُطلق على العسل الذي باركه زيوس، وصار يُخمّر منه مشروبٌ، نوع من الميد، أطلقوا عليه اسم نكتار Nectar [رحيق] تكريمًا للزهور التي كان العسل في الأصل هديتها.

زيوس الوغد

كأس هيرا كان ملآن ويفيض، حرفيًا؛ إذ كانت إحدى النايادات تصبّ فيه النكتار حتى الحافة، ومجازًا أيضًا؛ فابنها الأكبر تزوج فأحسن الزواج وزيوس قد أقسم أيمان الإخلاص والولاء لها أمام كل من لهم شأن في العالم.

لم تلاحظ أن زوجها الشرِه كان يراقب بعيون مشتهية رقص ليتو Leto، واحدة من أجمل نيمفات جزيرة كوس Kos[51]. ليتو هي ابنة التياتنة فيبي وكويوس، وهما من المتلقين لعفو زيوس القريب ومن المدعوين للوليمة.

تمتم صوت في أذن زيوس قائلًا: «أنت تفكر أن ابنة عمي وعمتي ليتو تدين لك بحياتها، ولذلك عليها أن تدعك تشاركها السرير».

رفع زيوس بصره ليقابل الأعين الحصيفة المرحة لمعلمته متيس، الأوشيانية التي لا مثيل لفطنتها ودهائها، التي لا يزال يحبها ويعلم يقينًا أنها تحبه. دمه كان دافئًا بالفعل من النكتار والأمبروزيا، والرقص والموسيقى سخَّناه أكثر[52]. الشرارة التي كانت موجودة على الدوام بين زيوس ومتيس هددت بالتحوّل إلى نار تأكل كل شيء.

رأت متيس ذلك فرفعت يدها وقالت: «لا يا زيوس، لا، لقد كنت لك أمًا، بالإضافة إلى أن هذا يوم زفافك... هل فقدت كل إحساس باللياقة؟».

كل إحساس باللياقة كان بالضبط ما ضاع من زيوس، فقد لمس متيس من تحت المنضدة، فتحركت مبتعدة بعد أن شعرت بالخطر، ونهض زيوس وتبعها. أسرعت متيس الخطى، وعندما تجاوزت الركن نزلت مسرعة من جانب الجبل.

جرى زيوس يطاردها محولًا نفسه إلى ثور، ثم إلى دب، ثم إلى أسد، ثم إلى عقاب. اختبأت متيس خلف كومة صخور في أعماق كهف، لكن زيوس الذي حوّل نفسه إلى ثعبان تمكن من الزحف عبر الشقوق بين الصخور ولفّ نفسه حولها.

متيس، التي أحبت زيوس على الدوام، والتي كانت مرهَقة من المطاردة ومتأثرة بإصرار مطاردها، وافقت أخيرًا. لكن حتى وهما معًا ظل شيء ما يُنغّص على زيوس، نبوءة سمعها من فيبي، شيء عن طفل لمتيس سيكبر ليعلو على أبيه.

بعد ذلك، وخلال حديث الوسادات المرح، انخرطا في محادثة عن موضوع التحول أو الميتامورفوزيس metamorphoses مثلما يُطلق عليه في اليونانية، أي عندما يحوِّل إله أو تيتان نفسه أو آخرين إلى حيوانات أو نباتات أو حتى جوامد، مثلما فعل زيوس قبل قليل عندما طارد متيس. هنأته متيس على مهارته في هذا الفن.

قال زيوس ببعض الفخر بالذات: «نعم، طاردتك ثورًا وأسدًا وعقابًا، لكني لم أقبض عليك إلا وأنا ثعبانًا. يقولون إنك مراوغة ماكرة يا متيس، لكني مكرت فوق مكرك، اعترفي بهزيمتك».

«أنا متأكدة أني كنت سأقدر على هزيمتك، فلو كنت حولت نفسي لذبابة ما كنت ستقدر على إمساكي، أليس كذلك؟».

ضحك زيوس: «أهكذا تحسبين؟ أنت لا تعرفينني البتة على ما يبدو».

قالت متيس متحدية: «حسنًا، امسكني إن استطعت»، وبصوت فرقعة تحولت إلى ذبابة تنطلق بسرعة نحو مخرج الكهف، فحوّل زيوس نفسه في لمح البصر إلى سحلية، وبحركة سريعة من لسانه الطويل اللزج السريع قبض على متيس (مع أي طفل محتمل منه قد يكون الآن يتشكل في أحشائها) وحفظها بأمان في داخله. يبدو أن عادة أبيه كرونوس غير الحميدة في التهام أي شخص تقول النبوءة أنه سيعلو أباه قد انتقلت لزيوس أيضًا.

عندما انسلّ زيوس عائدًا إلى الأوليمبوس في هيئته الأصلية، كان يهنّئ نفسه على مهارته التي فاقت حذاقة متيس المفترضة. كانت الموسيقى والغناء لا يزالان يغلّفان المكان، ولم يبدُ أن زوجته لاحظت شيئًا.

صداع ليس له مثيل

عانى ملك الآلهة من وجع الدماغ. ليس وجعًا من قبيل أثر الشرب حتى الثمالة في وليمة الزواج، ولا وجع دماغ مثل الذي يأتي من التفكير في مشكلة مزعجة بحاجة إلى حل - فهو كقائد كان لديه مثل ذلك طوال الوقت - بل وجع دماغ بمعنى وجع حقيقي داخل الدماغ. ظل الوجع يتزايد كل يوم حتى بات ألمًا حارقًا حادًا ساحقًا عاميًا أكثر من أي ألم عانى منه أي شخص في التاريخ. ربما تكون الآلهة مستثناة من الموت، لكنها بلا أي شك ليست ذات مناعة من الألم.

هدير زيوس وعواؤه وصراخه ملأوا وديان وكهوف وأخاديد اليونان القارّية، وترددوا على قمم جبال وفي أعماق مغارات جزرها، حتى

حسب كل من في العالم أن الهيكاتونكيريس قد صعدوا من تارتاروس والتيتانوماكي بدأت من جديد.

تجمَّع أشقاء زيوس وشقيقاته وباقي أفراد الأسرة متألمين لألمه على شاطئ البحر، حيث وجدوه هناك يتوسل إلى ترايتون ابن أخيه بوسايدون ليغرقه في البحر. رفض ترايتون فعل ذلك، فعصف البقية أذهانهم بحثًا عن حل آخر، بينما ظل زيوس يدبّ في الأرض ويصرخ في عذاب ويضغط على رأسه بيده وكأنه يحاول تهشيمها.

ثم بدرت فكرة للتيتان الصغير المفضل لدى زيوس، بروميثيوس، وهمس بها إلى هيفايستوس الذي أومأ بحماسة وانطلق يعرج عائدًا إلى ورشته بأسرع ما تستطيع قدمه غير المثالية حمله.

ما كان يحدث داخل رأس زيوس كان في الواقع أمرًا مثيرًا للاهتمام، لا عجب في أنه كان يعاني من ذلك الألم الذي ليس له مثيل، فمتيس الحصيفة كانت تعمل بجد داخل جمجمته، تشعل النار وتصهر وتدق لتصنع دروعًا وأسلحة. أيّ إله يتّبع حمية متنوعة صحية متوازنة يوجد في دمه وعظامه ما يكفي من الحديد وغيره من المعادن وعناصر الأرض النادرة لتجد ميتيس الخامات والمكوِّنات والمركبات التي تحتاج إليها.

هيفايستوس، الذي كان سيُطري على شغل متيس البدائي لكن الفعّال في الحدادة، عاد إلى الشاطئ المزدحم حاملًا فأسًا هائلة مزدوجة النصل.

أقنع بروميثيوس زيوس أن الطريقة الوحيدة لرفع عذابه عنه هي أن ينزل يديه من على صدغه وينحني ويتحلى بالإيمان. همهمَ زيوس بشيء ما عن مأساة أن تكون ملك الآلهة فلا يوجد هناك من هو أعلى منك لتصلّي له، لكنه ركع في طاعة على ركبتيه وانتظر قدره. بصق هيفايستوس ببهجة وثقة في يديه، وقبض على المقبض الخشبي للفأس، وبعدما أمر الجمهور المراقب بالصمت، هبط بالفأس الهائل بحركة واحدة سريعة نظيفة على مركز جمجمة زيوس بالضبط، فشقّها إلى نصفين.

ساد صمت مريع، وحدّق الكل في المشهد متجمدين من الرعب، ثم تحول الرعب إلى عدم تصديق، وتحول عدم التصديق إلى حيرة وذهول،

فقد كانوا يشهدون الآن رأس رمح يخرج من رأس زيوس المنفلقة، تبع الرمح ظهور ريش يزين قبة خوذة خمرية، وحبس المراقبون أنفاسهم بينما يراقبون الخروج البطيء لجسد أنثوي يرتدي كامل درعه وعتاده. خفض زيوس رأسه، ربما في ألم أو ربما في راحة أو في خضوع، أو ربما في ذهول تام، لا أحد يستطيع أن يجزم، وكأن الرأس المحنية كانت منحَدرًا أو ممشى صُنع خصيصًا لتسهيل حركتها، ترجّلت الكائنة المجيدة بهدوء خارجة من الرأس إلى الرمل، واستدارت لتواجهه.

كانت ترتدي درعًا مصفحًا وخوذة ذات ريش وتحمل ترسًا واقيًا. نظرت إلى أبيها بعينين رماديتين لا تضاهي جمالها عين، درجة الرمادي تبدو كأنها تشع سمة بعينيها تسمو فوق كل ما عداها: حكمة لا نهائية.

من أحد أشجار الصنوبر التي تحفّ الشاطئ طارت بومة وحطت على الكتف المدرع اللامع للمحاربة، ومن كثبان الرمال جاء ثعبان زمردي جمشتي زاحفًا، ولفّ نفسه جوار قدميها.

التأم جرح رأس زيوس من تلقاء نفسه بصوت مقزّز نوعًا ما كمن يزدرد بلا مضغ.

كان من الجليّ لكل الحاضرين أن الربّة الجديدة مُنحت مستويات من القوة والشخصية تعلو فوق كل الخالدين، حتى هيرا التي أدركت أن الوافدة الجديدة لا يمكن إلا أن تكون نتيجة لعلاقة زنا لا شك أنها حدثت في وقت قريب جدًا من يوم الزواج، قاومت رغبة حقيقية في أن تنحني لها.

نظر زيوس إلى ابنته التي سببت له كل هذا الألم وابتسم في دفء، وخطر له اسمٌ فنطق به.

«أثينا!».

قالت بابتسامة رقيقة ردًا على ابتسامته: «أبي».

أثينا

الصفات التي جسدتها أثينا Athena كانت الصفات ذاتها التي ستصبح أعظم إنجازات ومزايا الدولة المدينية التي ستحمل اسمها. ورثت أثينا

الحكمة والبصيرة من أمها متيس، أما المهارة اليدوية والبراعة الحربية والحذاقة السياسية فكانت من ذاتها، وأخذت نصيبًا مما كان مجال أفروديتي الحصري: الجمال والحب. نوع جمال أثينا كان يُعبر عنه في الأستطيقا، فلسفة الجمال، على أنه استيعاب كل ما هو مثالي في الفن والتعبير والفكر والشخصية، لا النوع الآخر المادي الواضح وربما الأكثر سطحية من الجمال الذي سيظل دائمًا وأبدًا مجال أفروديتي. وحب أثينا كان أيضًا ذلك الذي لا يتضمن سخونة مفرطة وانخراطًا جسديًا، ذلك النوع الذي سيصبح لاحقًا معروفًا بالحب الأفلاطوني. سيُقدّر الأثينيون صفات أثينا هذه فوق كل ما عداها، مثلما يقدرونها ويعدّونها ربّتهم وراعيتهم فوق كل الخالدين الموجودين. قلت «الموجودين» لأنّه كما سنكتشف ثمة إلهان أولمبيان آخران لم يولدا بعد، سيلعبان عما قريب أدوارًا هامة في تعريف ماذا يعني أن تكون أثيني ويوناني.

لاحقًا سيتنافس أثينا وبوسايدون على الرعاية الحصرية لمدينة كيكروبيا Cecropia. سيضرب بوسايدون برمحه على صخرة عالية كانوا يقفون عليها لينبثق منها نبع ماء البحر، خدعة مبهرة، لكن الملوحة جعلته بلا فائدة أكثر من أن يصبح مشهدًا مناسبًا لنافورة عامة. أما هدية أثينا البسيطة فكانت أول شجرة زيتون. سكان كيكروبيا اكتشفوا بحكمتهم المنافع المتعددة للشجرة، ثمارًا وخشبًا وزيتًا، فاختاروا أثينا ربتهم الحاكمة والراعية، وغيروا اسم مدينتهم إلى أثينا تشريفًا لها[53].

عُبدت في روما باسم مينرفا Minerva، لكن دون أي صلة شخصية مثل تلك التي شعر بها اليونانيون تجاهها. حيواناتها المفضلة كانت البومة، الرمز المبجّل لعين الحكمة المراقبة، والثعبان، الذي على شاكلته تنكر أبوها ليفوز بأمها، وشجرة الزيتون التي ستصبح ثمارها الطرية متعددة المنافع خيرًا كثيرًا لليونان كانت مقدسة عندها أيضًا[54].

الرقّة البادية لتلك العيون الرمادية أوحت بنوع جديد من المثالية، مثالية تمتزج بالقوة البدنية وقوة الشخصية وقوة العقل. لم يكن من الحكمة إغضاب أثينا، بالإضافة إلى أنّ إغضابها يعني إغضاب زيوس، فقد كان

مفتونًا بابنته ويراها منزَّهة عن الخطأ. آريس، الابن الأقل تفضيلًا لزيوس، كان النقيض المثالي لأخته نصف الشقيقة الجديدة، فقد كان كلاهما ربًا للحرب، لكن اهتمامات أثينا كانت تتركز على الاستراتيجيات والتخطيط والتكتيك وفن الحرب الحاذق، بينما كان آريس ربًا للمعارك والقتال وكل أشكال الالتحام، ولم يفهم إلا العنف والقوة والعدوانية والغزو والغضب. إن حقيقة أن أحدهما لن يكون بنفس القوة والأهمية من دون تحالفه مع الآخر لهي حقيقة مؤلمة، لكن ضرورية.

يُطلق على أثينا كثيرًا اسم بالاس Pallas كاسم أول، وكانت تحمي مدينتها أثينا باسم بالاس أثينا، رمز حمايتها كان يُدعى البالاديوم palladium، وهي كلمة صارت بشكل ما تُطلق على المسارح وعلى العنصر الكيميائي Pd. بالاس الأصلية كانت ابنة لرب البحر ترايتون وصديقة طفولة عزيزة لأثينا، كانت الصديقتان تلعبان ألعاب حرب نصف جادة. ذات مرة، وبينما كانت بالاس تفوز على أثينا، تدخل زيوس - الأب المراقب الحامي لابنته العزيزة - وأطلق صاعقة رعدية على بالاس أفقدتها الوعي، وفي حمِيّة اللحظة ضربتها أثينا ضربة قاتلة قضت على صديقتها. منذ تلك اللحظة فصاعدًا صارت تحمل اسم صديقتها بالاس في علامة حزينة على الحب الدائم والندم اللانهائي.

ظلت أثينا مثل ديميتر(1) من دون أن يمسَّها رجل[55] حياتها العازبة بلا أطفال، وعلاقتها الطفولية ببالاس، جعلتا البعض يقولون إنها يجب أن تكون رمزًا للحب المثلي الأنثوي.

متيس الداخلية

عندما خدع زيوس أم أثينا للتحول إلى ذبابة كي يستخدم لسانه كسحلية ويلتهمها، أظهرت متيس حماقة غير معهودة من شخصيتها... أو هكذا بدا الأمر.

(1) ربما التشبيه بديميتر هنا خطأ كتابي غير مقصود من المؤلف، فديميتر لها ابنة من زيوس وابن من بوسايدون كما ذُكر سابقًا، ربما قصد تشبيهها بهستيا. [المترجم]

في الواقع لم تُخدع متيس على الإطلاق، بل هي من خدَعت. تعني كلمة Metis البراعة والدهاء. قصدت متيس أن تسمح لنفسها بأن يلتهمها زيوس، بل هي خدعته ليفعل ذلك، فقد رأت أنها لو ضحَّت بحريتها وظلت بداخله طوال الوقت، سيكون بوسعها القيام بدور المستشار الناصح الحكيم، وتظل تهمس في أذنه بالمشورة إلى الأبد سواء أعجبه ذلك أم لا.

من يقولون الحق في وجه السلطان عادةً ما ينتهي بهم الحال في الأغلال أو في القبر قبل أوانهم، لكن بوجودها داخل رأس زيوس لن يستطيع إسكاتها أبدًا. ستكون الكابح الحكيم للأهواء الجامحة الطائشة التي تهدد دائمًا بوقوع ربّ الرعد في المشاكل. يحتاج مزاجه العاصف وشهوته الثائرة وغيرته الحادة لصوتها الهادئ لتحقيق التوازن، صوتها الذي يستطيع حثّ غرائزه على اتباع مسالك أكثر عقلانية وتنويرًا.

لا أستطيع القول بشكل قاطع إن كانت تضحية متيس بحريتها نابعة من شعورها بالواجب والمسؤولية، أو من حبها لزيوس الذي عشقته على الدوام، مثلما يقول اليونانيون: كان قدر متيس أن تخدم وتحب.

اتحاد الإرشاد الداخلي الداهية لمتيس مع باقي صفات زيوس الإيجابية، مثل كاريزمته[56] ومكره الفطري و- في العادة - عدالته وإنصافه وميله للحق، ساعد في ترقيته إلى حاكم عظيم تَبْهت أمامه صور أبيه وجده، كرونوس وأورانوس. صارت متيس جزءًا هامًا منه لدرجة أن هومر كان يشير لزيوس أحيانًا بلقب «متيتا Metieta»، أي المستشار الحكيم.

بحثًا عن ملجأ

ربما كانت الحكمة متجسدة في متيس تهمس في أحد أذنَيّ زيوس، لكن الأذن الثانية ظلت دومًا منصتة لأهوائه المشتعلة. عندما يقابل في طريقه فتاة أو امرأة جميلة - وأحيانًا شابًا - لا شيء يمكن أن يمنعه من مطاردتها إلى آخر العالم، حتى لو اضطر لتحويل نفسه إلى كل أنواع

الحيوانات خلال المطاردة. ما إن تتلبسه الرغبة حتى لا يعود بوسع متيس التحكم فيه أكثر مما تستطيع همسة تهدئة إعصارٍ، ونداءات هيرا التي تغلي وتفور من الغيرة والغضب عليه لإعادته، لا تؤثر فيه إلا بقدر تأثير رفرفة جناح فراشة على تحريك سفينة في مسارها.

ذكرت من قبل أن نظرة زيوس الجائعة كانت قد وقعت بالفعل على ليتو، الابنة الرقيقة للتياتنة فيبي وكويوس. عند الرومانيين هي لاتونا Latona، وهي تيتانة غير مبهرجة، ستُعبَد لاحقًا كربّة للأمومة وكنموذج مثالي للحياء والتواضع، ربما كان ذلك تكريمًا للحمل الذي سببه لها زيوس واتضح بعدها أنه من أعظم نماذج الانتصار على المحنة. فعندما علمت هيرا أن زوجها وضع في بطن ليتو طفلًا، أمرت جدتها جايا ألّا تسمح لليتو بأن تلد على الأرض.

كانت غاضبة بما يكفي من أن أثينا وضيعة المنشأ قد أخذت موقع الابن المفضل عند زيوس بدلًا من ولديها العزيزين هيفايستوس وآريس (بدا أنها نسيت في حَميّتها الأمومية المفاجئة أنها ألقت ذات مرة ابنها الأول من السماء)، وهي لن تسمح أبدًا بدخول أي ربٍ لقيط إلى الأوليمبوس عنوة ليقلب نظامه الراهن رأسًا على عقب. ثمة الكثير في هيرا مما يذكّر بليفيا Livia زوجة الإمبراطور الروماني أوجستوس Augustus وزوجات بعض الملوك الإنجليز ودونات المافيا، اللواتي لا يفكّرْن إلا في السلالة ونقاء الدم، ودومًا جاهزات لفعل أي شيء لحماية شرف العائلة ونسَبها وإرثها.

أبحرت ليتو الحامل المسكينة المحرومة من الأرض في البحر بحثًا عن مكان تلد فيه، حاولت أن تجد ملجأ عند الهيبيربورانيين Hyperboreans المتوحشين الذين عاشوا بعد رياح الشمال[57]، لكنهم رفضوا استقبالها خوفًا من سخط هيرا. رفعت ليتو الضائعة في البحر يدها بالتضرّع إلى زيوس، الذي كان سبب محنتها المريعة في المقام الأول. لكن سلطة ملك الآلهة كانت تعتمد على تقبل ودعم حق باقي الآلهة في حكم نطاقاتهم الخاصة بإرادتهم الحرة، لم يكن بوسعه التدخل وإبطال فرمان هيرا أو رفع

لعنتها المؤذية. يشتكي القادة والملوك والأباطرة دائمًا أنهم الأقل حرية من بين كل رعاياهم، وليس في هذا الكثير من المبالغة، فزيوس كان رغم كل قوته وجلالته محكومًا على الدوام بمجلس حكومته ومبادئ الإجماع والمسؤولية المشتركة، ما سمح له بالحكم في المقام الأول.

أفضل ما استطاع تدبيره لليتو كان إقناع شقيقه بوسايدون بصنع سلسلة من الموجات المتعاقبة لتقود قاربها إلى ديلوس Delos، وهي جزيرة صغيرة غير مأهولة تطفو بين تيارات ودوامات جزر سيكلاديس Cyclades، وغير متصلة بقاع البحر، ما يجعلها منفصلة عن جايا ومنيعة من لعنة هيرا.

توأمان!

رست ليتو بمشقة على جزيرة ديلوس الطافية المضيافة، آخر ما فيها من قوة سمحت لها بالكاد بالزحف متجاوزة الكثبان لتحتمي تحت صف أشجار الصنوبر الذي يحفّ بالشاطئ. الجوزات القليلة والأعشاب التي تناولتها هناك لم تكفِ لإطعام الحياة التي تشعر بركلها داخلها، فشقت طريقها إلى الوادي الأخضر الذي رأته من موقعها. ظلت هناك، تحت جبل سينثوس Cynthos، تعيش على الفواكه والبذور مثل حيوان برّيّ، لكنها آمنة من لعنة هيرا. تورّمت بطنها كثيرًا خلال ذلك الوقت حتى حسبت أنها حاملٌ بوحشٍ أو عملاق، لكنها تابعت الأكل والراحة، والأكل والراحة، والأكل والراحة.

ذات يوم، لم تعد آلام الجوع ذات قيمة مقابل الطعنات الحادة لآلام المخاض. أنجبت ليتو وحدها بلا مساعدة طفلة، أجمل طفلة وُلدت حتى الآن[58]. شهقت ليتو ناطقة باسم أرتيميس Artemis للرضيعة. الرضيعة، التي وُلدت قوية خفيفة رشيقة سريعة كالسهم، وجدت نفسها في أول أيام حياتها وبشكل إعجازي تقوم بعمل هام. أدركت ليتو الآن لماذا كان حملها ثقيلًا مضنيًا، فثمة طفل آخر بداخلها، وهذا التوأم الثاني قد علق بالعرض في قناة الولادة مسببًا لها أوجاعًا مريعة. أثبتت أرتيميس هنا صحة فهمها

الغريزي للشكل الأمثل الذي يجب أن يُنجب به الطفل، وساعدت أمها على وضع توأمها المبهر.

صرخت الأم والابنة ابتهاجًا من المفاجأة عندما أطلق المولود الجديد أول صرخاته. الشعر على رأسه لم يكن أسود قاتمًا مثل شعرَيّ أمه وشقيقته، بل كان أشقرَ ورثه من جدته لأمه فيبي اللامعة. أطلقت ليتو على الولد أبولو Apollo، لاحقًا سيُطلق عليه أحيانًا (أبولو الديلوسي) تكريمًا لمسقط رأسه، و(فيبوس أبولو) في إشارة إلى جدته التيتانة وجماله المشعّ الذهبي، فاسم فيبوس يعني (الساطع).

أرتيميس

أحب زيوس أرتيميس بقدر ما أحب أثينا تقريبًا، وبذل أقصى جهده في حمايتها من غضب هيرا التي لم يكن بوسعها النظر في وجه ابنة زنا أخرى، خاصة تلك التي هي أقرب لولد مستهتر وتُعَدّ عارًا على الربوبية الأنثوية.

ذات مساء، وبينما لا تزال أرتيميس طفلة صغيرة جدًا، وجدها زيوس تسلى باصطياد الفئران والضفادع وإطلاق سراحها عند الشجيرات الصغيرة في سفح الأوليمبوس. جلس زيوس على صخرة قريبة ووضعها على ركبته.

شدت أرتيميس لحيته قليلًا قبل أن تسأله: «هل تحبني يا أبي؟».

«أي سؤال هذا يا أرتيميس؟ تعرفين أنني أفعل، تعلمين أني أحبك من كل قلبي».

لو أنك ابنٌ لأب خائن مغضوب عليه، فليس ثمة شيء تقريبًا لا تستطيع جعله يوافق عليه. كانت أرتيميس تُقلّب زيوس بين أصابعها مثلما تقلّب شعر لحيته.

«هل تحبني بما يكفي لتحقّق لي أمنية؟».

«بالطبع يا عزيزتي».

«همم، أعتقد أن أمنية واحدة لا تثبت شيئًا، فأنت تحقق الأماني لأقل النيمفات وأرواح الماء شأنًا، هل تحقق لي عدة أمنيات؟».

جزّ زيوس على أسنانه سرًا. يبدو أن العالم كله يحسب أن وظيفة كليّ القدرة الجالس على عرش الأوليمبوس وحاكم السماوات والأرض هي أسهل وظيفة على الإطلاق. ما الذي يعلمونه عن الشعور الأبوي بالذنب أو التنافس بين الأخوات وصراعات القوّة والزوجات الغيورات؟ جرِّب إرضاء أحد أفراد الأسرة وستجد أنك أثرت حفيظة آخر.

«عدة أمنيات؟ أيُعقل؟ لديك كل شيء قد تتمناه بنتٌ، أنت خالدة، وما إن تبلغي ذروة جمالك فلن تشيخي أبدًا، وأنت قوية وماهرة وسريعة و... آي». الـ«آي» الأخيرة كانت استجابة للشعرة التي انتُزعت من لحيته بعنف.

«إنها ليست أمنيات صعبة يا بابا، إنما هي أصغر الأشياء».

«حسنًا حسنًا، دعيني أسمعها».

«لا أريد أبدًا أن يكون لي زوج أو حبيب، أو أن يلمسني رجل... بتلك الطريقة التي تعرفها».

«نعم، نعم... آ... أفهم جيدًا».

ربما كانت تلك أول مرة على الإطلاق تتورد فيها وجنتا زيوس.

«وأريد أيضًا ألقابًا عديدة مثل أخي، وأريد قوسًا، فقد لاحظت أنّ لديه مجموعة أقواس متنوعة وأنا لا لأني بنت، هذا ظلم، فأنا التوأم الأكبر برغم كل شيء. بوسع هيفايستوس أن يصنع لي قوسًا مميزًا كهدية ولادة مثل ذلك الذي صنعه لأبولو، يُفضّل أن يكون القوس وسهامه من الفضة. وأريد رداء صيد لا يطول عن الركبة، لأن الأردية الطويلة غبية وغير عملية. لا أريد السيادة على أي مدينة أو قرية، بل أريد أن أحكم الوديان والغابات، والأيائل، أحب الأيائل، والكلاب، كلاب الصيد أقصد، لا الكلاب الصغيرة عديمة الفائدة. وسيكون لطيفًا منك جدًا جدًا جدًا أن تجعل جوقة من البنات الصغيرات تغني تسبيحًا بحمدي في المعابد، والنيمفات والكلاب تساعدني وتحميني من الرجال».

أصاب زيوس ما يشبه الدوخة من هذا الخطاب، قال: «أهذا كل شيء؟».

«أعتقد ذلك... أوه، وأريد أيضًا القدرة على تيسير الولادة للنساء، فقد رأيت كم أنّ هذا مؤلمًا، ومقرفًا جدًا أيضًا، أريد أن أساعد على تحسين الولادة».

«يا إلهي، ألا تريدين القمر أيضًا؟».

«فكرة رائعة! القمر! نعم أحب القمر، أرجوك، هذا كل شيء، لن أطلب منك شيئًا آخر أبدًا أبدًا أبدًا».

أصبحت أرتيميس ربّة العفة والصيد، ربّة الجامحين والمتوحشين، ربّة الكلاب والأيائل، وربّة القابلات والقمر. صارت ملكة الرُماة والصيادات تُثمن استقلاليتها وتبتّلها فوق كل شيء. العطف الذي عبّرت عنه في تعاطفها مع النساء في مخاضهنّ، قابلته الشراسة التي لعبت بها الألعاب وعاقبت بها أي رجل تجرأ على الاقتراب منها. خاف منها وأحبها وعبدها الناس في شتى أنحاء العالم القديم، وكانت تُعرف أحيانًا، في تكريم لجبل ولادتها، باسم سينثيا Cynthia، وأطلق عليها الرومانيون ديانا Diana. شجرتها الخاصة كانت شجرة السرو. بقدر ما كانت أثينا ربّة الأشياء المزروعة المصنوعة المشغولة، أرتيميس كانت عكسها تمامًا في مجالها الطبيعي الغريزي البري الجامح، لكنّ كلتيهما اشتركتا - ومعهما هستيا - في الحفاظ على العفة الذاتية فوق ما عداها.

أبولو

لو كانت أرتيميس الفضة، فتوأمها أبولو كان الذهب. لو كانت أرتيميس القمر، فأبولو كان الشمس. خلبت ملامحه المبهرة لبّ كل من نظر إليه، أساريره وسماته يظلان إلى يومنا هذا الأنموذج المثالي لنوع بعينه من الجمال الذكوري، أقول نوعًا بعينه لأن أبولو لم يكن مذهلًا فقط ببشرته الفاتحة، بل أيضًا بوجهه الأمرد وصدره عديم الشعر، وهو شيء نادر بين اليونانيين وآلهتهم. كان مثل يعقوب في الإنجيل، رجل أجرد، لكن لم يقلّل هذا من رجولته شيئًا.

نطاقه كان الرياضيات والمنطق والشعر والعلاج والمعرفة والبلاغة والتنوير، كان في الأساس ربّ التناغم. ثمة صفات إلهية ذات صدى سماوي في العالم المادي وأشيائه العادية، تلك هي الفكرة الأبولونية، سواء كان التعبير عنها بالصفات السحرية للمربعات والدوائر والكرات، أو في إيقاع ورنّة صوت مثالي، أو بتسلسل أفكار منطقي. حتى المعنى والقدر يمكن استقراؤهما في الأشياء العادية لو كانت عندك تلك الهبة، وأبولو كان عنده منها مخزونٌ وفيرٌ، بالإضافة إلى انعدام القدرة المطلقة على الكذب، ما جعله الخيار الطبيعي لتولي شؤون التنبؤ والعرافة أيضًا. كان الثعبان بايثون Python مقدّسًا عنده وشجر الغار أيضًا، حيواناته الخاصة كانت الدولفين والغراب الأبيض[59].

سيكون من الحماقة إساءة فهم جمال أبولو الذهبي على أنه علامة ضعف، فقد كان الرامي الأعظم، ومحاربًا شرسًا عنيفًا قويًا مثل أي من الأوليمبيين عندما يتطلب الأمر ذلك، وكان مثل أخواته قادرًا على القسوة والشر والغيرة والحقد. عبده الرومانيون على غير المعتاد باسمه اليوناني نفسه من دون أي تبديل، أبولو كان أبولو أينما ذهبت في العالم القديم.

غضب هيرا

وجد التوأمان حديثا الولادة نفسيهما في بؤرة تركيز غضب ملكة السماء، على جزيرة ولادتهما الطافية. فعلت هيرا كل ما بوسعها لمنع ولادة هذه التذكرة الحية بخيانة زيوس لها، وفشلها في ذلك لم يؤد إلا لتزكية حنقها وإحباطها أكثر، لذا حاولت هيرا مجددًا.

بينما لم يكن عمر التوأمين يزيد عن بضعة أيام، أرسلت هيرا الثعبان بايثون ليلتهمهما. أتذكر الصخرة الماجنتيتية التي أعطتها ريا الحُبلى لكرونوس كي يلتهمها بدلًا من زيوس الرضيع؟ تلك التي تقيأها كرونوس لاحقًا وقذفها زيوس بعيدًا عن جبل أوثريس؟ حسنًا، وقعت تلك الصخرة في مكان يُدعى بايثو Pytho عند منحدرات جبل بارناسوس Parnassus وانغرزت بسرعة

في الأرض، وستصبح مع الوقت صخرة السرَّة أو أومفالوس Omphalos لليونان، سرَّة بطن العالم الهيليني ومركزه الروحي الأصلي. بأمر من جايا، انبثق من تلك النقطة بالتحديد، التي كانت مقدسة بالفعل، ثعبانٌ هائلٌ كالتنين، ليكون حارس الصخرة، وصار اسمه بايثون على اسم مكان ولادته، ثعابين عديدة ستُسمّى باسمه منذ تلك اللحظة فصاعدًا.

أرسلت هيرا في خضم سخطها بايثون إلى جزيرة ديلوس لقتل ليتو وأطفالها. خاطرَ زيوس بإثارة غضب هيرا أكثر وهمس بما فعلت للريح، التي حملت النبأ إلى أبولو الطفل، الذي بدوره أرسل رسالة يائسة إلى هيفايستوس يتوسل فيها إلى أخيه نصف الشقيق أن يصنع له أفضل قوس يستطيع صنعه. كدح هيفايستوس في ورشته لسبعة أيام وسبع ليال، حتى وصل في النهاية إلى سلاح لا يُضاهى في قوته وجماله، وأرسله مع مجموعة أسهم ذهبية إلى ديلوس في الوقت المناسب ليتلقاه أبولو ويكمن خلف الكثبان في انتظار وصول الثعبان الهائل. ما إن خرج بايثون من البحر وزحف على الرمل حتى قفز أبولو خارجًا من مكمنه ورماه بسهم بين عينيه. قطع أبولو الجسد الميت إلى قطع صغيرة على الشاطئ، وأطلق صيحة انتصار هائلة بلغت السماء.

قد تعتقد أن أبولو له كل الحق في حماية أمه وأخته ونفسه من ذلك الكائن المريع، لكن بايثون كان أرضيًا، منبثقًا من قلب الأرض، أي ابنًا لجايا وتحت حمايتها الإلهية. زيوس عرف أن عليه معاقبة أبولو على قتل الثعبان وإلا ستضيع سلطته.

في الواقع العقاب الذي اختاره زيوس لأبولو لم يكن قاسيًا للغاية، فقد نفى الربّ الصغير لثماني سنوات إلى مسقط رأس الثعبان تحت جبل بارناسوس، ليكفّر عن جريمته. مثلما كُلِّف الوحش الثعباني بايثون من قبل بدور حارس الأومفالوس، كُلف أبولو بتنظيم دورة ألعاب رياضية هناك. أقيمت الألعاب البايثانية Pythian Games كل أربع سنوات، يفصل كل دورة ألعاب بايثانية عن دورة الألعاب الأوليمبية المقابلة لها عامان[60].

أسس أبولو مَوْحَى في بايثو (التي صار اسمها دلفي Delphi[61]) يستطيع فيه أي شخص أن يسأل الرب أو الكاهنات المكرسات له (اللواتي يُطلق عليهن أحيانًا سيبيل Sibyl أو بيثيا Pythia) عن المستقبل. تجلس الكاهنة في غفوة أقرب إلى غيبوبة تنبؤية خارج مجال نظر الباحث عن إجابة، فوق صدع يصل مباشرة إلى رحم الأرض ذاتها، وتتفوّه بنبوءاتها المبهمة إلى غرفة علوية فيها يجلس صاحب السؤال في قلق منتظرًا الإجابة. هكذا كان يبدو أن أبولو والسيبيل يستمدان قواهما التكهنية من جايا نفسها، جدة أبولو العظمى. قيل إنّ البخار كان يصعد من باطن الأرض، فحسبه كثيرون تنفس جايا ذاتها[62]. ينبع هناك نبع كاستاليا Castalia، الذي يقال إنّ مياهه تُلهم الشِعر لكل من يشرب منها أو ينصت لهمساتها[63].

هكذا بات أبولو الديلوسي أبولو الدلفي أيضًا. لا يزال الناس يسافرون إلى دلفي ليسألوا عن مستقبلهم، فعلتُ ذلك بنفسي. لا يكذب أبولو قط، لكنه لا يقدم أبدًا إجابات مباشرة، يتسلى بالإجابة عن السؤال بسؤال آخر أو لغز غامض لن يصبح ذا معنى إلا بعدما يفوت أوان التصرف بناءً عليه.

للتكفير عن تعديه على سير الأمور بالشكل المناسب، وليُسمح لبايثون أن يخلد في نومة الموت الأبدية بين ذراعي أمه جايا، ثبّت زيوس أخيرًا جزيرة ديلوس التي يرقد فيها الثعبان في الأرض، فلم تعد تطفو بحرية. مع ذلك يستطيع من يزورون الجزيرة اليوم أن يشهدوا بأن الإبحار إليها شاق، إذ تحلّ عليك في الطريق الرياح الإيتزية Etesian winds العنيفة والتيارات الميلتيمية meltemi currents الغادرة، وكل من يسافر إليها سيعاني على الأرجح من أسوأ أنواع دوار البحر. وكأن هيرا لم تغفر بعد لديلوس دورها في ولادة الليتويديين Letoides، التوأمين العظيمين أرتيميس وأبولو.

مايا مايا

كم عدد الأوليمبيين الموجودين الآن؟ دعنا نعدّ الرؤوس بسرعة. على العرش يجلس زيوس، بجواره تجلس هيرا، حولهم يتناثر هستيا

وبوسايدون (الذي يحب العودة إلى الأرض من حين لآخر ليراقب زيوس) وديميتر وأفروديتي وهيفايستوس وآريس وأثينا وأرتيميس وأبولو، أي أحد عشر أولمبيًا. هاديس لا يُحسب لأنه يقضي جلّ وقته في العالم السفلي ولا يهتم بأي شكل من الأشكال بأخذ مقعد في الدوديكاثيون. إذن لا يزال هناك مقعد خاو قبل أن يبلغ المجلس الأوليمبي نصابه.

لم يكد الغبار ينقشع، والصدى الهائل للجريمة البايثونية يتداعى لنظرات توبيخ ثانوية، حتى رأى زيوس الطريق أمامه مفتوحًا للقيام بواجبه في أن يملأ الكرسي الثاني عشر بإله أخير، أو بكلمات أخرى، لمحت شهوته الجنسية فانية أخرى مغرية.

أنجب أطلس بطل التياتنة الأعظم سبع بنات في أثناء التيتانوماكي من الأوشيانية بلايوني Pleione، وتشريفًا لها سُميت البنات السبع بالبلايودات Pleiades، وإن كنّ أحيانًا يُدعون بالأطلانتيدات Atlantides أيضًا احترامًا لأبيهن.

أكبر وأجمل الشقيقات سود العيون كانت تُدعى مايا Maia، وكانت تعيش حياة سعيدة متواضعة كأوريادة على المنحدرات الكورنيثية لجبل سايليني في مقاطعة أركاديا[64]، سعيدة فقط حتى تلك الليلة التي تجلّى فيها لها الربّ العظيم زيوس ووضع فيها طفلًا. بعد فترة الحمل، وضعت مايا بسرّيّة تامة - إذ إن الحديث عن سلوك هيرا تجاه أبناء زيوس غير الشرعيين ملأ قلوب بنات اليونان وما حولها بالرعب - في كهف بعيد ناءٍ خفي ولد بصحة جيدة، أطلقت عليه هرمس Hermes.

الطفل المعجزة

أثبت هرمس أنه أكثر طفل استثنائي طويل اللسان مبكر النضوج عرفه هذا العالم، فبعد ربع ساعة من ولادته زحف من أحد جانبي الكهف إلى الآخر ملقيًا بتعليقاته على أمه المذهولة، وبعد خمس دقائق طلب ضوءًا كي يفحص جدران الكهف بشكل أفضل، ولمّا لم يعطه أحد ما يريد ضربَ

حجرين ببعضهما فوق كومة من القش وصنع نارًا، وهو شيء لم يحدث من قبل. بعد ذلك وقف ذلك الطفل العجيب منتصبًا (بعمر لم يبلغ بعد النصف ساعة) وأعلن أنه ذاهب ليتمشى.

قال: «كهف ضيّق لا يطاق، يجعلني أشعر بالكلوستروفوبيا والاختناق، للهواء الطلق أنا مشتاق»، مخترعًا بكلماته السجع وعائلة أمراض الفوبيا، «سأراك بعد قليل، اشغلي نفسك ببعض الحياكة أو التطريز أو أيٍ كان، كوني أمًا طيبة».

بينما كان يتهادى نازلًا على منحدرات جبل سايليني بدأ يدندن لنفسه، تحولت دندنته إلى غناء رخيم، وعلى الفور بدأت طيور العندليب في الغابات القريبة في محاكاتها، ولا يزال العندليب يحاول الوصول إلى جوهر دندنة هرمس حتى الآن.

بعدما قطع مسافة لا يدري قَدْرها، وجد نفسه في حقل شاسع استقبله فيه مشهدٌ مدهشٌ لقطيع من الماشية صافية البياض، ترعى العشب وتخور برفق تحت ضوء القمر.

شهق مشدوهًا، وقال: «يا لها من مو - مو جميلة»، فبرغم كل نضجه المبكر لم يتجاوز حديث الطفولة.

نظر هرمس إلى الأبقار، ونظرت الأبقار إلى هرمس.

قال آمرًا: «تعالي هنا».

حدقت الأبقار فيه للحظة، ثم خفضت رؤوسها وعادت لترعى.

«هممم، هكذا إذن؟».

فكّر هرمس بسرعة، ثم جمع أعوادًا طويلة من الحشائش وضفرها معًا فيما يشبه حدوات الأحصنة ولكن للبقر، وثبت كل حدوة عشبية منهم في أسفل حوافر كل البقر، ولفّ حول يده الصغيرة أوراق شجر الغار، وأخيرًا كسر فرع صفصافة صغيرة وحوّله إلى ما يشبه العصا الطويلة وأخذ ينكز بها ويلسع الأبقار حتى تجمعت في قطيع متلاصق قابل للمناورة، وفي إجراء احترازي إضافي قاد القطيع إلى الخلف، صاعدًا به أعلى المنحدر ثم عائدًا

به إلى مدخل الكهف حيث لا تزال أمه واقفة في ذهول وتوتر منذ خرج هائمًا على وجهه من مكان ولادته.

لم تكن لدى مايا أي خبرة أمومية من قبل، لكنها كانت متأكدة أن السلوك المريب والأسلوب العجيب لابنها ليسا معتادين حتى بين الآلهة. تَعلَم مايا أن أبولو هزم بايثون بينما لا يزال رضيعًا، وأثينا بالطبع وُلدت مُسلحة بالكامل، لكن من ذا الذي يصنع النار بلا شيء إلا الحجارة؟ ويقود قطيعًا من الماشية؟ وما هذا الشيء الذي يتدلى منه أمام عينيها؟ سلحفاة؟ أهي تحلم؟

قال هرمس: «الآن يا أمي اسمعيني، جاءتني فكرة، أود قتْل هذه السلحفاة واستخراج لحمها وطبخه، أعتقد أن حساءها سيكون شهيًا، لو أنا مكانك كنت سأضيف الكثير من الثوم البري ومسحة من الشُمَّر، وللطبق الرئيسي نحتاج للحم بقري، دعيني أتكفل بذلك، فقط سأستعير هذه السكين وسأعود إليك بعد قليل».

اختفى هرمس بعد هذه الكلمات في مؤخرة الكهف الذي رددت حوائطه الصخرية صراخ البقرة التي تنحرها يد رضيع ممتلئة.

بعد العشاء الذي لم تجد مايا بُدًا من الاعتراف بأنه كان شهيًا بحق، استجمعت شجاعتها لتسأل ابنها عما يفعله الآن، فقد كان يُعلّق حبالًا رفيعة من أمعاء البقر كريهة الرائحة أمام النار وينتظرها أن تجف، ويُشغِل نفسه بصنع فتحات دقيقة مملة على حواف درقة السلحفاة.

كل ما قاله لها كان: «عندي فكرة».

أبولو يستقرئ العلامات

ربما عرف هرمس أو جهل أنه في أول لياليه على الأرض قطع مسافة كبيرة، فقد مشى من محل ولادته على جبل سايليني إلى الشمال عبر أراضي ثيساليا وحتى بيريا، حيث وجد الماشية ووضع يده عليها، وعاد مرة أخرى. تلك مسافة مذهلة لو أنك تمشي على قدم رضيع.

لكن الشيء الذي لا يمكن أن يكون هرمس قد عرفه هو أن تلك الماشية البيضاء كانت مُلكًا لأبولو، ويحبها أبولو حبًا جمًا. عندما بلغ الربّ الأشقر نبأ اختفاء قطيعه خرج غاضبًا إلى بيريا ليتتبع ما تخيل أنه عصابة من اللصوص الأشرار إلى عرينهم، افترض أنهم مجموعة من الدرايادات أو الفونيين المنحرفين، سيجعلهم يندمون على اليوم الذي تجرؤوا فيه على ممتلكات ربّ الأسهم. انحنى أبولو في المرعى ليفحص الأرض بخبرة وحذاقة المتعقبين، واندهش عندما لم يجد أي آثار مفيدة على الإطلاق. كل ما استطاع رؤيته كان بضعة علامات أغصان في دوائر ومسارات عشوائية، و- إن لم يكن قد أصابه الخبل - رأى أثر قدم طفل رضيع. أي انطباع قد يقارب حوافر بقرة بدا وكأنه يتجه إلى داخل الحقل لا إلى خارجه!

أيًا كان من سرق الماشية فهو يسخر من أبولو، والأكيد أنهم كانوا عصبة من اللصوص المحترفين. أمهر صياد يعرفه كان أخته أرتيميس، لكن هل تجرؤ أرتيميس؟ ربما اخترعت وسيلة ذكية لإخفاء آثارها، آريس لا يملك الحذاقة الكافية لفعلها، بوسايدون لن يهتم بمثل هذه الغنيمة، هيفايستوس؟ لا ليس هو. من إذن؟

لمح طائر شحرور يستند على فرع شجرة غير بعيدة، بحركة واحدة سريعة سحب قوسه وأطلق سهمه ووقع الكائن ميتًا. شق ربّ العرّافة والتكهن بطن الطائر ونظر داخله ليقرأ الأحشاء.

بات واضحًا على الفور من لون الأمعاء الغليظة والالتواء في الكِلية اليمنى والتزحزح غير المعتاد للغدة الزعترية أنّ الماشية كانت في مكان ما في أركاديا، غير بعيدة عن كورينثوس. وما الذي يقوله ذلك التجلط الدموي على الكبد؟ جبل سايليني؟ وماذا أيضًا؟ إذًا فقد كانت أثر قدم رضيع فعلًا!

جبين أبولو، الأملس عادة، تجعد متجهمًا، وعيناه الزرقاوان لمعتا، وشفتاه الحمراوان انضغطتا في خط رفيع ملتوٍ لأسفل.

سينتقم.

بلغ اشتعال أعصاب أبولو حافة الانفجار مع وصوله مشيًا إلى جبل سايليني. إنّ العالم كله يعلم كم أن تلك الأبقار مقدسة عنده، كان من الواضح أنها من سلالة نادرة وثمينة. من ذا الذي يجرؤ؟

قالت هما دريادية متدلية من فروع شجرة أسبن إنها لا تملك أدنى فكرة، لكنها أخبرته بأن ثمة جمع من النيمفات عند مدخل كهف مايا يتضاحكن، ربما يجد إجابة على سؤاله عندهنّ، كانت لتذهب بنفسها لو كانت قادرة على مغادرة شجرتها.

عندما بلغ أبولو قمة الجبل رأى أن كل سكان سايليني قد احتشدوا في الكهف، وكلما اقترب أكثر كان يزداد وعيًا بالصوت الصادر منه، صوت لم يسمع له مثيلًا من قبل. كان وكأن كل الحلاوة والحب والكمال وكل ما كان جميلًا قد صار حيًا ويتدفق عبر أذنيه إلى جوهر روحه مباشرة، بالضبط مثلما تثير رائحة الأمبروزيا على المائدة الإله وتجعله يتنهد في ترقب مجيد، بالضبط مثلما يشعل مرأى نيمفة مليحة الأيكور في عروقه فيثور ويفور حتى يكاد ينفجر، بالضبط مثلما يهيجه الملمس الدافئ للجلد على الجلد حتى الأعماق، كانت تلك الجلبة الخفية الآن تغوي وتسحر أبولو حتى شعر أنه على وشك أن يجن من فرط النشوة والرغبة. ليته كان قادرًا على قطفها من الهواء وامتصاصها مباشرة في صدره، ليته كان يستطيع...

على حين غرة توقف الصوت السحري وانكسرت التعويذة.

صار جمع النايادات والدرايادات وبقية الأرواح المتكتلة على فم الكهف يتفرق، تهزّ كل منهنّ رأسها في عجب بينما تمضي، وكأنها صحت لتوها من غيبوبة. شق أبولو طريقه بينهنّ ورأى بجوار المدخل بقرة كاملة مقطعة إلى شرائح مشوية ومعروضة على صحون صخرية، فاستشاط غضبه مجددًا.

هرع إلى الداخل وأخذ يزأر: «الآن ستدفع الثمن، الآن ســ...».

«صه!».

مايا الأوريادة ابنة عم [أو ابنة خالة] أبولو كانت جالسة على مقعد خيزران تحيك، وضعت إصبعًا على شفتيها وأومأت برأسها تجاه المهد بجوار النار، الذي فيه يقرقر الطفل متورد الخدين خلال نومه.

لم يردع هذا أبولو، قال: «هذا الطفل الشيطاني سرق ماشيتي».

قالت مايا: «هل أنت مجنون؟ ملاكي الصغير عمره بالكاد يومٌ».

«ملاكٌ صغيرٌ في عينك! أعرف كيف أقرأ أحشاء الشحرور، إضافة إلى أني قادر على سماع دوي خطى الماشية وخوارها في الخلف، يمكنني تمييز صوتها في أي مكان، هذا الطفل لصّ وأنا أطالب بـ...».

«تطالب بماذا؟»، كان هرمس قد جلس يحدق في عيني أبولو المهتاجتين، «ألا يستطيع الطفل أن ينعم بنومه؟ لقد كانت ليلتي مرهقة مع نقل كل تلك الماشية، وآخر ما أحتاجه هو...».

صاح أبولو: «أنت تعترف!»، واقترب منه بخطى واسعة، «بحق زيوس، سأحطم رقبتك أيها الصغير الـ...».

لكن بينما كان أبولو يرفع هرمس ليفعل به ما كان ينوي فعله، وقعت من المهد أداة غريبة مصنوعة من الخشب ودرقة سلحفاة، وأصدرت بوقوعها صوتًا ذكّره بالصوت السحري الذي أذهله عندما كان يقف خارج الكهف.

أسقط أبولو الطفل في المهد مرة أخرى وانتزع الأداة، كانت عبارة عن شريحتين رفيعتين من الخشب متصلتين بدرقة السلحفاة، ومشدود عليهما بإحكام عدة خيوط رفيعة من أمعاء البقر. شد أبولو بإبهامه أحد الخيوط مرة تلو أخرى، وأخذ الصوت المذهل يتردد عنها في كل مرة.

«كيف...؟».

قال هرمس وهو يرفع حاجبيه متفاجئًا: «هذا الشيء البسيط؟ إنه لعبة حمقاء تسليت بصنعها بالأمس، أسميتها (قيثارة)، مع ذلك يمكنك أن تصدر بها أصواتًا مسلية لو ضربت عليها هكذا، أو يمكنك مداعبتها كما تحب، فقط ثبّت وتَرين و.... هاتها، دعني أريك».

وبسرعة باتا يضربان ويداعبان ويشدّان ويربتان على الأوتار والنغمات

مثل مراهقَين متحمسَين. وكان، عندما بدأ هرمس في توضيح مبادئ الوزن الإيقاعي، أن استفاق أبولو أخيرًا من المشاعر الجياشة التي أثارتها تلك الأداة فيه وعاد إلى رشده. قال أبولو: «نعم نعم، كل هذا رائع، لكن ماذا عن ماشيتي اللعينة؟».

نظر إليه هرمس بعيون متفحصة. «لابد أنك... دعني أفكر... لا، لا تقل لي... أبولو، أليس كذلك؟».

تلك كانت أول مرة جرَّب فيها أبولو ألا يتعرف إليه محدثه من أول لحظة، وأدرك أنها لن تكون من خبراته المفضلة، وفي قائمة الخبرات غير المفضلة ستنضم أيضًا خبرة أن يحدثه رضيع عمره يوم واحد بلهجة الأعلى شأنًا. كان على وشك أن يحطم تلك الروح المتعجرفة الصغيرة بتعليق ساحق وربما يتبعه بخطّافية مباشرة في ذقن الطفل، عندما تفاجأ بيد صغيرة منمّشة تمتد إليه.

«هات يدك يا بولّ، تسعدني مقابلتك، أنا هرمس، آخر إضافة لدفتر الآلهة. أنت أخي غير الشقيق، أليس كذلك؟ أمي مايا شرحت لي شجرة العائلة بالأمس، يا لنا من عائلة غريبة، صح؟ صح؟».

إحساس غريب جديد طرأ على أبولو، لكمة مرحة لعوب نغزته في ضلوعه، شعر أنه يفقد السيطرة على الموقف.

«انظر، لا يهمني من أنت، ليس من حقك التجوّل هنا وهناك وسرقة ماشيتي من دون أن تتوقع أنك ستدفع الثمن».

«أوه، سأدفع بالطبع، لا تقلق بشأن ذلك، لكني كنت مضطرًا لأن آخذها، فلو كنت سأصنع أفضل قيثارة لأخي الحبيب غير الشقيق فسأحتاج بلا شك لأفْضَل الأمعاء لصنع أفضل الأوتار».

نقل أبولو عينه من هرمس للقيثارة ومن القيثارة لهرمس. «أتعني...؟».

أومأ هرمس، وقال: «مع كامل محبتي، لك القيثارة ولك الفن الذي وراءها، أعني... أنت بالفعل ربّ الأرقام والمنطق والتناغم، الموسيقى تنتمي بلا شك لهذه المجموعة، ألا تظن ذلك؟».

«لا أعلم ماذا أقول!».

«يمكنك أن تقول شكرًا يا هرمس، وبالطبع يمكنك الاحتفاظ بالماشية كلها يا أخي العزيز».

«شكرًا يا هرمس، وبالطبع يمكنك الاحتفاظ بالماشية كلها».

«هذا لطف منك أيها العجوز، لكني في الواقع كنت بحاجة لاثنين فقط، يمكنك استرجاع البقية».

وضع أبولو يدًا حائرة على جبهة متعرقة. «ولماذا احتجت إلى اثنين فقط؟».

قفز هرمس إلى الأرض. «قالت لي مايا كم تحب الآلهة أن تُعبَد، وكم تحب القرابين الحيوانية الموجهة إليها، لذا نحرت بقرتين وقدمت أحد عشر شريحة من لحمهما المحترق لكل واحد من الأوليمبوس، وتشاركت مع أمي تناول الشريحة الثانية عشرة بالأمس، لا يزال بعضها متبق لو أنك لا تمانع تناول اللحم باردًا. طُبخت بأفضل شكل مع مسطردة رائعة من اختراعي».

قال أبولو: «لا، شكرًا. لطيف منك أن ترسل دخان القرابين إلى الآلهة بهذه الطريقة»، كان أبولو يحبّ القرابين المنذورة مثل كل الآلهة، «لطيف جدًا».

قال هرمس: «حسنًا، دعنا نرى إن كنت قد نجحت»، ومن دون إنذار قفز بين ذراعي أبولو، وشد يديه على كتفيه.

داخ أبولو من السرعة المذهلة لعقل الطفل المذهل وخفة جسده وأسلوبه. «نرى إن كان ماذا قد نجح؟».

قال هرمس: «في خطتي للتودد إلى أبي، خذني إلى الأوليمبوس وعرّفني بالجميع، المقعد الثاني عشر الخاوي مكتوب عليه اسمي».

الربّ الثاني عشر

كل ما يتعلق بهرمس كان سريعًا، عقله وبديهته ونزعاته واستجاباته. آلهة الأوليمبوس، الذين كانوا يشعرون بالإطراء بالفعل من الدخان اللذيذ

الذي داعب خياشيمهم بالأمس من جبل سايليني، أصبحوا مسحورين من ذلك الوافد الجديد، حتى هيرا خفضت وجنتها كي يقبلها ذاك الذي قالت عنه طفل فاتن. قبل أن يُدرك أحد كان هرمس في حضن زيوس يشد لحيته، ضحك زيوس وضحك البقية معه.

ماذا ستكون واجبات ذلك الربّ الجديد؟ سرعة ذهنه وقدميه اقترحت إجابة فورية: سيكون رسولًا للآلهة. ليزداد سرعة على سرعته، صنع له هيفايستوس حذاءً سيصبح لاحقًا علامته المميزة: التالاريا The Talaria، وهو صندلٌ ذو أجنحة تسمح له بالانتقال من مكان إلى آخر أسرع من الصقر. سعادة هرمس به كانت لا تُضاهى، وعانق هيفايستوس بقوة ودفء إلى حدّ أن ربّ النار والأفران عرج على الفور عائدًا إلى ورشته، ثم عاد بعد يوم وليلة من العمل المضني بخوذة نصفية ذات أجنحة وحافة مرنة تلائم التالاريا. منح هذا هرمس مسحة من العظمة أظهرت للعالم كله أن هذا الصغير الوسيم المفعم بالطاقة يمثل مهابة الآلهة وجلالتهم، ولمزيد من الهيبة واللمعان، أهداه هيفايستوس صولجانًا فضيًّا مكللًا بجناحين ويلتف حوله ثعبانان[65].

من الآن فصاعدًا سيستمتع زيوس بحكايات مآثر هرمس بشدّة. دهاء هرمس وخداعه في سرقة ماشية أبولو جعلاه الخيار الطبيعي لدور ربّ اللصوص والأوغاد والكذّابين والنصّابين والمقامرين والباعة الجوّالين والحكّائين والممازحين والرياضيين. نصيبه في الكذب والمزاح ورواية القصص جعلوا له سهمًا في الأدب والشعر والخطابة والفطنة أيضًا، مهارته وبصيرته سمحتا له بالهيمنة كذلك على مجالات العلم والطب[66]، وصار ربّ التجارة والمقايضة، وربّ الرعاة (بالطبع) والسفر والطُرق. مع أن الموسيقى كانت من اختراع هرمس، فقد أهدى مسؤوليتها مثلما وعد إلى أبولو. بَسّط أبولو بنية القيثارة عبر استبدال درقة السلحفاة بإطار ذهبي أنيق. ولا زلنا نعرف القيثارة بهذا الإطار الذهبي حتى اليوم.

مثلما اقترحت أن أرتيميس ربما تكون المقابل لكل ما تمثّله أثينا

(الجموح مقابل الاستقرار، الهوائية مقابل الحكمة... إلخ)، كذا يمكن اعتبار التحوّر والسرعة وطاقة الحماس عند هرمس يمثلون المقابل التام للسكينة والديمومة والنظام والألفة والاكتفاء المركزي عند هستيا.

رموز هرمس، بالإضافة طبعًا إلى صولجانه وقبعته وصندله الذين صنعهم له هيفايستوس، كانت تتضمن السلحفاة والقيثارة والديك الصغير. أطلق عليه الرومانيون ميركيوري Mercury، وعبدوه بنفس الحمية التي عبده بها الإغريق. كان أمردًا مثل أخيه نصف الشقيق (وصديقه الأقرب الآن) أبولو، ومثله أيضًا كان من آلهة النور. نور هرمس لم يكن ذهبيًا مثل أبولو، بل فضيًا، زئبقيًّا، وهو ما يفسر تسمية عنصر الزئبق على اسمه الروماني، وكل الأشياء الزئبقية تذكرنا بهذا الربّ المبهج. سيتولى هرمس لاحقًا مسؤوليته السماوية الأهم على الإطلاق، لكن سنكتفي الآن بإجلاسه في مقعده الثاني عشر في المجلس العظيم للميجالا كازانيا[67]، المنصة الهائلة على قمة جبل الأوليمبوس.

الأوليمبيون

عرشان عظيمان، أمامهما عشرة عروش أصغر، يحتل كل منهما الآن ربّ أو ربّة. يمد زيوس يده اليسرى إلى هيرا.

يمتد أمام الآلهة الميجالا كازانيا، المدرج الصخري الذي صنعته أيادي الهيكاتونكيريس خلال قذفهم التاريخي للتياتنة[68]. هدير هائل يصدر عن الحشد العظيم من الخالدين الذين اجتمعوا ليشهدوا تلك المناسبة التاريخية، اللحظة الأسمى في حياة زيوس.

أخذت ملكة السماء يده. هيرا كانت راضية، حظيت بمحادثة مع زوجها الخوّان واتفقا على ألّا يكون هناك آلهة أخرى، لن يحدث مرة أخرى أن يغوي زيوس نيمفة أو تيتانة ويجعلها حبلى. اكتمل الدوديكاثيون، وزيوس الآن سيلتزم الجدية ويركّز على ترسيخ مكانته كحاكم أبدي، وهيرا، زوجته، ستكون بجواره دائمًا لدعمه وإرشاده، وحفظ النظام والوقار.

بينما يتفحص زيوس وجوه الآلهة العشرة المبتسمين أمامه، شعر بهيرا تعتصر يده، وفهم ما تقصده بإيماءتها الضاغطة. أخذ يُحيّي الجمهور المكوَّن من التياتنة المُعفى عنهم والنيمفات اللواتي يفقدن الوعي من فرط الحماسة في الأسفل والسيكلوبسات والچيجانتيين والميلياي والأوشيانيات المتزاحمات لتحصلن على أفضل إطلالة، والكاريتات والهوراي يومضنَ خجلًا، وهاديس والإيرنيات وبقية كائنات الظلام من العالم السفلي ينحنون احترامًا، والأيادي الثلاثمئة للهيكاتونكيريس تلوِّح بحماسة إظهارًا للولاء.

نهضت هستيا عن عرشها ونزلت بهدوء لتشعل النار في الزيت اللامع داخل وعاء هائل من النحاس المطروق، تأشيرًا لبداية عهد الإثني عشر إلهًا. اهتز الجبل من حلقة التهليل الهائلة التي ترددت حوله، وحلّق عقاب فوق الرؤوس، وهزم الرعد عبر السماء.

عادت هستيا إلى عرشها، راقبها زيوس وهي تعدّل من تنورة ردائها برقّة، وحول نظرته إلى الآخرين واحدًا تلو الآخر: بوسايدون، ديميتر، أفروديتي، هيفايستوس، آريس، أثينا، أرتيميس، أبولو، هرمس. أمامه تنحني كل الآلهة والمخلوقات، أعداؤه إما، مشتَّتون أو هالكون أو مسجونون أو خاضعون. لقد صنع إمبراطورية لم يعرف الوجود لها مثيل قط. لقد فاز. مع ذلك، لا يشعر بشيء.

نظر إلى أعلى، إلى الحافة البعيدة من الجبال، ورأى هيئة مظلمة لشخص عملاق يكاد يلتصق بالسماء، تتطاير ثيابه السوداء مع الرياح. إن أباه كرونوس قد جاء، نصل منجله يلتمع باليسير الذي بلغه من ضوء لهب هستيا بينما يتأرجح جيئة وذهابًا كالبندول. مع أن زيوس لا يستطيع تمييز التفاصيل بدقة من كل تلك المسافة في ذلك الضوء الواهن، لكنه كان متيقنًا من وجود تجهّم قاسٍ موبِّخ على وجه أبيه الهزيل المنهك.

«لوِّح لهم يا زيوس، ابتسم بحق السماء». هسيس هيرا الخافت استعاده من شروده، وعندما نظر إلى حيث كان ظل أبيه القاتم مرة أخرى، كان قد اختفى. ربما كان يتخيل وجوده.

تصاعد مزيد من التهليل، امتزج هزيم الرعد مع هدير ارتجاج الأرض نفسها، جايا وأورانوس كانا يرسلان تهانيهما، أو ربما تحذيراتهما. لن يتوقف التهليل، كل ما هو حيٌّ يعبده، كل ما هو حيٌّ يعشقه، يجب أن يكون ذلك اليوم أسعد أيام حياته.

لكن ثمة شيء مفقود، شيء... عَبَس، وفكّر. فجأة طعنت صاعقة رعدية السماء وضربت الأرض، نتج عنها سحابة هائلة من الدخان والغبار المحروق.

قالت هيرا: «لا تفعل ذلك يا عزيزي».

لكن زيوس لم ينصت، فقد واتته فكرة.

دمى زيوس

الجزء الأول

بروميثيوس

ذكرتُ من قبل بروميثيوس ابن إيابتوس وكلايميني. حاز ذلك التيتان البصير الشاب على كل ما هو جذّاب من الصفات، فقد كان قويًا ووسيمًا إلى درجة تكاد تؤلم العيون ومخلصًا ووفيًا وكتومًا ومتواضعًا وظريفًا ومراعيًا وحسَن الخلق، وفوق كل ذلك كان ألطف صاحب قد يحظى به أحد. الجميع أحب بروميثيوس، لكن زيوس بالذات أحبه أكثر من الجميع. عندما كان جدول زيوس المزدحم يسمح، يخرج الصديقان إلى الريف معًا، ويتحدثان عن كل شيء وعن اللاشيء، عن الحظ والصداقة والأسرة والحرب والمصير وغيرها من الأشياء السخيفة غير الهامة التي يتحدث عنها الأصدقاء.

كان بروميثيوس مولعًا بصحبة زيوس بقدر ما كان زيوس مولعًا بصحبته، لكنه لاحظ في الأيام التي سبقت تنصيب الدوديكاثيون أن في صديقه الإله بعض التغيير، أمسى متقلبًا نزقًا، أقل نزوعًا للتمشية، وأقل رغبة في المزاح واللعب، وأكثر ميلًا للعبوس والتجهّم والشجار على أشياء لا تليق بملك الآلهة المرح الذكي الذي يعرفه بروميثيوس ويحبه. عزا ذلك توتر الأعصاب وابتعد عن طريقه.

ذات صباح، بعد أسبوع من مراسم التتويج العظيمة، كان بروميثيوس قد غلبه النوم بين الحشائش الطويلة في أحد المروج العطرة في تراقيا، لكن يدًا أخذت تلوي أصابع قدميه حتى فتح عينيه، ليرى ملك الآلهة الذي عاد لمرحه القديم يتقافز أمامه مثل طفل لا يُطيق الصبر في صباح عيد ميلاده. زالت الكآبة عن زيوس مثلما ينقشع الضباب عن قمة جبل، وكل علامات البهجة عادت وقد تضاعفت عشر مرات.

«اصحِ يا بروميثيوس، هيا، هيا، هيا».

«مااااهها!!!وومماذا؟».

«سنفعل شيئًا مذهلًا اليوم، شيئًا سيتحاكى به العالم لدهور، وسيتردد صداه عبر العصور، سيكون....».

«سنذهب لصيد الدِببة؟».

«دببة؟ لقد جاءتني ألمع فكرة على الإطلاق، قم، هيا».

«إلى أين نحن ذاهبان؟».

لم يجبه زيوس، بل وضع ذراعه حوله وقاده عُنوة عبر الحقول في صمت لا يكسره إلا صيحات حماسية وضحكات من حين إلى حين. لو لم يكن بروميثيوس يعرف صديقه جيدًا لحسبه ثملًا بالنكتار.

قال بروميثيوس: «بالنسبة لهذه الفكرة، هلّا شرعت في توضيحها من البداية؟».

«نعم، حسنًا، البداية، صحيح، البداية هي المكان الذي يجب أن نبدأ منه فعلًا، اجلس هنا»، وأشار زيوس إلى شجرة متداعية، وأخذ يمشي جيئة وذهابًا بينما يتفقد بروميثيوس لحاء الشجرة للتأكد من خلوها من النمل، ثم جلس. «تأمل كيف بدأ كل شيء. في البدء كان الخواء، من الخواء خرج النظام الأول: إيربوس ونيكس وهميرا وجيلهم، وتبعهم النظام الثاني: جَدَينا جايا وأورانوس، أليس كذلك؟».

أومأ بروميثوس بحذر.

«وجايا وأورانوس أطلقا علينا لعنة جنسكم البغيض، التياتنة...».

«على رسلـ...».

«...ثم بعد ذلك جاءت النيمفات والأرواح وغيرهم من الكيانات الإلهية الثانوية ووحوش وحيوانات وكل ما يمشي على الأرض، ثم تتمة كل هذا كانت نحن الآلهة... اكتملت السماوات والأرض».

«بعد حرب طويلة دموية ضد جنسي، ساعدتك فيها بنفسي لتفوز».

«نعم، نعم، لكن النتيجة النهائية أن كل شيء على ما يرام، السلام والرخاء في كل مكان، ومع ذلك...».

سكت زيوس مطولًا حتى شعر بروميثيوس أنه يجب عليه كسر الصمت.
«هل أنت واثق أن ما تعنيه ليس أنك تفتقد الحرب؟».
«لا، ليس الأمر كذلك...»، تابع زيوس المشي جيئة وذهابًا أمام بروميثيوس مثل معلم يُلقي محاضرة على فصل قوامه تلميذ واحد، «لا بد أنك لاحظت أني كنت في حال مختلف مؤخرًا، سأخبرك السبب. أتعلم كيف أني أحيانًا أحلّق فوق العالم بهيئة عقاب؟».
«باحثًا عن النيمفات».
تابع زيوس وكأنه لم يسمع: «هذا العالم جميل جمالًا استثنائيًا، كل شيء في مكانه، من الأنهار للجبال للطيور للوحوش للمحيطات للسهول للغابات... لكن عندما أنظر إلى أسفل، يُحزنني خواؤه».
« خواؤه؟».
«آه يا بروميثيوس، ليس لديك أدنى فكرة عن مدى الملل الذي يصيب ربًا يحكم عالمًا تامًّا مكتملًا».
«ملل؟».
«نعم، ملل، أدركتُ منذ وقت طويل كم أنا ضَجِر ووحيد، أعني أني وحيدٌ بالمعنى الأشمل، بالمعنى الكوني، أنا وحيد كوزموسيًا، هل هكذا سيظل الحال إلى أبد الآبدين؟ سأبقى جالسًا على عرش الأوليمبوس بصواعق الرعد في حجري، والكل ينحني لي ويسبّح بحمدي ويسألني الخدمات؟ إلى الأبد؟ أين المتعة في ذلك؟».
«حسنًا...».
«صدقني، كنت ستكره هذا أيضًا».
شدّ بروميثيوس شفتيه وفكّر لوهلة. الحقيقة كانت أنه لم يحسد صديقه أبدًا على عرشه الإمبراطوري بكل أعبائه ومنغّصاته.
قال زيوس: «لنفترض، لنفترض أني سأبدأ جنسًا جديدًا».
«أنت تفعل ذلك مع النيمفات طوال الوقت».
«لا ليس ذلك، أقصد بالجنس نوعًا جديدًا، نظامًا جديدًا من المخلوقات، مثلنا في كل شيء: منتصب القامة ويقف على قدمَيْن...».

«ورأس واحدة؟».

«رأس واحدة وذراعان، يشبهنا في كل شيء بالضبط، وسيكون لديهم... أنت المثقف فينا يا بروميثيوس، ما اسم ذلك الشيء الذي يميّزنا عن الحيوانات؟».

«أيادينا؟».

«لا، بل ذلك الشيء الذي يخبرنا أننا موجودون، ومدركون لَكُنْه أنفسنا».

«أتعني الوعي؟».

«نعم، الوعي، يجب أن يكون لهذه المخلوقات وعيٌ، ولغة. لن يشكلوا أي تهديد لنا بالطبع، سيعيشون هنا على الأرض، ويستخدمون تفكيرهم لإطعام أنفسهم وحمايتها».

«إذن...»، عبس بروميثيوس بينما يحاول رسم صورة متماسكة في عقله، «جنس من الكائنات التي تشبهنا؟».

«بالضبط، لكنهم ليسوا ضخامًا مثلنا، وسيكونون من خلقي أيضًا، من خلقنا».

«خلقنا؟».

«أنت ماهر في استخدام يديك مثل هيفايستوس. فكرتي هي أنك ستشكل تلك المخلوقات من... من الطين مثلًا، ستشكلهم على هيئتنا، مضبوطين في كل تفاصيلهم لكن بمقياس أصغر. ثم سيكون بوسعنا تحريكهم وإحياؤهم واستنساخهم، وإطلاقهم في الطبيعة لنرى ماذا سيحدث لهم».

تأمل بروميثيوس الفكرة.

«هل سنتواصل معهم؟ نتحدث معهم ونتجول حولهم؟».

«ذلك هو المغزى كله، أن يكون هناك جنس ذكي... أو لنقل نصف ذكي، ليُسَبّح لنا ويعبدنا ويلعب معنا ويمتّعنا، جنس من المنمنمات الصغيرة تابع لنا يحبنا ويقلدنا».

«ذكور وإناث؟».

«يا إلهي، لا بالطبع، ذكور فقط، أتتخيل ماذا ستقول هيرا لو حدث غير ذلك؟».

كان بروميثيوس قادرًا بلا شك على تخيل رد فعل هيرا لو وجدت أن العالم صار فجأة مترعًا بمزيد من الإناث اللواتي سيعيث بينهن زوجها اللعوب فسادًا. رأى بروميثيوس كيف أن زيوس متحمّس لخطته العظيمة تلك، وعلم أنه لو وضع رأسه في أمر، حتى لو كان شديد الاختلاف والغرابة كهذا، لن يستطيع حتى الهيكاتونكيريس والچيجانتيون مجتمعون زحزحته عنه.

ولم يكن بروميثيوس أيضًا ممانعًا للفكرة، بل وجد أنها تجربة ممتعة، دُمى لتسلية الخالدين. لو فكرت في الأمر لوهلة ستجده جذابًا. لأرتيميس كلاب صيدها، ولأفروديتي حماماتها، ولأثينا بوماتها وثعابينها، ولبوسايدون وأمفيترايتي دلافينهما وسلاحفهما، حتى هاديس عنده كلبٌ حتى لو كان قبيحًا مقرفًا. كان من المنطقي جدًا أن يصمِّم كبير الآلهة بنفسه حيوانه الأليف الخاص، أذكى وأكثر ولاءً ولطفًا من حيوانات الآخرين.

العجن والخبيز

لا يتفق التاريخ على المكان الذي وجد فيه بروميثيوس وزيوس أفضل طين لتحقيق خطتهم، تدّعي المصادر المبكرة، مثل الجغرافي باوسانياس Pausanias في القرن الثاني الميلادي، أنهم جاءوا به من بانوبيوس Panopeus في فوكيس Phocis. بعض الباحثين اللاحقين يقولون إن الصديقان ارتحلا عبر آسيا الصغرى وصولًا للأراضي الخصبة الممتدة بين نهرَي دجلة والفرات[69]. في حين يرجّح أحدث الباحثين أن البحث أخذهم جنوبًا عبر البحر والنيل وخط الاستواء، حتى وصلوا شرق إفريقيا.

أيًا كان ما كان، فقد وجدوا في النهاية ما أعلن بروميثيوس أنها البقعة المثالية: نهر موحل تمتلئ ضفافه بالنوع المناسب من الطين والمعادن التي يحتاجها لأجل التناسق والملمس وقوة التحمُّل واللون.

قال لزيوس: «هذا هو الطين المناسب. لا، لا تجلس، أحتاج للعمل في هدوء دون تشتيت، لكن قبل أن تذهب أحتاج لبعض من لعابك».

«ماذا؟».

«لو كنت تريد لهذه الكائنات أن تحيا وتتنفس، سأحتاج لشيء منك في تكوينها».

رأى زيوس أن في ذلك عدلًا، فتنخّع وملأ بئرًا جافّة بلعابه الإلهي.

قال بروميثيوس: «سأقوم برصّ الهياكل الطينية الصغيرة متجاورة على ضفة النهر لتجف في الشمس، لذا تعال بعد حلول الليل، يُفترض بها أن تكون جاهزة».

كان زيوس يحب أن يشاهد، لكنه يعرف ما يكفي عن مزاج الفنانين ليترك بروميثيوس وحيدًا مع فَنّه، فقفز متخذًا هيئة العقاب وطار مبتعدًا.

بدأ بروميثيوس على استحياء بدحرجة ما يشبه أصابع السجق من الطين، طول كل منهم حوالي أربعة بودات[70]، على قمة كل إصبع وضع كرة من الطين المبلل باللعاب ليكون الرأس، ما تلا ذلك كان مسألة ثني ولَيّ ونغز ونكز ودعك وسحق وشد وجذب حتى ظهر ما يشبه النسخة المصغرة من الإله أو التيتان. كلما عمل أكثر، صار أكثر حماسةً. لم يكن زيوس يبالغ عندما قارن بروميثيوس بهيفايستوس، فقد كان ماهرًا بحق، في الواقع ما يظهره بروميثيوس الآن كان يتجاوز مجرد المهارة، كان فنًا.

خضّب بروميثيوس الطين بأصباغ متعددة وبنى مجموعة من التشكيلات الذكورية شبه الحيّة. أول انتاجاته كان كائن صغير بشرته تقارب لون بشرة الآلهة التي لوّحَتها الشمس، ثم أتْبعه بآخر أسود لامع، ثم ثالث بلون عاجيّ كريميّ مع لمسة من الوردي، ثم كائنات بلون العنبر والأصفر والبرونزي والأحمر والأخضر والبيج والبنفسجي الفاقع والأزرق الفاتح.

مجموعة مختزلة

بينما يحل المساء، وقف بروميثيوس وشد أطرافه بتثاؤب طويل مثل

ذلك الذي يتبع عادة الإرهاق الممتزج بالرضا الذي يعقب جلسة طويلة من العمل المكثف.

شمس العصر كانت قد دفّأت مشغولاته إلى درجة مثالية من الكثافة والمرونة والليونة معروفة في عالم صناعة السيراميك بـ«كثافة الجبن»، وكان ذلك توقيتًا مثاليًا من بروميثيوس، فلو كانت تشكيلاته تعرضت لشمس منتصف اليوم الحارقة كانت ستجف لدرجة «كثافة البسكويت»، ما سيجعلها هشة رقيقة غير قابلة لأي تعديلات في اللحظة الأخيرة سيطلبها منه بلا شك راعيه السماوي الملكي، ربما أذانٌ أطول أو ضِعفُ عدد الأعضاء التناسلية أو شيء من هذا القبيل. فما الآلهة إن لم يكونوا متقلبي الهوى؟

وها هو ملك الآلهة قد جاء، إن لم تكن أذناه تخدعانه، يشق طريقه عبر الغابة ويتحدث بصوت عال مع أحدهم، استطاع بروميثيوس تمييز صوت أنثوي هادئ وموزون يرد عليه، لقد أحضر زيوس معه ابنته المفضلة، أثينا.

سمعه بروميثيوس يقول: «يعلم العالم أن أباكِ إمبراطور الآلهة، زيوس كليّ القوة؟ صحيح، زيوس الغازي الجبار؟ بالتأكيد، زيوس العالِم بكل شيء؟ بالطبع، زيوس الـ...».

«زيوس المتواضع؟».

«زيوس الخالق؟ ليس بعد، ألا تجدي في ذلك صدى؟».

«وأي صدى!».

«بالضبط، أظن ضفة النهر يجب أن تكون هناك، دعينا نناديه، يا بروميثيوس!».

سرب من الطيور الجاثمة فزعَ وانطلق في الهواء يردد: «برو ميييييثيو ووو س!».

أجاب بروميثيوس: «أنا هنا، لكن احذروا لأن...».

لكن فات الأوان!

ما إن خرج زيوس من بين الأشجار في خضم حماسته، حتى خاض في

صف الأشكال الممتازة المرصوصة في إحكام لتجف على الضفة. هرع بروميثيوس ليتفحص الضرر وهو يصرخ من الغضب واليأس.

«أيها الأخرق! لقد دمرتهم، انظر!».

لا أحد غيره في الخليقة كلها كان بوسعه أن يتحدث مع زيوس بهذه الطريقة بلا عقاب، ذُهلت أثينا عندما رأت أباها يحني رأسه اعتذارًا.

عندما تفحص بروميثيوس الضرر وجد أنه ليس بالسوء الذي خاف من حدوثه. لم تتضرَر من التشكيلات لدرجة لا يمكن إصلاحها سوى ثلاثة. انتشل الأجسام المتضررة من الطين، لا يزال الصلصال المسحوق يحمل أثار أصابع أقدام زيوس الهائلة.

قال زيوس ببهجة: «البقية بخير، ممتاز، يوجد الكثير، لنتابع إذًا».

قال بروميثيوس وهو يحمل التماثيل المسحوقة: «لكن انظر لهذا! الأخضر والبنفسجي والأزرق! كانوا الأقرب إلى قلبي».

«لا يزال لدينا الأسود والعاجي والأصفر والمحمرّ وغيرهم، هذا يكفي، أليس كذلك؟».

«لكنني أحببت فعلًا تلك الدرجة من الأزرق!».

أثينا كانت تنظر إلى التشكيلات التي لا تزال متماسكة متمددة تحت الشمس التي تلفظ آخر أنفاسها. قالت بصوت هادئ ومع ذلك يستدعي من الانتباه ما يفوق كل صراخ وزئير بقية الأوليمبيين: «إنهم مُذهِلون يا بروميثيوس». انفرجت أسارير بروميثيوس على الفور، فالثناء من أثينا ليس مثله شيء.

«لقد وضعت خلاصة قلبي وروحي فيهم».

قال زيوس: «أحسنت صنعًا، أحسنت فعلًا. صنعهم تيتان عظيم من طين جايا، ويحفظ تماسكهم لعاب مَلَكّي، وشوتهم أشعة الشمس، وسيصحون إلى الحياة بنَفَس رقيق من ابنتي العزيزة».

فكرة أن تنفخ أثينا الحياة في هذه الكائنات كانت من إبداع متيس من داخل زيوس. ستنفخ الحياة في كل منهم، ستلهمهم ببعض من حكمتها وغريزتها ومهارتها وإحساسها.

بنَفَسها الحلو الدافئ، وبينما هي منحنية على ضفة النهر، نفخت أثينا في كل من التماثيل الصغيرة، وبعد أن انتهت عادت لتنضم إلى بروميثيوس وأبيها، ووقف ثلاثتهم منتظرين مراقبين ما سيحدث.

وما حدث استغرق بعض الوقت.

في البداية بدرت ارتجافة من الأجساد القاتمة، وصدر عنهم ما يشبه الشهيق.

وفي نهاية الصف الطويل انتفض الجسد الأصفر، ثم جلس وسعل.

ثم في غضون ثوان صارت الكائنات الصغيرة كلها حية تتحرك، وبعد لحظات صارت تجرب أطرافها وعيونها وحواسها، ينظر كل منهم للآخر ويتشمم الهواء ويثرثر ويصيح، ولم يمض وقت طويل قبل أن يقفوا جميعًا ويشرعوا في خطواتهم الأولى المرتبكة.

أمسك زيوس بكلتا يدي بروميثيوس في رقصة دوَرانية.

صاح: «انظر، انظر، أليسوا في غاية الجمال؟ إنهم رائعون، شديدو الروعة!».

رفعت أثينا إصبعًا أمام شفتَيها، «صه، أنت تخيفهم»، وأشارت إلى الرجال الصغار الذين ينظرون إليهم الآن من أسفل وعلى وجوههم علامات الخوف والذعر. لم يقارب أطول الرجال حتى ارتفاع ركبهم.

انحنى زيوس وخاطبهم بصوت حاول أن يكون مطَمْئنًا: «لا تخافوا يا صغاري، كل شيء على ما يرام».

لكن الهدير الجبّار الذي خرج منه بدا أنه أثار فزع الكائنات الصغيرة أكثر، وأخذوا يهرعون ويُهَرولون هنا وهناك مرعوبين.

قال بروميثيوس: «دعونا نصغّر أنفسنا إلى أحجامهم»، وبينما يتكلم انكمش حتى صار أطول من مخلوقاته بحوالي قدم، وفعل زيوس وأثينا الشيء نفسه.

بالأحضان والابتسامات والكلمات الرقيقة، هدأت الكائنات الصغيرة والتفَّت حول الخالدين الثلاثة، وانحنت لهم وخَرّت ساجدة.

قال بروميثيوس: «لا داعي للانحناء» بينما يلمس أحدهم ويتعجب من ملمس الحياة التي شعر بدَقّاتها داخله، لقد حول نَفَس أثينا صلصاله إلى لحم دافئ. أعيُنِهم جميعًا كانت تلمع بالحياة والطاقة والأمل.

قال زيوس: «لا، بل ثمة كل داعٍ للانحناء، نحن آلهتهم، لا تنس ذلك».

قال بروميثيوس وهو يحدّق فيهم بشعور عارم من الحب والفخر: «أنا لست إلههم، أنا صديقهم»، وانحنى حتى بات أدنى منهم، «سأعَلمهم الزراعة، وطحن القمح والذرة كي يصنعوا منهما الخبز، وكيف يطبخون ويصيغون الأدوات و.....».

«لا!»، قالها زيوس بهدير مفاجئ أربَك الكائنات الصغيرة فعمّ الهلع من جديد، وتَبع هديره هزيم رعد عظيم في السماء، «كن صديقًا لهم كما تحب يا بروميثيوس، وأنا واثق أني وأثينا وبقية الآلهة سنكون كذلك أيضًا، لكن شيئًا واحدًا لن ينالوه أبدًا، على الإطلاق: النار».

حدق بروميثيوس في صديقه بذهول: «لكن... لماذا أبدًا وعلى الإطلاق؟».

«بالنار يستطيعون مناطحتنا، بالنار قد يحسبون أنفسهم أندادًا لنا، أشعر بهذا وأعلَمه يقينًا، قلت كلمتي وانتهى الأمر، لن ينالوا النار أبدًا».

جلجلة رعد طويلة من على مسافة أكّدت كلماته.

تابع زيوس بابتسامة: «لكن، فيما عدا ذلك بوسعهم الاستمتاع بكل ما في العالم؛ بوسعهم السفر إلى كل ركن فيه، بوسعهم الإبحار في محيطات بوسايدون، وسؤال ديميتر المساعدة في زراعة طعامهم، والتعلم من هستيا فنون الاعتناء ببيوتهم، واكتشاف كيفية تربية الحيوانات للحصول على ألبانها وفرائها واستغلالها في الأعمال، وتعلُم فنون الصيد من أرتيميس، والمكر والخداع من هرمس، والفن والموسيقى والعلم من أبولو، وبوسع أثينا تعليمهم الرضا والحكمة، وأفروديتي مشاركة فنون الحب معهم... سيكونون أحرارًا وسعداء».

سألت أثينا: «ماذا سنسميهم؟».
قال زيوس بعد تفكير قليل: «'الأدنى'، أنثروبوس Anthropos[71]».
صفق زيوس بيديه فصارت حفنة البشر المنحوتة يدويًا مئات، ثم حشودًا تتفرق في كل الأنحاء، ثم صاروا جماهيرًا غفيرة، ثم أصبح تعداد البشر بمئات الآلاف، يهرع كل منهم في طريق باحثًا عن بيت في كل مكان من العالم.

هكذا بزغ أول ظهور للجنس البشري. يمكن القول بأن جايا وزيوس وأبولو وأثينا يُعدّون من أسلاف البشر الأوائل بالضبط مثل بروميثيوس، الذي صنع البشرية من العناصر الأربعة: الأرض (طين جايا)، والماء (لعاب زيوس)، والنار (شمس أبولو)، والهواء (نَفَس أثينا). عاش البشر وازدهروا، وكانوا خير ممثل عن خالقيهم، لكن كان هناك شيء ناقص، شيء هام جدًا ناقص.

العصر الذهبي

جايا، أمّ الكل، الجوّادة الحنون، وقد جعلتها ديميتر خصبة مثمرة، كانت جنة أول البشر. لم يعرف الناس الأوائل المرض ولا الفقر ولا الجوع ولا الحرب، حياتهم كانت رعوية بريئة بأقل قدر من المهام اليومية. كان ذلك زمن العبادة السعيدة، والتعوّد على وجود الآلهة بل وحتى مصادقتهم، تجولت الآلهة بين الناس بسهولة، بأشكال وأبعاد بسيطة غير مخيفة. استمتع زيوس وغيره من الآلهة والتياتنة والخالدين إلى أقصى حد بالاختلاط بالأقزام الفاتنين الصغار الأقرب للأطفال، الذين نحتهم بروميثيوس من الطين.

ربما نحن نتخيل فقط تلك الأيام الأولى التي اتّسَمت بالبساطة الجميلة واللطف الكوني، لمجرد أن يكون لدينا نقطة مرجعية للبهاء الفردوسي نقارن بها الأيام الأدنى المتردية القادمة. آمن الإغريق المتأخرون أن العصر الذهبي حدث بلا شك، فقد كان حاضرًا على الدوام في فكرهم وشِعرهم،

منحهم حلمًا بالكمال يطمحون إليه، ورؤية أكثر واقعية وتحققًا من أفكارنا نحن المبهمة عن إنسان الكهف القديم. ربما كانت المُثل الأفلاطونية والأشكال الكاملة ليست إلا التعبير الثقافي الفكري عن الشوق لتلك الحقبة المنسيّة.

أكثر من أحب الجنس البشري من بين الخالدين جميعًا كان بالطبع خالقهم الفنان بروميثيوس. صار بروميثيوس وشقيقه إيبميثيوس يقضون برفقة البشر أوقاتًا أكثر من تلك التي يقضونها مع بقية الخالدين على الأوليمبوس.

حزن بروميثيوس من أنه لم يُسمح له سوى بصنع الذكور من البشر، شعر أن هذا الجنس أحادي النوع المستنسخ يفتقر للتنوع في هيئته وميوله وشخصيته، لعدم قدرته على التكاثر وإنتاج أشكال جديدة. نعم كان بشرُه سعداء، لكن بالنسبة لبروميثيوس، ذلك الوجود الآمن الذي لا يَتحدى ولا يُتحدى لا طعم له. تحتاج مخلوقاته كي تبلغ المكانة الأقرب للألوهية التي تستحقها شيئًا أكثر، إنها تحتاج إلى **النار**، نار حقيقية ضارية ملتهبة وامضة، تسمح لهم بالحدادة والإذابة والشوي والخبز والغلي والحرق والتشكيل، ويحتاجون لنار الخلق الداخلية أيضًا، نار سماوية، تجعلهم يفكرون ويتخيلون، ويجرؤون على التفكّر والتخيّل. كلما راقبهم بروميثيوس واختلط بهم أكثر، زاد اقتناعه أن النار هي بالضبط ما يحتاجون.

وكان يعلم أين يجدها.

السرقة الأخطر في التاريخ

نظر بروميثيوس إلى تاجي الأوليمبوس التوأمين المتعاليَيْن فوقه؛ أعلى القمم كانت ميتيكوس Mytikos، تعلو حتى قرابة العشرة آلاف بود في السحاب، بجوارها لكن أدنى منها بحوالي مئتي أو ثلاثمئة بودة تعالت القمة الصخرية ستيفاني Stefani، لكنها كانت أصعب في التسلق بكثير. في الأفق الغربي لاحت قمم سكوليو Skolio. أدرك بروميثيوس أن بقايا

أشعة شمس المساء المتداعية ستداري تسلقه - للقمة الأصعب من بين الجميع - عن أعين الآلهة الجالسة على عروشها فوق، فشرع في ارتقائه المحفوف بالمخاطر واثقًا من قدرته على بلوغ القمة من دون أن يلمحه أحد.

لم يعصِ بروميثيوس زيوس من قبل، ليس في أي شيء كبير، ربما في الألعاب والسباقات ومباريات المصارعة والتنافس على قلوب النيمفات كان يغيظ صديقه ويسخر منه بحُرية، لكنه لم يعصه قط بشكل صريح. تراتبية بانثيون الأوليمبوس لم تكن شيئًا عاديًا بوسعك الإخلال به من دون عواقب حقيقية. زيوس كان صديقه الحبيب، لكنه كان قبل كل شيء زيوس.

مع ذلك كان بروميثيوس عازمًا على إتمام ما نوى. أحب بروميثيوس زيوس بقدر ما أحبه، لكنه وجد أن حبه للبشر أكبر، التصميم والحماسة اللذان شعر بهما كانا أقوى من أي خوف من غضب إلهي. كان يكره أن يتجاوز صديقه، لكنه عندما اضطر للاختيار، لم يكن لديه خيار.

عندما بلغ أخيرًا جدران سكوليو المنحدرة، كانت البوابات الغربية قد انغلقت خلف عربة شمس أبولو، وغلّف الظلام الجبل كله.

مضى بروميثيوس منحنيًا حول النتوء البارز الذي يتوِّج مدرج الميجالا كازانيا الشبيه بالصحن، كان بوسعه رؤية هضبة الميوزات على مدى بصره، تومض بلعقات الضوء الراقصة التي ترميها عليها نيران فرن هيفايستوس على بعد مئات البودات من حيث هو الآن.

وراء الناحية الأخرى من الأوليمبوس كانت الآلهة تتناول عشاءها، استطاع بروميثيوس سماع قيثارة أبولو وصفير هرمس وضحكة آريس المجلجلة ونباح كلاب صيد أرتيميس. خطى بروميثيوس على الحافة الضيقة متجهًا للفناء الأمامي محتضنًا الحوائط الخارجية للفرن. ما إن تجاوز الركن حتى ارتبك من رؤية الجسد الضخم لبرونتس ممدّدًا على الأرض نائمًا ويغط، فتراجع بروميثيوس إلى الظلال. كان يعلم أن

السيكلوبسات يساعدون هيفايستوس، لكن حقيقة أنهم قد يناموس في الفرن لم تكن في حسبانه.

رأى بروميثيوس في مدخل الفرن نبات نارثيكس narthex، الذي يُطلق عليه أحيانًا laserwort أو الكلخ الشائع Ferula communis، وهو ليس مثل الخضار البصلي نفسه الذي نستخدمه اليوم لإعطاء مذاقٍ يانسونيٍّ للسمك، لكنه قريب منه إلى حد ما. انحنى بروميثيوس والتقط منه فرعًا طوليًا قويًا. لبّ الفرع الداخلي كان وبريًا سميكًا، نزع بروميثيوس عن الساق أوراقها الخارجية ودفع بها عبر الساحة من فوق جسد برونتس الهاجع حتى بلغت الفرن. الحرارة المنبعثة من جسد الفرن كانت كافية لتشعل نهاية ساق النبات على الفور. استعاد بروميثيوس مشعله المرتجَل بأقصى حذر ممكن، لكنه لم يستطع منع إحدى الشرارات المتناثرة من اللهب من السقوط مباشرة على جذع برونتس. احترقت بشرة صدر السيكلوبس واستيقظ مطلقًا زئيرًا متألمًا، وبينما كان يحاول فهم من أين جاءه الألم المفاجئ وما الذي يعنيه، كان بروميثيوس قد انتزع غنيمته وهرب.

هبة النيران

هرع بروميثيوس نزولًا من الأوليمبوس، تقبض أسنانه على ساق النبات الذي يحترق لبه ببطء. كان يخرجه من فمه كل خمسة دقائق تقريبًا وينفخ فيه برفق حتى يتوهج. وعندما بلغ أمان الوادي أخيرًا انطلق من فوره إلى مستعمرة البشر التي اتخذ وأخوه منها بيتًا.

ربما تفكر أن بروميثيوس كان بوسعه تعليم الناس أن يضربوا حجرين ببعضهما أو أن يفركوا عصيًّا بين أوراق جافة، لكن عليك تذكُر أن ما سرقه بروميثيوس كان نيران السماء، نارًا إلهية. ربما هو سرق الشرارة الداخلية اللازمة لقدح المخيلة البشرية لفرك العصي وحك الحجارة في المقام الأول.

عندما عرض بروميثيوس على البشر الشيطان البرتقالي الراقص، صاحوا فزعًا وقفزوا متراجعين في البداية، لكن بسرعة تغلب فضولهم على خوفهم وبدأوا بالاستمتاع بتلك اللعبة - الظاهرة، المادة، سمها ما شئت - السحرية الجديدة. تعلموا من بروميثيوس أن النار ليست عدوتهم، بل صديقتهم القوية، إن أخضعوها فلن يقتربوا حتى من حصر فوائدها.

انتقل بروميثيوس من قرية إلى قرية ليوضح تقنيات صناعة الأدوات والأسلحة، وصناعة الأواني الفخارية وطهو اللحم وخبز الحبوب والعجين، ما نتج عنه على الفور سيل من الفوائد رفعت الإنسان فوق الحيوانات التي باتت كلها فريسة للرماح ذات الرؤوس المعدنية المسننة والأسهم.

لم يمض الكثير قبل أن ينظر زيوس من عليائه الأوليمبي ليرى الرؤوس المتراقصة للضوء البرتقالي متناثرة على الأرض الممتدة تحته، وعلى الفور أدرك ما حدث، ولم يكن بحاجة للتساؤل عن المسؤول. غضبه كان عاتيًا فوريًا هائلًا، لم يحدث من قبل أن شهد الوجود غضبة بهذا الهول، بهذا الجبروت، بهذا التأجج والاضطرام. حتى أورانوس المشوه في خضم غضبته الانتقامية لم يمتلئ بهذا القدر من الثورة، فأورانوس أسقطه ابنٌ لم يأبه به من قبل، لكن زيوس خانه صديقٌ كان الأحب لقلبه من الجميع... تلك كانت الخيانة الأفظع على الإطلاق.

العقاب

الهدية

ثورة زيوس كانت عاتية حتى أنّ كل من في الأوليمبوس حسبوا أنه سيضرب بروميثيوس بصاعقة هائلة تفتته إلى ذرات متفرقة لن تجتمع مجددًا أبدًا. ربما كان مصير مماثل سيحل على من كان يومًا التيتان المفضّل لزيوس لولا أن وجود متيس الحكيم المتوازن داخل رأسه قد أشار عليه بانتقام أكثر حذاقة ورقيًا. شدة غضبه لم تهدأ بأي حال من الأحوال، لكنها باتت الآن مركزة وموجهة على طرق قصاص أعمق تأثيرًا؛ سيدع الآن مؤقتًا بروميثيوس جانبًا، وسيطلق عنان سخطه الكوزموسي على الإنسان، الإنسان التافه الوقح، الكائن الذي شعر تجاهه ذات يوم بالحب والسعادة لكنه الآن لا يشعر ناحيته إلّا بالامتعاض والاشمئزاز البارد.

ظلّ ملك الآلهة أسبوعًا كاملًا يخطو جيئة وذهابًا أمام عرشه، أمام أعين أثينا القلقة الرصينة، مفكرًا في أفضل وسيلة يُدفّع بها البشر ثمن تجرّوئهم على الاستيلاء على النار، وعلى تجاسرهم على محاكاة سكان الأوليمبوس. بدا له في ذلك اليوم أن صوتًا بداخله همس بأنه مهما كان الانتقام الذي سيصبّه عليهم، سيظل البشر يرتقون بلا توقف حتى يصبحوا ذات يوم رأسًا برأس مع الآلهة، أو ربما ما هو أسوأ، حتى لا يعودوا بحاجة إلى الآلهة ويهجروهم بلا قلق، لا مزيد من العبادة، لا مزيد من الصلوات المرسلة بمحبة إلى سماء الأوليمبوس. هذه الفكرة المخزية كانت أكثر تجديفًا وعبثية من قدرة زيوس على تأملها، لكن مجرد دخولها رأسه لم يؤد إلّا إلى تزكية غضبه.

ليس من الواضح إن كانت الخطة المذهلة التي وُضعت موضع التنفيذ في النهاية خطته أم خطة متيس أم حتى أثينا، لكنها بحسب رأي زيوس كانت خطة من أعظم ما يكون، كان بها نوع من التماثل الذهبي الذي يروق لعقله شديد اليونانية. إنه، بحق السماء، سيجعل بروميثيوس يرى، وسيُري أصحابه البشر أيضًا.

أمر زيوس هيفايستوس في البداية بفعل ما فعله بروميثيوس من قبل، أي أن يشكل إنسانًا من الطين المبلل بلعابه، لكن هذا الإنسان سيكون بهيئة أنثى شابة. اتخذ هيفايستوس من زوجته أفروديتي وأمه هيرا وعمته ديميتر نماذجًا، ونَحَت فتاة ذات جمال أخّاذ، وفيها نفخت أفروديتي الحياة وكل فنون الحب.

اجتمعت بقية الآلهة لتجهيز هذه الفتاة للعالم؛ دربتها أثينا على فنون العناية بالبيت والحياكة والتطريز، وألبستها روبًا فضيًّا بهيًّا، وكُلفت الكاريتات بتزيينها بالسلاسل والدبابيس والأساور وأثمن اللآلئ والعقيق الأبيض والعقيق الأحمر واليشب، والهوراي ضفرن الورود في شعرها حتى صارت جميلة لدرجة تجعل من يراها يكاد ينسى أن يتنفس. علمها هرمس الكلام وفنون الخداع والفضول والمراوغة، وأعطاها اسمًا. بما أن كل الآلهة قد منّت عليها بموهبة أو هدية متفردة، فقد صارت تدعى «مُنِحَتْ كل شيء»، أي باليونانية بَندورا Pandora[72].

هيفايستوس منّ بهدية أخيرة على تحفته الفنية، أهداها لها زيوس بنفسه؛ وهي حاوية مليئة بـ.... بالأسرار.

أنتَ الآن على الأرجح تحسبني سأقول إن تلك الحاوية كانت صندوقًا، أو علبة من نوع ما، لكنها في الواقع كانت جرّة خزفية مصقولة محكمة الغلق، تُعرف في الأراضي اليونانية بـ Pithos[73].

قال زيوس: «خذي يا عزيزتي، هذه للزينة فقط، لن تفتحيها أبدًا، أتفهمين؟».

هزت بندورا رأسها الجميل بمعنى «أبدًا»، ونطقتها بصدق شديد: «أبدًا».

«أنت فتاة طيبة. إنها هدية زفافك، ادفنيها عميقًا تحت سرير الزوجية، لكن عليك ألا تفتحيها، أبدًا. إنها تحتوي... لا تقلقي، فهي لا تحتوي على أي شيء يهمّك».

أخذ هرمس بندورا من يدها، وأوصلها إلى البيت الحجري الصغير حيث يعيش بروميثيوس وشقيقه إبيميثيوس، في مركز مدينة بشرية مزدهرة.

الأخوان

علم بروميثيوس أن زيوس سينزل بهم عقابًا من نوع ما لعصيانه، وحذّر شقيقه إبيميثيوس من قبول أي هدية من الأوليمبوس بأي حال من الأحوال مهما كانت الهيئة التي تقدم نفسها بها، فيما هو غائب في القرى التي نشأت حديثًا يُعلّم أهلها كيفية استخدام النار.

إبيميثيوس، الذي ينزع للفعل أولًا ثم التفكير في العواقب لاحقًا، وعد بطاعة شقيقه الأذكى.

لكن لا شيء كان بوسعه أن يحضّره لهدية زيوس القادمة.

ذات صباح، استجاب إبيميثيوس لطرقة على الباب، ففتحه ليجد أمامه الوجه المبتهج لرسول الآلهة.

«هل يمكننا الدخول؟»، قالها هرمس ثم تنحّى بخفة جانبًا ليكشف عن أجمل كائن رآه إبيميثيوس في حياته، تحمل بين ذراعيها جرة خزفية كطفل رضيع. أفروديتي كانت جميلة، بالطبع كانت جميلة، لكنه جمال سماوي بعيد لدرجة تجعل من المستحيل التفكير فيها إلّا كشخصٍ محلّ إجلال وتبجيل من على مسافة، وكذلك كانت ديميتر وأرتيميس وأثينا وهستيا وهيرا، حُسنهن كان ملكيًا بعيد المنال، أما جمال النيمفات والأوريادات والأوشيانات، فبرغم جاذبيته، كان سطحيًا طفوليًا بالمقارنة مع الجمال المخضب بالحمرة الذي أطل عليه بكل الخجل والغنج والرقة أمام بابه.

كرر هرمس: «أندخل؟».

ازدرد إبيميثيوس لعابه وتراجع للخلف، فاتحًا الباب على اتساعه.

قال هرمس: «صافح زوجتك المستقبلية، اسمها بندورا».

فتح الجرة

لم يمض الكثير قبل أن يتزوج إبيميثيوس وبندورا.

كان لدى إبيميثيوس إحساسًا أن بروميثيوس - الذي كان بعيدًا، يُعلم أهل بنارس Varanasi فن صبّ البرونز - لن يوافق على بندورا، وبدا له أن زواجًا سريعًا قبل عودة بروميثيوس هو فكرة جيدة.

لا شك أن إبيميثيوس وبندورا أحبا بعضهما جدًا. جمال بندورا وكمالها كانا مصدر بهجة يومية له، وفي المقابل أعطاها نزوع إبيميثيوس الهيّن لعيش اللحظة بلحظتها وعدم القلق من المستقبل مطلقًا إحساسًا بأن الحياة خفيفة، وليست إلّا مغامرة لطيفة.

لكنّ حكة صغيرة باتت تدغدها، ذبابة صغيرة جعلت تطنّ حولها، دودة صغيرة صارت تنقب داخلها.

تلك الجرة.

احتفظت بها على رف في غرفة نومهما، وعندما سألها إبيميثيوس عنها ضحكت وقالت: «إنها مجرد شيء سخيف صنعه لي هيفايستوس ليذكرني بالأوليمبوس، لكنها بلا قيمة».

قال إبيميثيوس: «لا بأس»، ولم يمنح الأمر مزيدًا من التفكير.

ذات مساء، بينما كان زوجها يتمرن على رمي القرص مع أصدقائه، اقتربت بندورا من الجرة ومررت إصبعها على حافة غطائها المختوم، لماذا قال زيوس أصلًا أن لا شيء مهم في داخلها؟ لم يكن ليقول مثل ذلك أبدًا إن كانت تلك هي الحقيقة. أخذت تجمع شتات المنطق المبعثر في عقلها.

لو أعطيت صديقًا جرة خاوية، لن تهتم بذكر أن الجرة خاوية، قد ينظر فيها الصديق ذات يوم ويرى ذلك بنفسه. إذن لماذا يتكلف زيوس عناء تكرار أن الجرة لا تحتوي على أي شيء يهمّها؟ لا يوجد إلا تفسير واحد: ثمة شيء عظيم في الداخل، شيء ذو قيمة أو قوة، شيء ساحر أو مسحور.

لكن، لا... لقد أقسمتْ ألّا تفتحها، وقالت لنفسها: «الوعد وعد»، وعلى الفور شعرت بفرط التقوى. آمنتْ أن واجبها يُحتّم عليها مقاومة

إغواء الجرة التي تبدو الآن في الواقع وكأنها تغنّي لها بأعذب الألحان. كم أثقل كاهلها وجود شيء خلاب كهذا في غرفة نومها، حيث يمكنه إغوائها كل صباح واستفزازها كل مساء.

تفقد الأشياء المغوية أغلب قوتها عندما تغيب عن الأبصار. ذهبت بندورا إلى الحديقة الخلفية الصغيرة، وحفرت بجوار المزولة[1] التي أهداها لهم جارهم بمناسبة الزفاف حفرة، ودفنت فيها الجرة عميقًا في الأرض، ثم سوَّت سطح الأرض وجرّت المزولة الثقيلة وثبتتها على قاعدتها فوق خبيئتها.

طوال الأسبوع التالي كانت أكثر سعادة وبهجة وغبطة مما كان عليه أي شخص من قبل، وإبيميثيوس كان يقع في حبها أكثر وأكثر، حتى أنه دعا أصدقاءهم لوليمة، ولسماع أغنية كتبها على شرفها. كانت حفلة ناجحة وسعيدة، كانت آخر احتفال شهده العصر الذهبي على الإطلاق.

في تلك الليلة جافى النوم أعين بندورا، ربما كانت ثملة قليلًا من سيل المديح الذي انهال عليها. عبر نافذة غرفة النوم رأت الحديقة مضاءة بنور القمر، ولمَعَ عقرب المزولة مثل نصل فضي، ومن جديد حسبت أنها تسمع موسيقى الجرّة.

غطّ إبيميثيوس بسعادة في نومه بجوارها، وتراقصت أشعة القمر في الحديقة. انكسر حاجز مقاومة بندورا في تلك اللحظة وقفزت مرة واحدة خارج سريرها، وأمست في الحديقة تفك قاعدة المزولة وتنبش في التربة قبل أن تجد الوقت الكافي لتقول لنفسها أن ما تفعله خطأ.

انتزعت الجرة من حيث أخفتها وأدارت الغطاء، استسلم الختم الشمعي لحركتها وانفتحت الجرة، التقطت أذنها صوت رفرفة أجنحة سريعة غاضبة وحركة وحشية جامحة.

إذن فقد كانت تحتوي على طيور عظيمة!

---

(1) مزولة شمسية sundial: أداة قديمة لمعرفة الوقت نهارًا تعتمد على حركة الشمس في السماء والظل الذي ترسمه على الأرض. [المترجم]

لكن لا، لم تكن عظيمة على الإطلاق. صرخت بندورا ألمًا ورعبًا عندما شعرت بشيء ذو ملمس جلدي يحتك برقبتها، تبعه وخزة وجع حادة عندما لسع شيء ما بشرتها أو عضَّها. خرج من فم الجرّة المزيد والمزيد من الكائنات الطائرة، تشكلت سحابة هائلة من الكائنات الزاعقة الصارخة الناعقة في أذنيها. عبْر العاصفة الضبابية من هذه الكائنات المريعة رأت وجه زوجها الذي خرج ليرى ماذا يحدث مُبيضًا من الرعب والهلع. استجمعت بندورا شجاعتها وقوَّتها لتغلق الجرة، بينما تطلق صرخة هائلة.

على جدار الحديقة وقف زيوس في هيئة ذئب مراقبًا، مبتسمًا أكثر الابتسامات شرًا وخبثًا، بينما الكائنات الصارخة المنتحبة تقبض على الهواء بمخالبها مثل سحابة جراد، وتحوم فوق الحديقة في دوامة جبارة، قبل أن تطير مبتعدة إلى المدينة، إلى الريف، إلى العالم الواسع، لتحل مثل وباء على كل مكان يسكنه إنسان.

ماذا كانت تلك الكائنات؟ كانت السلالة المشوهة المنحدرة من أبناء نيكس وإيربوس، قد وُلدوا من أباتي، الخداع؛ وجيراس، الشيخوخة؛ وأويزيس، البؤس؛ وموموس، اللوم؛ والكيريات، أرواح الموت العنيف؛ وكانوا فروعًا من آتي Ate، الخراب؛ وإيريس، النزاع. تلك كانت أسماؤهم: بونوس Ponos، المعاناة؛ ليموس Limos، المجاعة؛ ألجوس Algos، الألم؛ ديسنوميا Dysnomia، الفوضى؛ سوديا Pseudea، الكذب؛ نيكيا Neikea، الخلاف؛ أمفيلوجياي Amphilogiai، الشقاق؛ ماكاي Makhai، الحروب؛ هيسميناي Hysminai، المعارك؛ وأندروكتاسياي Androktasiai وفونوي Phonoi، القتل الخطأ والقتل العَمد.

ها قد وصل العنف والخداع والبؤس والفقر، ولن يغادروا الأرض بعدها أبدًا.

ما لم تعلمه بندورا حينها كان أنها عندما أحكمت غلق الجرة بهذه السرعة، فقد حبست إلى الأبد ابنة أخيرة لنيكس، هكذا تُركت أخر الكائنات الصغيرة لترفرف بجناحيها بلا أمل إلى الأبد في الجدار، اسمها كان إلبس Elpis، الأمل[74].

الصندوق، والمياه، وعظام جايا

هكذا كانت نهاية العصر الذهبي سريعة مريعة شنيعة، وبات الآن الموت والمرض والفقر والجريمة والجوع والحرب أمور لا مناص منها، أجزاء لا تتجزأ من قدر الإنسانية.

لكن العصر الفضيّ، مثلما سيُطلق على ذلك العهد لاحقًا، لم يكن كله شقاءً. اختلف عن عصرنا أن الآلهة وأشباه الآلهة والوحوش فيه كانوا يتجولون بين البشر ويتزاوجون معهم وينخرطون بالكامل في حياتهم.

بوجود النار في صفّ البشرية، ومجيء النساء الذي سمح بالتكاثر، وبإتمام الإحساس بالأسرة والكمال، تمكنوا من تحاشي بعض من شرور جرة بندورا. نظر زيوس من عليائه ورأى ذلك، وهمست متيس من داخله أن لا شيء بوسعه فعله قادر على منع البشر من الوقوف على أقدامهم، بما يفوق المعنى الحرفي للتعبير، وكم أزعجه ذلك.

في الوقت الحالي لا تزال رهبة الآلهة في قلوب الناس، واستخدم البشر أداتهم الجديدة المدهشة لحرق القرابين وإرسال دخانها إلى الأوليمبوس، دلالة على طاعتهم وإخلاصهم.

بندورا، أول النساء، أنجبت من إبيميثيوس عدة أطفال، بمن فيهم طفلة تدعى بيرا Pyrrha، بروميثيوس كذلك أنجب طفلًا أسماه دوكليون Deucalion، ربما من أمه كلايميني نفسها، أو بحسب مصادر أخرى من الأوشيانية هيسايوني Hesione. هكذا أخذ جنس الرجال والنساء في التضاعف.

بروميثيوس، الذي لم تهجره بصيرته[75]، كان مدركًا تمامًا أن غضب زيوس لم يفتر بعد، فربّى دوكليون على أن يكون جاهزًا لأسوأ أنواع الانتقام السماوي، وعندما أصبح الفتى كبيرًا بما يكفي علّمه فنّ البناء بالخشب، ومعًا صنعا صندوقًا هائلًا.

سعد الشقيقان التيتانان أيّما سعادة عندما أحب ابناهما بيرا ودوكليون بعضهما وتزوجا. صار بوسع بروميثيوس وإبيميثيوس الآن أن يعدّا نفسيهما

سلفين لسلالة جديدة مستقلة من البشر. لكن التهديد بعقاب قريب من الراعد الجالس متجهمًا على عرشه الأوليمبي ظل يخيّم على الجميع.

مرّ وقت، وظلت البشرية تتكاثر وتنتشر، تنتشر مثل وباء في أعين زيوس، لا كالدمى المحبَّبة الصغيرة التي هام بها حبًا من قبل. العذر الذي احتاجه زيوس لينزل بالبشر عقابًا ثانيًا وفّره له لايكيون Lycaon ملك أركاديا Arcadia، ابن بيلاسجوس Pelasgos الذي منه حصل البيلاسجوسيون على اسمهم. بيلاسجوس كان من التماثيل الطينية الأولية التي نحتها بروميثيوس ونفخت فيها أثينا الروح، كان ذو بشرة وشعر وأعين تميل للّون البني، وهو ما يمكن أن نعتبره انتماء إلى العرق الهيليني. اليونانيون اللاحقون سيعتبرون هؤلاء القوم بربريون، بما في ذلك لغتهم وممارساتهم. ومثلما سنرى، لن يكون مصير هذا الجنس الأولي أن يستعمر البحر المتوسط لوقت طويل.

لايكيون، ربما ليختبر معرفة زيوس المطلقة أو قدرته على التمييز أو لأي سبب متوحش آخر، قتل ابنه نكتيموس Nyctimus وشوى لحمه وقدمّه لملك الآلهة الذي جاءه ضيفًا على وليمة عنده في قصره. أثار هذا الفعل المريع إلى حد لا يوصف اشمئزاز زيوس لدرجة أنه أعاد الابن إلى الحياة، وحوّل أباه لايكيون إلى ذئب[76]. لكن نكتيموس لم يدم حكمه بدلًا من أبيه طويلًا، فقد أغار إخوته التسعة والأربعون على الأرض بشراسة وضراوة وقبح حتى أن زيوس قرر أن التجربة البشرية برمتها يجب أن تنتهي، ولهذا الهدف جمع السحب في عاصفة جبارة غمرت الأرض وغرق فيها ناس اليونان وسكان البحر الأبيض المتوسط كلهم.

كلهم عدا دوكليون وبيرا، بفضل بُعد نظر بروميثيوس فقد نجا الزوجان من أيام الفيضان التسعة، بركوبهم صندوقهم الخشبي الذي طفى بأمان فوق المياه. كانا قد حافظا على مخزونٍ من الطعام والشراب في صندوقهم الخشبي، وقليل من الأدوات المفيدة والمقتنيات التي ستساعدهم عندما ينتهي الطوفان أخيرًا ويرسو الصندوق على جبل بارناسوس على الاستقرار وبدء حياة جديدة في عالم ما بعد الفيضان الطيني الموحل[77].

جفّ العالم بما يكفي لنزول بيرا ودوكليون (الذي قيل إنه كان في الثانية والثمانين من عمره في ذلك الوقت) عن الجبل في أمان واتجاههما إلى دلفي في الوادي تحت بارناسوس، وهناك طلبا نبوءة عرّافة ثيميس، التيتانة المتنبئة التي تتميز بفهمها الأمثل لما ينبغي عمله.

«يا ثيميس العظيمة، يا أم العدالة والسلام والنظام، إليك نتضرع، فانصحينا... ليس في العالم إلانا، ونحن شيخان مسنّان، لا نقدر على ملء عالم خاو بالذرية».

ترنّمت العرّافة: «يا أبناء بروميثيوس وإبيميثيوس، كلماتي ستسمعانها وأوامري ستنفذانها، فلتغطيا رأسيكما، ولتلقيا عظام أمّكما وراء ظهريكما».

لم يستطيع الزوجان المرتبكان حثّ العرّافة على قول المزيد.

قالت بيرا وهي تجلس على الأرض: «أمي كانت بندورا، وأعتقد أنها غرقت، أين يسعني إيجاد عظامها؟».

قال دوكليون: «أمي هي كلايميني، أو بحسب مصادر أخرى الأوشيانية هيسايوني، كلتاهما خالدتان وبالتالي أمي حيّة ترزق، وبالتأكيد لن تتخلى عن عظامها».

قالت بيرا: «يجب أن نفكر... عظام أمنا! هل يمكن أن يكون لهذا معنى أخر؟ عظام أمنا؟ عظام أمومية؟ فكر يا دوكليون، فكر!».

غطى دوكليون رأسه بقماشة مطوية وجلس على الأرض بجوار زوجته التي كان رأسها مغطى بالفعل، وراح يفكر في المشكلة بجبهة مجعّدة. العرّافات! يا لهن من مراوغات متلاعبات. التقط حجرًا بمزاج معتلّ وألقاه ساخطًا، فسقط متدحرجًا على جانب التل. قبضت بيرا على ذراعه.

«أمنا!».

حدّق فيها دوكليون بعدم فهم، فأخذت تضرب على الأرض بكفوفها المفتوحة، صاحت: «جايا! جايا أمّنا جميعًا، أمّنا الأرض! هذه هي عظام أمّنا، انظر...»، وأخذت تجمع الحجارة من على الأرض، «هيا!».

نهض دوكليون على قدميه وصار يجمع الحجارة والصخور من حوله.

انطلقا في الحقول حول دلفي، يلقيان الحجارة وراء ظهريهما مثلما أُمرا لكن دون أن يجرؤ أيهما على النظر خلفه، حتى قطعا مسافة شاسعة.

عندما استدارا أخيرًا، استقبلهما مشهدًا ملأ قلبيهما بالسعادة.

من الأرض، من حيث وقعت حجارة بيرا، انبثقت فتيات ونساء، مئات الإناث المبتسمات الصحيحات كاملات التكوين، ومن حيث سقطت صخور دوكليون، خرج فتيان ورجال بالقدر ذاته.

هكذا غرق البيلاسجيون القدماء في الطوفان العظيم، وعمّر البحر المتوسط عرق جديد ينحدر من دوكليون وبيرا من بروميثوس وإبيميثيوس وبندورا، ومن - الأهم بالطبع - جايا[78].

وها نحن ذا، مزيج من بُعد النظر والنزعات اللحظية ومن كل الهبات، ومن الأرض.

الموت

جنسنا البشري، وقد صار الآن مكوَّنًا من قدر متماثل من الذكور والإناث، تكاثر وتناثر عبر العالم، يبني المدن ويُنشئ الأمم؛ عرف العالم المراكب والمركبات، والقصور والأكواخ، والثقافة والكهانة، والتجّار والمتاجر، والزراعة والإدارة، والحرب والسلام، باختصار، بدأت الحضارة. كان ذلك عصر الملوك والأمراء والصيادين والمحاربين والحدادين والشعراء، عصر الممالك والعبيد والحروب والمقايضات والمعاهدات، عصر القرابين والنذور والإخلاص في العبادة. كل بلدة وكل مدينة اختارت من بين الآلهة من سيكونون لها رعاة وحماة، ولم يمتنع الخالدون عن النزول بهيئاتهم الأصلية أو على هيئة بشر أو حيوانات كما يتراءى لهم، ليكافئوا المتزلّفين إليهم، وليعاقبوا من غضبوا عليهم. لم تكتف الآلهة قط من الإطراء.

ربما كان الأكثر وقعًا من بين كل المصائب التي حلت على البشرية من جرة بندورا، هي حقيقة أنه من تلك اللحظة فصاعدًا سيكون على البشر

مواجهة الموت الحتمي بكل أشكاله؛ الموت المفاجئ والموت البطيء والموت عنفًا والموت مرضًا والموت قتلًا والموت بأمر إلهي.

وجد الربّ هاديس سعادة عظيمة - أو أقرب شيء ممكن للسعادة بوسع هذا الربّ السوداوي أن يصل إليه - في أن أعدادًا متزايدة من أرواح البشر الميتين باتت تصل إلى مملكته الجوفية كل يوم. هرمس كُلف بدور جديد: مرشد الأرواح، وهي مسؤولية قام بها بحيويته المعهودة ومرحه اللعوب. غير أنّه مع تضاعف عدد البشر، لن يُمنح شرف صحبة هرمس إلّا أهم الموتى شأنًا، أما البقية فسيأخذهم ثاناتوس، صورة الموت القاتمة المتجهِّمة.

في اللحظة التي تغادر فيها روح البشري جسده، يقودها هرمس أو ثاناتوس عبر الكهوف تحت الأرضية إلى حيث يقابل نهر ستيكس (الكراهية) نهر أكرون (الويل)، هناك سيمدّ كارون العابس الصامت يده ليتلقى أجرته على نقل الأرواح عبر ستيكس، لو لم يكن لدى الميت نقودٌ يقدمها للمراكبي، سيضطر للانتظار على الضفة مع المئات غيره حتى يغيّر كارون المتعنِّت رأيه ويوافق على نقلهم. لتفادي هذا اللِمبو، بات العرف بين الأحياء أن يضعوا بعض المال على لسان الميت ليدفع للمراكبي ويضمن رحلة آمنة سريعة[79]. عندما يتلقى كارون أجرته يسمح للروح الميتة بالصعود على القارب، ويبحر بمركبه صدِئ اللون فوق المياه السوداء الجهنّمية إلى محطة النزول: مركز التجمع في الجحيم[80]. الفانون لا يستطيعون العودة إلى العالم العلوي بعد أن يموتوا، والخالدون، لو تذوقوا قدر مضغة أو أقل من طعام هاديس، تصبح العودة إلى مملكة الجحيم مصيرهم الحتمي.

وماذا سيكون مصير الموتى النهائي؟ يبدو أن ذلك يعتمد على طبيعة شخصياتهم عندما كانوا أحياءً. كان هاديس نفسه في البداية هو القاضي، لكن في السنوات اللاحقة فوّض مسؤولية الميزان النهائي لابنَيْ زيوس ويروبا Europa: ماينوس Minos ورادامانثوس Rhadamanthus وأخيهم

نصف الشقيق أياكوس Aeacus، عُيّن ثلاثتهم بعد موتهم قضاة العالم السفلي، وباتوا هم من يقرر إن كان الفرد قد عاش حياة بطولية أم متوسطة أم خبيثة[81].

الأبطال ومن عاشوا حياة تقيّة (وكذلك من كانت تجري في عروقهم بعض الدماء السماوية) يجدون أنفسهم وقد نُقلوا إلى الحقول الإليزية Elysian Fields، والتي تقع في مكان ما على أرخبيل يُدعى جزر المبارَكين. لا يوجد اتفاق حقيقي على مكان تلك الجزر، ربما هي ما ندعوه الآن جزر الكناري، أو ربما جزر الأزور، أو حتى جزر الأنتيل أو برمودا[82]. حكايات متأخرة وضعت الحقول الإليزية أو الإليزيوم Elysium في مملكة هاديس نفسه[83]، في تلك الحكايات الأرواح التي تتناسخ ثلاث مرات، وفي كل مرة تعيش حياة بطولية وعادلة وتقية، تستحق أن تُنقل من الإليزيوم إلى جزر المبارَكين.

أما غالبية الناس العاديين، الذين لم تتّسم حياتهم بالتقوى الخالصة ولا الشر الخبيث، فيمكنهم توقع نزهة أبدية في مروج أسفودل، التي اشتقّت اسمها من الزهور البيضاء التي تغطيها كما السجاد. تضمن هذه الأرواح حياة أخرى لطيفة بما يكفي. قبل بلوغهم أسفودل يشربون مياه النسيان من نهر ليثي، كي يستطيعوا قضاء أبدية من المرح المعتدل من دون أن تؤرقهم ذكريات الحياة الأرضية.

أما المذنبون، أولئك الفاسقون المجدّفون الفاجرون الأشرار، ماذا يحدث لهم؟ الأقل سوءًا منهم يُحشَرون في قاعات هاديس إلى الأبد، بلا أدنى قوة وبلا أي وعي حقيقي بوجودهم. أما الأضلّ سبيلًا وذوو الذنوب التي لا تُغتفر، فيؤخذون إلى حقول العذاب التي تقع بين مروج أسفودل والأعماق السحيقة لتارتاروس نفسه. هناك يُصَبّ عليهم العذاب الذي يناسب جرائمهم بدقة شيطانية إلى أبد الآبدين. سنقابل بعض أشهر هؤلاء المذنبين لاحقًا، وستتردد أسماء مثل سيسيفوس Sisyphus وإكسيون Ixion وتانتالوس Tantalus عبر العصور.

بينما يصف هومر أرواح الراحلين بأنها تحتفظ بالوجوه والهيئة التي كانت عليها في الحياة، أنباء أخرى تحكي عن شيطان قبيح يُدعى يورينموس Eurynomos يقابل الموتى وينتزع اللحم من على عظامهم مثلما تفعل الفيوريات. شعراء آخرون يقترحون أن أرواح العالم السفلي قادرة على الحديث ويتبادلون حكايات حيواتهم مع بعضهم.

هاديس كان الأكثر غيرةً من بين عائلته الغيورة كلها، لم يتحمل خسارة روح واحدة من مملكته. كلبه سيربروس ذو الرؤوس الثلاثة يحرس بواباته، قلة نادرة من الأبطال استطاعوا خداع أو مراوغة ثاناتوس وسيربروس وتمكنوا من زيارة مملكة هاديس والعودة منها أحياءً إلى عالم الضوء.

هكذا أصبح الموت ثابتًا في الحياة البشرية، وهكذا يظل إلى يومنا هذا. لكن من المهم استيعاب أن العصر الفضي كان مختلفًا كثيرًا عن عالمنا، الآلهة وأنصاف الآلهة والخالدون من كل نوع كانوا لا يزالون يتجولون بين الناس، التواصل الشخصي والاجتماعي، وحتى الجنسي، مع الآلهة كان أمرًا معتادًا بالنسبة لرجال ونساء العصر الفضي مثلما نعتاد نحن على التعامل مع الآلات ومساعدي الذكاء الاصطناعي اليوم، بل اسمح لي أن أقول إن التواصل مع الآلهة كان أمتع بكثير.

بروميثيوس في الأغلال

راقب زيوس بحنق عارم نجاة بيرا ودوكليون ونهوض سلالة الرجال والنساء الجديدة من حصى الأرض. لا أحد، حتى ملك الآلهة نفسه، بوسعه الاعتراض على إرادة جايا، إذ كانت تُمثل نظامًا أعمق وأقدم وأبقى من نظام الأوليمبيين، وعلِم زيوس أنه بلا حول ولا قوة كافيين لمنع إعادة إسكان العالم، غير أنه قادر على الأقل على توجيه انتباهه إلى بروميثيوس. حان وقت جعل التيتان يدفع ثمن خيانته. نظر زيوس من الأوليمبوس فوجده في فوكيس يساعد على إرساء أساسات مدينة جديدة، منخرطًا كالعادة في شؤون البشر.

تكاثر البشر في غمضة عين إلهية، أي ما يمثل بالنسبة لنا مرور بضعة قرون، وعلى مدار كل تلك المدة كان بروميثيوس، بصبر تيتاني، يعمل على نشر الحضارة بين البشرية 2.0، أخذ مرة أخرى يُعلّم الناس الفنون والحرف والزراعة والنجارة والبناء.

هبط زيوس متخذًا هيئة طائر عقاب وحط على عارضة خشبية لمعبد نصف مبني مكرس له نفسه. بروميثيوس، الذي كان يحفر مشاهد من حياة زيوس الشاب في السقفظر لأعلى فرأى الطائر الذي علم على الفور أنه صديقه القديم. تحول زيوس إلى هيئته العادية وأخذ يتأمل النحت.

«لو أنّ هذا يفترض أن يمثلني مع آدمنثيا، فقد أخطأت تمامًا في وضع الأبعاد».

قال بروميثيوس الذي تسارعت دقات قلبه: «رخصة الفنان»، تلك كانت المرة الأولى التي يتحادثان فيها منذ سرق بروميثيوس النار.

قال زيوس: «حان وقت دفع ثمن ما فعلت. يمكنني أن استدعي الهيكاتونكيريس لاصطحابك عنوة إلى وجهتنا، أو تستطيع الاستسلام للمحتوم وتأتي معي من دون ضجة».

وضع بروميثيوس جانبًا مطرقته وإزميله، مسح يديه بملابسه الجلدية، وقال: «هيا بنا».

لم يتحدثا، لم يتوقفا للراحة أو لتناول المرطبات، ظلا يمشيان حتى بلغا سفوح جبال القوقاز، حيث يلتقي البحر الأسود مع بحر قزوين. طوال الطريق أراد زيوس أن يقول شيئًا، تمنى لو أخذ صديقه في حضنه، دمعتا اعتذار ربما تكفيان لجعل زيوس يسامحه، لكن بروميثيوس ظل صامتًا، فاحتقن إحساس زيوس اللاذع أنه تعرض للإساءة والاستغلال من جديد، «بالإضافة إلى أنّ الحاكم العظيم لا يجب أن تظهر عليه أمارات الضعف، خاصة عندما يتعلق الأمر بخيانة المقربّين إليه»، مثلما قال لنفسه.

ظلّل بروميثيوس بيده على عينيه ونظر إلى أعلى، فرأى السيكلوبسات الثلاثة يقفون على جدار صخري منحدر ضخم، أحد جوانب أطول الجبال.

«أعلم أنك ماهر في تسلق جوانب الجبال»، قالها زيوس بلهجة تمنّى لو خرجت منه ساخرة جليدية، لكنها ترددت في أذنه مثل غمغمة غاضبة، «تسلَّق إذن».

عندما بلغ بروميثيوس مكان السيكلوبسات، أحاطوه وقيَّدوه وشدوه على ظهره، ودقّوا أغلاله في الصخرة بأوتاد عظيمة من الحديد غير القابل للكسر. نزل من السماء عقابان جميلان وحلَّقا بالقرب من بروميثيوس، فمنعا عنه ضوء الشمس، كان بوسعه سماع صوت الريح الساخنة تمرّ بين ريشهم.

قال له زيوس: «ستظل ممدَّدًا على هذه الصخرة إلى الأبد، لا أمل لك في هروب ولا غفران، سيأتيك هذان العقابان كل يوم ليمزقا كبدك مثلما مزَّقت قلبي، وسيأكلانه أمام عينيك، ولأنك خالد سينمو لك كبد جديد كل ليلة. لن ينتهي هذا العذاب أبدًا، وسيبدو لك الألم كل يوم وكأنه ازداد سوءًا، ولن تملك شيئًا سوى الوقت، بوسعك أن تملأه بأن تتأمل في جَسامة جريمتك وحماقة أفعالك، أنت يا من تُدعى (بصيرة)، لمَ لمْ تُبدِ أيًا منها عندما تحديت ملك الآلهة؟»، ردّدت الوديان صدى زيوس، «أليس لديك ما تقوله؟».

تنهد بروميثيوس، قال: «أنت مخطئ يا زيوس، لقد فكرت في أفعالي مطولًا، ووازنت بين راحتي وبين مستقبل بني الإنسان، والآن، أرى أنهم سيزدهرون وسينعمون بلا حاجة لأي من الخالدين، حتى أنت... ذلك بلسمي من أي ألم».

حدّق زيوس في صديقه القديم لوقت طويل قبل أن يتحدث.

قال ببرود مريع: «أنت لا تستحق العقابين، ليكونا إذًا نسرين».

تحول العقابان على الفور إلى نسرَيْن حقيرين قبيحَيْن، وحاما في دائرة حول الجسد الممدّد تحتهما قبل أن ينقَضّا عليه، مخالبهما الحادة كالشفرات مزقت جانب التيتان بصيحات انتصار بشعة، وبدآ بالأكل.

بروميثيوس، صانع البشر الرئيسي، ناصحنا وصديقنا، هو من علّمنا

وسرق لنا، وضحّى بنفسه لأجلنا. داخل كل منا نصيبٌ من نار بروميثيوس، من دونها ما كان يمكن أن نصير بشرًا. يستحق أن نحبه ونأسف عليه، لكنه على عكس الآلهة الغيورة الأنانية لم يسأل أبدًا أن يُعبد أو يُحمَد أو يُعشق.

ربما يسعد بروميثيوس لو علم أنّه ذات يوم، رغم العقاب الأبدي الذي حُكم به عليه، سينهض بطل قوي بما يكفي ليتحدي زيوس، وسيحل أغلال بطل البشرية ويطلق سراحه.

بيرسفوني والعرية

العالم الذي يحكمه زيوس الآن كان أمًّا رؤومًا للبشرية جمعاء. امتدت أيادي رجال العالم ونسائه وأطفاله إلى الفاكهة على الشجر والحبوب في العشب والسمك في المياه والوحوش في البرية من دون مجهود يذكر. برَكة ديميتر، ربّة الخصوبة والحصاد، شملت الطبيعة كلها. لو كان ثمة جوع وحرمان في العالم، فهما لم يكونا إلا نتيجة لقسوة الإنسان وعمل الكائنات المفسدة التي تحررت من جرّة بندورا، لا نتيجة لتجاهل إلهي. بيد أنّ كل هذا كان على وشك التبدل، لهاديس يد في ذلك التبدل القادم، وربما لن يكون إلّا خطة وضعها هو لزيادة سكان عالمه وللإسراع في هذه الزيادة، من الذي يقدر على الجزم بالحقيقة؟ إن ألاعيب موروس عَصيّة على الفهم.

ديميتر كان لها ابنة من زيوس: بيرسفوني، وكانت شديدة النقاء والجمال واللطف حتى أن بقية الآلهة صاروا يدعونها كوري Kore أو كورا Cora، أي «العذراء». أطلق عليها الرومانيون بروسربينا Proserpina. كل الأرباب، خاصة غير المرتبطين منهم مثل أبولو وهرمس، وقعوا في حبها وعرضوا الزواج عليها، لكن ديميتر أمها الحامية (وقد يقول البعض المفرطة في الحماية) خبأتها في أقصى الريف بعيدًا عن الأعين الجائعة للأرباب والخالدين، الشرفاء منهم وغير الشرفاء على السواء، وقد قررت أن تحافظ على ابنتها عذراء أبدية غير مرتبطة مثل هستيا وأثينا وأرتيميس. لكن كان هناك ربّ قوي وقعت عينه المشتهية على الفتاة، ولم تكن لديه أدنى نية لاحترام رغبة ديميتر.

لم يكن ثمة شيء لطيف وعفوي تحب بيرسفوني عمله أكثر من التجول

في الطبيعة، كانت ابنة أمها، الزهور والنباتات الجميلة كانت أكثر ما يبهجها من أشياء. ذات أمسية ذهبية، كانت بيرسفوني تطارد الفراشات التي تقفز من زهرة لزهرة في مرج مزدهر تغسله الشمس، وابتعدت قليلًا عن الرفقة التي ترسلها أمها معها للحماية. فجأة سمعت هديرًا عميقًا وصوت انشطار، جلبة أشبه بالرعد لكنها لا تأتي من السماء بل من تحت قدميها، من الأرض. نظرت حولها في خوف وحيرة، كانت الأرض ترتَجّ، ثم أمام عينيها انشطر جانب الجبل إلى جزأين. من شقِّ الجبل خرجت عربة عظيمة بهدير عارم، وقبل أن تجد الفتاة الخائفة فرصة للهروب انتزعها سائق العربة من على الأرض، ودار بالعربة وقادها عائدًا إلى الصدع في جانب الجبل. وقبل أن يصل رفاق بيرسفوني المذعورين إلى المكان، أغلقت الفتحة نفسها بلا أي إشارة على أنها كانت هنا في أي وقت.

اختفاء بيرسفوني كان عصيًا على التفسير بقدر ما كان مباغتًا؛ في لحظة كانت تتقافز بسعادة بين الزهور، وفي التالية اختفت تمامًا عن العيون، بلا أثر.

مصيبة بيرسفوني لا يكاد يكون من الممكن وصفها. كلنا فقدنا ذات مرة شيئًا عزيزًا علينا، حيوانيًا كان أو نباتيًّا أو معدنيًّا، ومررنا بمراحل الحزن والرعب والغضب الأليمة كلها بسبب ذلك الفقد المباغت. عندما تكون الخسارة شخصية وغير متوقَّعة ونهائية ولا يمكن تفسيرها، تتضاعف تلك المشاعر إلى أقصى درجات القسوة. رغم أن مرور الأيام زاد من صعوبة تصديق أن بيرسفوني قد تظهر مجددًا، أقسمت ديميتر أنها ستجد ابنتها حتى لو استغرق منها هذا حياتها الأبدية كلها.

ذهبت ديميتر إلى صديقتها التيتانة هيكاتي Hecate طلبًا للمساعدة. هيكاتي كانت ربّة العقاقير والمفاتيح والأشباح والسموم وكل أشكال التمائم والتعاويذ[84]، وكانت تمتلك شعلتّين قادرتين على إضاءة كل أركان الأرض، وبحثت هيكاتي وديميتر في كل تلك الأركان مرة واثنتين وألف مرة، سلطتا الضوء على كل كهف ومغارة ومكان معتم استطاعتا إيجاده، جابتا العالم معًا، بلا فائدة.

مرت شهور، وفي كل ذلك الوقت تجاهلت ديميتر مسؤولياتها، لم تأبه بالذرة ولا الحصاد ولا نضج الثمار ولا وضع البذور، فلم يخرج من الأرض شيءٌ؛ لم تنبت حبة ولا تفتّح برعمٌ ولا نمَت ثمرة، وبدأ العالم يتصحّر.

كان الآلهة آمنين في الأوليمبوس، لكن صرخات البشر المتضوِّرين على الأرض بلغت آذان زيوس في عليائه، ولم يحدث قبل تلك الليلة التي اجتمع فيها الآلهة لنقاش لغز اختفاء بيرسفوني أن تحدّث تيتان الشمس هيليوس[85].

«بيرسفوني؟ أوه، رأيت ما حدث لها، فأنا أرى كل شيء».

صاح زيوس: «رأيت؟ لماذا إذًا لم تقل شيئًا؟ ديميتر تجوب الأرض كالمجانين بحثًا عنها وتكاد تموت من الهلع، والعالم يتحول إلى صحراء، لماذا لم تنطق بحق الجحيم؟».

قال هيليوس: «لم يسألني أحد! لا أحد يسألني أبدًا عن أي شيء، مع أني أعلم كل شيء. عين الشمس ترى كل شيء»، مقلدًا الجملة التي كان أبولو يرددها على الدوام أيام قيادته لعربة الشمس.

«ما الذي حدث لها؟».

«تخيل من الذي شق الأرض وخرج منها واختطفها؟ هاديس».

ردد الآلهة كالجوقة: «هاديس!».

حب الرمان

على الفور نزل زيوس إلى العالم السفلي ليستعيد بيرسفوني، لكن ملك العالم السفلي لم يكن في مزاج يسمح له بالإنصات لأوامر ملك العالم العلوي.

«بل ستبقى. إنها ملكتي».

«أتجرؤ على عصياني؟».

قال هاديس: «إنما أنت أخي الصغير، بل أصغر إخوتي في الواقع،

لطالما حظيت بكل ما تريد، وأنا أطالب بحقي في الاحتفاظ بالفتاة التي أحب، لا يمكنك منعي من ذلك».

قال زيوس: «لا يمكنني؟ أنا؟ إن العالم في مجاعة، وصرخات الفانين لا تجعلنا ننام. إن لم تطلق سراح بيرسفوني سترى عما قريب مبلغ قوتي ومدى مشيئتي، هرمس لن يأتيك بالمزيد من أرواح الموتى، ولا روح واحدة ستُرسل إلى هنا، سأرسلها مباشرة إلى جنّة جديدة، أو حتى سأحميها من الموت بالكامل. هاديس ستصبح مملكة خاوية، بلا قوة ولا سيادة ولا تأثير، وسيصبح اسمك أضحوكة».

حدّق الشقيقان مطوَّلًا في أعين بعضهما، وكان هاديس أول من رمش.

قال متذمرًا: «تبًا لك، أعطني يومًا واحدًا آخر معها، ثم أرسل هرمس ليأخذها».

عاد زيوس إلى الأوليمبوس مغتبطًا.

في اليوم التالي طرق هاديس باب حجرة بيرسفوني. ربما تستغرب من حقيقة أنه طرق الباب ولم يفتحه مباشرة، لكن في الواقع حضور الفتاة المبجّل الراسخ يجعل حتى أقوى الكيانات، مثل هاديس، خجولًا مرتبكًا. لقد أحبَّها بكل قلبه، ورغم أنه خسر معركته أمام زيوس كان متيقنًا من أنه لن يستطيع تركها تذهب، علاوة على أنه شعر بشيء ما فيها... شيء منحه بعض الأمل، ربما هو شذرة من الحب المتبادل؟

قال برقّة كانت لتثير ذهول أي شخص عرفه: «عزيزتي، فرض زيوس عليّ إعادتك لعالم النور».

رفعت بيرسفوني وجهها الشاحب ونظرت في وجهه مباشرة، ردَّ هاديس على نظرتها بأخرى صادقة، قال: «أتمنى ألّا أكون شخصًا سيئًا في نظرك».

لم ترد عليه، لكن هاديس شعرَ بأنه ربما ثمة قليل من التورد على وجنتيها ورقبتها.

«هلا تناولت معي بعض حبوب الرمان كي أتأكد أننا على وفاق؟».

تناولت بيرسفوني بعدم اكتراث ست حبوب من يده الممدودة وامتصت على مهل حلاوتها الحادة.

عندما جاء هرمس، وجد ربّ المخادعين أنه وزيوس هم المخدوعَيْن هذه المرة.

قال هاديس: «لقد أكلت بيرسفوني ثمار مملكتي، وقد كُتب على كل من ذاق طعام الجحيم أن يعود إليه. لقد أكلت ستّ حبات رمان، لذا عليها أن تعود لي ستة أشهر كل سنة».

أحنى هرمس رأسه، علم جيدًا أن هذا ما سيكون، وأخذ بيرسفوني من يدها وقادها خارجًا من العالم السفلي. غمرت السعادة ديميتر حتى أن زهور العالم كلها شرعت تتفتح على الفور، لكنها سعادة ستدوم لنصف العام فقط، فبعد ستة أشهر ستضطر بيرسفوني للعودة إلى العالم السفلي وفقًا للقانون السماوي الذي لا مفرّ منه.

كرب ديميتر لفراق ابنتها جعل الأشجار تسقط أوراقها والموت يخيّم على العالم، ثم بعد ستة أشهر عادت بيرسفوني من عند هاديس وبدأت من جديد دورة الولادة والتجدد والنمو. هكذا عرف العالم الفصول، عندما يبدأ حزن ديميتر على فراق ابنتها يأتي الخريف والشتاء، ثم عندما تعود يهلّ الربيع والصيف.

أما فيما يخص بيرسفوني نفسها... يبدو أنها صارت تحب وقتها في العالم السفلي كما تحبه في العلوي، لم تكن سجينة هاديس لستة أشهر، بل ملكة راضية للعالم السفلي، زوجة محبوبة بين يديها سلطة غير قليلة على عالم الموت مع زوجها، ولستة أشهر أخرى تعود لدور كوري الضاحكة، فتاة الوفرة والزهور والثمار والحبور.

واعتاد العالم على إيقاعه الجدي

هرمافروديتوس وسايلينوس

بينما صار رجال ونساء العصر الفضي معتادين على الكدح والشقاء والمعاناة حتى بات ذلك يبدو جزءًا من قدَرهم العادي، تابعت الآلهة

التكاثر. هرمس، وقد كبر الآن وبات شابًا وسيمًا لن يشيخ أبدًا، أنجب ربّ الطبيعة له ساق الماعز بان Pan من النيمفة درايوبي Dryope[86]. ضاجع هرمس أفروديتي أيضًا خفيةً عن هيفايستوس وآريس، وكُلِل جمعهما بميلاد ابن ذي جمال استثنائي، سُمي على اسمَيّ والديه: هرمافروديتوس Hermaphroditus.

كبُرَ هذا الفتى الجميل تحت ظل جبل إيدا ورعاية النايادات[87]، وعندما بلغ الخامسة عشر تركَهنّ وسافر ليجوب العالم. بينما كان يسافر عبر آسيا الصغرى، قابل ذات ظهيرة مشرقة نايادة تُدعى سالميسز Salmacis، كانت تسبح في مياه نبع رائق بالقرب من مدينة هاليكارناسوس Halicarnassus. هرمافروديتوس، الذي كان خجله بقدر جماله، انتابه الهلع والجزع عندما حاولت تلك الحسناء الجريئة المفتونة بحسنه إغواءه.

على عكس الكثير من بنات جنسها، النيمفات اللواتي اتّسمنَ باللطف والتواضع والعمل الجاد في رعاية مجاري المياه والينابيع المكلفات بحمايتها، كانت سالميسز معروفة بالغرور والخمول، كانت تفضّل السباحة بكسل وتأمّل جمال أعضائها بدلًا من الصيد أو التمرين برفقة النايادات الأخريات. لكن سكينتها وإيمانها بنفسها تفتتا بعد رؤيتها لجمال هرمافروديتوس، وبذلت غاية جهدها للفوز به. كلما حاولت أكثر، بالدوران عارية في المياه، وبتمسيد ثدييها بإغواء، وبنفخ فقاعات الهواء تحت سطح الماء، بات الفتى أكثر انزعاجًا، حتى بلغ به التوتر أن صرخ فيها لتتركه وشأنه. اندفعت سالميسز وذهبت غاضبة، مذهولة من تعرضها المهين للرفض لأول مرة.

مع ذلك كان اليوم لطيفًا، وهرمافروديتوس كان حَرّانًا متعرقًا من الانفعال الناجم عن مقاومة تلك الروح المزعجة، والآن بعدما صارت بعيدة عن طريقه، بحسب ما اعتقد، خلع ملابسه وقفز في مياه النبع الباردة لينعش نفسه.

سالميسز، التي كانت قد سبحت عائدة إلى حيث كانت مستترة

بالأعشاب، قفزت على الفور مثل سمكة سلمون والتصقت بجسد هرمافروديتوس العاري وتشبثت به. انتفض هرمافروديتوس وتلوّى مشمئزًا محاولًا الخلاص، بينما أخذت هي تتضرع: «يا آلهة السماء، لا تدَعوا هذا الشاب ينفصل عني، اجعلونا واحدًا».

استمع الآلهة لصلاتها واستجابوا لها بالحرفية القاسية التي يستمتعون بها، وفي لحظة واحدة بات سالميسز وهرمافروديتوس شخصًا واحدًا، اندمج الاثنان في جسد واحد لكن من جنسين. لم تعد هناك النايادة سالميسز والشاب هرمافروديتوس، بل ذكر وأنثى في الجسد نفسه.

مع أنّ الرومانيين اعتبروا هذه الحالة إخلالًا بالنظام والأعراف العسكرية لمجتمعهم، احتفى المجتمع الإغريقي الأكثر انفتاحًا بالجنس الهرمافروديتي، بل وعبده. تظهر لنا التماثيل والأشكال الخزفية وأفاريز المعابد أنّ ما خافه الرومانيون، وجده الإغريق جديرًا بالإعجاب[88].

سينضم هرمافروديتوس بحالته الجديدة إلى الإيروتيين Erotes، الذين سنتحدث بالتفصيل عن طبيعتهم وأهدافهم قريبًا جدًا.

أنجب هرمس[89] أيضًا من نيمفة غير معروفة الداعر أفطس الأنف ذا ذيل الحمار سايلينوس Silenus، الذي سيكبر ليصبح البطل ذا اللحية والكرش والجبين المجعَّد للوحات وتماثيل ومنحوتات خزفية عديدة، وسنقابله أيضًا بعد مضي وقتٍ غير طويل.

مثلما تكاثرت الآلهة، كذلك فعل البشر، لكن وجود النار السماوية التي باتت الآن جزءًا من طبيعتنا مثلما هي كذلك عند الآلهة، صار يعني أننا لم نشارك الآلهة في القدرة على التزاوج والتكاثر فقط، بل أيضًا في القدرة على الحب.

والحب، بحسب فهم الإغريق له، كان معقّدًا.

كيوبيد وسايكي

الإيروتيين

حلّ الإغريق تشابك الحب المعقَّد بإعطاء اسمٍ متفردٍ لكل خيط مستقل منه، وتكليف كيان سماوي معيَّن بتمثيله. أفرّوديايتي كانت الربّة الأسمى للحب والجمال، وأحاطت بها حاشية عارية من الآلهة الصغار تدعى بالإيروتيين. ما إن ترسَّخ الوجود البشري وأخذ يزدهر، حتى وجد الإيروتيون أنفسهم فجأة - كآلهة عديدة مثلهم، هاديس مثلًا - منشغلين حتى النخاع. كان لكل إيروتي نوع معين من العاطفة الغرامية يعمل على نشرها وترويجها.

أنتيروس Anteros - الراعي الشاب للحب الإيثاري غير المشروط[90].

إيروس Eros - قائد الإيروتيين، ورَبّ الحب الجسدي والرغبة الجنسية.

هيديلوجوس Hedylogos - روح لغة الحب وألفاظ الغرام، ولا يملك الواحد إلّا أن يفترض أنه مَنْ يرعى الآن بطاقات يوم عيد الحب وخطابات الغرام والروايات الرومانسية.

هرمافروديتوس - راعي الذكور المخنّثة والإناث المسترجلة، وكل من يُصنَّفون الآن تحت بند المرونة الجندرية.

هيميروس Himeros - تجسيد الحب اليائس الطائش المهتاج، الجاهز للانفجار إن لم يتحقق مبتغاه على الفور.

هيمينايوس Hymenaios - راعي غرفة العروس وموسيقى الزفاف.

بوثوس Pothos - تجسيد الشوق المتلكئ وحب الغائبين والراحلين.

كان إيروس الأكثر تأثيرًا وقدرة على الدمار من بينهم جميعًا، بقدرته على زرع الشقاق والأذى. ثمة حكايتان لأصل إيروس وهويته، الأولى

تقول إنه مع ميلاد الكوزموس وضع نيكس بيضة عظيمة فقّس إيروس منها لينشر بذور الحياة في الكون. إن صحّت هذه الحكاية فهو يُعَدّ من أوائل الكائنات الأولية التي سيتتابع الخلق خروجًا منها. والأخرى، الأكثر شيوعًا في العالم الكلاسيكي، هي أن إيروس هو ابن آريس وأفروديتي. عادة ما يُمثَّل باسمه الروماني كيوبيد Cupid كطفل ضاحك له أجنحة على وشك إطلاق الأسهم من قوسه الفضي، وهي صورة لا تزال معروفة حتى يومنا هذا، ما يجعل إيروس على الأرجح أكثر آلهة العصور القديمة التي يمكن التعرف عليها لحظيًا الآن.

ترتبط به الكيوبيدتي Cupidity [الجشع] والرغبة الإيروتيكية erotic desire [الشهوانية]، والوقوع اللحظي في الحب نتيجة للإصابة بأحد أسهمه التي ترغم ضحاياها على الوقوع في حب أول شخص (أو حتى حيوان) يرونه بعد الإصابة[91]. بوسع إيروس أن يكون متقلبًا مؤذيًا قاسيًا، بالضبط كما الحب.

الحب، الحب، الحب

كان لدى الإغريقيين أربع كلمات على الأقل للحب:

أجابي Agape: تلك كانت تشير للنوع العظيم والكريم من الحب، الذي قد نقول عنه «Charity» [البر - الإحسان]، والذي قد يشير لأنواع الحب المقدسة، مثل حب الوالدين لأبنائهما، أو حب العِباد لربهم[92].

إيروس: هذا النوع من الحب سُمّي على اسم ربّه، أو سُمي ربّه على اسمه. إنه النوع الذي يوقعنا في المشاكل، هو الأشد عاطفة والأقل روحانية، إيروس أو الشهوة قد يقودنا إلى المجد أو للعار، إلى ذروة النشوة أو إلى حضيض البؤس.

فيليا Philia: نوع الحب الذي ينطبق على الصداقة والتحيز والولع، نرى أثرًا له في كلمات مثل (فرانكوفايل Francophile) [مولع بما يتعلق بفرنسا]، و(نيكروفيليا necrophilia) [هوَس نكاح جثث الموتى]،

و(فيلانثروبي philanthropy) [العمل الخيري أو الاهتمام بتحسين حياة الآخرين].

ستورجي Storge: الحب والولاء الذي قد يكنّه الشخص لوطنه أو لفريقه الرياضي.

مع أن فناني عصر النهضة والباروكيّون سيمثلون إيروس لاحقًا مثلما وصفته: رضيع ملائكي منمش لعوب وضاحك (وأحيانًا معصوب العينين في إشارة إلى اعتباطية تصويبه وعشوائيته)، كان إيروس بالنسبة للإغريق شابًا مكتمل النمو ذاله إنجازات عظيمة، فنانًا وبطلًا (سواء في الجنس أو في الرياضة)، وكان يُعَدّ راعيًا لحب الذكور المثلي، وله حضور دائم في صالات الألعاب الرياضية ومسارات الركض، وارتبطت به الدلافين وصغار الديَكة والزهور والمشاعل والقيثارات و- بالطبع - القوس والكنانة المترعة بالأسهم.

إن أسطورة إيروس وسايكي Psyche (الحب الجسدي والروحي)، وهي أشهر الأساطير التي تتضمن إيروس، جاهزة للتفسير والتفكيك لدرجة لا مثيل لها، لكني أعتقد أن أفضل وسيلة لتقديمها، مثل كل الأساطير، هو حكيها كقصة، لا كحكاية رمزية أو مجازية، إذ إنّ فيها من الإيقاع وعناصر الحبكة الكثير مما سيرتبط لاحقًا بسرديات الرحلة والحواديت[93]، ربما لأنها تأتينا من مصدر يعدّه الكثيرون أقوى المرشحين للقب أول رواية: المؤخرة الذهبية The Golden Ass، للكاتب الروماني أبوليوس Apuleius[94]. تأثير تلك القصة الكبير على الفكر الغربي والأدب الشعبي والفن - ناهيك عن جمالها في حد ذاته - قد يبرر سردي المطوَّل لها، أو هكذا أتمنى.

سايكي

كان ياما كان، ذات يوم ومكان، مكان لم يعد هناك من يذكر اسمه للأسف، عاش ملك وملكة وبناتهم الثلاثة الحسناوات.

سندعو الملك أرستيديس Aristides، والملكة دامريس Damaris. كانت البنتان الأكبر، كالانثي Calanthe وزونا Zona، جميلتان إلى حد كبير، لكن البنت الأصغر، التي تدعى سايكي، كانت جميلة إلى حد أن الكثيرين في المملكة هجروا عبادة أفروديتي وعبدوها مكانها. كانت أفروديتي ربّة غيورة منتقمة لا تتحمل المنافسة، خاصة لو جاءت من فانية، لهذا استدعت ابنها إيروس.

قالت له: «احضر خنزيرًا، أقبح الخنازير وأخبثهم، واذهب إلى القصر الذي فيه تعيش سايكي واضربها بسهمك، واجعل الخنزير أول ما تقع عليه عينها بعد ذلك».

كان إيروس معتادًا على الطرق المبهجة التي تواجه بها أمه المشكلات، فذهب لأداء المهمة بمزاج رائق. اشترى خنزيرًا كثيف الشعر من مربّي خنازير يعيش بالقرب من القصر، وقاده في ذلك المساء إلى نافذة الغرفة التي تنام فيها سايكي. حاول إيروس عبور النافذة حاملًا الخنزير تحت إبطه من دون جلبة، لكن بحركات خرقاء أكثر مما تتوقع من الربّ الرياضي الممشوق.... وحدثت عدة أشياء في تتابع سريع:

1 - نزل إيروس آمنًا في الغرفة التي يضيئها القمر.

2 - تابعت سايكي النوم في سلام.

3 - ثبّت إيروس الخنزير بين قدميه بإحكام.

4 - مدّ إيروس يده للخلف لجلب سهم من كنانته.

5 - قبع الخنزير.

6 - خدش إيروس في خضم ارتباكه ذراعه بطرف السهم بينما يشده في قوسه.

7 - استيقظت سايكي مضطربة وأوقدت شمعة.

8 - رأى إيروس سايكي، ووقع في حبها بلا فكاك.

أصاب سهم العشق ربّ الحب نفسه! قد تفكر أن أول ما سيفعله بعد ذلك هو إطلاق سهمٍ على سايكي لينتهي كل شيء بسعادة، لكن إيروس

هنا فعل ما ينبغي فعله، ذلك أنّ حبّه كان حقيقيًا نقيًا ومطلقًا لدرجة أنه لم يقدر حتى على التفكير في غش سايكي وإرغامها على حبه بلا خيار منها. ألقى عليها نظرة شوق ووداع أخيرة، ثم قفز من النافذة وسبح في الليل مبتعدًا.

أما سايكي، فرأت الخنزير يقبع ويتشمم ويلف في دوائر على أرض غرفة نومها، فقررت أنها على الأرجح تحلم، أطفأت الشمعة وعادت للنوم.

النبوءة والتخلّي

في الصباح التالي، انزعج الملك أرستيديس بشدّة مما قاله له الخدم عن أن صغرى بناته تبدو أنها حولت غرفة نومها إلى مَرْبى خنازير. كان هو وملكته دامريس قلقين بشدة بالفعل من أن ابنتهم الصغرى ترفض الزواج بعناد، على عكس شقيقتيها كالانثي وزونا اللتين تزوجت كل منهما من مالك أراضٍ ثري. والآن، خبرُ أنها تنام مع الخنازير جعله يحسم قراره، سيسافر إلى عرّافة أبولو ليعرف ما الذي قد يخبّئه المستقبل لابنته.

بعد القرابين الملائمة والصلوات المضبوطة، أجابت السيبيل على سؤاله: «كلّل طفلتك بالورد وخذها إلى قمة عالية، واتركها ممددة على صخرة. ذاك الذي سيأخذها لنفسه عروسًا هو أخطر كائنات الأرض والسماء والماء، كل الأوليمبيين يخشون قوته. هذا هو المحتوم، ذلك ما سيكون. وإن لم تفعل ما أقول فسيعيث ذلك الكائن في مملكتك فسادًا، وسينشر النزاع واليأس والبؤس، وسيقولون عنك يا أرستيديس لاحقًا أنك من جلبت على شعبك التعاسة».

بعد عشرة أيام، خرجت سايكي في موكب غريب، محمولة عاليًا، مرتدية زيًّا أبيض نقيًّا ومغطاة ومزينة بالورود، ومتجهمة لكن مستسلمة بما عرفت من قول العرّافة وتقبلته. كان حسنها سرّ تعاستها، هذا لو كان ثمة حسن فيها كما يزعمون، كم كرهت الضجة والجلبة التي يثيرها ذلك أينما

حلت، وكرهت تصرف الناس بغرابة في حضورها، وكيف يجعلها ذلك تشعر بالغربة والعزلة والوحدة. خططت من قبل ألّا تتزوج أبدًا، لكن ما دامت مضطرة لأن تفعل فوحش مغتصب لا يبدو لها أسوا من أمير مُمِل متزلّف متبلّد العيون، على الأقل عذاب رؤيته سينتهي بسرعة.

اصطحبها الجمهور المحتشد صاعدًا بها الجبل بالندب والعويل والنحيب، حتى وصلوا إلى صخرة بازلتية عظيمة أنزلوا عليها سايكي لتتمّ التضحية. صرخت أمها دامريس وبكت، ربَّت أبوها الملك على يدها وتمنى لو كان في مكان آخر، أما كالانثي وزونا، اللتان كانتا تقفان بجوار زوجَيْهما المسنَّين الثريين، فقد حاولتا إخفاء سعادتهما الغامرة لكونهما ستصبحان عما قريب أجمل جميلات المملكة.

أغلقت سايكي المقيدة في الصخرة عينيها وتنفست بعمق، وأخذت تنتظر أن ينتهي الجميع من إبداء الرثاء والبكاء والأسف، عما قريب سينتهي كل الألم والمعاناة.

نزل الحشد من الجبل مترنمين بالأناشيد إلى أبولو، تاركين سايكي وحدها على الصخرة. تراقصت أشعة الشمس على جسدها، وتغنت الطيور في السماء الزرقاء. كانت قد تخيّلت غيومًا متدافعة ورياحًا صارخة وسيولًا عارمة ورعدًا مرعبًا في خلفية موتها العنيف القادم، لا ذلك الطقس الربيعي الهادئ الرائق وزقزقة العصافير.

من سيكون ذلك الكائن؟ أو على نحوٍ أدقّ ماذا سيكون؟ لو أن ما نقله أبوها عن العرّافة سليم، فحتى أهل الأوليمبوس بشأنهم العالي يخشونه، لكنها لم تسمع عن مثل ذلك الكائن الجبار في كل الحكايات والشائعات التي نشأت عليها، حتى تايفون وإيكدنا ليسا بالقوة الكافية التي تقلق الآلهة العظام.

نسمة دافئة هبّت بغتة وأخذت تهفهف رداءها الشعائري الأبيض، ثم تحول النسيم إلى هَبّة ريح عاتية وضعت وسادة هوائية بينها وبين الصخرة البازلتية الباردة التي تمددت عليها، ثم غمر سايكي الذهول عندما شعرت بنفسها تُرفع، وكأن الريح صارت مادة صلبة تدعمها وتستند إليها. حملتها الريح عاليًا في الهواء وانطلقت بها بعيدًا.

القلعة المسحورة

طارت سايكي عاليًا فوق الأرض، آمنة في الحضن القوي الرقيق لزيفروس Zephyrus، الريح الغربية.

فكرت سايكي: «لا يمكن أن يكون ذلك هو الوحش الذي نخشاه جميعنا، لا بد أن الريح رسول الوحش ونذيره، لا بد أنه يحملني إلى هلاكي... على الأقل هي وسيلة سفر مريحة».

نظرت تحتها إلى المدينة التي نشأت فيها، كم بدا كل شيئًا صغيرًا مرتبًا مشذّبًا، لا تشبه قط البلدة المتداعية نتنة الرائحة التي عرفتها وكرهتها.

اشتدت سرعة زيفروس وارتفاعه، لم يمض وقتٌ حتى باتا يمرّان فوق الجبال والوديان ويحلقان فوق الجزر والمحيطات، حتى صارا في مكان لم تتعرف عليه. كان خصبًا وكثيف الغابات، وعندما نزلا بالتدريج رأت قصرًا عظيمًا في مساحة عارية من الأشجار، تنتصب في أركانه الأبراج وتُتوجه القباب.

أنزلت الريح سايكي برقّة حتى حطت بخطوة منزلقة على عشب مزدهر أمام بوابة مزدوجة ذهبية، طارت الريح مبتعدة بصوت هو بين الأزيز والتنهيدة. لم تسمع سايكي زئيرًا ولا عواءً ولا زمجرة، فقط موسيقى بعيدة تأتي على مهل من داخل القصر. بينما تأخذ أولى خطواتها الحذرة، انفتحت البوابة.

القصر الذي نشأت فيه سايكي كان - بالنسبة لمواطن عادي من بلدها - مزخرفًا فاخرًا مبهرًا، لكنه بالمقارنة مع ذلك الصرح الخلاب المذهل الذي كانت تدخله لم يكن إلا كوخًا متهدّمًا. عَبَرت نظراتها بينما تلج القصر على أعمدة من الذهب والعاج، ولوحات النقوش الفضية المنحوتة بفن وتعقيد لم تحلم قط أنه يمكن وجوده، وتماثيل رخامية متقنة التشكيل لدرجة تبدو وكأنها تتحرك وتتنفس. التمع الضوء في الممرات والردهات الذهبية المتلألئة، والأرض التي داست عليها كانت رقصة فسيفسائية من الجواهر، وموسيقى غامضة أخذت تعلو أكثر فأكثر كلما تعمقت في القصر. عبرت

بجوار نوافير تخرج منها المياه الكريستالية في أقواس إعجازية، تتشكل بطرق تتحدى الجاذبية. ميّزت سايكي مع الوقت أصوات همسات أنثوية منخفضة، إما أنها تحلم أو أن هذا قصر إلهي، لا فان ولا وحش يستطيع بناء مسكن خلاب كهذا.

بلغت غرفة مركزية مربعة، تُصوّر اللوحات المنقوشة فيها مشاهد من ميلاد الآلهة وحربهم مع التياتنة. كان الهواء معطرًا برائحة خشب الصندل والزهور والتوابل الدافئة.

أصوات وأحلام، وزائر

تراءى لها أن أصوات الهمسات والموسيقى تأتي من كل مكان ومن اللا - مكان في الوقت ذاته، لكن على حين غرَّة توقفت كلها، ومن الصمت الصاخب الذي ساد عقب ذلك، سمعت صوتًا هادئًا يناديها.

«سايكي يا سايكي، لا تكوني كالنايادة المضطربة، لا تخجلي، لا ترتجفي ولا تجفلي، ألا تعلمين أن كل هذا من أجلك؟ كل هذا الحسن والبهاء، كل تلك الأحجار الكريمة والجواهر، هذا القصر وكل ما حوله من أراض، كلها لك... ملكك. اعبري من ذلك الباب واغتسلي، الأصوات التي تسمعين هي أصوات جواريك، إنهن هنا لتحقيق أمنياتك، عندما تجهزين ستجدين وليمة عظيمة بانتظارك. مرحبًا يا سايكي الحبيبة، استمتعي».

اتخذت الفتاة المذهولة طريقها للغرفة التالية، وهي حجرة واسعة على حوائطها الأبسطة المزخرفة والحرير، تضيئها الشعلات المتوهِّجة على حوامل برونزية. في إحدى نهايتَيّ الغرفة كان حوض استحمام برونزي متألق، وفي منتصفها سرير هائل تلتفّ حول إطاره المصنوع من خشب السرو المصقول أغصان الريحان، وفرشه الكتاني قد نُثرت عليه بتلات الورود. سايكي كانت مرهقة ومرتبكة لدرجة جعلتها غير قادرة على استيعاب شيء، فارتمت على السرير وأغلقت عينيها، على أمل أن النوم قد يوقظها من ذلك الحلم الجامح.

لكن عندما استيقظت كانت لا تزال في الحلم. نهضت من بين الوسائد المطرَّزة الوثيرة لترى البخار يتصاعد من حوض الاستحمام. نزعت سايكي عن نفسها ملابسها وخطت في الماء.

وتلك كانت اللحظة التي تحولت فيها الأمور إلى الغرابة الكاملة.

ارتفع إناء فضيّ من جوار الحوض، رقص في الهواء ثم دلق محتوياته في مياه الحوض، وقبل أن تتاح لها فرصة الصراخ من المفاجأة هبّت على حواسها سحابة من العطور الغامضة، ثم جاءت فرشاة عاجية المقبض وأخذت تدعك ظهرها بينما يُفرغ إبريق من الماء الساخن نفسه على شعرها. أياد خفية صارت تُمسّدها وتدعكها وتدلكها وتدغدغها وتضغطها، ضحكت سايكي مثل طفلة صغيرة وسمحت لكل ذلك بالحدوث، سواء كان ذلك حلمًا في العالم الواقعي أو لحظة من الواقع داخل حلم، لم تعد تهتم، ستنعم بالمغامرة وترى إلى أين ستأخذها. من خزانة خفية خرجت أردية من الحرير والساتان والبروكار الدمشقي والأقمشة الشفافة وحلّقت إلى السرير، وأخذت الأقمشة تومض وتتراقص مترقّبة أيها ستختار سايكي، اختارت سايكي عباءة واسعة مريحة مثيرة من الشيفون المرصَّع باللازورد.

انفتح باب غرفتها، فذهبت بخطوات وجِلة مترددة إلى القاعة الرئيسية. تمددت على المائدة وليمة عظيمة، وأيادٍ خفية كانت تحرك أطباق الفواكه وكؤوس العسل المختمر وصحون الطيور الغريبة المشوية وسلطانيات الحلوى. لم تر سايكي قط مثل تلك المأدبة أو حتى تخيلتها، غمست أصابعها بسعادة جعلتها لا تكاد تتمالك نفسها في أطباق عامرة بمختلف الملذات التي جعلها مذاقها تصرخ من فرط اللذة. حتى الخنازير في حظائر والدها لم تلعق وتتشمشم في أوعيتها الخشبية بذلك النهَم المنطلق الذي أكلت به سايكي من الأوعية الكريستالية والفضية والذهبية الممتلئة والتي تعيد ملء نفسها بقدر سرعة سايكي على إفراغها. طارت محارم قماشية لتجفف شفتيها المبقَّعتين بالنبيذ وذقنها الملطخ بالطعام، وجوقة خفية غنّت أناشيد وترانيم رقيقة عن الحب البشري فيما هي تسرف في إمتاع نفسها.

عندما انتهت، غمرها شعور بالدفء والرخاء، حتى لو كانت تُسَمَّن حتى يأكلها غول فيما بعد، ليكن.

طفت شموع المائدة في الهواء، وقادت سايكي إلى غرفة نومها. المشاعل المتذبذبة ومصابيح الزيت انطفأت كلها لتغرق الغرفة في ظلام دامس. دفعتها الأيادي الخفية إلى جانب السرير، وارتفع عنها الرداء الشيفوني، تمددت عارية على مفارش السرير الساتانية، وأغلقت عينيها.

بعد لحظة، شهقت مفزوعة. شخص ما أو شيء ما انسل في السرير بجوارها، شعرت بجسدها يُجذب تجاه ذلك الشيء. نَفَس حلو دافئ امتزج بنفسها، لمست بشرتها جسدًا... ليس بجسد وحش، بل رجل. كان بلا لحية، وعلمت دون أن تراه أنه جميل. لم يكن بوسعها حتى رؤية الإطار الخارجي لهيئته، فقط كانت تشعر بسخونته وشبابه وصلابته. قبَّلها، وامتزجت شفاههما.

في الصباح التالي كان السرير خاويًا، واغتسلت سايكي مجددًا بأيادي الجواري الخفية، وخلال اليوم الطويل استجمعت شجاعتها لتسألهنّ أسئلتها.

«أين أنا؟».

«سُموّك هنا».

«وأين هنا؟».

«بعيد عن هناك، لكن يدنو من القريب».

«من سيد ذلك القصر؟».

«أنتِ سيدته».

لم تنل إجابة مباشرة، فلم تضغط أكثر. علمت سايكي أنها في مكان مسحور وأن جواريها كنّ محكومات بقواعده ومتطلباته.

في تلك الليلة، وفي عتمة الظلام، جاء الشاب الجميل لسريرها مجددًا. حاولت أن تتحدث معه لكنه وضع إصبعه على فمها وتردد صوتٌ داخل رأسها.

«صه يا سايكي، لا تسألي عن شيء، أحبيني مثلما أحبك».
لاحقًا، وبينما تغرق في النوم ببطء، أدركت أنها تحب الرجل الخفيّ جدًا.
مارسا الحب كل ليلة، واستيقظت وحيدة كل صباح.
القصر كان عظيمًا، ولم يكن ثمة شيء لا تستطيع الجواري فعله لسايكي، كان لديها كل ما قد تتمناه، أفضل ما يؤكل وأفضل ما يُشرب وأفضل ما يُسمع من الموسيقى طوال الوقت، لكن كم كانت تطول أيام الوحدة وتتمدد بين ليالي الحب اللذيذ، وكم كان الوقت يمضي بصعوبة عليها.
'الوحش' الذي كانت تنام معه كل ليلة، كان لا شك كما خمّنْت، كان الرب إيروس الذي وقع في حب سايكي نتيجة لإصابته بسهمه، الحب الذي بات يتعاظم الآن بليالي النشوة المتبادلة. كانت العرّافة محقة بقولها إن إيروس كائن يخشاه الأوليمبيون جميعهم، فلم يكن هناك واحد من سكان الأوليمبوس لم يصرعه إيروس بسهم في وقت أو في آخر، ربما كان بالفعل وحشًا، لكنه كان قادرًا على أن يكون حساسًا لطيفًا بقدر ما كان متقلبًا قاسيًا. الآن، يرى إيروس أن سايكي لم تكن في كامل سعادتها، وذات ليلة سألها برقّة بينما هما ممَددان متجاوران في الظلام: «ما الذي يضايقك يا زوجتي الحبيبة؟».
«أكره أن أقول ذلك، فقد منحتني الكثير، لكني أشعر بالوحدة خلال اليوم، وأفتقد شقيقتيّ».
«شقيقتاك؟».
« نعم، كالانثا وزونا، لا بد أنهما تظنانني ميتة».
«لا يجيء من وراء الاتصال بهما إلا التعاسة والبؤس والشقاء، لهما ولك».
«لكني أحبهما...».
«البؤس والشقاء، تذكري ذلك».

تنهدت سايكي.
قال: «صدقيني أرجوك، إن من مصلحتك عدم رؤيتهما».
«وماذا عنك؟ ألن تدعني أراك؟ ألن تدعني أنظر إلى وجه من أحب أبدًا؟».
«عليكِ ألا تسأليني ذلك، لا تسأليني ذلك أبدًا».
مرّت الأيام، ورأى إيروس أن سايكي، برغم كل النبيذ والطعام والموسيقى والنوافير السحرية والهمسات الخفية، يغمرها الحنين.
قال: «ابتهجي يا حبيبتي، غدًا ذكرى زواجنا».
سنة! مرَّت سنة كاملة بهذه السرعة؟
«هديتي لك هي تحقيق أمنيتك، غدًا صباحًا سينتظرك صديقي زيفروس خارج القصر، وسيأخذك إلى حيث تريدين أن تكوني، لكن أرجوك كوني حذرة، لا تسمحي لنفسك بالانخراط أكثر من اللازم في حياة أسرتك، وعليك أن تعديني بأنك لن تخبريهم عني، ولا كلمة عني».
وعدته سايكي بما أراد وامتزجا بجسدي بعضهما في ليلة ذكرى حبهما. لم يسبق أن شعرت سايكي بمثل هذا القدر من الحب والعشق والنشوة الجسدية، وأحست من الناحية الأخرى قدرًا مماثلًا من المشاعر نفسها.
في الصباح التالي استيقظت كالعادة في سرير خاو. سمحت بنفاد صبر ولهفة لجواريها بإلباسها وتقديم الإفطار لها، قبل أن تجري بحماسة إلى البوابة العظيمة أمام القصر، لم تكد تضع قدمًا خارجه حتى هبط زيفروس وحملها بأياديه القوية الناعمة الداعمة.

الشقيقتان

في الآن ذاته، في مسقط رأس سايكي، كان الناس يُحيون ذكرى اختطاف الوحش غير المرئي لها. قاد الملك أرستيديس والملكة دامريس موكبًا جنائزيًا صاعدين الجبل حتى الصخرة البازلتية التي كانت ابنتهما مقيَّدة بها، والتي صار يُطلق عليها «صخرة سايكي» تشريفًا لها. لم يبق في

القصر إلا الأميرتين كالانثا وزونا، اللتان أبدتا رغبتهما في البقاء في البيت للحداد بخصوصية.

ما إن ابتعد الحشد حتى خلعتا رداء الحداد وبدأتا بالضحك.

قالت زونا: «تخيَّلي الكائن الذي أخذها».

قالت كالانثي: «مجنَّح مثل الفيوريات...».

«ذو مخالب حديدية...».

«وينفث النيران...».

«أنيابه ضخمة صفراء...».

«وبدلًا من الشعر له ثعابين...».

«وذيل هائل يـ... ما هذا؟».

هبَّت ريح مباغتة جعلتهما تستديران، وما رأتاه جعلهما تصرخان هلعًا.

كانت شقيقتهما سايكي تقف أمامهما، في رداء أبيض بهيّ ذي حواف ذهبية تلمع. بدت جميلة لدرجة مفزعة.

قالت كالانثي: «لكن...».

قالت زونا: « حسبناك...».

ثم صاحتا معًا: «أختي!».

بادرتهما سايكي بذراعين مفرودتين وبأعذب ابتسامات الحب التي تضيء وجهها، أخذت كل من كالانثي وزونا يدًا لتقبّلها.

«أنت حية!».

«و شديدة الـ... الـ...».

«فستانك، كلف بلا شك ثروة، لكنه يبدو...».

«وتبدين... كالانثي، ما هي الكلمة التي أبحث عنها؟».

اقترحت سايكي: «سعيدة؟».

قالت الشقيقتان: «شيئًا ما... تبدين بلا شك شيئًا ما».

«لكن أخبرينا يا سايكي يا عزيزتي...».

«ما الذي حدث لك؟».

«نحن هنا نبكي عليك وتتمزّق قلوبنا من أجلك».
«من الذي أعطاك ذاك الفستان؟».
«كيف هربتِ من الصخرة؟».
«أهو من الذهب الحقيقي؟».
«هل جاءك الوحش؟ أكان غولًا؟ مسخًا؟».
«أي قماش هذا؟».
«أو ربما تنينًا؟».
«كيف تحافظين عليه من التجعّد؟».
«هل أخذك إلى عرينه؟».
«من الذي يمشط لك شعرك؟».
«هل حاول قضم عظامك؟».
«لا يمكن أن يكون ذلك زمرّدًا حقيقيًا!».

رفعت سايكي يدها ضاحكة، وقالت: «شقيقتاي الحبيبتان، سأخبركما بكل شيء، بل وسأريكما كل شيء، تعال يا ريح، خذنا إلى هناك».

وقبل أن تدرك الشقيقتان ماذا يحدث، كانت ثلاثتهن بالأعلى يمررن في الهواء بخفة، آمنات بين أيادي الريح الغربية.

قالت سايكي بينما يعبر بهن زيفروس فوق الجبال: «لا تقاومنه، استرخين»، أخذ عويل زونا يبهت أخيرًا، وتداعت شهقات رعب كالانثي، ولم يمض وقت طويل قبل أن تتمكنا من فتح أعينهما لبضع ثوان دون صراخ.

بعدما أنزلهم زيفروس أخيرًا على العشب أمام القصر المسحور، كانت كالانثي قد قررت أنّ تلك هي الوسيلة الوحيدة المناسبة للسفر، فقالت: «من الذي يحتاج إلى حصان غبي ليجر عربة قديمة مقرفة؟ من الآن فصاعدًا سأركب الهواء...».

لكن زونا لم تكن منصِتة، كانت تحدق مشدوهة في الحوائط والأبراج والبوابة المرصّعة بالفضة، كل شيء يلمع تحت شمس الصباح.

قالت سايكي: «ادخلا». يا له من شعور مثير، أن تعرض بيتها الجديد الجميل على شقيقتيها الحبيبتين، وكم كان من المؤسف أنهما ليس بوسعهما مقابلة زوجها العزيز.

أن نقول إن الفتاتين كانتا منبهرتين، فذلك تقليل كارثي من واقع الأمر. بالطبع تأففتا وتثاءبتا وتضاحكتا وهزتا رأسيهما وتثاقلت خطاهن بين الغرف الذهبية والمنقوشات الفضية والردهات والممرات المرصعة بالجواهر، أنوفهن المتغضنة الملتوية أعربت أنهن اعتدن ما هو أفضل.

قالت زونا: «ذوق مبتذل نوعًا ما، ألا تظنين ذلك يا عزيزتي؟»، وفكرت في نفسها: «ذلك بيت إله!»، وفكرت كالانثي: «لو أني وقفت وانحنيت وكأنّي أعدّل من أحزمة صندلي، بوسعي كسر إحدى الياقوتات التي تغطي ذلك الكرسي...».

عندما بدأ الخدم الخَفيون في تقديم الغداء، لم تعد الشقيقتان قادرتان أكثر من ذلك على مداراة ذهولهما وعجبهما، بعد ذلك تناوبتا على التدليك والتزييت والاستحمام.

ألحّت الشقيقتان على معرفة تفاصيل سيد القلعة، لكن سايكي تذكرت وعدها وبسرعة اخترعت أي كلام.

«إنه صياد وسيم ومالك أراض في هذه الأنحاء».

«ما اسمه؟».

«نظراته هي الألطف على الإطلاق».

«واسمه هو...؟».

«يحزنه أنه لن يقابلكما، لكنه دائمًا ما يخرج للحقول بكلابه في النهار، كم أراد أن يحييكما شخصيًا، ربما في فرصة أخرى...».

«نعم، نعم، لكن بما تدعينه؟».

«إنه... إنه في الواقع بلا اسم».

«ماذا؟».

«أقصد... بالطبع لديه اسمٌ، كل شخص له اسم يا زونا، لكنني أعني أنه لا يستخدم اسمه».

«لكن ما هو؟».

«يا إلهي! أسرعا، ستغيب الشمس عما قريب، وزيفروس لا يطير في الليل... هيا يا شقيقتاي العزيزتان، احملا ما تحبّان أخذه معكما، إليك حفنة من الجمشت، وهاك بعض الياقوت، وذهب وفضة... تذكرا أن تقدما بعضها لبابا وماما كذلك».

بعد أن حملتا ما استطاعتا من الكنوز، سمحت الشقيقتان للرياح الغربية أن تنقلهما إلى الصخرة. كانت سايكي بعدما ودعتهما آسفة لذهابهما وسعيدة بالخلاص في الآن ذاته، فبرغم سعادتها بصحبتهما وبفرصة اصطحابهما في جولة حول بيتها وإعطائهما الهدايا، كان الوعد الذي قطعته على نفسها لزوجها يجعل التهرب من أسئلتهما المنهمرة أمرًا مضنيًا.

أما الشقيقتان فكان ينخرهما من الداخل الحقد والكره والغضب رغم الكنوز المذهلة التي باتت ملكهما، كيف استطاعت شقيقتهما الأصغر سايكي الغبية الأنانية أن تصبح في مكانة ربّة بشكل أو بآخر؟ لم يكن ذلك من العدل أبدًا. تلك الطفلة المدللة التافهة القبيحة، حسنًا، ربما ليست قبيحة، فهي تمتلك جمالًا سطحيًا مبتذلًا من نوع ما، لكنه لا يضاهي أبدًا جمالهنّ الملكي. هذا ظلم بيّن، لا شك أن هناك سحرًا أسود ما خلف كل هذا. كيف لا تستطيع حتى تسمية سيدها وزوجها؟

قالت كالانثي: «روماتيزم زوجي ساتو يزداد سوءًا، صرت بحاجة لتدليك أصابعه واحدًا تلو الآخر كل ليلة قبل وضع الكمّادات والضمّادات، كم أنّ هذا مقرف ومهين».

قالت زونا: «أتحسبين حياتك جحيمًا؟ زوجي كاريون أصلع كبصلة، ورائحة نفَسه نتنة، وقدرته الجنسية لا تتجاوز قدرة خنزير ميت، بينما سايكي...».

«تلك العاهرة الأنانية...».

تعلقت الشقيقتان ببعضهما وانخرطتا في البكاء.

في تلك الليلة، جاء إيروس حبيب سايكي محملًا بأخبار عظيمة. بينما

كانت هي تحكي بحماسة كيف تمكنت من تفادي وصفه لشقيقتيها بذكاء، وضع إصبعه على ثغرها وقال:

«آه يا طفلتي الطيبة الحلوة، كم أخشى مما قد تفعله تلك المرأتان فيك، لكني سعيد لسعادتك، ودعيني أزيدك فرحة على فرحتك»، ثم شعرت بيده الدافئة تتحسس معدتها برقة، «طفلنا الآن ينمو في داخلك».

شهقت سايكي مصعوقة من المفاجأة واحتضنته بشدة.

«لو حافظتِ على هذا سرًا، سيصبح الطفل إلهًا، لكن لو أخبرتِ كائنًا من كان، سيصبح فانيًا».

قالت سايكي: «سأحافظ على هذا السرّ، لكن قبل أن يصبح حملي جليًا دعني على الأقل أقابل كالانثي وزونا مرة أخرى لأودعهما».

اضطرب إيروس، لكنه لم يجد سببًا لرفض طلبٍ بريءٍ إنسانيٍّ مثل هذا، فوافق.

قال بينما ينحني ليقبلها: «سيرسل لهما زيفروس بعلامة، وستأتيان، لكن تذكري... ولا كلمة عني أو عن طفلنا».

نقطة زيت

في الصباح التالي، استيقظت كالانثي وزونا على نسيم زيفروس يداعبهما مثل كلب أليف جائع يلهث ويشد فرش السرير، عندما فتحتا أعينهما وجلستا كان قد ذهب، لكن جشعهما الغريزي ومكرهما الفطري أخبراهما ماذا تعني تلك الإشارة، وهرعتا إلى الصخرة وانتظرتا. تلك المرة كانتا عازمتين على معرفة أدق تفاصيل سر عشيق أختهما.

عندما أنزلهما زيفروس أمام القصر كانت سايكي موجودة لترحّب بهما، احتضناها بحب، حافظتا على حقدهما وحنقهما على حظ سايكي السعيد في باطنَيهما، بدلًا من ذلك أمطراها بسيل من التحيات والقبلات والتربيتات، وكثير من هزات الرأس.

بينما تجلسهما سايكي على مائدة الإفطار العامرة بالفواكه والكعكات

والنبيذ بالعسل، سألت بحيرة: «ما خطبك يا كالانثي؟ لماذا الحزن يا زونا؟ ألستما سعيدتين برؤيتي؟».

تأوَّهت كالانثي: «ومن أين تأتي السعادة؟».

تنهدت زونا: «فقط لو نعرف للسعادة سبيلًا!».

«ما الذي يضايقكما؟».

قالت كالانثي بأنين: «آه يا صغيرتي، يا لك من طفلة طيبة جميلة ساذجة».

«يسهل استغلالها».

«لا أفهم».

نظرت الأختان لبعضهما، وكأنهما متردّدتان في كشف الحقيقة المؤلمة.

«إلى أي مدى تعرفين ذلك الـ... ذلك الشيء الذي يزورك في الليل؟ هذا لو كنت تعرفينه أصلًا».

اعترضت سايكي: «إنه ليس شيئًا!».

«بالطبع هو شيء، إنه الوحش الذي تنبأت به العرّافة».

قالت زونا: «أراهن أنه تغطيه الحراشيف، وإن لم يكن محرشفًا فهو بالتأكيد مشعرًا».

قالت سايكي بانزعاج: «إنه ليس ذاك ولا ذلك، إنه صغير وجميل ولطيف، ناعم البشرة وقوي العضلات و...».

«ما لون عيونه؟».

«آه...».

«شعره أشقر أم أسمر؟».

قالت سايكي: «شقيقتاي الحبيبتان، هل تحفظان سري؟».

مدت زونا وكالانثي عنقيهما وضربتا أختهما بمودة.

«أنحفظ سرك؟ أي سؤال هذا!».

قالت سايكي: «الأمر وما فيه... بصراحة، أنا لا أعلم كيف يبدو، لم أره قط، أنا فقط... إحم... شعرت به».

قالت كالانثي المصعوقة: «ماذا؟».

«أتعنين أنك لم تنظري لوجهه قط؟».

«إنه يصرّ على ألّا أراه. يأتيني في دهمة الليل، وينسَلّ بين الملاءات، وعندها نقوم بـ... كما تعرفان»، وتورّدت وجنتا سايكي، «لكنني قادرة على تحسس هيئته، وما شعرت به لم يكن جسد وحشٍ، بل هو جسد جذاب لشاب في غاية الروعة، لكنه قبل الصباح... يرحل».

قالت زونا بضحكة مكتومة: «يا لك من حمقاء! ألا تعلمين أن...»، ثم قطعت كلامها وكأنها تخشى المتابعة.

تبادلت الشقيقتان نظرات متألمة كمن يعرفن الكثير.

«يا عيني...».

«سايكي لا تعرف».

ردت كالانثي بصوت هو بين الضحك والتنهيدة.

نقلت سايكي نظرتها من إحداهما إلى الأخرى بحيرة، «لا أعلم ماذا؟».

وضعت كالانثي ذراعيها حول سايكي وأخذت تشرح لها، وزونا تقاطعها بملاحظاتها وإضافاتها وتأكيداتها. عُرف دائمًا عن أسوأ الوحوش المرعبة - ومنها بالتأكيد الوحش الذي تنبأت عرّافة أبولو أنه سيفترسها - أنها تمتلك قوى خاصة - على الدوام كانت لها قوى خاصة، والعالم كله يعرف ذلك - منها مثلًا القدرة على التحول لأشكال مخادعة - أشكال قد تبدو مثيرة وجذابة أمام لمسة فتاة صغيرة - لكن ذلك فقط للفوز بثقة نقيات السريرة - نقيات السريرة والحمقاوات! - فقط كي يتمكنوا ذات يوم من زرع بذرتهم الشيطانية بداخلهن - فتاة مسكينة لا تفهم هذه الأشياء، لكن الرجال قادرون على ذلك وأكثر - وعلى جعلهنّ يلدنَ المزيد من ألعن الشياطين وأسوأ الوحوش - والمسوخ - هكذا يتكاثرون، هكذا ينشرون ذرِّيتهم الملعونة.

رفعت سايكي يدها، «توقفا! أرجوكما! أعلم أن نيَّتكما طيبة، لكنكما لا تعلمان كم هو رقيق وحنون وطيب...».

«هذه بالضبط طريقتهم، هكذا بالضبط يفعلون».
«كيف لا تفهمين؟ إن ما يثبت وحشيته وقسوته هو بالضبط تلك الحِنيّة والرقّة».
«علامة أكيدة على أنه غول شنيع».
فكرَت سايكي في الحياة الجديدة التي تنمو بداخلها، وإصرار زوجها على ألّا تخبر بها أحدًا، ورفضه الدائم لأن يدعها تراه. رباه! ربما شقيقتاها على حق؟
لاحظتا تذبذبها، فهجمتا.
«فلتفعلي ما نقول يا حبيبتي، عندما يأتيك الليلة دعيه ينال مقصده الكريه منك...».
«يا للقرف».
«ثم دعيه ينام، لكن عليك أن تبقي مستيقظة».
«لا تستسلمي للنوم بأي حال من الأحوال».
«وعندما تتأكدين أنه غارق في النوم بالكامل، انهضي واحضري مصباحًا».
«وتلك الشفرة التي تستخدمها جواريك في قص شعرك».
«صحيح، ستحتاجينها».
«أشعلي المصباح في ركن الغرفة، وغطيه كي لا يوقظه نوره».
«ثم تسللي إلى السرير...».
«وارفعي مصباحك...».
«وجزّي عنقه المحرشف...».
«اقطعي شرايينه...».
«اقتليه...».
«اقتلي الوحش...».
«ثم اجمعي كل الذهب والفضة...».
«والأحجار الكريمة، لا تنسيها...».

وتابعت الشقيقتان الكلام حتى اقتنعت سايكي بالكامل.

هكذا، في تلك الليلة، وبينما ينام إيروس في سلام، وجدت سايكي نفسها تقف على رأسه بمصباح مغطى في يد وشفرة في الأخرى. نزعت الغطاء عن المصباح، فوقع الضوء على أجمل كائن رأته عيناها على الإطلاق، عاريًا متكوِّرًا، تراقص الوهج الدافئ على البشرة الشابة وأجمل جناحين ريشيين. لم تقدر سايكي على كتم شهقة العجب، علمت على الفور من ذاك الذي تنظر إليه، هذا ليس تنينًا، ولا وحشًا ولا غولًا ولا مسخًا، ذلك كان ربّ الحب الشاب، إيروس نفسه، ذلك من كانت تنوي قتله! كم كان جميلًا! انفرجت شفتاه الورديتان الممتلئتان قليلًا، وخرج من بينهما نفسه العذب بينما هي تنحني أكثر لتراه بوضوح، كل شيء فيه كان في غاية الكمال! عضلاته المتكوّرة المنتفخة أعطيا جماله الشاب مسحة ذكورية، لكن دون الانبعاج والتورّم الفظ الذي كانت تراه في أجساد المحاربين والرياضيين وأبطال الرياضة في مملكة أبيها. لمع شعره الأشعث بلون دافئ بين ذهبية أبولو وبُنّية هرمس. وهذان الجناحان المطويان تحت جسده! لهما امتلاء وبياض جناحي بجعة. مدت يدًا مرتجفة ومررت أصابعها على الريش، بالكاد صدر عن ذلك همسًا لم يرتقِ لمرتبة الصوت، لكنه مع ذلك كان كافيًا لجعل إيروس النائم يتقلب ويهمهم.

تراجعت سايكي وغطت المصباح، لكن مرت لحظات وعاد تنفسه منتظمًا بما يكفي لطمأنتها أن إيروس لا يزال في أعماق النوم. كشفت عن المصباح مجددًا ورأت أنّ تقلبه جعله يواجه الناحية البعيدة عنها، ورأت الآن أن حركته كشفت عن شيءٍ مثير للفضول كان مختبئًا؛ وقع ضوء المصباح على أسطوانة فضية ممددة بين جناحيه: كنانته.

انحنت سايكي وجذبت سهمًا واحدًا وهي لا تكاد تجرؤ على التنفس، وبينما تقلبه بين يديها تحسست في إعجاب عود السهم الأبنوسي، أما رأسه فكانت مثبتة بشريط ذهبي... رفعت المصباح بيدها اليسرى ومررت إبهامها الأيمن على الرأس، ثم... آي! كم كانت الحافة حادة لدرجة أنها جرحتها

وأسالت منها الدماء، وما إن حدث ذلك حتى غمرها حب مكثَّف لإيروس النائم، عشق ساخن عاطفي شهواني، إخلاص كامل وأبديّ، حتى أنها لم تستطع منع نفسها من التدلي لتقبيل خصلات الشعر على مؤخرة عنقه.

لكن، وا أسفاه، قطرة زيت ساخنة من المصباح وقعت على كتفه الأيمن، فاستيقظ بغتة مطلقًا صيحة ألم حادة تحولت إلى صرخة إحباط وغضب هائلة عندما رأى سايكي تقف بجواره. انفرج جناحاه وبدآ يضربان الهواء، قفزت سايكي لتتعلق بساقه اليمنى بينما يرتفع، لكن قوّته كانت أعظم مما تحتمل، فنفضها عنه من دون كلمة، وطار مبتعدًا في الليل.

ما إن ذهب إيروس حتى تداعى كل شيء، حوائط القصر تموَّجت وبهتت وذابت في هواء الليل. راقبت سايكي الملتاعة الأعمدة الذهبية حولها تتذبذب حتى تصير صفًا من الأشجار، وبلاطات فسيفساء الجواهر أسفلها تختلج فتصبح مزيجًا من الطين والحصى، ولم يمض الكثير قبل أن يختفي القصر بكل ما فيه من أحجار كريمة ومعادن ثمينة، وتحولت أصوات الجواري المغنيات إلى عواء ذئاب ونعيق غربان، وهبّات العطور الغامضة صارت رياحًا باردة تلسع كالسياط بلا رحمة.

وحيدة

فتاة خائفة حزينة، تقف في غابة باردة نائية.

استندت إلى جذع شجرة وجلست على جذورها الصلبة، كل ما كانت تفكر فيه كان إنهاء حياتها.

أيقظها زحف خنفساء على شفتها، اعتدلت مرتجفة وأزاحت ورقة شجر جافة من على جبهتها. لم تكن تحلم إذًا بأهوال الليلة الماضية، كانت بالفعل وحيدة في الغابة، ربما كان كل ما مضى حلمًا وما هي فيه الآن هو الحقيقة؟ أم هي استيقظت في جزء آخر من حلم أشمل؟ لم يكن اللغز يستحق عناء حلِّه، سواء أكان هذا حلمًا أم واقعًا، فهو غير محتمل على أية حال.

«لا تفعليها يا جميلة».

نظرت سايكي مصعوقة إلى حيث وقف الربّ بان أمامها. ذلك التجهّم المرح، ذاك الشعر المجعد الكثيف الذي ينبثق منه قرنان، تلك الخاصرة العريضة المشعرة التي تنتهي بقدمي ماعز... لا يمكن أن يكون شخصًا آخر عداه، فانيًا كان أو خالدًا.

قال بان: «لا، لا»، وضرب الأرض الطينية بحافريه، «أستطيع رؤية ما تنوين عليه في وجهك، لن أسمح لك».

قالت سايكي: «لن تسمح لي بماذا؟».

«لن أسمح لك بإلقاء نفسك من على جبل، لن أسمح لك بجذب انتباه حيوانات الغابة المتوحشة، لن أسمح لك بقطف فطر مسموم وتناوله، لن أسمح لك بأي من هذا».

بكت سايكي: «لكني لا أستطيع أن أحيا، لو أنك تعلم حكايتي كنت ستفهمني وستساعدني على الموت».

قال بان: «عليك أن تسألي نفسك ما الذي جاء بك إلى هنا، لو كان حبًا فلتصلّي لأفروديتي وإيروس طلبًا للراحة والإرشاد، لو كان شرًا ما أدى لسقوطك فعليك أن تعيشي لتكفري عنه، ولو كان بسبب آخرين فعليك أن تعيشي لتنتقمي».

الانتقام! أدركت سايكي فجأة ما الذي يجب أن يكون. نهضت على قدميها، قالت: «شكرًا يا بان، لقد أريتني الطريق».

كشف بان عن أسنانه مبتسمًا وانحنى، ونفخت شفتاه صافرة وداع طويلة في مجموعة من المزامير في يده.

بعد أربعة أيام طرقت سايكي على بوابة القصر الهائل لساتو زوج شقيقتها كالانثي، وقادها خادم إلى جناح ضيوف أختها.

«سايكي! حبيبتي! هل مضت الخطة على ما يرام؟ تبدين...».

«لا تقلقي بشأني يا شقيقتي العزيزة، سأخبرك بما حدث، لقد اتبعت تعليماتك بالحرف، وألقيت ضوء المصباح على زوجي النائم لأرى شكله، وتخيلي من كان؟ الربّ إيروس!».

«إيروس؟»، وقبضت كالانثي على قلادتها الكهرمانية.

«ذات نفسه! وتخيلي يا أختي كسرة قلبي عندما قال لي إنه أخذني لقصره فقط كوسيلة للوصول إليك».

«أنا؟».

«تلك كانت خطته الشريرة، وقال لي: 'أحضري لي أختك كالانثي، ذات العيون الخضر والشعر الخمري'».

«بل هو محمَرّ وليس خمري...».

«'اجلبيها، أخبريها أن تذهب إلى الصخرة العالية، وتلقي نفسها في حضن زيفروس، وستلتقطها الريح الغربية وتجلبها لي... أتوسل إليك يا سايكي، أخبري كالانثي بكل ذلك'، هكذا قال وهكذا أقول لك بكل إخلاص».

يمكنك تخيل السرعة التي جهَّزت بها كالانثي نفسها، وتركت لزوجها رسالة خربشتها على عجل تشرح له فيها أنهما لم يكونا زوجًا وزوجة في حقيقة الأمر، وأن زيجتهما كانت خطأً كارثيًا، والكاهن الذي زوَّجهما كان ثملًا وعاجزًا وغير مؤهل، وأنها لم تحبه قط، وأنها الآن امرأة حرة.

سمعت حفيف النسيم بينما تقف على الصخرة البازلتية، وبآهة نشوة عالية رمت نفسها في حضن من حسبته زيفروس.

عدا أن روح الرياح الغربية لم تكن هناك. وقعت كالانثي وأخذت ترتطم وترتد على الصخور المدبَّبة في جانب الجبل وهي تصرخ في غضب وإحباط وألم، حتى تدلت أحشاؤها خارج جسدها واستقرت جثتها في القاع التي فيها من الحياة قدر ما في الحجارة منها.

مصير مشابه أصاب أختها زونا، التي أخبرتها سايكي بالقصة ذاتها.

تكاليف أفروديتي

الآن وقد أتمت انتقامها، أمامها ما تبقى من حياتها لتأمّل ما حدث. كل لحظة واعية في حياتها الحالية صارت مفعمة بالحب والشوق لإيروس،

وآلام الفقد والبؤس تطعن جوانبها، وقد باتت تعلم أنه كُتب عليها ألّا تراه مجددًا.

في الآن ذاته، كان إيروس ممددًا في غرفة سرية، معذَّبًا بآلام الحرق في كتفه. ربما يسعني أنا وأنت احتمال الإزعاج المحدود للسعة قطرة زيت مصباح، لكن بالنسبة لإيروس، برغم خلوده، ذلك كان جرح سببته له المرأة التي أحب، مثل تلك الجروح تستغرق أوقاتًا طويلة لتشفى، هذا إن شُفيت أصلًا.

غياب إيروس المرَضي أوقع العالم في معاناة، لم يعد الشباب والفتيات يقعون في الحب، لم يعد هناك زواج، وأخذ الناس يتململون ويتذمرون. صارت أفروديتي تتلقى صلوات غاضبة طوال الوقت، تلك الصلوات واكتشافها الحديث أن إيروس مختبئ في مكان ما وقد أهمل واجباته، أثارت سخطها، وعِلمها بخبر أنّ ما أصاب ابنها كان بسبب فتاة فانية سرقت قلبه حوّل سخطها إلى غضب، أما عندما عرفت أنها نفس الفتاة الفانية التي أمرت إيروس أن يهينها، اشتعل غضبها نارًا. كيف ارتدّت خطتها لجعل سايكي تقع في حب خنزيرٍ إلى هذه الدرجة المريعة؟ عليها هذه المرة أن تتأكد بنفسها من دمار الفتاة بالكامل.

وذات يوم وجدت سايكي نفسها تطرق على باب قصر عملاق، من دون أن تعلم أنها تفعل ذلك بتأثير سحر يقصدها. جذبتها كائنات مرعبة من شعرها إلى داخل القصر وطرحتها في زنزانة، وزارتها أفروديتي بنفسها، معها زكائب من القمح والشعير والذرة وبذور الخشخاش والحمص والعدس والفاصولياء، وأفرغتها كلها على الأرض الصخرية ومخضتها معًا.

قالت أفروديتي: «إن أردت حريتك، فلتفصلي أنواع الحبوب والبذور عن بعضها، كلًا في كومة مستقلة. لو أنهيت تلك المهمة قبل شروق الشمس التالي سأطلق سراحك».

ثم خرجت أفروديتي مطلِقة ضحكة - على غير عادة ربّة الجمال

والحب - هي بين زبط البط ونقيق الضفادع، وصفعت باب الزنزانة وراءها.

انهارت سايكي على الأرض وأخذت تنتحب، إنّ من المستحيل تقريبًا فصل الحبوب عن بعضها، حتى لو استغرقت في ذلك شهرًا.

في ذلك الحين، وبينما كانت نملة تعبر البلاط الحجري، جرفتها واحدة من الدموع المالحة المنحدرة من وجنة سايكي.

صاحت النملة غاضبة: «احترسي يا امرأة، ربما بالنسبة لك هي دمعة صغيرة، لكن بالنسبة لي هي فيضان».

قالت سايكي: «أنا آسفة جدًا، لم أرَك، أعماني حزني فلم أعد أرى إلّا السواد».

«أي حزن عظيم هذا الذي يجعلك تكادين تُغرِقين النمل المسكين؟».

حكَت سايكي مأساتها للنملة، التي كانت حشرة خدومة مسامحة بطبيعتها، وعرضت المساعدة. استدعت النملة بصيحة غير مسموعة لآذان البشر عائلتها الكبيرة، وانطلقوا جميعًا معًا لفصل الحبوب.

راقبت سايكي بذهول، وقد جفّت الدموع من على وجنتيها، عشرة آلاف نملة تروح وتجيء بابتهاج، تنقل وتفصل الحبوب بدقة عسكرية. وقبل أن تفتح إيوس وردية الأصابع بوابات الفجر بكثير، كانت المهمة قد انتهت وأمست هناك سبعة أكوام من الحبوب المرتبة التامة تنتظر فحص أفروديتي.

مشهد الربّة الغاضبة المحبَطة كان جديرًا بالمراقبة، غير أنها كانت جاهزة بتكليف مستحيل آخر.

قالت أفروديتي وهي تشد سايكي من شعرها لتجبرها على النظر من النافذة: «أترين تلك الأيكة هناك؟ تلك التي على الضفة الأخرى من النهر؟ ثمة غنم ترعى هناك وتتجول وحيدة بلا راع، غنم من نوع خاص، صوفها ذهبي، اذهبي إلى هناك على الفور واجلبي لي حزمة من صوفها».

اتخذت سايكي طريقها للأيكة بلا اعتراض، لكن بلا نية للقيام بالتكليف الثاني، عزمت على استغلال حريتها ليس فقط للهروب من

قيود لعنة أفروديتي الشنيعة، وإنما للهروب من قيود الحياة الشنيعة كافة، ستلقي بنفسها في النهر لتغرق.

لكن بينما كانت تقف على الضفة وتتنفس بصعوبة، وتستحضر شجاعتها للقفز في النهر، أومأ لها أحدهم بأعواد القصب، مع أنه لم يكن هناك أثرٌ لأي ريح، وهمس:

«يا سايكي الجميلة، أنهكت المحَن جسدك المسكين، فلا تلوّثي مياهي بالموت فيها. ثمة طريق للنجاة من مشاكلك، الغنم هنا وحشية جامحة، ويحرسها كبش عنيف مقاتل، بوسع قرونه تمزيقك كثمرة فاكهة ناضجة. أترين كيف ترعى تحت شجرة الدلب في الضفة الأخرى؟ لو اقتربت منها الآن فلن يعني ذلك إلا موتًا سريعًا مؤلمًا، لكن لو تمدّدت هنا ونمت، بحلول المساء ستكون قد مضت إلى مرعى جديد، وسيكون بوسعك السباحة إلى الشجرة هناك، وستجدين كثير من الصوف معلق بأشواك الفروع المنخفضة».

في الليل، ألقت أفروديتي الحائرة المغتاظة الصوف الذهبي جانبًا، وأصرت على أن تنزل سايكي إلى العالم السفلي، لتتوسل إلى بيرسفوني أن تعطيها بعضًا من كريم تجميل، وبما أن الموت كان المهيمن على تفكير سايكي منذ هجرها إيروس، رضخت الفتاة المسكينة واتبعت طواعية تعليمات أفروديتي للنزول إلى هاديس، حيث عقدت العزم على البقاء وقضاء أبدية تعيسة وحيدة، وبلا حب.

اجتماع الحب والروح

ذات يوم، أخبر طائر سنونو ثرثار إيروس عن التكليفات الشاقة التي كلّفت بها أمه متطرّفة المشاعر الغيور سايكي. عندها حاول إيروس تجاهل آلام جرحه الشديدة، ونهض، وفردَ جناحيه، وتحاملَ على نفسه وطار مباشرة إلى الأوليمبوس، حيث طلب المثول في حضرة زيوس على الفور.

حكى إيروس قصته أمام جمهور الأوليمبوس المستمتع بما يسمع،

حكى كيف أن أمه كرهت سايكي على الدوام، كرامة أمه وشرفها كأوليمبية شعرا بالتهديد من جمال الفتاة ومن اتجاه بعض البشر المغفَّلين لتبجيل فتاة فانية بدلًا من الربّة الخالدة، لهذا أرسلت إيروس ليجعل سايكي تقع في غرام خنزير. أجاد الفتى عرض قضيته.

زيوس أرسل هرمس إلى العالم السفلي ليجلب سايكي، وعُقاب ليستدعي أفروديتي، وعندما صارت كلتاهما في حضرته السماوية، تكلم زيوس:

«تشابك الأمر وتعقد لدرجة استثنائية مخزية! يا أفروديتي الحبيبة، مكانتك لم تُهدَّد، ولا يمكن أن تُهدَّد، انظري إلى الأرض وسترين كيف يُسبَّح باسمك ويُقدَّس في كل مكان. إيروس، أنت أيضًا كنت فتى أحمق وسفيهًا وطائشًا، أن تُحِب وتُحَب قد يجعلك هذا أكثر تعقّلًا وينقذ العالم من فائض أسهمك العشوائية الشريرة. سايكي، تعالي واشربي من كأسي، هذه أمبروزيا، والآن صرتِ خالدة بعد أن تذوقتها. وهنا، أمام أعين كل الحاضرين، أعلنك مرتبطة إلى الأبد بإيروس، تعالي يا أفروديتي وعانقي زوجة ابنك، ودعونا نحتفل جميعًا».

زفاف إيروس وسايكي كان كله لعبًا ولهوًا، غنّى فيه أبولو ولعب على قيثارته، وشارك بان بالنفخ في نايه، ورقصت هيرا مع زيوس، وأفروديتي مع آريس، وإيروس مع سايكي، ولا يزالون يرقصون معًا حتى يومنا هذا[95].

دمى زيوس

الجزء الثاني

أبناء الرغبة

أيو

سكان عالم البحر الأبيض في تلك الآونة كان يحكمهم في الغالب الملوك. تنوعت الطرق التي تمكن بها أولئك الأوتوقراطيون من بسط سلطتهم على الناس، فبعضهم كان من نسل خالدين، وأحيانًا آلهة، وآخرون تمكنوا من السلطة بالطرق البشرية، مثل استخدام القوة والمكائد السياسية.

إيناكوس Inachus كان واحدًا من أوائل الحكام في اليونان، كان الملك الأول لأرجوس Argos في شبه جزيرة بيلوبونيز Peloponnese، التي كانت مدينة جديدة تصخب بالحياة حينها، والآن واحدة من أقدم المدن التي لا تزال مسكونة في العالم. لاحقًا سيُعَدُّ إيناكوس من الآلهة الثانوية ويتحول إلى نهر، لكنه إبّان حياته كان بشريًا بقدر ما كانت زوجته ميليا Melia التي أنجبت له ابنتان: أيو Io ومايسيني Mycene (التي منحت اسمها لمدينة موكناي Mycenae).

مايسيني كانت زوجة هانئة لنبيل يدعى أريستور Arestor، لكن أيو كان مصيرها أن تكون أول فتاة فانية تجذب انتباه زيوس الشره. اختار إيناكوس هيرا، ملكة السماء، ربّة حامية لأرجوس، وربى ابنته أيو لتكون كاهنة أهم حرم مقدس لهيرا في العالم الإغريقي. عادةً، مجرد مغازلة زيوس لأي أنثى هو شيء كاف لإثارة سخط زوجته، أما أن يصل لاستباحة كاهنتها الخصوصية فهذا لن يؤدي لما هو أقل من إشعال غضبها إلى أقصاه، لكن ذلك لم يمنعه من اشتهاء أيو الجميلة بشدة. كيف يحظى بها دون أن تكتشف ذلك هيرا؟

مسّد زيوس لحيته، فكّر طويلًا حتى وصل لفكرة قرر أنها ضربة معلم. حوّل زيوس أيو إلى بقرة، إلى عِجلة صغيرة بضّة متماوجة الخاصرة كبيرة العينين رقيقتهما، لو خبأها في حقل لن تلمحها هيرا أبدًا، وسيكون بوسعه زيارتها كلما أحب، أو هكذا حسب، فعندما تحل الشهوة تُعمى العيون وتذهب كل حكمة وحسن تصرف، وما يحسبه المرء الذي تلبّسه الهوى تمويه حاذق يبدو بوضوح في عيون الكل عداه حماقة خرقاء.

يسهل إخفاء مئة جبل من عيني زوجة غيور عن إخفاء عشيقة واحدة. كانت الأبقار مقدسة عند هيرا، وكانت لها نظرة خبيرة واعية لذلك النوع، هكذا لاحظت بسهولة البقرة الجميلة وارتابت على الفور في هويتها الحقيقية.

ذات صباح في الأوليمبوس، وبينما يتناولان الإفطار، قالت هيرا من دون اهتمام ظاهر: «يا لها من عِجلة حسناء، جسدها مثالي، رموشها طويلة وعيناها جذابتان».

نظر زيوس بمَلل مصطنع إلى حيث تشير زوجته وقال: «ماذا؟ ذلك الشيء القديم؟».

«إنها في أحد حقولك يا عزيزي، لا بد أنها ملكك».

قال زيوس: «ربما، على الأرجح، واحدة من آلاف الأبقار التي ترعى هناك، لا تتوقعي مني أن أعرف كل بقرة عندي».

قالت هيرا: «سأحب جدًا أن أحظى بهذه العجلة بالذات كهدية عيد ميلاد».

«ما... فعلًا؟ هذه؟ يمكنني أن أجد لك حيوانًا أسمن وأنسب بكثير».

قالت هيرا: «لا»، بوسع من يعرفون هيرا تمييز البريق في عينيها والصلابة في نبرتها، «تعجبني تلك بالذات».

قال زيوس بتثاؤب: «طبعًا طبعًا، هي لك. هلا ناولتني إناء الأمبروزيا ذاك من جوارك؟».

تعرف هيرا زوجها أكثر من اللازم، إن ثارت نزعاته الشهوانية فلا سبيل

لإطفائها، هكذا نقلت هيرا أيو إلى حقل صغير وجعلت خادمها أرجوس Argus، حفيد إيناكوس، حارسًا على بوابته.

كان أرجوس، ابن مايسيني وأريستور، تابعًا وفيًا لهيرا مثل كل الأرجويين[96] في ذلك الزمن، لكنه أيضًا كانت لديه هبة خاصة جدًا جعلته الخفير المثالي على خالته أيو: كانت لديه مئة عين[97]، واستحق لذلك لقب بان - أوبتيس Panoptes، أي «كليّ الرؤية». تمركز أرجوس في الحقل مطيعًا لإرادة هيرا، وركز خمسين عينًا على أيو وترك الخمسين الأخرى تتجوّل بحرية لأعلى ولأسفل، بحثًا عن أي متسلل محتمل.

عندما رأى زيوس هذا اشتعل غضبه وفار دمه وضرب بقبضة أحد اليدين راحة الأخرى. سيحظى بأيو، بات الأمر مسألة مبدأ، سيهزم هيرا في تلك الحرب الصامتة غير المعترَف بها. غير أنه كان يعلم مدى مكرها، لذا استدعى لمساعدته أكثر أهل الأوليمبوس مكرًا ومرواغة وخداعًا وأقلهم أخلاقًا.

هرمس، الذي يسعد على الدوام بأي فرصة لخدمة زيوس ونشر الأذى، فهم على الفور ما الذي ينبغي فعله، وهرع إلى حقل أيو.

قال هرمس: «أهلًا أرجوس»، بينما يفك مزلاج البوابة وينسَلّ إلى الداخل، «دعنا نقضي بعض الوقت معًا... يا لها من عِجلة رائعة!».

ألقى أرجوس دستة أعين على هرمس الذي جلس على العشب وأخرج مزاميره وبدأ في العزف. ظل هرمس يعزف ويغني لساعتين، الموسيقى وقيظ الظهيرة ورائحة الخشخاش واللافندر والزعتر البري والصوت الرخيم لجريان الجدول القريب، كل ذلك جعل أعين أرجوس تنغلق واحدة تلو الأخرى.

ما إن انسدل جفن العين المئة حتى أخفض هرمس مزاميره، وتقدم إلى أرجوس، وطعنه في قلبه. كل الآلهة كانوا لا يتورَّعون عن أفعال لا تقل قسوة، وهرمس لم يكن مختلفًا عنهم.

موت أرجوس ترك الباب مفتوحًا ليدخل زيوس الحقل ويحرر أيو،

لكن قبل أن تسنح له فرصة إعادتها إلى هيئتها البشرية، أرسلت هيرا، التي رأت ما حدث، ذبابة خيل ضخمة لسعت أيو لسعًا لا مثيل لألمه، جعل البقرة تنتفض وتصرخ وتركض مبتعدة عن متناول زيوس.

هيرا الحزينة على موت خادمها الوفي، أخذت عيون أرجوس المئة ووضعتها على الذيل الرث العتيق الباهت لأحد الطيور، فحولته لما نعرفه اليوم بالطاووس، الذي بات الآن طائرًا متكبرًا متعجرفًا ملوَّنًا وسيظل إلى الأبد مرتبطًا بالربّة هيرا[98].

أما أيو فقد انطلقت على طول الساحل الشمالي لبحر إيجة، وسبحت عبر المكان الذي تتحول فيه أوروبا إلى آسيا، وهي البقعة التي لا تزال تسمى على شرفها إلى الآن (البقرة العابرة)، أو باليونانية بوسفور Bosporus[99]. تابعت أيو قُدمًا، تعوي وتتخبط وتئن من فرط الوجع، حتى بلغت القوقاز، ويبدو أن الذبابة هناك أرخت من لسعتها لوهلة سمحت لأيو برؤية بروميثيوس يتعذب على جانب الجبل.

قال التيتان: «اجلسي لوهلة والتقطي أنفاسك، روّحي عن نفسك قليلًا، سيتحسن الحال عما قريب».

قالت وهي تبكي: «لا يمكن أن يصبح أسوأ... أنا بقرة، وتعضني أضخم وألعن ذبابة خيل رأيتها في حياتي، وهيرا تسعى لهلاكي. المسألة الآن هل سأموت من فرط الألم أم من الجنون بعد أن ألقي نفسي في البحر».

قال بروميثيوس: «أعلم أن الأمور تبدو قاتمة الآن، لكني أرى المستقبل أحيانًا، وأعلم الآتي: ستعودين إلى هيئتك البشرية، وستؤسسين سلالة عظيمة في الأرض التي يزحف فوقها النيل، ومن نسلك سيأتي البطل الأعظم من كل الأبطال[100]... ارفعي رأسك إذًا وابتهجي قليلًا».

كان من الصعب على أيو، برغم كربها الهائل، أن تتجاهل الكلمات القادمة من رجل يشقّه نسران مرعبا الهيئة ويلتهمان كبده حتى وهي تتحدث معه الآن. ما قيمة كل ما هي فيه من إزعاج لحظي مقارنة بعذابه الأبدي؟

ستفصح الأمور لاحقًا عن أن أيو ستعود بالفعل لهيئتها البشرية، وستلتقي بزيوس في مصر وستحمل منه طفلًا يُدعى **إبافوس** Epaphus، وسيلعب الطفل دورًا هامًا في قصة فيتون Phaeton القادمة في الطريق. يُفترض أن زيوس وضع بذرة إبافوس في أيو بمجرد أن وضع يده برقّة عليها، كلمة إبافوس تعني «لمسة». ستضع أيو أيضًا من زيوس طفلة تدعى كيريسا Keroessa، والتي ستنجب لاحقًا ابنًا اسمه بايزاس Byzas، وهو من سيبني المدينة العظيمة بيزنتيوم Byzantium. لا نعلم إن كانت كيريسا قد وُلدت من لمسة أو بطريقة التوالد التي نعرفها.

ربما كانت أيو بقرة، لكنها كانت بقرة شديدة الأهمية والتأثير.

وشاح منقوع بالمني

ثمة قصة مؤثرة تحكي عن كيف كان لأثينا دورٌ هامٌّ، دون أن تفقد عفَّتها، في تخصيب وإنجاب أحد مؤسسي الدولة المدينية التي ستحمل اسمها.

منذ أن شقَّ هيفايستوس الأعرج رأس زيوس مساعدًا في دخول أثينا لهذا العالم، تأجّجت تدريجيًا في داخله عاطفة تجاه هذه الربّة. ذات يوم، تتبع هيفايستوس أثينا إلى أحد أركان الأوليمبوس وقد فشل في التحكم في رغبته، وحاول فرض نفسه عليها، لكنه في خضمّ حماسته لم ينجح إلا في قذف شهوته على فخذها، فنزعت أثينا باشمئزاز صامت عصابة رأسها، ومسحت بها ما أصابها، ثم ألقتها من على الجبل.

العصابة المخصَّبة وقعت على الأرض في الأسفل، ومني هيفايستوس السماوي اختلط بتراب الأرض وجعل جايا حبلى، فأنجبت ولدًا يُدعى إريكثيوس Erechtheus. أثينا رأت من السماء كل هذا وقررت أنّ هذا الطفل سيصبح خالدًا. نزلت أثينا من الأوليمبوس، ووضعت الطفل في سلة من الخوص، وأغلقتها ووضعتها في رعاية الشقيقات الفانيات الثلاثة هيرسي Herse وأجلاروس Aglauros وباندروسوس Pandrosos. أخبرت أثينا الشقيقات ألّا يفتحن السلة تحت أي ظرف من الظروف، غير

أن أجلاروس وهيرسي لم تستطيعا مقاومة اختلاس النظر إلى الداخل، فرأتا رضيعًا ملفوفًا بإحكام في أفعى تتلوى. كل الأفاعي كانت مقدسة عند أثينا، وتلك الأفعى بالذات كانت جزءًا من سحر وضعته الربّة لمنح الرضيع إريكثيوس الخلود. ما رأته الشقيقتان كان مروعًا لدرجة أصابتهما بالجنون اللحظي، فألقتا نفسَيْهما من على أعلى قمة في الجبل، تلك التي نسميها الآن أكروبوليس أو «المدينة العالية». سيكبر إريكثيوس ليصبح إريكثيونيوس Erechthonius (أو ليصبح أبو إريكثيونيوس، المصادر تختلف)، المؤسس الأسطوري لأثينا[101].

لو زرت الأكروبوليس في أثينا اليوم، ستجد أنك لا يزال بإمكانك أن ترى في شمال معبد البارثينون Parthenon، معبد جميل آخر يدعى الإريكثيوم Erechtheum، المعروف برواقه الشهير من أعمدة الكارياتيدات، وهي أعمدة على شكل فتيات في ملابس فضفاضة، ويُعَدّ من أعظم الكنوز المعمارية في العالم، وليس بعيدًا عنه بُني ضريحان للمسكينتين هيرسي وأجلاروس، وهو ما تستحقانه بالطبع[102].

فيتون

ابن الشمس

حظي إريكثيوس بأثينا أمًا بالوكالة، وجايا أمًا فعلية، وهيفايستوس أبًا. ربما كان ثلاثة آباء خالدين شيئًا مبالغًا فيه (ومن قبيل التفاخر والتكبر عندما يتحدث الأثينيون عن أصلهم)، لكن لم يكن من غير الشائع أن يدّعي الفانون أسلافًا بهذه الأهمية. قصة فيتون[103] ذي القلب الشجاع الطائش تفسّر - مثل قصة بيرسيفوني - حدوث بعض التغيرات المعينة في جغرافيا العالم، وتمنحنا مثالًا على الدرس الحرفي المفضل في الأسطورة الإغريقية: أن الكبرياء هو بداية السقوط.

كان فيتون ذا أصل سماوي، لكن ربّاه زوج أمه ميروبس Merops، وهو رجل فان مُحبَط. كلما غاب ميروبس كانت كلايميني أم فيتون، التي لا نعلم إن كانت خالدة أم فانية[104]، تسلي ابنها بحكايات عن أبيه السماوي، رب الشمس المبجل فيبوس أبولو[105].

عندما أصبح فيتون كبيرًا بما يكفي صار يذهب إلى المدرسة برفقة غيره من صبيان الفانين، منهم من كانوا بشرًا بالكامل، وبعضهم مثله كانوا يدّعون جذورًا تمتد إلى خالد أو آخر، منهم مثلًا إبافوس ابن زيوس وأيو. إبافوس شَعَر أن أصله الزاهي يمنحه حق السيادة فوق زملائه، وفيتون كان فتى ذا كبرياء وعاطفة متّقدة، كَرِهَ تسلط إبافوس واغتاظ من عجرفته وهالة التشامخ التي أحاطت به.

إبافوس كان يتباهى بنسَبه وكأنه لا يأبه به لدرجة تثير الجنون، كان يقول أشياء مثل: «في الإجازة القادمة، بابا - بابا زيوس لو لم تكن تعلم -

يدعوني لتناول العشاء معه على الأوليمبوس، قال إنه ربما سيتركني أجلس على عرشه، وقد آخذ رشفة أو اثنتين من النكتار. أنا شربت النكتار من قبل بالطبع. لن يكون هناك الكثير من الحضور، أخواتي آريس وأثينا، وبعض النيمفات ربما، سيكون وقتًا مسليًا على الأرجح».

كان فيتون يعود على الدوام إلى البيت مضطرم الغضب بعد يوم طويل من تحمّل تلك الأسماء التي تُلقى بشكل يدّعي العفوية، ويلقي بكل حمله في حجر أمه: «لماذا يقابل إبافوس أباه كل أسبوع، بينما أنا لم أقابل أبي بعد؟».

عندها، تحتضن كلايميني ابنها بقوة وتحاول أن تشرح له: «أبولو شديد الانشغال يا حبيبي، كل يوم عليه أن يقود عربة الشمس عبر السماء، وعندما ينتهي من ذلك عليه أن يزور معابده في ديلوس وديلفي ومن يعلم أين أيضًا، هذا غير رعاية التنبؤ والموسيقى والرماية... إنه يكاد يكون أكثر الآلهة انشغالًا. لكني واثقة أنه سيأتي لزيارتنا عما قريب. عندما أنجبتك ترك لك أبوك هذا، كنت أنوي إعطاءه لك عندما تكبر أكثر قليلًا، لكن لا أرى ما يمنع أن تأخذه الآن...».

اتجهت كلايميني إلى الخزانة وأخرجت منها نايًا ذهبيًا مذهلًا وقدمته له، ومن فوره وضع الفتى الناي في فمه وصار ينفخ، فأخرج هسيسًا لاهثًا أبعد ما يكون عن الموسيقى.

«ما الذي يفترض بذلك أن يفعل؟».

«يفعل؟ ماذا تقصد يا حبيبي؟».

«زيوس أعطى إبافوس سوطًا جلديًا سحريًا يجعل الكلاب تطيع أوامره، ماذا يفترض بذلك أن يفعل؟».

«إنه ناي يا حبيبي، يصنع الموسيقى، موسيقى جميلة فاتنة».

«كيف؟».

«هممم... عليك تعلم تشكيل النغمات، ثم... تعزف عليه».

«وأين السحر في هذا؟».

«ألم تسمع صوت الناي من قبل؟ إنه أكثر الأصوات سحرًا في العالم، لكنه يتطلب الكثير من التمرين».

ألقى فيتون الآلة الموسيقية باحتقار وذهب غاضبًا إلى غرفته، حيث ظل متجهّمًا بقية اليوم.

بعد حوالي أسبوع، في آخر أيام الفصل الدراسي قبل إجازة الصيف الطويلة، وجد إبافوس يقترب منه ويتكلم بفوقية تثير الغيظ.

قال بتشدق: «أهلًا فيتون، كنت أتساءل لو تود أن تنضم إليّ في قصر أسرتي في ساحل إفريقيا الشمالي الأسبوع القادم؟ سنقيم حفلة صغيرة، فقط أنا وبابا زيوس وربما هرمس وديميتر وبعض الأوشيانيات، سنبحر غدًا، سيكون وقتًا مسليًا على الأرجح، ما رأيك؟».

قال فيتون: «أوه، خسارة، أبي، فيبوس أبولو كما تعلم، قد دعاني لـ... لقيادة عربة الشمس عبر السماء الأسبوع القادم، لا أحب أن أرفض له طلبًا».

«نعم؟».

«ألم أذكر ذلك من قبل؟ إنه كثيرًا ما يطلب مني أن أخفّف بعض الحمل عن كتفيه وأقود العربة من أجله قليلًا».

«هل أنت فعلًا تقول إن... هذا هراء! يا شباب، تعالوا واسمعوا ذلك»، ونادى إبافوس بقية الفتيان إلى حيث يقف مواجهًا فيتون، «أخبرهم بما قلت لي».

تورط فيتون في كذبته، والكبرياء والغضب والإحباط قادوه للمتابعة، تبًا له إن كان سيتراجع الآن ويترك هذا الوغد الكريه يفوز باللقطة.

قال: «الأمر لا يستحق هذه الضجة، كل ما في الأمر أن بابا أبولو يصِرّ أن أتعلم قيادة أحصنة الشمس، لا تكبّر الموضوع».

بقية الفتية، وعلى رأسهم إبافوس الساخر صاحوا بسخرية وعدم تصديق، قال أحدهم: «كلنا نعلم أن أباك هو الأحمق العجوز ميروبس».

أجاب فيتون ثائرًا: «بل هو زوج أمي، أبولو هو أبي الحقيقي، هو كذلك،

انتظروا وسترون، ربما أستغرق بعض الوقت لأصل إلى قصره، لكن ذات يوم عما قريب ستنظرون إلى السماء وسترونني، سألوِّح لكم من أعلى، من العربة التي أقود، سترون!».

ثم جرى متوليًا بيته، ترن في أذنه صرخات وضحكات وصيحات السخرية. جرى خلفه أحد الفتية، صديقه وحبيبه سيجنوس Cygnus[106].

صاح سيجنوس: «يا فيتون، ما هذا الذي قلته؟ لا يمكن أن يكون صحيحًا، لقد كنت دائمًا تشتكي أنك لم تقابل أباك الحقيقي قط. عُد وأخبرهم أنك كنت تمزح».

قال فيتون بينما يدفعه عنه: «دعني وحيدًا يا سيجنوس، سأذهب إلى قصر الشمس، تلك هي الطريقة الوحيدة لإسكات إبافوس الخنزير، المرة القادمة التي ستراني فيها سيكون الجميع يحترمونني كما ينبغي ويعرفون من أنا حقًا».

قال سيجنوس الحزين: «لكني أعرف من أنت، أنت فيتون وأنا أحبك».

الأب والابن والشمس

ولم يكن هناك شيء أيضًا بوسع كلايميني أن تقوله لتثني فيتون عن قراره، وراقبته متألمة يحزم أمتعته ليرحل.

قال: «انظري فوق وستريننى»، وقبَّل أمه مودعًا، «سألوِّح لك بينما أمُرّ».

قصر الشمس كان بالطبع في الشرق، في الواقع كان في أقصى الشرق، عند الهند ذاتها. الكيفية التي وصل بها فيتون إلى هناك غير متفق عليها، قرأت أنه كان هناك صقر سحريّ شمسي من نوع ما، أخبر أبولو عن معاناة الفتى في عبور اليونان إلى ميسوبوتاميا والبلد التي نعرفها الآن باسم إيران، وأن الإله الأشقر أمر ذلك الطائر السحري أن يحمل فيتون ويطير به ما تبقى من الطريق.

على أي حال وصل فيتون إلى القصر، وصل في الليل، ومن فوره تلقى استدعاءً إلى غرفة العرش، حيث جلس أبولو مرتديًا روبًا بنفسجيًا يلتمع

مع وهج الذهب والفضة والمجوهرات التي زينت القاعة، العرش الذي جلس عليه كان مرصَّعًا بأكثر من عشرة آلاف حجر ياقوت وزمرد. انهار الفتى على ركبتيه غير قادرٍ على استيعاب عظَمة القصر وتألق المجوهرات حوله في كل مكان، وبهاء أبيه، الإله.

«إذًا أنت ابن كلايميني؟ قف، دعني أنظر إليك... نعم، نعم، نعم، أستطيع رؤية أنك قد تكون بالفعل ثمرة بذوري، أرى فيك التشابه واللون. قيل لي إنك سافرت طويلًا لتصل إلى هنا، لماذا؟».

كان السؤال فظًا، ووجد فيتون نفسه مرتبكًا. تمكن من التلفظ بكلمات مشوشة عن إبافوس «وبقية الأولاد»، واعيًا إلى حد مؤلم بأنه يبدو أقرب لطفل مدلل من ابن فخور لأحد الأوليمبيين.

«نعم، نعم، قلة أدب وعدم احترام. ما دوري في الأمر؟».

قال فيتون، بكل نار الكبرياء والسخط التي تأججت في داخله لوقت طويل: «ظلت أمي تحكي لي طوال حياتي عن أبولو العظيم، الرب الذهبي، أبي اللامع الكامل الوهاج. لـ... لكنك لم تزرنا قط، لم تدعُني قط إلى أي مكان، لم تعترف بي قط».

«نعم، حسنًا، كم يؤسفني هذا، يا لتقصيري! كم كنت أبًا سيئًا! ليتني أستطيع تعويضك عن هذا»، تفوَّه أبولو بالكلمات ذاتها التي يقولها الآباء الغائبون في كل زمان ومكان، عدا أنّ عقله كان منشغلًا بالأحصنة والموسيقى والشراب، منشغلًا بكل شيء عدا ابنه الممل المتجهم المستاء.

«تستطيع، بأن تحقق لي أمنية واحدة، واحدة فقط لا أكثر».

«بالطبع، أكيد، ما هي؟».

«فعلًا؟ أتعني ما تقول؟».

«بالطبع».

«أتقسم أنك ستفعل؟».

قال أبولو المتعجب من تلهّف الفتى: «أقسم، أقسم على قيثارتي، وأقسم على مياه ستيكس الباردة الجارية ذاتها، اعتبر أنّ أمنيتك تحققت».

«أود قيادة الأحصنة».
قال أبولو بدون فهم: «أحصنتي؟ تقودها؟ ماذا تعني؟».
«أريد توجيه عربة الشمس عبر السماء غدًا».
قال أبولو بابتسامة تغزو محياه: «أوه، لا لا لا لا، لا تكن سخيفًا، لا يستطيع أحد فعل ذلك».
«لكنك وعدت».
«فيتون، بُني، كم أنت شجاع! رائع أن تحلم بفعل شيء مماثل، لكن لا أحد، **لا أحد**، يقود تلك الحيوانات غيري».
«لكنك أقسمت على نهر ستيكس».
«زيوس نفسه لا يستطيع التحكم بها! إنها أكثر الأحصنة قوة وعنادًا وجموحًا عرفها الكوزموس، ولا تستجيب للمسة كائن غيري، لا، لا، لا يمكنك طلب شيء مماثل».
«بل أنا طلبت، وأنت أقسمت».
«فيتون!»، الآلهة الأحد عشر الآخرون كانوا سيُذهلون من لهجة التوسل اليائسة في صوت أبولو لو سمعوها، «أرجوك، أي شيء آخر، ذهب، طعام، قوة، معرفة، حب... سمّ ما تريد وهو لك إلى الأبد، لكن هذا لا، هذا لا يمكن».
أجاب الفتى العنيد: «طلبت وأقسمت».
أحنى أبولو رأسه الذهبية، ولعن في داخله.
يا لأولئك الآلهة ولألسنتهم المتسرعة، يا لأولئك الفانين وأحلامهم المستحيلة، ألن يتعلم أيهم يومًا؟
قال أبولو: «حسنًا، لنذهب ونقابلهم إذًا، لكن لتعلم هذا،» وتابع بينما تشتد رائحة الأحصنة في خياشيم فيتون وهما يقتربان من الإسطبلات، «بوسعك تغيير رأيك في أي وقت، ولن يقلل هذا من نظرتي فيك، بل في الواقع سيرفع من قدرك عندي».
دبّ كل من الفحول الأربعة البيضاء ذوي الأعراف الذهبية على الأرض وتململوا في كبائنهم بينما يقترب منهم ربّهم وسيدهم.

نادى أبولو على كل منهم باسمه واحدًا تلو الآخر: «أهلًا يا بيرويس Pyrois، كيف حالك يا فليجون Phlegon، اخفض صوتك يا أيوس Aeos، على رِسْلِك يا أيثون Aethon. حسنًا يا فتى، دعهم يتعرفون عليك».

لم ير فيتون قط أحصنة بهذا الجمال، تألقت أعينهم بلمعة الذهب، وأطلقت حوافرهم الشرر كلما احتكت بالبلاط. امتلأ فيتون بالرهبة، وشعر بطعنة خوف مباغتة حاول تمويهها بالابتهاج والترقّب.

أمام بوابات الفجر الهائلة كانت تقف العربة الذهبية الهائلة كوادريجا Quadriga، تنتظر شد الأحصنة الأربعة فيها. عبرت أمامهم أنثى هادئة في رداء زعفراني، شم فيتون منها عطرًا لم يستطع تحديده، لكنه جعله ثملًا بالنشوة.

قال أبولو: «تلك كانت إيوس، سيحين وقت فتح البوابات عمّا قريب».

فيتون كان يعلم كل شيء عن إيوس ربّة الفجر، كانت تُلقَّب بذات الإصبع الوردي، ويحبها الجميع في كل مكان للطفها وجمالها الرقيق.

بينما كان يساعد والده في جر الأحصنة إلى مقدمة العربة، شعر بيد تدفعه بخشونة جانبًا.

«ما الذي يفعله هذا الفاني هنا؟».

شخص ضخم يرتدي درعًا جلديًا لامعًا منتفخًا أخذ لجام الأحصنة الأربعة بسرعة وصار يقودهم إلى الأمام.

قال أبولو: «أوه، هيليوس، ها أنت ذا، دعني أقدم لك ابني فيتون».

«وماذا في ذلك؟».

فيتون علم أن هيليوس هو شقيق إيوس وربّة القمر سيليني، ويساعد أبولو في مهام رعاية العربة اليومية. بدا أن وجود التيتان أصاب أبولو ببعض التوتر.

«هممم، فيتون هو من سيقود العربة اليوم».

«ماذا؟».

«يجب أن يتعلم في وقت أو آخر، ألا ترى ذلك؟».

«أتمزح معي؟».
«بصراحة أنا وعدته».
«إذًا بصراحة اسحب وعدك».
«لا أستطيع يا هيليوس، تعلم أني لا أستطيع».
دبّ هيليوس بقدميه وأطلق زمجرةً جعلت الأحصنة تتراجع وتصهل.
«أنت لم تدَعني ولا مرة أقود يا أبولو، ولا مرة. كم مرة طلبت منك وكم مرة أجبتني أني غير مستعد؟ والآن أنت تترك هذا الـ.... هذا القزم يمسك باللجام؟».
قال أبولو: «هيليوس، اِفعل ما تؤمر به. لقد قلت كلمتي و... قلت كلمتي».
انتزع أبولو الأحزمة الجلدية الأربعة من هيليوس، ورفع فيتون ووضعه في مقعد العربة، ضحك هيليوس بعصبية بينما يرى الفتى ينزلق في مكانه.
«إنه يتدحرج كحبة بازلاء»، قالها بقهقهة حادة النبرة على نحو مفاجئ.
«سيكون على ما يرام. اسمعني الآن يا فيتون، هذا اللجام هو وسيلة تواصلك مع الأحصنة. إنهم يعلمون طريقهم جيدًا، فهم يخوضونه كل يوم، لكن عليك أن تذكّرهم بمن السيد هنا، أتفهمني؟».
أومأ فيتون بتلهّف، ويبدو أن شيئًا ما في حماست العصبية وغضب هيليوس انتقل إلى الأحصنة، فانتفضت وزمجرت بتململ.
تابع أبولو: «أهم شيء على الإطلاق هو ألا تطير أعلى من اللازم ولا أدنى من اللازم، ابتغ سبيلًا بين السماء والأرض، حسنًا؟».
أومأ فيتون.
«كدت أنسى! هات يداك...»، وأخذ أبولو جرة وصب منها الزيت على راحتي فيتون الذي مدَّ يديه، «امسح نفسك بالزيت في كل مكان، سيحميك هذا من الضوء والحرارة المنبعثين من الأحصنة بينما تركض في الهواء. ستضيء الأرض وتدفئها عندما تعبر فوقها، لذا حافظ على اتجاهك للغرب وأمض في خط مستقيم حتى تصل إلى حديقة الهسبيريديس، ستستغرق

الرحلة اثنتي عشرة ساعة. شدّ حيلك، وتذكر: الأحصنة تعرف كل شيء. نادهم بأسمائهم، أيوس وأيثون وبيرويس وفليجون».

رأى فيتون أذن كل منهم تنتصب بينما ينطق أبولو اسمه.

«لم يفت الأوان يا بني، ها قد رأيتهم وأمسكت لجامهم، وسأمنحك تماثيل ذهبية لهم نحتها هيفايستوس شخصيًا لتعود بها إلى البيت، سيكفي هذا لإرضاء أصدقاء المدرسة».

ضحكة أخرى حادة من هيليوس جعلت وجنتي فيتون تتوردا.

قال بصلابة: «لا، لقد وعدتني، وسأفعلها».

الشروق

وبينما يتكلم فيتون جاءت إيوس في سحابة من اللآلئ والزهور، وانحنت بابتسامة لأبولو وهيليوس، ونظرت بتساؤل حائر إلى فيتون المتورّد في العربة، واتخذت موقعها على بوابات الفجر.

لو كنت مسافرًا ينظر إلى السحاب في شرق السماء حيث يكمن قصر الشمس، سترى أول علامة تدل على قيام إيوس بعملها على شكل لون وردي مرجاني يخضِّب السماء، وبينما هي تفتح البوابات أكثر يتحول الوردي الهادئ هذا إلى لمعة ذهبية تبرق أكثر بمرور كل لحظة.

أما بالنسبة لفيتون، داخل القصر، فالتأثير كان العكس: انفتحت البوابات لتظهر الظلمة خلفها، لا يضيئها إلا الوهج الفضي لربّة القمر سيليني شقيقة إيوس وهيليوس، وقد بلغت نهاية مسارها الليلي. وعندما دفعت إيوس البوابات أكثر رأى فيتون اللمعة الوردية الذهبية تشعّ خارجة من القصر، فتُغرق عتمة الليل، وكأن تلك كانت الإشارة للأحصنة الأربعة، انتصبت آذانها وانتفضت وصهلت، فتراجع فيتون في مقعده وبدأت العربة تحته تتدحرج إلى الأمام.

صاح أبولو: «تذكر يا فتى، لا تفزع، امسك اللجام بحزم، ولا تشده بعنف، فقط دع الأحصنة تعرف أنك المتحكم، وكل شيء سيكون على ما يرام».

وصاح هيليوس بينما ترتفع العربة عن الأرض: «سهلة جدًا، ما الخطر في هذه اللعبة على أي حال؟»، صرير ضحكاته الحادة لسع فيتون وكأنه سوط.
بالعودة إلى وجهة نظر المسافر الناظر شرقًا من الأرض، تتحول اللمعة الذهبية الآن إلى كرة نار عظيمة، ويصبح النظر إليها أصعب فأصعب دون تضييق العيون وتغطيتها. انتهى الفجر الوردي المقتضب وها قد بدأ اليوم.

الرحلة

اندفعت أحصنة أبولو إلى الأمام تضرب الهواء بحوافرها. كل شيء على ما يرام، إنهم يعلمون جيدًا ماذا يفعلون؛ ما إن بلغوا ارتفاعًا معينًا حتى شرعت في الخبب إلى الأمام بسرعة، لا صعوبة في الأمر.
فيتون انتصب في جلسته بحذر كي لا يشد الأحزمة، ونظر حوله. استطاع رؤية القوس الذي يفصل السماء الزرقاء عن الظلام المترَع بالنجوم، استطاع رؤية تأثير الضوء الملتهب الخارج من عربته، كان معزولًا بشكل سحري وآمن من الوهج والسخونة، لكن السحب العملاقة أخذت تفور وتتحول إلى بخار بينما يقترب منها. نظر إلى الأسفل فرأى الظلال الطويلة للجبال والأشجار تنكمش مع طيرانه إلى الأمام، ورأى البحر المتموج يعكس عليه ملايين الومضات المتلألئة، ورأى قطرات الندى ترتفع وتتحول إلى ضباب لامع إبان اقترابه من ساحل إفريقيا. لا بد أن إبافوس في مكان ما غرب النيل يحتفل بالإجازة على الشاطئ. ها هو الانتصار قادم، وسيكون الأعظم على الإطلاق.
عندما بات خط الساحل أوضح في نطاق رؤيته، شد فيتون اللجام محاولًا أن يجعل أيوس، الحصان في المقدمة إلى اليسار، يتدلى بالعربة من ناحيته قليلًا. ربما كان أيوس يفكر في أشياء أخرى، في التبن الذهبي مثلًا أو في فرَسة حسناء، بالتأكيد لم يكن متأهبًا لشدة لجام تخرّجه عن مساره. فزع الحصان وجفل، ونزل، جاذبًا بقية الأحصنة معه. ارتجَّت

العربة في الهواء وغطست مباشرة تجاه الأرض، شدّ فيتون بيأس على الأحزمة التي تعقّدت بشكل ما بين يديه، الأرض الخضراء أصبحت تقترب بسرعة شديدة منه ورأى موته في الأفق، جذب اللجام جذبة عنيفة يائسة أخيرة، وفي آخر لحظة - سواء كان ذلك في استجابة لشدته أو كرد فعل غريزي لإنقاذ أنفسها - انحرفت الأحصنة الأربعة صعودًا ثم ركضت بلا تمييز في اتجاه الشمال، لكن ليس قبل أن يرى فيتون المرتاع أن الحرارة المستعرة لعربة الشمس قد أشعلت النار في الأرض.

بينما هم يطيرون، ارتسم على الأرض أسفلهم خط من اللهب وكأنه ذيلهم، حارقًا كل شيء وكل شخص يقابله، الشريحة الطويلة التي تقع تحت ساحل إفريقيا الشمالي كلها أكلتها النيران، وحتى يومنا هذا لا تزال صحراء جرداء، أو ما نسميها الآن بالصحراء الكبرى، عدا أنها بالنسبة للإغريق كانت الأرض التي حرقها فيتون.

فيتون الآن لم يعد متحكمًا بأي شيء. علمت الأحصنة يقينًا أن اليد الحازمة لأبولو لم يكن لها أي علاقة بتلك التي تقودها. هل كانت السعادة الجامحة بالحرية هي ما أصابتها بالجنون أم الهلع من افتقار التحكم؟ الآن بعدما اقتربت من الأرض بما يكفي لحرقها بالنار، طارت الأحصنة الأربعة متجهة إلى القوس البنفسجي الذي يفصل السماء بنجومها عن العالم، فبات العالم مظلمًا باردًا، فتحوّل البحر والأرض على السواء إلى جليد.

تمايلت العربة وتراقصت وتدلت وارتفعت واندفعت وقفزت بلا أي تحكم أو توجه، مثل ورقة شجر في مهب الريح. نظر إليها أهل الأرض من الأسفل في لوع وروع، وفيتون أخذ يصرخ في الأحصنة ويتوسل إليها ويهددها ويشد اللجام... لكن بلا جدوى.

السقوط

بلغ الأوليمبوس نبأ الدمار الذي يأكل وجه الأرض، وبلغ الآلهة، وبلغ زيوس نفسه في النهاية.

صرخت ديميتر المذهولة: «انظر ما الذي يحدث! المحاصيل في كل مكان إما محروقة أو أفسدها الصقيع، إنها مصيبة».

قالت أثينا: «الناس خائفون يا أبي، يجب أن يحدث شيء».

تنهد زيوس ومد يده ملتقطًا صاعقة رعدية، ونظر إلى عربة الشمس التي كانت تندفع بجنون الآن تجاه إيطاليا.

أصابت الصاعقة الرعدية هدفها، مثل كل صاعقة يضربها زيوس، وانفجرت ملقية فيتون من العربة، فوقع منها بألسنة اللهب تأكله في مياه نهر إيريدانوس Eridanos بفحيح وأزيز.

جياد الشمس العظيمة هدأت أخيرًا بعد توقف صراخ الفتى الهلوع وشَدِّهِ المجنون على أحزمتها، واستقرت في النهاية في مسارها وارتفاعها العاديين، واتخذت طريقها غريزيًا إلى أرض الهسبيريديس غربًا.

لم يكن فيبوس أبولو أبًا جيدًا أو عطوفًا، لكن موت ابنه أصابه بعمق، فأقسم ألّا يقود عربة الشمس مجددًا، وترك مسؤوليتها إلى هيليوس المتحمس الممتَنّ، الذي سيظل إلى الأبد قائد عربة الشمس الوحيد[107].

ذهب سيجنوس صديق فيتون الحبيب إلى نهر إيريدانوس، الذي غاصت فيه جثة فيتون الميت المسكين، وجلس على ضفته ينعي خسارة حبيبه ببكاء وعويل من الحزن والحدّة جعلا أبولو المضطرب يصيبه بالخرس، لكنه في النهاية أشفق على الشاب الحزين بصمت، فحوَّله إلى بجعة جميلة. أصبح بعدها البجع الأبكم من حيوانات أبولو المقدسة. يظل الطائر صامتًا طوال حياته، لكن عندما تحين لحظة موته، إحياءً لذكرى موت حبيبه فيتون، يغني الطائر أغنيته الكئيبة الغريبة الجميلة المودعة، أغنية البجع. تكريمًا لسيجنوس صار يُطلق على كل صغار البجع cygnets.

وماذا حدث لبافوس؟ هل نظر إلى أعلى ورأى فيتون يقود عربة الشمس العظيمة؟ أم كان مشغولًا بأكل البلح ومغازلة النيمفات على متن سفينة تبحر به وبأصدقائه في ساحل إفريقيا الشمالي؟ يتمنى المرء لو أنه نظر إلى أعلى فرأى وهج عربة الشمس حتى أعماه، كعقاب مناسب له على

تنمّره، لكن في الواقع سيكبر إبافوس ليصبح أبًا مؤسسًا لسلالة عظيمة، فقد تزوج ممفس Memphis ابنة النيل، التي على اسمها ستُسمى المدينة التي أسسها، وسينجبان طفلة اسمها ليبيا Libya، وستحكم سلالته مصر لأجيال طويلة، بمن فيهم حفيده إيجبتوس Aegyptus.

فيتون نفسه سيوضع في النهاية بين النجوم، في كوكبة أوريجا Auriga، أي الممسك بالأعنّة[108]. أطلق الفرنسيون على سيارة سباق رياضية خطيرة خفيفة الوزن اسم فاييتون phaéton، تكريمًا لذكراه، تلك كانت وسيلة المواصلات المفضلة للشباب ساخني الدماء في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، ما جعلهم عن غير قصد يعيدون تمثيل أسطورة فيتون برعونتهم، وانقلبت كثيرٌ من السيارات لتثير حنق وحسرة الآباء الملتاعين دائمًا.

الباحثة الكلاسيكية والبروفيسورة الأمريكية إديث هاميلتون Edith Hamilton ذكرت هذا في نعيه:

هنا يثوي فيتون قائد مركبة أبيه
وهو إن لم يُكتب له النجاح في قيادتها
فقد قضى نحبه شهيد شجاعته العظيمة(1)

---

(1) تعود تلك السطور إلى الشاعر أوفيد من كتابه مسخ الكائنات، وهي من ترجمة د. ثروت عكاشة للكتاب المذكور إلى العربية. [المترجم]

كادموس

الثور الأبيض

بفضل فيتون تشكلت الصحاري العظيمة والقطبين الجليديين، وصار على البشر التكيف مع درجات الحرارة المتطرفة، علاوة على تكيّفهم مع دورة المواسم التي تسببها زيارة بيرسفوني السنوية للعالم السفلي. لكن لم يتعلم البشر الدرس من فيتون ولم يتوقفوا عن محاولة بلوغ الأعالي، لا يبدو أن هناك أي درس مهما كان قاتمًا سيحبطنا عن المحاولة. ظلت الممالك على طول اليونان وعرضها تعلو وتنهار. تضمّن العالم الإغريقي في تلك الأزمنة آسيا الصغرى أيضًا، ذلك النتوء الأرضي شرق اليونان، وسوريا وأراضي الليفانت Levant (التي هي اليوم لبنان). تأثير هذا الجزء من العالم على الثقافة الإغريقية كان بالغًا، فقد كان مصدر تجارة عظيمة، ومصدر الكتابة الألفبائية، والمثال الأصلي الذي نشأت منه فكرة البوليس polis، أي الدولة المدينية، تلك التي ستبلغ أعظم تجلٍّ لها في بلاد مثل طروادة وسبارطة وأثينا.

هذه حكاية عن زيوس، وعن التحوّل، وعن تنّين وثعابين ومدينة وزواج.

أجينور Agenor ملك المدينة الليفانتية تاير Tyre [مدينة صور الآن]، وهو ابن لبوسايدون وليبيا، وزوجته الملكة تيليفاسا Telephassa، وهي ابنة لنيلوس ونيمفة غيوم تدعى نيفلي Nephele، كان لديهما خمسة أبناء: ابنة اسمها يروبا، وأربعة أبناء هم كادموس Cadmus وسيليكس Cilix وفينكس Phoenix وثاسوس Thasos.

ذات ظهيرة، وبينما كان أبناء أجينور يلعبون في مرج مزدهر، هامت يروبا وانفصلت عن أشقّائها. جذب عين الفتاة ثور أبيض جميل يرعى في العشب العالي، وعندما اقتربت منه رفع الحيوان رأسه ونظر إليها، شيء ما في نظرته خلب لبّها. تنفس الثور كان حلوًا، وأنفه كانت رقيقة مغرية بالتمسيد. وضعت يروبا أكاليل الورود حول قرونه، ومرّرت أصابعها على جلده السميك الدافئ وكأنه يدعوها إلى ذلك، ثم، وبدون أن تدرك سبب فعلها، رفعت نفسها على ظهره، وانحنت إلى الأمام، وتشبثت في قرنيه بكلتا يديها.

قالت بهمس في أذنه: «يا لك من وحش جميل، ذي قوة وحكمة ورقة قلب».

لوّح الثور برأسه الهائل ثم شرع في الهرولة، وبعد وقت قصير تحولت هرولته إلى خبب، ضحكت يروبا وحثته على المضي قدمًا.

كادموس وأشقاؤه الأصغر كانوا يتنافسون في رمي الصخور إلى أبعد مسافة (فاز كادموس كل مرة، كان موهوبًا بشكل استثنائي في رمي الصخور والأقراص والرماح)، لكنّ أعينهم دارت في الوقت المناسب ليلمحوا أختهم تختفي عن الرؤية على ظهر ثور. جرى الثلاثة بأقصى سرعتهم خلفه، لكن سرعة الثور كانت تفوق قدرتهم على التصديق، حتى بدا للأشقاء أن حوافر الحيوان، برغم استحالة الأمر، لم تعد تلمس الأرض.

أخذوا ينادون اسم اختهم بهلع ويصيحون عليها أن ترمي بنفسها من على الثور، لكنها إما لم تسمعهم أو لم تأبه بهم. أخذ الثور يرتفع أعلى فأعلى في الهواء حتى اختفى عن الأنظار.

عاد كادموس إلى البيت وأبلغ الملك أجينور والملكة تيليفاسا بما حدث، وكم كان نحيبهما وعويلهما عاليًا يصمّ الآذان.

في الآن ذاته، طار الثور الأبيض بيروبا غربًا، أبعد ما يكون عن مملكتها الأم تاير، عابرًا البحر المتوسط في اتجاه جزر اليونان. ظلت يروبا تضحك بنشوة وبلا أدنى قدر من الخوف حتى بعدما اختفت الأرض من تحتها

وحل محلها البحر، كان عقلها مسلوبًا، وكانت الرحلة خلّابة حتى أن كل الأرض الضخمة الواقعة غرب أرضها الأصلية باتت، منذ ذلك الحين، تُسمّى أوروبا على شرفها.

لم يتوقفا قبل بلوغ جزيرة كريت، حيث أفشى الثور عن أنه في الواقع...

... ومن يكون غير زيوس؟

لا يمكننا التيقن إن كان زيوس قد استوحى تحوّله إلى ثور من تحويله لأيو سابقًا إلى بقرة أم لا، لكن على أي حال الخدعة نجحت على ما يبدو، وظلت يروبا في كريت سعيدة بقية حياتها، وأنجبت لزيوس ثلاثة أبناء: ماينوس ورادامانثوس وساربيدون[1] Sarpedon، الذين سيصبحون قضاة العالم السفلي، يزنون حياة الأرواح الميتة ويقررون الجزاء والعقاب لكل منها.

رحلة البحث عن يروبا

في تاير، أرسل والدا يروبا المكلومان كادموس وأشقاءه الثلاثة للبحث عن شقيقتهم، بتعليمات حازمة ألّا يفكروا في العودة من دونها.

كان التايريون مشهورين بأنهم ملّاحون وتجّار ممتازون. فينكس شقيق كادموس (لا تخلط بينه وبين الطائر الأسطوري بالاسم نفسه [العنقاء Phoenix]) سيرث حكم المملكة من أبيه أجينور عندما يحين الوقت، وسيُغيّر اسمها إلى فينيقيا Phoenicia على اسمه. سمعة الفينيقين التجارية ستجلب لهم الثروة والهيبة، فقد تاجروا في الحرير والتوابل المستوردة من أقصى الشرق، لكن ابتكارهم ونشرهم للأبجدية المكتوبة كان أكثر ما منحهم الأفضلية على جيرانهم ومنافسيهم على السواء؛ للمرة الأولى في

---

(1) تنسب بعض المصادر ساربيدون إلى يروبا أمّا، وتنسبه مصادر أخرى إلى الأميرة لوداميا Laodamia، والأب زيوس في جميع الأحوال طبعًا، لكن لا ذكر له لأنه من قضاة العالم السفلي مثل شقيقيه ماينوس ورادامانثوس، ربما خلط المؤلف هنا بينه وبين الشقيق الثالث - المحتمل - أياكوس، الذي هو ثالث قضاة العالم السفلي كما ذُكر من قبل. [م.]

التاريخ صار من الممكن كتابة أي لغة طبقًا لأصواتها، ما يعني أن سكان سواحل البحر المتوسط، بما فيهم شمال إفريقيا والشرق الأوسط، سيكون بوسعهم التواصل لأول مرة باستخدام رموز على البرديات والرقع الجلدية والشمع والخزف يمكن نطقها[109]. الرموز المكتوبة على الصفحة أو على الشاشة أمامك الآن، تلك التي تفسرها بينما تقرأ، مشتقة من الأبجدية الفينيقية، وكادموس هو من سيأخذ اختراع قومه العظيم إلى اليونان إبّان رحلته في البحث عن يروبا.

ظلوا يسافرون لأعوام عديدة في بحث غير مجدٍ، كريت كانت لسبب غير معلوم - ربما بسبب تدخل سماوي غير مُدرك - المكان الوحيد الذي لم يبحثوا فيه. الجزيرة التي نزلوا فيها أطول وقت كانت ساموثراكي Samothrace، التي تقع في أقصى شمال بحر إيجة. عاشت في ساموثراكي بلايادة تُدعى إلكترا Electra[110]. كانت البلايودات أو الشقيقات السبعة، لو أنك لا زلت تذكر، بنات أطلس والأوشيانية بلايوني. أنجبت إلكترا من زيوس ولدين هما داردانوس Dardanus[111] وإياسيون Iasion، وابنة هي هارمونيا Harmonia[112]. وقع كادموس على الفور أسيرًا لجمال هارمونيا ورِقّة طبعها، فأخذها معه في مسعاه، لا أحد يعلم مدى رضاها عن ذلك في البداية، لكن الزوجين تركا ساموثراكي برغم ذلك واتجها إلى أرض اليونان القارّية بهدف البحث عن يروبا ظاهريًا، لكن في الواقع، بحسب ما كان كادموس يشعر، بحثًا عن هدف أعظم.

هكذا تحدثت العرّافة

كثيرًا ما يشار لكادموس على أنه أول الأبطال. لو أنّ بك رغبة للقيام بالحساب، ستجد أن كادموس مخلوق من الجيل الخامس، ذو أصول إنسانية وسماوية بالقدر ذاته. يمكنه تتبع جذوره إلى أول الخلق ذاته عبر جده بوسايدون، الذي كان أبوه كرونوس ابن أورانوس، أما من ناحية جدته ليبيا فهو من سلالة إيناكوس، ما يضيف مقدارًا من الدماء الملكية

فيما يجري في عروقه البشرية. كان مثل الأبطال يتسم بالتململ والرغبة في الاستكشاف، وقدر غير قليل من الشجاعة والثقة والاعتداد بالنفس. بوسايدون كان مولعًا بحفيده بالطبع، لكن أثينا كانت أكثر من اهتم به ورعاه، خاصة وقد اصطف الآن مع هارمونيا، التي كانت من تابعات أثينا الأكثر إخلاصًا.

مثلما استقر ثاسوس شقيق كادموس في جزيرة صغيرة قريبة، تُدعى ثاسوس، وفينكس الذي منح اسمه للملكة الفينيقية، تخلى شقيقهم سيليكس أيضًا عن البحث عن يروبا وعاد إلى آسيا الصغرى ليؤسس مملكته التي أطلق عليها سيليسيا Cilicia[113].

أما كادموس فقد توجه إلى دلفي ليستشير العرّافة، بصحبه هارمونيا وحاشية ضخمة من تابعيه الأوفياء التايريين. علم كادموس في أعماقه، مثل كل الأبطال، أن قدَره هو العظمة، لكنه لم يكن متأكدًا مما يخبئه له المستقبل، ولا يزال بحاجة إلى الإرشاد في مسألة البحث عن يروبا الضائعة.

أنت تعلم الآن عن العرّافات بما يكفي كي لا تتفاجأ من غرابة رد البيثيا عليه.

ترنمت العرّافة: «كادموس يا ابن أجينور ابن بوسايدون، دع عنك بحثك عن شقيقتك، واتبع البقرة ذات الهلال، اتبع البقرة حتى تنهار من التعب، وحيثما تقع البقرة عليك أن تبني».

«أبني ماذا؟».

«وداعًا يا كادموس يا ابن أجينور ابن بوسايدون».

«أي بقرة؟ لا أرى بقرًا هنا!».

«حيثما تقع البقرة عليك أن تبني يا كادموس يا ابن أجينور ابن بوسايدون».

«حسنًا، لكن هذه البقرة...».

«البقرة ذات الهلال ستساعد هارمونيا وبطلها، ابن أجينور ابن بوسايدون».

«أيتها السيدة، قولي...».

«الوداااااااع....».

تبادل كادموس وهارمونيا النظرات وهزّا كتفيهما، ثم غادرا دلفي بصحبة حاشيتهما الوفيّة. ربما تتجسد بقرة ما بشكل سحري أمامهم، أو قد يتجلى رسول سماوي يقودهم إليها، وإلى أن يحدث شيء مشابه فلا ضرر من أن ينظروا هنا وهناك.

تقع دلفي وعرّافتها واستادها ومعابدها في منطقة من اليونان اسمها فوكيس. كادموس بات الآن مشهورًا بنشره هبة الأبجدية، فلما سمع بيلجون Pelagon ملك فوكيس عن أن كادموس وهارمونيا في بلاده، أرسل رسله ليدعوهم وحاشيتهم ليكونوا ضيوف شرف في قصره الملكي، وتلك كانت دعوة لم يشعر إزاءها الزوجان المنهكان من السفر وحاشيتهما الجائعة إلا بالامتنان والقبول.

الألعاب الفوكيسية

بعد ثلاثة أيام من الاحتفالات والولائم على شرف الضيوف بسلام وبلا أحداث تُذكر، كان كادموس وهارمونيا يتمشيان ذات أمسية في حدائق القصر حينما اعترض طريقهما على حين غرة أمفيدماس Amphidamas والد بليجون.

قال أمفيدماس بينما يقترب من الزوجين، وتفوح من أنفاسه رائحة العسل المختمر: «رأيتك في الحلم يا كادموس تجري في سباقات وتصوّب الرماح وترمي الأقراص، وتفوز بأعظم جائزة عرفها العالم. غدًا سيفتتح ابني بليجون الألعاب الفوكيسية، ربما هي ألعاب محلية بسيطة لكن الأحلام لا تخيب ودائمًا ما تعني شيئًا، متى كذّب مورفيوس علينا؟ نصيحتي لك هي أن تشارك»، ثم تبع كلامه بفُواق، وتهادى مبتعدًا.

قال كادموس وهو يضع ذراعه حول خصر هارمونيا: «لم لا؟»، ورفع عينه إلى القمر بنظرة حالمة، «لم يولد بعد من يستطيع رمي قرص أو رمح أبعد مما أفعل، وأعتقد أني أجري بسرعة لا بأس بها أيضًا».

تنهدت هارمونيا ودفنت رأسها في صدره، «يا بطلي!»، لم تقل هذا

حبًا وولهًا، بل لإخفاء ضحكتها، فقد كانت ترى غرور الرجال فيما يتعلق بالشجاعة الجسدية شيئًا مضحكًا.

المنافسة التي واجهها كادموس في اليوم التالي كان قوامها شبابًا محليين نحافًا وحرّاس قصر تتدلى كروشهم، وعندما ألقى القرص من أول محاولة طار خارجًا من القصر حتى اضطروا لإرسال خادمٍ لجلبه، وهلّلت الجماهير. فاز كادموس بالمنافسات كلها مع نهاية المساء، وحملقت هارمونيا غاضبة في الفتيات اللواتي أرسلن له القبلات وقذفن تحت قدميه الورود.

بليجون، الذي لم يكن ملكًا ثريًا، أرسل حاجبه ليبحث عن جائزة مناسبة للفائز النبيل.

صاح الملك: «يا أهل فوكيس الكرام»، ووضع تاجًا من أوراق الزيتون ضُفِر على عجل على رأس كادموس، «إليكم البطل: ضيفنا الكريم أمير تاير كادموس العظيم، وها هي الجائزة التي يستحقها على سرعته وقوته ورشاقته».

شرعت الجماهير في تهليل عظيم انقطع فجأة ليحل محله صمت مرتبك مع دخول الحاجب وعبوره من بينهم، يدفع أمامه بقرة ضخمة. افترّ الصمت عن ضحكات مكتومة متفرقة، سرعان ما تحولت إلى قهقهات صريحة. اجترّت البقرة ومضغت ما اجترّته، ورفعت ذيلها وأطلقت دفقة روث سائلة من تحته، فصفر الجمهور بسخرية.

تورّد وجه بليجون خجلًا، وقال أبوه أمفيدماس لكادموس بغمزة: «أوه، يبدو أن رسائل مورفيوس ليست دقيقة طوال الوقت».

لكن هارمونيا نكزت كادموس بحماسة شديدة: «انظر يا كادموس، انظر».

رأى كادموس على الفور ما جذب انتباهها، على ظهر البقرة كانت علامة على شكل هلال، لم تكن ثمة طريقة أخرى لوصفها، كانت هلالًا صريحًا.

همهم بليجون بشيء غير مقنع في أذنه عن كيف أن هذه البقرة من أصل

كريم وتنتج لبنًا غزيرًا، لكن كادموس قاطعه: «إن هذه لأعظم وأجمل هدية بوسع جلالتك منحها لي، إن سعادتي لتفوق قدرتي على التعبير».

قال بليجون المذهول: «أنت سعيد؟».

صُعق الحاجب مما سمع لدرجة أن فرع الصفصاف الذي كان يلسع به البقرة لتمضي تجاه منصة الفائز وقع من بين يديه، استغرقت البقرة حوالي ثلاثين ثانية لتستوعب أن الضربات المؤلمة التي كانت تجبرها على المضي لم تعد موجودة، فاستدارت وبدأت تمضي مبتعدة.

قال كادموس وهو يقفز من المنصة: «جدًا»، وساعد هارمونيا على فعل المثل، «إنها الجائزة المثالية، بالضبط ما كنت أريد...».

اتخذت البقرة طريقها بين الجماهير، فأولى كادموس وهارمونيا ظهرَيْهما للملك وصحبته وبدآ في اتباعها، وألقيا كلمات الشكر والتحيات غير المتسقة خلفهما بينما يمضيان.

«جلالتك، أعذرنا... يا له من يوم رائع... ممتنّين لضيافتك... طعام رائع، وحفلات ممتعة... ممتنين جدًا... وداعًا...».

كررت هارمونيا: «ممتنّين جدًا، لن ننسى أبدًا، إنها أجمل بقرة! وداعًا».

قال بليجون الحائر من هذه المغادرة السريعة المفاجئة: «لـ... لكن... ماذا؟ أعني... حسبت أنكما ستبقيان ليلة أخرى!».

صاح كادموس: «لا وقت لدينا، هيا يا رجال، معي هنا»، واستدعى حاشيته التايريين من الخدم والجنود والتابعين والأصحاب، ووضع كل منهم درعه على عجل بينما كان يجري ويقع من ثغره الطعام ويرمي قبلات الوداع للمعارف الجدد، ليلحق بكادموس وهارمونيا والبقرة.

قال أمفيدماس بينما يراقب دوامة الغبار المتشكلة على بعد إثر انسحاب جيش كادموس المشعث: «يا له من مجنون، قلت ذلك من البداية».

تنين الماء

لثلاثة أيام بلياليها ظل كادموس وهارمونيا وقطارهم من الأتباع الأوفياء يتبعون البقرة ذات الهلال بينما تتهادى صعودًا ونزولًا على الجبال وعبر

المروج والجداول والحقول، بدا أنهم يسافرون في اتجاه الجنوب الشرقي وكأنهم ذاهبون إلى مقاطعة بيوشا Boeotia[114].

اعتقدت هارمونيا أن العِجلة قد يتضح أنها ليست إلا يوروبا ذاتها، فزيوس نفسه كي يغويها حوَّل نفسه إلى ثور، فلماذا لا تكون هي قد اتخذت هيئة بقرة أيضًا؟ أما كادموس الذي خدّره وقع تمايل خصر البقرة الرتيب، كان أميل لتصديق أن الأمر برمته ليس إلا خدعة قاسية مُدبَّرة لتعطيله.

فجأة، بعد نزولهم من تل منحدر وبلوغهم حافة سهل واسع، انهارت البقرة أرضًا وأطلقت أنينًا متألمًا.

قال كادموس: «يا للآلهة».

صاحت هارمونيا: «بالضبط كما تنبأت العرّافة، ما الذي قالته؟ حيثما تقع البقرة عليك أن تبني، إذًا...».

قال كادموس منزعجًا: «إذًا ماذا؟ ماذا تعنين؟ أبني؟ أبني ماذا؟ أبني كيف؟».

قالت هارمونيا: «سأخبرك بفكرة، لنضحّي بالبقرة قربانًا إلى بالاس أثينا، الحيوانة المسكينة تكاد تموت على أية حال، وأثينا ستشير علينا بماذا نفعل».

وافق كادموس، وقرر إنشاء معسكر مرتجل حيث هم، وأرسل بعضًا من رجاله ليحضروا الماء من نبع قريب، كي يستطيع تطهير الأضحية والتضحية بها كما ينبغي.

نحر كادموس عنق البقرة، وكان دمها يسيل على مذبح مزيَّن بالزهور والأغصان أُنشئ على عجل حينما عاد واحد من رجاله المرسلين إلى النبع في حالة يرثى لها من الفزع، حاملًا أنباءً مريعة: ثمة تنين على هيئة ثعبان ماء عملاق قبيح يحرس النبع، قتل بالفعل أربعة من رجاله وعصَرَهم بلفّات جسده ثم قضم رؤوسهم بفكّه الهائل.

ما الذي يمكن فعله؟

لا يضيّع الأبطال وقتهم بضرب الكف بالكف وهز الرؤوس، الأبطال

يتصرفون. هرع كادموس إلى النبع، وحمل أثقل الصخور التي وجدها في طريقه، وصفّر ليجذب انتباه التنّين بينما يختبئ خلف شجرة، ثم رمى الصخرة على رأس التنين، فتهشّمت جمجمته ومات من فوره.

قال كادموس: «ثعبان ماء على نفسك»، ونظر إلى جسد الوحش تحت قدميه وقد امتزج مخّه ودماؤه بمياه النبع.

تردد صوت في أذنيه واضحًا عاليًا: «يا ابن أجينور، لماذا تحدّق في الثعبان الذي ذبحت؟ ستصير أنت أيضًا ثعبانًا، وسيحدق فيك الغرباء».

نظر كادموس حوله لكنه لم يجد أحدًا، لا بد أن الصوت جاء من داخله، هز رأسه وعاد إلى المعسكر، وترك نفسه للنشوة التي غمرته من تهليل مشجعيه وقبلات هارمونيا العاشقة، ولم يخبر هارمونيا بالصوت الذي سمِعه.

أحد رجال كادموس، بعيدًا عن نطاق سمَع قائده، تنفس من بين أسنانه بتلك الطريقة المزعجة التي يلجأ إليها أولئك الذين يحملون أخبارًا سيئة ولا يعلمون كيف ينقلونها. هذا الرجل كان قد جاء لتوّه من بيوشا، وأخذ يهمس لرفاقه بينما يهز رأسه بحكمة أن التنّين الإزميني Drakon Ismenios، الذي قتله كادموس، كان في الواقع مقدسًا عند رب الحرب آريس، بل إن هناك من يعتقدون أن هذا المخلوق في الواقع ابنًا لآريس.

وقال: «لا خير سيأتي من وراء ذلك، لا أحد يدوس على طرف ربّ المعارك دون عواقب، حتى لو كان جدك هو زيوس نفسه».

يجدر بنا هنا ذكر أن من أصعب التحديات التي كان يواجهها الأبطال والفانون في تلك الأزمنة، كانت تلك التي تتعلق بعلاقتهم بالآلهة المختلفة. المضي في طريقك بين الأوليمبيين الغيورين الحقودين كان أمرًا في غاية الصعوبة، إن أبديت ولاءً وطاعة أكثر من اللازم لأحدهم فأنت تخاطر بإثارة عداوة آخر. لو أن بوسايدون وأثينا مثلًا يحبّونك، مثلما في حالة كادموس وهارمونيا، فثمة احتمالات كثيرة أن هيرا أو أرتيميس أو آريس أو حتى زيوس نفسه سيفعل كل ما بوسعه لإعاقتك وكبحك، ويا

ويلك إن كنت أحمقًا بما يكفي لقتل كائن يحبونه. كل تضحيات وقرابين ونذور العالم لن تهدّئ من غضبة ربّ مُهان، ربّ مُنتقم، ربّ طُعنت كرامته أمام الآخرين.

كادموس، بعدما قتل أحد كائنات آريس المفضلة، اكتسب عن جدارة عداوة أكثر الأرباب عدوانية وضراوة[115]، لكنه لم يعلم أيًا من هذا، فاللغو المتداوَل بين الحاشية لم يبلغ أذني قائدهم.

أشعل بلا مبالاة البخور وأكمل طقوس التضحية لأثينا، شاعرًا أن الأمور لا تزال تمضي كما أراد لها أن تكون، ودعم هذا الشعور الظهور الفوري الحميد لأثينا، التي أسعدتها التضحية ونزلت محلقة على سحابة من الدخان المعطَر الذي أحرقه كادموس تقربًا لها، ووهبت عابدها المتواضع ابتسامة واسعة.

أسنان التنّين

قالت الربّة: «انهض يا ابن أجينور»، ثم خطت إلى الأمام وحثّت تابعها المخلص كادموس على النهوض على قدميه، «قربانك كان عندنا محمودًا. إن سمعت ما أقول ونفّذته بدقّة ستصبح بأفضل حال. احرث هذا السهل الخصيب، احرثه جيدًا، ثم ابذر فيه أسنان التنين الذي قتلت».

ثم بعد هذه الكلمات عادت إلى الدخان واختفت. لولا تأكيد هارمونيا والآخرين لكادموس أن أثينا كانت هنا وقالت ما قالت، لحسب أن ما رآه كان حلمًا. لكن في النهاية التعليمات الإلهية هي تعليمات إلهية، مهما كانت غريبة، بل في الواقع بات كادموس مدركًا أنه كلما كانت الكلمات أغرب كان ذلك تأكيدًا لقدسيتها.

أول ما فعله كان صنع محراثٍ من خشب البلوط، وبما أنه لم تكن هناك أي حيوانات لجر المحراث، ربط به فريقًا من تابعيه المخلصين ليجروه، كانوا مستعدين للتضحية بحياتهم من أجل أميرهم التايري ذي الشخصية الساحقة، جرُّ محراثٍ لم يكن شيئًا ذا قيمة أمام ذلك.

كان الوقت في أواخر الربيع، وتربة السهل كانت لينة الحركة بما يكفي لحرثها في أخاديد مستقيمة محدَّدة بيُسر دون أن يضطر التايريون المجهَدون لبذل مجهود أكثر من اللازم.

بعد حرث الحقل، شرع كادموس في حفر حُفر صغيرة في الأخاديد برأس رمحه بعمق بوصة أو اثنتين، وفي كل منها غرس أحد بذور التنين. نعلم جميعًا أن لكل إنسان اثنتين وثلاثين سنًا، لكن تنانين المياه مثل القروش، لدى كل منها صفوف متتالية من الأسنان، كل صفٍ مستعد للتقدم إلى الأمام عندما يتداعى الصف الذي أمامه من مجهود طحن عظام البشر المنهك. زرع كادموس خمسمئة واثنتا عشرة سنًا، وعندما انتهى وقف وتأملَ الحقل.

ضربت الحقل ريح خفيفة، حملت قمم الأخاديد المحروثة ونثرتها في كل مكان، ودارت دوّامات الغبار هنا وهناك، ثم خيّم صمت ثقيل.

هارمونيا كانت أول من رأى تربة أحد الأخاديد ترتجف، فأشارت إليه واتبعت إشارتها كل العيون. صدرت شهقة عن أحد المراقبين المذهولين، تبعتها صرخة مكتومة. خرج من الأرض رأس رمح، تلاهخوذة، ثم أكتاف مدرعة، ثم صدر، ثم ساقين ملفوفتين بالجلد... ونهض جندي في كامل عتاده واقفًا، قويًا جامحًا، يدب الأرض بقدميه، ثم خرج آخر، ثم آخر، ثم آخر، حتى امتلأ الحقل بالرجال المحاربين يدبّون على الأرض المحروثة في صفوف، وقرقعة دروعهم وأسلحتهم وصخب ملابسهم وأحذيتهم ودبيب الخطوات في المكان المصحوبة بصرخات قتالية مرعبة، تراكمت جميعها في وقع عسكري زرع الرعب في قلوب كل من كان موجودًا.

الكل عدا كادموس، الذي تقدم بجرأة ورفع يده.

نادى بصوت جهير: «أيها السبارتويون»، إذ إنّ Spartoi تعني (الرجل المزروع)، «يا رجالي السبارتويين، أنا أميركم وقائدكم كادموس. انتباه!».

ربما بسبب أصلهم كأسنان منتزعة من فك تنّين مقدس لدى إله الحرب، كان أولئك الجنود مفعمين بطاقة عدوانية هائلة. استجابوا لأمر كادموس بدق رماحهم على دروعهم بصوت عنيف.

صاح كادموس: «صمتًا».

لكن المحاربين لم ينتبهوا له، وتحوَّل دبيبهم في المكان إلى بداية مسيرة عسكرية إلى الأمام. التقط كادموس حجرًا بيأس، ورماه بمهارته وقوَّته المعتادتَين في وسط صفوفهم، فأصاب أحد الجنود على كتفه، نظر ذلك الجندي إلى الجندي المتاخم له وحسبه من رماه بالحجر، فهجم عليه بزئير هائل وسيف مرفوع. في خلال لحظات، كانت صرخات القتال تتناثر مع دماء المتقاتلين في شتى أرجاء المكان، بينما يعمل الجنود في بعضهم تقتيلًا.

صاح كادموس: «توقفوا، توقفوا، آمركم بالتوقف»، كان مثل أب مذعور يراقب خارج الملعب ابنه يتحول إلى عجينة. استدار إلى هارمونيا وهو يدبّ في الأرض بإحباط: «لماذا إذًا تكلفت أثينا عناء جعلي أخلق هؤلاء الرجال ما داموا سيدمّرون بعضهم في النهاية؟ انظري إلى كل ذلك العنف؟ كل تلك الدموية؟ ما معنى ذلك؟».

غير أن هارمونيا أشارت، بينما هو يتكلم، إلى مركز القتال الدائر، حيث وقف خمسة سبارتويين في دائرة، ن الناجون الخمسة، أما البقية فقد ماتوا، وارتوت التربة التي ولدتهم من دمائهم. تقدم الناجون الخمسة بسيوف تشير إلى الأرض، وعندما وصلوا إلى حيث كادموس ركعوا وأحنوا رؤوسهم.

كم كانت راحة التايريين وسعادتهم عظيمتَين. كان يومهم شديد الغرابة، أغرب يوم شهده الفانون في التاريخ المعروف، لكن في النهاية انبثق شيء من النظام من قلب الفوضى.

سأل كادموس: «ما اسم هذا المكان؟ هل يعرف أحد؟».

تردد صوت رجل مجيبًا، ذات الرجل الذي حذّر من كون التنّين الإزميني مقدَّسًا عند آريس: «أنا من مكان قريب، نسميه (سهل ثيفا)».

«إذًا على هذا السهل سأبني مدينة عظيمة. من الآن فصاعدًا لسنا تايريين، بل ثيفاويين»، تردد تهليل عال من الحضور، «وهؤلاء السبارتويون الخمسة سيصبحون نبلاء ثيفا».

زواج كادموس وهارمونيا

النبلاء المؤسسون الخمسة لثيفا كانت أسماؤهم: إكيون Echion ويوديوس Udaeus وكوثونيوس Cuthonius وهايبرينور Hyperenor وبيلور Pelor[116]. تحت إشراف كادموس وجيشه من التابعين التايريين الأوفياء بُنيت قلعة كادميا Cadmeia، التي منها ستنمو مدينة مزدهرة، وستتحول إلى الدولة المدينية ثيفا[117]. الحائط القوي الذي أحاط بها ثُقب سبع مرات لوضع البوابات البرونزية العملاقة، كل منها مكرّس لتمجيد أحد الآلهة الأوليمبية.

بنى الحائط أمفيون Amphion وزيثوس Zethus، وهما ابنان توأمان لزيوس من أنتيوبي Antiope ابنة ربّ النهر المحلي أسوبوس Asopos. هرمس كان حبيبًا لأمفيون وعلّمه عزف القيثارة، وعندما حان وقت بناء السور الهائل حول كادميا، غنى أمفيون بصحبة قيثارته. ومن حلاوة موسيقاه كانت الصخور الثقيلة التي يحملها زيثوس تطير من تلقاء نفسها إلى مكانها في الحائط، فتم البناء في وقت وجيز. لهذا يُعد أمفيون وزيثوس أيضًا من مؤسسي ثيفا مثل كادموس.

بعد إتمام البناء، اتجه كادموس وهارمونيا أخيرًا لإتمام زواجهما. كلاهما كان سليلًا للتياتنة والآلهة، وكلاهما في صف بعض الأوليمبيين وعدو لآخر، وكلاهما - مع كل ذلك - بشريّ حتى النخاع، كانا نموذجًا أيقونيًا للعلاقات التي يشد طرفاها من قوة بعضهما. يكاد المرء يتخيل أنه لو كانت الصحافة المعاصرة ومواقع التواصل الاجتماعي موجودة وقتهما، لما استطاعوا مقاومة تلقيبهما بـ «الكادمونيا».

وضعهما كأبرز العشّاق في العالم المعروف جعل حفل زواجهما مشرّفًا إلى درجة فاقت أي زواج بشري سبقهما، والحاضرون كانوا أسمى مَن على الأرض وأعلى مَن في السماء. الهدايا لم يكن لها مثيل، أفروديتي أعارت هارمونيا جيردلها girdle الخاص، وهو قطعة ملابس داخلية سحرية لديها القدرة على إثارة أكثر الشهوات قوة وتأثيرًا[118]. قيل

إن هارمونيا كانت خجولة في السرير وإن حبهما لم يتم قبل الزواج، لذا كان الجيردل الذي أقرضته لهارمونيا (التي ربما كانت ابنتها أيضًا) طوال فترة شهر العسل هدية ذات قيمة بالغة.

لكن لم تكن هناك هدية زفاف فاقت روعة القلادة التي منحها كادموس لعروسه، فقد كانت أروع قطعة مجوهرات عرفها العالم، صُنعت من أفضل قطع العقيق الأبيض واليشب واليشَم والزمرّد والياقوت واللازورد والجمشت والفضة والذهب، وانتزعت شهقات الذهول من الحاضرين عندما رأوها حول رقبة زوجته الجميلة[119]. قالت الهمسات المتبادلة إن القلادة أيضًا كانت هدية من أفروديتي، وأضافت الهمَسات أنها من صنع هيفايستوس، وقالت أيضًا إنه صنعها بإلحاح من زوجته أفروديتي، التي حثّها بدورها على فعل ذلك عشيقها آريس، آريس الذي - لو لا زلت تذكر - يضمر حقدًا بالغًا على كادموس لقتله التنّين الإزميني. فالحقيقة القاسية الصادمة هي أن القلادة كانت ملعونة، لعنة شديدة عميقة لا تُرَدّ. سوء الحظ والتعاسة وألعن الكوارث ستنهمر على رأس من يرتديها أيًا كان.

كل هذا مذهل ومحيّر على حد سواء؛ لو كان آريس وأفروديتي والدي هارمونيا الحقيقيين فعلًا، لماذا قد يودون بابنتهما إلى الهلاك؟ هل كل هذا من أجل الانتقام لثعبان مياه قتيل؟ وهل يمكن فعلًا أن تكون الهارموني الجميلة [التناغم] ابنة للحب والحرب؟ ولو كانت كذلك، كيف يمكن أن يكون ذلك النتاج الرقيق لكيانَين بهذه القوة والرهبة هدفًا للعنة بهذه القسوة غير الطبيعية؟

يبدو أن زواج كادموس وهارمونيا، مثل اتحاد إيروس وسايكي من قبل، يقترح اتحاد جانبين أساسيين متعارضين من أنفسنا، ربما نشهد هنا اندماجًا لتقاليد الغزو والكتابة والتجارة الشرقية متمثلة في كادموس - الاسم مشتَقّ من الجذر العربي العبري القديم (قدم)، الذي يعني (من الشرق)(1) - مع

(1) وجدت ببعض البحث أن الجذر (قدم) يعني الشرق في العبرية بالفعل، لكنه لا يعني ذلك في العربية. [م.]

الحب والمباهج الحسية، في محاولة بناء يونان جديدة على أساسات من كليهما.

لكن ما نلاحظه فعلًا في هذه القصة، مثل العديد من القصص الأخرى، هو ذلك اللغز المبهم المخادع الملتبس من العنف والعاطفة والشعر والرمزية، الكامن في قلب الميثولوجيا اليونانية ويرفض أن يفك شفرته أحد، إنه معادلة غير متوازنة بما يكفي لحلها، إلهية وبشرية في الوقت ذاته، ليست نقية ولا حسابية. قد يكون من المسلّي محاولة تفسير هذه الرموز والسرديات، لكن التعويض المباشر بالمفاهيم والمعاني المقابلة لا يعمل كما يُراد منه، والإجابات الناتجة عنه ليست أكثر وضوحًا من نبوءات العرّافات.

لنعد إذًا إلى قصتنا: تمّ الزفاف بنجاح، وقامت الجيردل بعملها الأفروديتي على أكمل وجه، ورُزق الزوجان السعيدان بذريتهما الخاصة: ولدان: بوليدوروس Polydorus واليريوس Illyrius، وأربع بنات: أجافي Agave وأوتونوي Autonoë واينو Ino وسيملي Semele.

غير أنه لا يزال على كادموس أن يدفع ثمن قتله للتنّين، إذ سيكلفه آريس بالأعمال الشاقة لمدة سنة أوليمبية، وهي ما يبدو أنها تعادل ثماني سنوات بشرية.

بعد مدة عقابه عاد كادموس ليحكم المدينة التي بناها، لكن القلادة الملعونة لا تزال هناك لتلوث أي سعادة أو رضا قد يبلغهما الملك.

إلى تراب

بعد سنوات عديدة من السلام والازدهار في ثيفا، تزوَّجت أجافي ابنة كادموس وهارمونيا من بينثيوس Pentheus ابن إكيون، إكيون هو أحد النبلاء المؤسِّسين الخمسة (أحد آخر السبارتيين الناجين لو لا زلت تذكر). لكن كادموس تعب من مهام المُلك، وكان مثل غيره من الأبطال غير قادر على كبح الحكة في قدمه التي تدفعه لأن يهيم على وجهه في

العالم. قال كادموس لهارمونيا ذات يوم: «هيا نسافر، هيا لنرى المزيد من العالم، بينثيوس جاهز لتولي العرش في غيابنا».

رأيا الكثير، ذهبا إلى قرى عديدة ومدن كثيرة، تجولا كزوجين عاديين في منتصف العمر، لم يطلبا استقبالات ملكية ولا ولائم على شرفهما، لم يصطحبا معهما إلا حاشية صغيرة، لكن لسوء الحظ جلبت هارمونيا قلادتها الملعونة معها.

بعد تجوال طويل في أرجاء اليونان، عزما على زيارة المملكة الواقعة غرب البحر الأدرياتيكي وجنوب البلقان في مواجهة الساحل الشرقي لإيطاليا، التي أسسها أصغر أبنائهم إليريوس، واسمها كان بطبيعة الحال إليريا Illyria[120].

ما إن صاروا هناك، حتى حلَّ على كادموس شعورٌ مباغتٌ بالإنهاك والذعر غير المحتمل، فتوجَّه بتوسله إلى السماء وقال:

«طوال الأعوام الثلاثين المنقضية كنت مدركًا في أعماق قلبي أني بقتلي ذلك الثعبان الملعون قتلت معه أي فرصة لي ولزوجتي في السعادة. آريس عنيد عديم الرحمة، لن يرتاح حتى أصبح مسطّحًا على الأرض كما الثعبان، لو كان ذلك سيريحه ويجلب السلام على حياتي الشقية، فلأقض إذًا ما تبقى من حياتي أزحف بين الغبار، فليكن ذلك»[121].

ما إن أتمَّ نطق دعائه التعيس حتى صار ما تمنّى حقيقة، أخذ جسده ينكمش عن جانبيه ويتمدد من أعلى وأسفل، أخذ جلده يتصلب ويشكل حراشف ناعمة، وبات رأسه مسطحًا بهيئة الماس، واللسان الذي ردّد الصلوات المريعة للسماء قبل قليل صار مشقوقًا يخرج من بين نابَيْن طويلين. الرجل الذي كان يومًا كادموس، أمير تاير وملك ثيقا، وقع على الأرض يتلوى وقد صار ثعبانًا.

وأطلقت هارمونيا صرخة رعب عالية.

صاحت: «الرحمة أيتها الآلهة. أفروديتي، لو كنت حقًا أمي، فلتظهري لي حبك واطرحيني أرضًا لأكون مع من أحب، فمباهج العالم أمست

عندي رمادًا. آريس، لو كنت أبي فارحمني، زيوس، لو كنت مثلما يقول البعض أبي، فأستحلفك بالخلق كله أشفق عليّ، أتوسل إليك».

لم يستجب لها أي من هؤلاء الثلاثة، لكن مَن حولتها إلى ثعبانٍ لم تكن إلا أثينا الرحيمة. وزحفت هارمونيا بين التراب وراء زوجها، والتفّا حول بعضهما بكل الحب.

عاش الزوجان بقية أيامهما في ظلال معبد مكرَّس لأثينا، لا يُظهران نفسَيهما إلا عندما يحتاجان لتدفئة دمائهما بشمس الظهيرة، وعندما حانت لحظة موتهما أعادهما زيوس إلى الهيئة البشرية، وأُعيد جسداهما إلى ثيفا وُدفنا في احتفال جنائزي عظيم، وأرسل زيوس ثعبانين هائلين ليحرسا قبريهما إلى الأبد.

سنترك الآن كادموس وهارمونيا في استراحتهما الأبدية، بعدما ماتا من دون أن يدركا أن سيملي ابنتهما الأصغر أطلقت على العالم في غيابهما قوة ستغير وجهه إلى الأبد.

وُلد مرتين

العُقاب يحب

بينثيوس زوج ابنة كادموس وهارمونيا حكم ثيفا بعد رحيل والدَيّ زوجته ليكتشفا العالم[122]. لم يكن ملكًا قويًا، لكنه كان مخلصًا وفعل كل ما مكّنته شخصيته المحدودة ومهارته المتواضعة من فعله، وبينما كانت دولة ثيفا المدينية تزدهر تحت حكمه، كان بحاجة طوال الوقت لإبقاء عينيه مفتوحتان على أبناء كادموس، أشقاء وشقيقات زوجته، الذين يشكل جشعهم وطموحهم تهديدًا دائمًا له، حتى زوجته أجافي بدت وكأنها تحتقره ولا تكاد تستطيع أن تنتظر سقوطه. غير أن سيملي، أصغر شقيقات زوجته، بدت الوحيدة التي لم يشعر إزاءها بأي قلق، ذلك في الواقع لأنها كانت لا تكترث بشأن العالم مثل شقيقيها بوليدوروس وإليريوس، وليس عندها أدنى طموح في ثروة أو مكانة مثل شقيقاتها أجافي وأوتونوي وإينو. سيملي كانت فتاة جميلة وعطوفة وطيبة، راضية بحياتها ككاهنة في معبد زيوس العظيم.

ذات يوم ضحّت سيملي بثور ضخم وقوي على نحوي استثنائي لزيوس، وبعد إتمام الأضحية ذهبت إلى نهر أسوبوس لتغتسل من الدماء، صادف ذلك نزول زيوس من السماء، وقد سعد بالقربان علاوة على أنه كان ينوي من قبل تفقّد مدينة ثيفا. كان يطير فوق النهر في تلك اللحظة بالذات في التنكّر المفضل لديه: طائر العُقاب. رؤيته لجسد سيملي العاري يلتمع في المياه أثارته بشدة، فهبط، وحوَّل نفسه بسرعة إلى هيئته المناسبة. أقول «هيئته المناسبة» لأنه عندما تقرر الآلهة إظهار نفسها للبشر تقدّمها في

نسخة مصغرة معقولة بالنسبة للفانين، لا تثير روعهم ولا ذهولهم، هكذا كانت الهيئة المبتسمة التي اتخذها على ضفة النهر، بدا لسيملي إنسانًا، ضخمًا شديد الوسامة وقوي البنية وذا هالة مشعَّة غير عادية، لكنه مع كل ذلك إنسانٌ.

عقدت سيملي ذراعيها فوق نهدَيها وهتفت: «من أنت؟ وكيف تجرؤ على التلصص على كاهنة لزيوس؟».

«أنتِ كاهنة لزيوس؟».

«نعم، ولو حاولت إيذائي فسأصرخ منادية اسمه، وسيهرع ملك الآلهة لنجدتي».

«غير معقول».

«بل الأحسن لك أن تصدق، والآن ارحل».

لكن الغريب اقترب، قال: «أنا سعيد بك يا سيملي».

تراجعت سيملي: «تعرف اسمي؟».

«وأعرف أشياء كثيرة أيتها الكاهنة الوفية، فأنا الرب الذي تخدمين، أنا أبو السماء وملك الأوليمبوس، زيوس القوي العظيم».

سيملي التي لا يزال نصفها السفلي مغمورًا في الماء، شهقت ووقعت على ركبتيها.

قال زيوس وهو يخوض في المياه متجهًا إليها: «هيا، دعيني أنظر في عينيك».

كان لقاؤهما في النهر محمومًا موحلًا مبتلًا، لكنه كان لقاءً عاطفيًا حقيقيًا، وما إن انتهيا حتى ابتسمت سيملي، ثم تورَّدت، ثم ضحكت، ثم بكت، ووضعت رأسها على صدر زيوس وأخذت تنتحب بلا توقف.

قال زيوس وهو يمرّر أصابعه في شعرها: «لا تبكي يا سيملي العزيزة، فقد أمتعتني».

«آسفة يا مولاي، لكني أعرف جيدًا أنك لن تحب فانية أبدًا».

نظر زيوس إليها. كانت الرغبة تغلي في داخله، لكنه فوجئ بشيء

آخر يدور في داخله أيضًا، شيء أعمق، شيء يتوهج مثل جذوة في قلبه. الربّ الذي يعيش دائمًا في اللحظة بلا أي تفكير في عواقب مستقبلية شعر بفوران نبع الحب لسيملي الجميلة في قلبه، وأخبرها بذلك.

«سيملي، أنا أحبك، صدقًا أحبك، صدقيني، أقسم لك بمياه هذا النهر أني سأظل أرعاك دائمًا، سأرعاك وأحافظ عليك وأحميك وأشرّفك»، احتضن وجهها بكفَّيْه وانحنى ليضع قبلة حانية على شفتيها الناعمتين المشتاقتين، «سأذهب الآن يا حلوتي، وسأزورك مع ظهور كل قمر جديد».

ارتدت سيملي عباءتها. جسدها لا يزال رطبًا، وكيانها كله لا يزال دافئًا متوهجًا من الحب والسعادة. مشت عبر الحقول عائدة إلى المعبد، وعندما نظرت إلى أعلى بيد تظلل على عيونها، رأت عقابًا يمرق عبر السماء وكأنه يتجه إلى الشمس ذاتها، ظلت تنظر إليه حتى جعل الوهج عينيها تدمعان، فاضطرت لإنزال عينيها.

زوجة العقاب

كانت نية زيوس طيبة.

لكن هذه الكلمات الأربعة تعقبها على الدوام وقوع كارثة بنصف إله مسكين أو نيمفة أو إنسان. أحَبَ ملك الآلهة سيملي فعلًا، وقرَّر صدقًا أن يفعل ما هو أفضل لها. بدا أنه في غمرة افتتانه الجديد نسي ما لاقته أيو على يد ذبابة خيل عملاقة أرسلتها زوجته المنتقمة.

أما هيرا، فرغم أنها لم يعد لديها أرجوس ذو العيون المئة ليجمع لها المعلومات، فإن لها آلاف الأعين في أماكن أخرى. لا أحد يعرف بالضبط إن كانت إحدى شقيقات سيملي الغيورات، أجافي أو أوتونوي أو إينو، هي من تجسست على سيملي وهمست بأخبار الجماع الحار في النهر لملكة السماء، أو أنّ من فعلت كانت واحدة من كاهنات هيرا نفسها، لكن النتيجة واحدة: هيرا عرفت.

حدث ذات أمسية أن قابلت سيملي وهي في طريقها إلى المكان الذي

يحدث فيه عادة لقاؤها الحميمي الرومانسي المعتاد مع زيوس امرأة عجوز محنية الظهر تستند إلى عصا.

قالت المرأة: «يا لكِ من فتاة حسناء!»، بنبرة تكاد تبالغ في إظهار الصوت المشروخ والنعيق الحاد لعجوز تعيسة.

قالت سيملي غير المرتابة بابتسامة ودودة: «شكرًا لك».

قالت المرأة: «لنمشِ معًا»، وتبعت قولها بجذب سيملي ناحيتها بطرف عصاها، «دعيني أستند إليك».

سيملي كانت بطبيعتها مهذَّبة ومراعية، وتحيا في ثقافة تعطي كبار السن في جميع الأحوال أبلغ الاحترام والاهتمام، لذا رافقت المرأة العجوز وتحملت خشونتها بلا شكوى.

قالت المرأة: «اسمي بيروي Beroë».

«وأنا سيملي».

«يا له من اسم جميل، وهذا هو أسوبوس»، وأشارت إلى مياه النهر الرائقة.

«نعم، ذلك هو اسم النهر».

انخفض صوت العجوز حتى بات همسات خشنة: «سمعتُ أن إحدى كاهنات زيوس أغواها أحدهم هنا بين عيدان القصب».

ظلت سيملي صامتة، لكنّ احمرار وجنتيها ورقبتها فضحها تمامًا من دون أن تحتاج لقول حرف.

قالت العجوز بصوت كالصرير: «يا إلهي، يا حبيبتي! أكنتِ أنت؟ هذا يفسر ما أراه في بطنك، أنت حامل!».

قالت سيملي بمزيج من الخجل والكبرياء: «أنا... نعم... لكن... هل تكتمين السر؟».

«هذا الفم الهرم لا يردد الحكايات يا ابنتي، يمكنك أن تحكي لي كل ما تودين يا حبيبتي».

«الحقيقة أن والد هذا الطفل هو... زيوس نفسه».

قالت بيروي: «غير معقول! لا تقولي ذلك! حقًا؟».
لم تحب سيملي نبرة العجوز المتشككة، أجابتها بإيماءة مؤكدة من راسها، «الحق ما أقول، ملك الآلهة ذاته».
«زيوس؟ الربّ العظيم زيوس؟ غريب، أتساءل لو أن... لا، لا، لا يجب أن أقول هذا».
«تقولين ماذا؟».
«تبدين فتاة جميلة وبريئة تثق بالجميع، لكن يا حبيبتي كيف لك أن تعلمي أنه زيوس؟ أليس هذا ما قد يقوله زير نساء فاتن كذاب ليفوز بك؟».
«أوه، لا لا، إنه زيوس، أعلم يقينًا أنه زيوس».
«تحمَّلي جدتك العجوز وصِفيه لي يا صغيرتي».
«حسنًا، إنه طويل وذو لحية، وقوي، وحنون...».
«أوه، لا، يؤسفني قول ذلك، لكن ذلك ليس وصف إله على الإطلاق».
«لكنه كان زيوس، كان زيوس، لقد حوّل نفسه إلى عقاب، رأيت ذلك بعينيّ».
«هذه خدعة يسهل تعلمها، الفونيون وأنصاف الآلهة بوسعهم فعلها، بل وحتى بعض الرجال الفانين».
«كان زيوس، شعرت بذلك».
«هممم...»، صوت بيروي كان مفعَمًا بالشك، «لقد عشت كثيرًا بين الآلهة، تيثيس هي أمي وأبي أوشيانوس، كنت مربية الآلهة الصغار بعدما وُلدوا من بطن كرونوس، أعرفهم جيدًا، أعرف طرقهم وأساليبهم وطبيعتهم، وأنا أخبرك يا بنيتي أن الإله عندما يتجلى يكون ذلك كانفجار عظيم، شيء هائل جبّار من الطاقة والنار لا يمكن نسيانه، ولا يمكن ألّا يتعرف المرء على طبيعته الإلهية».
«وهذا بالضبط ما شعرت به».
«ما شعرت به لم يكن أكثر من نشوة الجماع البشرية، ثقي بذلك، أخبريني، هل ستقابلين حبيبك هذا مجددًا؟».
«نعم بالتأكيد، إنه يزورني باستمرار مع كل قمر جديد».

قالت المرأة العجوز: «أنا لو كنت مكانك، كنت سأجعله يعدني بأن يظهر نفسه لي بهيئته الأصلية، لو كان زيوس فستعلمين بلا شك، أما إن لم يكن، فيؤسفني إخبارك بأنه قد غُرر بك، وأنت فيك من اللطف وحسن النية والبراءة ما يجعله الاحتمال الأرجح. والآن اتركيني أتأمَّل المشهد في سلام، اذهبي من أمامي.. هيا، هيا».

هكذا تركت سيملي العجوز وقد سخنت دماؤها وبدأ سخطها يتصاعد شيئًا فشيئًا، لم تستطع منع كلام هذه الشمطاء المتجعّدة من التسلل إلى داخلها وتشتيت سلامها. هكذا هم الشيوخ، لا غاية لهم إلا تدمير أي بهجة أو متعة يشعر بها الشباب. حتى شقيقاتها أوتونوي وإينو وأجافي أَبَيْنَ أن يصدِّقنها عندما أخبرَتهم بفخر عن حبها لزيوس وحب زيوس لها، وأخذن يضحكن بسخرية وشك، وقلن عنها حمقاء ساذجة، والآن تأتي هذه البيروي لتشكك في حكايتها أيضًا.

لكن ربما، فقط ربما، لا يخلو كلام شقيقاتها والعجوز الشمطاء بالكامل من الصحة، بالتأكيد لدى الآلهة ما هو أكثر من اللحم الدافئ والعضلات الصلبة، مهما كان هذا وذاك مغريان. قالت لنفسها: «حسنًا، بعد ليلتين سيشرق في السماء قمر جديد، وعندها سيكون بوسعي إثبات أن حديث العجوز المقرفة المتطفلة كله خاطئ».

لو كانت سيملي حينها استدارت بالصدفة ونظرت إلى النهر خلفها، كانت ستشهد العجوز المقرفة المتطفلة وقد صارت الآن تبدو بهيئة شابة جميلة بهية ملكية متغطرسة، ترتفع إلى السماء على ظهر عربة ذهبية بنفسجية يجرها اثنا عشر طاووسًا. ولو كانت لديها هبة الاستبصار، ربما كانت ستبصر بيروي مربية الآلهة العجوز الحقيقية، تقضي حياة التقاعد بعيدة آمنة على ساحل فينيقيا[123].

التجلّي

في ليلة القمر الجديد أخذت سيملي بنفاد صبر تروح وتجيء على ضفة نهر أسوبوس في انتظار حبيبها، الذي جاء أخيرًا على شكل حصان هذه المرة،

فحل أسود لامع جميل، يخبّ عبر الحقول متجهًا إليها تحت ضوء الشمس الغاربة التي جعلت عرفه يبدو وكأنه مشتعل بالنار. رباه، كم أنها تحبه!
تركها تتحسس خاصرته وأطرافه وخياشيمه قبل أن يحوِّل نفسه إلى الهيئة التي عرفتها وأحبتها كثيرًا. احتضنته بشدة وشرعت في البكاء.
قال زيوس وهو يمرر أصابعه على بطنها متحسسًا جنينها من الخارج: «لما البكاء مجددًا يا فتاتي العزيزة؟ ما الذي أخطأت فيه الآن؟».
«هل أنت فعلًا الرب زيوس؟».
«بالتأكيد».
«هل تعِد أن تحقق لي أي أمنية أطلبها؟».
قال زيوس بتنهيدة: «هل أنا مضطر لذلك فعلًا؟».
«إنها شيء بسيط، لا أطلب القوة ولا الحكمة ولا الثراء ولا أي شيء مشابه، ولا أريد القضاء على أيٍّ شخص، إنها شيء صغير، أعدك بذلك».
قال زيوس وهو يداعبها برقّة تحت ذقنها: «إذًا سأحقق أمنيتك».
«أتعِدني؟».
«أعدك، أقسم لك بهذا النهر، لا، أنا أقسمت به بالفعل من قبل، أقسم لك بستيكس العظيمة ذات نفسها أني سأحقق لك أمنيتك التالية[124]»، ورفع يده بجدية مازحة.
قالت سيملي بعد نفس عميق: « إذًا، فلتظهر نفسك لي».
«ماذا تعنين؟».
أريد رؤية شكلك الحقيقي، ليس كإنسان، بل كإله، بكل بهائك وعظمَتك».
تجمدت الابتسامة على وجه زيوس وصاح: «لا! أي شيء آخر إلا هذا، لا تتمني مني هذا، لا لا لا». قالها بنبرة الصوت نفسه التي يستخدمها الآلهة عادة عندما يدركون أنهم وقعوا في فخ وعد متسرّع، صاح أبولو بنفس الطريقة من قبل لو تذكر عندما طالبه فيتون بتحقيق وعده.
ملأت الريبة سيملي.
«لقد وعدتني، لقد أقسمت بالستيكس، لقد أقسمت!».

«لكن يا فتاتي العزيزة أنت لا تعلمين فداحة ما تسألين».

«أنت أقسمت!»، وضربت سيملي الأرض بقدمها.

نظر الربّ إلى السماء وزفر في يأس، «فعلتُ، ومنحت كلمتي فعلًا، وكلمتي مقدسة».

وبينما يتكلم شرع زيوس يستجمع هيأته الأساسية في سحابة رعدية هائلة، من قلب هذه الكتلة المظلمة خرجت أكثر ألسنة البرق لمعانًا. راقبت سيملي وقد افترَّ وجهها عن ابتسامة سعادة ونشوة واسعة، لا أحد يستطيع أن يتحول هكذا إلّا الآلهة، لا أحد إلّا زيوس نفسه يستطيع أن يكبر ويتضخم وسط نيران ذهبية هائلة عظيمة كهذه.

لكن البرق اشتد، وصار أكثر عنفًا وقوة ولمعانًا وترويعًا، حتى اضطرت سيملي لرفع ذراعها لتحمي عينيها من بريقه، بلا جدوى، ثم تجمع البرق في صواعق متناثرة أصابت الفتاة بالعمى، وبصوت فرقعة عالية لدرجة جعلت أذنيها تنزفان. تراجعت الفتاة هاربة، صمّاء عمياء، لكن بعد فوات الأوان، فقد أصابتها صاعقة شديدة القوة شقّت جسدها وقتلتها على الفور.

من فوقه ومن حوله ومن داخله، سمع زيوس القهقهة المنتصرة العالية لزوجته. بالطبع، كان يجب أن يعرف، من غيرها؟ خدعت هيرا بشكل ما الفتاة المسكينة لتستدرجه إلى منحها هذا الوعد وخيم العواقب. حسنًا، لن تنال من طفلهما أيضًا. بفرقعة رعد أخرى عاد زيوس إلى هيئة اللحم والدم وانتزع الجنين من رحم سيملي، كان الجنين لا يزال أصغر من أن يتنفس الهواء، فأخذ زيوس سكّينه وشقَّ فخذه ووضع الجنين داخله، وانحنى ليخيط جرح فخذه مغلقًا الرحم المرتجل الآمن على الطفل[125].

أجدد الآلهة

بعد ثلاثة أشهر سافر زيوس وهرمس إلى نايسوس Nysus في الساحل الشمالي لإفريقيا، منطقة يُعتقد أنها بين مصر وليبيا. فك هرمس غُرز جرح فخذ زيوس، وأنجب زيوس من فخذه ابنًا، ديونايسيس Dionysus[126]. أرضعت الطفل نيمفات المطر في نايسوس[127]، وبعدما فُطم ربّاه وعلمه

سايلينوس ذو الكرش المنتفخ، الذي سيصبح لاحقًا أقرب رفاقه وتابعيه، فيما يشبه علاقة فولستاف بالأمير الصغير هال[1]. كان لسايلينوس أيضًا تابعون، السايلينيون sileni، كائنات أشبه بالساتير satyr التي سترتبط إلى الأبد بأعمال الشغب والاضطرابات والاحتفالات الصاخبة.

وكان في شباب ديونايسيس أن اكتشف الشيء الذي سيصبح مرتبطًا به إلى الأبد: اكتشف كيفية صنع النبيذ من العنب. قد يكون السنطور كايرون Chiron هو من علّمه صنعه، لكن هناك حكاية أخرى أجمل تتعلق بحب الربّ الصغير العارم لشاب يُدعى أمبيلوس Ampelos[128]. كان ديونايسيس غارقًا في الحب إلى حد أنه نظّم شتى أنواع المنافسات الرياضية بينه وبين أمبيلوس، تاركًا أمبيلوس يفوز كل مرة، ويبدو أن ذلك جعل الفتى يصبح مدللًا نوعًا ما، أو على الأقل مهملًا طائشًا. ذات يوم، بينما كان أمبيلوس يركب ثورًا بريًا، ارتكب خطأ التبجّح بأنه يركب الثيران ذات القرون أفضل من ركوب الربّة سيليني للقمر ذي القرنين. سيليني الغاضبة اختارت على الفور عقابًا من كتيب ألاعيب هيرا مباشرة، وأرسلت ذبابة خيل لسعت الثور لسعة أصابته بالجنون، فرمى أمبليوس من على ظهره ونطحه.

هرع ديونايسيس إلى حبيبه الشاب المحتضر الممزق، لكنه لم يستطع إنقاذه[129]، بدلًا من ذلك تسبب في جعل الجسد المحتضر يتحول سحريًا إلى نبات ملتفّ متسلق متلوٍ، وتجمدت قطرات دمائه في ثمرات كروية شهية صغيرة لمعت ببريق محمرّ أمام عيني الربّ الشاب. تحول حبيبه إلى كرمة عنب (التي لا تزال تسمى أمبيلوس ampelos في اليونانية حتى اليوم)، منها خمَّر ديونايسيس أول محصول وشرب أول النبيذ. ذلك السحر، تحويل دم أمبيلوس إلى نبيذ، صار هدية الرب الشاب للعالم.

مزيج من التأثير السام لاختراعه الجديد ومن عداوة هيرا له - فقد كان كره هيرا لأي نغل لزيوس، سواء كان من أصل سماوي أو أرضي، لا

(1) جون فولستاف John Falstaff شخصية خيالية تظهر في مسرحيات عديدة لشكسبير، رفيقًا للأمير هال الذي سيصبح مستقبلًا ملك إنجلترا هنري الخامس. [م]

نهاية له - أصاب ديونايسيس بالجنون لفترة، فهام على وجهه في الأرض لسنوات عديدة محاولًا الهروب من لعنتها، وناشرًا زراعة العنب وتقنيات صناعة النبيذ في شتى أنحاء العالم[130]. قابل في أشور الملك والملكة ستافيلوس Staphylos وميثا Methe وابنهما بوتريس Botrys، وبعد وليمة على شرف ديونايسيس مات ستافيلوس، أول ضحية للأثار الجانبية القاتلة للنبيذ. تشريفًا للراحل وتعويضًا لأسرته، أطلق ديونايسيس على عناقيد العنب ستافيلوس، وعلى السُكر والمشروب الكحولي ذاته ميثا، وعلى العنب نفسه بوتريس.

أخذ العلم هذه الأسماء وخلّدها بطريقة توضح العلاقة المستمرة بين الأسطورة الإغريقية ولغتنا الحديثة. عندما نظر علماء الأحياء في القرن التاسع عشر عبر الميكروسكوب ورأوا بكتيريا ذات ذيل ينبثق منه تكتّل من العقيدات الشبيهة بالعنب، أطلقوا عليها ستافيلوكوكوس Staphylococcus [المكوَّرة العنقودية]. الكحول الإيثيلي Methylated spirits والميثان methane أخذا اسميهما من ميثا، والبوتريتس Botrytis، أو العفن النبيل الذي يصيب العنب على الكرمة، ويعطي نبيذ الحلوى الراقي شذاه (وسعره) الذي لا مثيل له، يدين باسمه لبوتريس.

رافقت الربّ الجديد في مغامراته حاشية لم تتكون فقط من سايلينوس وتابعيه السايلينيين، بل أيضًا من حشد من النساء: الميناداتِ[131] Maenads.

لم يمض وقت طويل قبل أن تترسخ مكانة ديونايسيس ربًا للنبيذ والصخب والتسمم الكحولي الهذياني والانغماس بلا تحكم في الملذات، أطلق عليه الرومانيون باخوس Bacchus، وعبدوه بالإخلاص نفسه الذي عبده به قبلهم الإغريق. يمكن اعتباره المقابل القطبي لأبولو، فأحدهما يمثل النور الذهبي للمنطق والموسيقى المتناغمة والشعر والرياضيات، والآخر يُجسّد طاقة الفوضى المظلمة والتحرر والموسيقى الجامحة وشهوة الدماء والحمية واللا - منطق.

الآلهة بالطبع لهم شخصيات حية وقصص متنوعة، ولذلك قد يحيد

الواحد منهم عن مثل هذه الشخصيات الرمزية الجامدة، أبولو مثلما سنرى قريبًا جدًا أنه كان قادرًا على أن يصير دمويًا مجنونًا قاسيًا، في حين أن ديونايسيس كان بوسعه أحيانًا أن يكون أكثر من مجرَّد تجسيد للثمالة والفجور، أحيانًا كان يُطلق عليه 'المحرر'، طاقة حياة نباتية الأصل قادرة على إحياء وتجديد العالم بشكل حميد[132].

الثالث عشر

ورقة كرمة العنب، الثيرسوس thyrsus (عصا يتوّجها عنقود عنب)، عربة تجرها الفهود أو غيرها من الحيوانات الغريبة، حاشية منحرفة تسعى وراء نزواتها الصارخة، أباريق يسيل منها النبيذ...

أضافت الفكرة الديونايسيسية الكثير للعالم.

كان لهذا الإله الجديد أهمية استدعت أن يصعد إلى الأوليمبوس ذاته، غير أن دزينة الآلهة هناك كانت كاملة، والثالث عشر كان رقمًا يُنظر له كنذير شؤم حتى في تلك الأزمنة. حكّ الآلهة ذقونهم وفكروا طويلًا في ما الذي يمكن عمله لحلّ هذه المعضلة، أرادوا ديونايسيس بينهم، بل إنهم في الواقع أحبوا جدًا طاقته الاحتفالية التي يجلبها معه في كل تجمّع، والأهم من كل شيء أحبوا فكرة إضافة النبيذ إلى النكتار بدلًا من العسل المختمر وعصير الفواكه الخالي من الإضافات.

قالت هستيا وهي تنهض واقفة: «جاء في وقته تمامًا، أشعر منذ فترة أني بحاجة للنزول إلى العالم لمساعدة الناس والعائلات، ولأتواجد في المعابد التي تحتفي بفضل المدفأة والبيت والقاعات، ليأخذ باخوس الصغير مكاني».

همهمة اعتراض غير مقنعة سرَت في المكان بينما تتنحى هستيا عن مكانها، لكنها أصرت على الاستبدال مثلما تمنى الآلهة في دواخلهم، كلهم عدا واحدة؛ هيرا اعتبرت ديونايسيس أسوأ إهانة لها على الإطلاق. كان أبولو وأرتيميس وأثينا إضافات مسيئة وغير شرعية بما فيه الكفاية

للدوديكاثيون، لكن إضافة ذلك النغل نصف البشري للسماء أهانها في الصميم. أقسمت هيرا ألّا تمس أبدًا سم ديونايسيس هذا، وأن تتجنب بشكل شخصي أي احتفال يُراق فيه شرابه ويهين السلام والاحتشام السماوي.

عندما أنجبت أفروديتي ابنًا من ديونايسيس، لعنت هيرا الطفل الذي كان اسمه برايابوس Priapus بالقبح والعجز الجنسي، ونفته من الأوليمبوس. أصبح برايابوس إلهًا للأعضاء الذكورية وكل ما يرمز للقضيب، اختصه الرومانيون بمنصب الرب الثانوي للانتصاب، لكن الانكماش وخيبة الأمل كانا من نصيبه كل مرة. سيظل برايابوس دائمًا في حالة إثارة، لكن بسبب لعنة هيرا سيفشل كل مرة في تحقيق غاية الرغبة، هذه المشكلة الدائمة المحرجة ستجعله مرتبطًا بشكل طبيعي إلى الأبد مع الكحول، هدية أبيه للعالم، الذي يثير الرغبات لكن يحرم من القدرة على الأداء.

إنما سواء أحبت هيرا ذلك أم لا، ديونايسيس الذي ولد مرتين بات الإله الوحيد من أصل بشري فانٍ الذي يصعد ويأخذ مكانًا على مائدة الاثني عشر، التي باتت ثابتة لن تتغير أبدًا بعد الآن.

الجميلة والملعون

ربّات غاضبات

أكتيون

بيت آل كادموس كان واحدًا من أهم بيوت العالم اليوناني. بدأ بكادموس، مؤسِّس ثيفا وجالب الأبجدية، ثم بعده أسرته التي كانت مركزًا رئيسيًا في بناء اليونان. لكن مثل كثير من البيوت العظيمة كانت هناك لعنة مرتبطة به، قتل تنين المياه كان ضروريًا لبناء المدينة، لكنه تسبب في جلب لعنة آريس أيضًا؛ نادرًا ما تمنح ربّات القدر النصر والمجد دون أن تصحبهم بالبؤس والمعاناة.

أنجبت أوتونوي ابنة كادموس ولدًا يُدعى أكتيون Actaeon، أبوه كان ربًا ثانويًا اسمه أريستيوس Aristaeus تشيع عبادته في بيوشا (كان يُلقَّب أحيانًا بأبولو الغيطان). السنطور العظيم الحكيم كايرون هو من درَّب أكتيون وعلّمه، مثلما سيفعل مع كثير من الأبطال بعده. كبر أكتيون ليصبح صيادًا وقائدًا محبوبًا، ومشهورًا بشجاعته في المطاردة ومهارته وقوته الأليفة في التعامل مع كلاب صيده التي أحبها حبًا جمًا.

ذات يوم، انفصل أكتيون ورفاقه الصيادين عن بعضهم بعدما اختفت رائحة الأيل النبيل الذي كانوا يتتبّعونه ليتقفّى كل منهم الأثر بنفسه. صادف أكتيون في طريقه بعد تعثره بين الأجمات نبعًا تغتسل فيه أرتيميس. بما أنها كانت ربّة الصيد والمطاردة، الأشياء التي يحبها أكثر من أي شيء، كان يفترض بأكتيون أن يعرف أنّ من الأفضل له ألا يقف محدقًا بهذا الغباء في عُري أرتيميس، فقد كانت أيضًا ربة العفة والطهارة والعذرية، لكنها كانت جميلة، أجمل من أي كائن وقعت عليه عينا أكتيون على الإطلاق، إلى حد

أنه تجمَّد في مكانه بثغر مفتوح وأعين تكاد تقفز إلى الخارج، ولم تكن عيناه فقط التي تكاد تقفز إلى الخارج.

شيئًا ما جعل أرتيميس تستدير، ربما كان انكسار غصن تحت قدم أكتيون أو صوت وقوع لعابه على الأرض، المهم أنها استدارت لترى شابًا يحدق فيها، فغلى الدم في عروقها. فكرة أن يجول أحدهم في أنحاء العالم مرددًا أنه رآها عارية كانت كريهة جدًا بالنسبة لها حتى أنها صاحت:

«أنت، أيها الفاني، يا من تحدق بي بهذه الوقاحة، إني أُحرّم عليك النطق ما دمت حيًا، لو أنك تفوهت بأدنى صوت فعقابك سيكون مريعًا. أومئ برأسك إن كنت تفهم».

أومأ الشاب التعيس برأسه، وعلى الفور اختفت أرتيميس من أمامه وتركته وحيدًا يتأمل مصيره.

من خلفه ترددت صيحة أعلن بها رفاقه الصيادين أنهم التقطوا الرائحة مرة أخرى، استجاب لها أكتيون غريزيًا بصيحة مماثلة، وما إن فعل حتى حلّت به لعنة أرتيميس وتحوّل من فوره إلى أيل.

رفع أكتيون رأسه الذي باتت تثقله القرون، وركض في الغابة حتى بلغ نبعًا، عندما نظر إلى انعاكسه على سطح الماء أطلق ما كان يفترض أن يكون أنينًا لكنه خرج منه خوارًا هائلًا، أجاب على الخوار نباح مخيف، وفي خلال ثوان اندفعت كلاب صيد أكتيون ذاتها إلى المكان. درَّبهم أكتيون من قبل على تمزيق حنجرة الأيائل والتغذي على دمائها كمكافأة لهم[133]. بينما تعوي الوحوش وتزمجر وهي تغرس أنيابها في عنقه، رفع أكتيون أقدامه الأمامية إلى أعلى، إلى الأوليمبوس، وكأنه يتوسل شفقة الآلهة، لكنهم إما لم يسمعوا أو لم يأبهوا. ولم يمر وقت طويل قبل أن يتمزق الصياد إربًا.

إيريسيكثون

ترتبط الربّة ديميتر بالوفرة والخصوبة وسخاء الطبيعة، لكن إن ضُغط عليها بأكثر مما يتسع صبرها، فهي تصبح منتقمة مثل أرتيميس ذاتها، مثلما

توضح الحكاية التالية عن العقاب القاسي لإيريسيكثون ملك ثيساليا.

خرج إيريسيكثون الجريء عديم الخوف والصبر ذات يوم على رأس مجموعة من الحطّابين إلى الغابة، من أجل تلبية احتياجه لخشب يستخدمه لبناء غرف جديدة في قصره. بلغ مع رجاله أيكة أشجار بلوط مزدهرة.

صاح: «ممتاز، أريد سماع أصوات فؤوسكم يا شباب».

لكن رجاله تراجعوا وهزّوا رؤوسهم وسط همهمات غير واضحة.

توجه إيريسيكثون لكبيرهم: «ما خطبهم؟».

«إن هذه أشجار مقدسة عند ديميتر يا مولاي».

«هذا هراء، ديميتر عندها أشجار أكثر مما تستطيع أن تحصي، اقطعوها».

مزيد من الهمهمات.

انتزع إيريسيكثون السوط من كبير الحطابين، السوط الذي لم يستخدمه صاحبه من قبل لما هو أكثر من التلويح والتظاهر، وفرقعه بعنف فوق رؤوس الحطابين.

صاح: «إن لم أرَ هذه الأشجار ممددة أمامي، فستعرف جلودكم لسعات السوط».

كلمات ملكهم وسوطه كانوا أكثر من كافيَيْن لحثّهم، فقطع الرجال المترددون الأشجار، غير أنهم عندما بلغوا بلّوطة عملاقة في منتصف الأيكة توقفوا مجددًا.

قال إيريسيكثون: «إنها لأطول الأشجار وأعرضها، وحدها قادرة على توفير خشب كافٍ لدعامات وأعمدة غرفة العرش، وسيفيض منها بعد ذلك ما يكفي لبناء سريرٍ عظيمٍ من أجلي».

أشار كبير الحطابين بإصبعٍ مرتجف إلى أفرع البلوطة التي تحيط بها أكاليل الزهور.

لم يتأثر الملك، «ما المشكلة؟».

همس كبير الحطابين: «مولاي، إن كل إكليل يمثل دعوة استجابت لها الربّة».

«ما دامت استجابت للدعوات بالفعل فلا حاجة لكل هذه الزهور، اقطعها».

غير أن الملك عندما رأى أن خوف رجاله يعيقهم عن المتابعة، انتزع بنفاد صبر فأسًا وشرع في قطعها بنفسه.

كان رجلًا قويًا، ومثل كل الحكام كان يحب استعراض قوته ومهارته وإرادته، ولم يمض وقت طويل قبل أن يتمايل الجذع السميك بصرير تحت ضرباته. هل سمع إيريسيكثون بكاء الهمادريادية التي تسكن الأغصان؟ لو سمعها فهو لم يأبه بها وظل يضرب بفأسه مرة تلو الأخرى، حتى انهارت الشجرة بكل فروعها وزهورها وأكاليلها وهمادرياديتها.

ماتت البلوطة، وماتت الهمادريادية، ومع آخر أنفاسها لعنت إيريسيكثون على جريمته.

سمعت ديميتر عن تدنيس إيريسيكثون لحُرمة مقدساتها، فأرسلت إلى ليموس. ليموس كانت إحدى الكائنات المريعة التي طارت خارجة من جرة بندورا، شيطانة المجاعات، وهي ما يمكن اعتباره المقابل الخبيث الضروري لديميتر في عالم الفانين، إحداهما بشير النعيم وغزارة الحصاد، والأخرى نذير قاس لا يرحم بالجوع والبلاء. علاقة التضاد الذي لا يمكن توفيقه بينهما جعلت مقابلتهما شخصيًا من قبيل المستحيل، لذا أرسلت ديميتر نيمفة جبال رسولة لها لتحث ليموس على تحقيق لعنة الهمادريادية في إيريسيكثون، وتلك كانت مهمة لا تتردد شيطانة مؤذية مثل ليموس في قبولها.

طبقًا لأوفيد، كانت أثداء ليموس مترهّلة، ومكان بطنها خاويًا يكشف عن أمعاء متعفنة، عيناها غائرتان وشفتاها مشقّقتان وبشرتها حرشفية، وشعرها قشري واهن قذر، وكاحلاها متورّمان تكسوهما البثور، كانت المجاعة وقد تجسدت في هيئة مُريعة للناظرين. تسللت ليموس تلك الليلة إلى غرفة نوم إيريسيكثون، وأخذت الملك النائم تحت ذراعيها ونفخت فيه نفَسَها الفاسد الكريه. تسللت أبخرتها السامة عبر فمه إلى

حلقه ورئتيه، وجرت في عروقه دودة النهم والتضور التي لا تشبع، متجهة إلى كل خلية في جسده.

استيقظ إيريسيكثون من حلم غريب يشعر بجوع ثقيل جدًا، فاجأ العاملين في المطبخ بطلب إفطار هائل التهمه حتى آخر كسرة خبز، لكن شهيته لم تهدأ. اكتشف على مدار اليوم أنه كلما أكل أكثر ازداد تضورًا، وبمرور الأيام والأسابيع أخذت آلام الجوع تنهش أعماقه، ومهما أكل لا يشبع، ولا يزداد وزنه جرامًا حتى. بات الطعام له كالوقود للنار، لا يؤدي إلّا إلى تأجج الجوع أكثر، لهذا صار الناس يسمونه من وراء ظهره إيثون Aethon، أي المحترق.

ربما كان إيريسيكثون أول رجل على الإطلاق يأكل بيته وحياته، فقد باع كل كنوزه ومقتنياته، بل وحتى قصره، ليشتري مزيدًا من الطعام، لكن يظل هذا غير كافٍ، فلا شيء قادر على إشباع جوعه الهائل. تدنّى به الحال إلى بيع ابنته مسترا Mestra ليستجيب بثمنها إلى أوامر شهيته الطاغية التي لا مناص منها ولا رحمة.

لكن بيعه لابنته كان أمرًا أقل وحشية وأكثر دهاء مما يبدو عليه: مسترا الجميلة كانت ذات يوم عشيقة لبوسايدون، وأهدى رب المملكة التي لا تنفك تبدل شكلها عشيقته القادرة على تبديل شكلها أيضًا. كل أسبوع كان إيريسيكثون يعرض ابنته على خاطب غني ويقبل منه مهر الزواج، وتمضي مسترا مع خطيبها الغني إلى بيته، ثم تهرب بعد أن تتحول إلى شكل حيوان ما وتعود إلى إيريسيكثون، جاهزة للبيع إلى خاطب غني ساذج جديد.

لكن حتى هذه الخطة اتضح أنها غير كافية لإسكات صراخ ولهب الجوع الساحق في داخله. ذات يوم، في خضم يأسه، قضم إيريسيكثون يده اليسرى، ثم تبعها بذراعه، ثم كتفه، ثم قدميه وساقيه، ولم يمض وقت طويل قبل أن يلتهم ملك ثيساليا نفسه بالكامل.

وتحقق انتقام ديميتر والهمادريادية.

الطبيب والغراب

ولادة الطب

الأميرة كورونيس Coronis من مملكة فليجيانتيس Phlegyantis الثيسالية كانت شديدة الجمال، وكانت فاتنة لدرجة أنها جذبت انتباه الرب أبولو ذاته، فاتخذها لنفسه حبيبة. قد تحسب أن رفقة وحب أجمل الآلهة شيء كافٍ لأي شخص، لكن كورونيس وقعت في حب فانٍ اسمه إسكس Ischys وضاجعته، بينما هي حامل من أبولو.

أحد غربان أبولو البيضاء شهد الخيانة وطار عائدًا ليخبر سيده بالإهانة التي لحقت بشرفه، أبولو المهتاج غضبًا طلب من أخته أرتيميس أن تنتقم له، أرتيميس لبّت طلبه عن طيب خاطر وهاجمت القصر الفليجيانتيسي بوابل الوباء؛ أسهم مسممة نشرت العلل في المكان، فمرضت كورونيس والكثيرون معها. رأى الغراب كل ذلك فعاد ليقدم لأبولو تقريرًا شاملًا.

«إنها تموت يا مولاي، تموت».

«هل قالت أي شيء؟ هل اعترفت بذنبها؟».

قال الغراب: «نعم، قالت 'كم أستحق مصابي، أخبروا أبولو العظيم أني لا أسأل غفرانًا ولا أرجو عفوًا، لا عفوًا ولا شفقة، فقط أنقذ حياة ابننا، أنقذ ابننا' ها ها ها».

وأخذ الغراب ينعق ببهجة خبيثة حتى أن أبولو فقد أعصابه فحوّل لونه إلى الأسود، ومنذ ذلك الحين باتت الغربان بكل أنواعها بذلك اللون.

بعدما ندم أبولو على ما صدر منه ذهب إلى فليجيانتيس الموبؤة، فوجد كورونيس ممددة ميتة على المحرقة الجنائزية، تلعق ألسنة اللهب

أطرافها. قفز أبولو وسط النار وهو يبكي، وشق رحمها وانتزع ابنهما الذي كان لا يزال حيًا. رفع أبولو كورونيس بعدها إلى النجوم في كوكبة الغراب Corvus[134].

الرضيع الذي أنقذه أبولو وأطلق عليه اسم أسكليبيوس Asclepius وُضع في رعاية السنطور (centaur) كايرون. ربما بسبب أن أسكليبيوس وُلد جراء عملية جراحية (وإن كانت عملية عنيفة نوعًا ما)، أو لأنه بينما كان جنينًا عصف الوباء بالعالم حوله، أو لأن أباه كان أبولو رب الرياضيات والدواء، أو ربما بسبب كل تلك الأشياء، ظهرت على أسكليبيوس منذ طفولته المبكرة أمارات الموهبة في الطب والعلاج.

صار من الواضح لكايرون بينما يكبر الفتى أمامه أنه حاز على عقل ثاقب منطقي فضولي إلى جوار موهبة العلاج الطبيعية، وبما أن كايرون نفسه كان يفقه الطبيعة والأعشاب والمنطق، فقد وجد غاية السعادة في تدريب الصغير على فنون الاستشفاء. علّمه القواعد الأساسية لتشريح الحيوانات والبشر، وعلمه أن المعرفة تأتي من الملاحظة والتسجيل المستمر لا من نسج النظريات، وأوضح له كيفية جمع النباتات الطبية، وطحنها وخلطها وتسخينها، وتحويلها إلى مسحوق أو مشروب، وتحضيرها للأكل أو للشرب أو للدمج مع الطعام، وشرح له كيفية كبْح النزيف ووضع الكمادات وتضميد الجروح وتجبير الكسور. قبل أن يصير الفتى في الرابعة عشر كان قد أنقذ بالفعل ساق جندي من البتر، وأعاد فتاة محمومة من حافة الموت، وأنقذ دبًا من فخ، وأنقذ أهل قرية من وباء الزحار، وشفى ثعبانًا متوجعًا عبر دهنه بمرهم من اختراعه. شفاؤه للثعبان بالذات سيتضح أنه ذو أهمية لا تقدر بثمن، ذلك لأن الثعبان الممتن لعق أذن أسكليبيوس شكرًا وهمس له بكثير من أسرار فنون العلاج التي كانت مخفيّة حتى على كايرون.

أثينا التي كانت الثعابين عندها مقدسة منّت على أسكليبيوس بشكرها أيضًا، ومنحته جرة ممتلئة بدماء جرجونة. قد تفكر أنّ هذه هدية مقيتة، لكنها في الواقع العكس تمامًا، فأحيانًا ينطبق قانون الأضداد. قطرة واحدة

من الأيكور الفضي الذي يجعل الآلهة خالدين تقتل من يلمسها أو يتذوقها من البشر، وفي المقابل دماء كائن مميت وخطير مثل الجرجونة ذات الشعر الأفعواني لديها قدرة على إعادة الأموات إلى الحياة.

ببلوغه سنّ العشرين كان أسكليبيوس قد أتقن فنون الجراحة والعلاج. عانق معلمه كايرون في وداع حار ثم غادر وحده ليصبح أول طبيب وحكيم؟معالج وصيدلي في العالم. ذاع صيته على طول منطقة البحر المتوسط بسرعة شديدة، تواقد إلى عيادته السقيم والكسيح والتعيس من كل مكان، وعلّق على بابها شعاره: عصا خشبية تلتف حولها أفعى، علامة لا يزال بوسعك رؤيتها اليوم على العديد من سيارات الإسعاف والمستشفيات ومواقع الإنترنت الطبية (سيئة السمعة عادة)[135].

تزوج أسكليبيوس من إيبايوني Epione، والتي يعني اسمها «التلطيف» أو «التحرر من الألم»، أنجبا ثلاثة أبناء وأربع بنات، ودرّب الأب بناته بالصرامة نفسها التي درَّبه بها كايرون.

علّم أكبر بناته، هايجيا Hygieia، مبادئ النظافة والنظام الغذائي والتمارين البدنية التي يُطلق عليها اليوم (هايجين Hygiene) على اسمها.

أما باناسيا Panacea فقد كشف لها عن فنون الصحة الكونية، عن تحضير العلاج وإنتاج الأدوية والترياقات التي يمكنها شفاء أي شيء، وهو بالضبط ما يعنيه اسمها «شفاء كل شيء».

أسِسو Aceso تعلمت من أبيها عملية الشفاء ذاتها، بما فيها ما نسميه الآن (علم المناعة Immunology).

أصغرهن، إياسو Iaso تخصصت في التعافي والنقاهة.

أكبر ولدين، ماكايون Machaon وبوداليريوس Podalirius أصبحا نماذج أولية من أطباء الجيش، خدمتهم اللاحقة في حرب طروادة سيسجلها هومر.

الولد الأصغر تلسفوروس Telesphorus يُصوّر عادة برأس مغطى وطول محدود، مجال دراسته كان إعادة التأهيل واستعادة المريض لكامل عافيته.

كل شيء كان سيظل على ما يرام لو أن أسكليبيوس فقط احتفظ بالجرة التي أهدتها له أثينا محكمة الغلق. أكان الاحتفاء به والمجد الذي رفعه لمكانة تشبه القديس أو المُنقذ هو ما دفعه لاستخدامه؟ أم رغبة صادقة في هزيمة الموت بفنونه؟ لا يمكننا أن نعرف بالضبط، لكن المهم أن أسكليبيوس استخدم دم الجرجونة ذات مرة في إحياء مريض ميت، ثم فعلها مرة ثانية، ثم مع الوقت بات يستخدمه بحرية وكأنه زيت خروع.

بدأ هاديس في التبرم وإبداء الحنق، وعندما لم يعد يتحمل وصل به الأمر لمغادرة العالم السفلي والمثول غاضبًا أمام عرش شقيقه زيوس.

«هذا الرجل يحرمني من الأرواح، إنه ينتزع الأرواح من بين يدي ثاناتوس بينما تتجهّز للقدوم إلينا، لا بد أن ينتهي هذا».

قالت هيرا: «أؤيد ذلك، إنه يعبث بالنظام الأصلي للعالم، لو أنّ شخصًا حان موعد موته، فليس من المقبول أبدًا أن يتدخل فانٍ لمنع ذلك، لقد ارتكبت ابنتك أحمق الأفعال بإعطائها إياه دماء جرجونة».

عبس زيوس، فإنه لا يستطيع إنكار حقيقة ما قالاه، خاب أمله في أثينا، إنها لم تخنه في شيء صارخ لا يُغتفر مثلما فعل بروميثيوس، لكن كانت هناك مواطن تشابه بين فعليهما تضايقه. إن الفانين فانون ولا تجاوز لذلك، السماح لهم بالوصول لأدوية تمنحهم سلطة على الموت هو شيء غير مقبول.

الصاعقة التي ضربت أسكليبيوس كانت مفاجِئة تمامًا، ومثل كل الصواعق الرعدية التي ترسلها السماء، تركته ميتًا كصخرة. بكت اليونان بأسرها طبيبها ومداويها المحبوب، لكن أبولو فعل ما هو أكثر من رثاء ابنٍ محتضرٍ، ثارت ثورته ما إن سمع النبأ، وذهب بنفسه إلى ورشة هيفايستوس ورمى ثلاثة أسهم سريعة متعاقبة، قتل بها برونتس وستيروبيس وأرجيس، السيكلوبسات اللواتي كانت مهمتهن الأبدية هي صناعة صواعق الرعد لأبي السماء.

تمرّد بهذه الفداحة لم يكن من الممكن التغاضي عنه، زيوس لم يكن متسامحًا مع أي تهديد لسلطته، وكان يتحرك بسرعة لإخماد أدنى إشارة للعصيان في مهدها. رُمي أبولو خارج الأوليمبوس وأُمر أن يخدم الملك الثيسالي أدميتوس Admetus في مكانة متدنية لسنة ويوم. أدميتوس نال

حظوة زيوس بضيافته الكريمة للغرباء وعطفه عليهم، وهو طريق مباشر مضمون لقلب زيوس.

كان أبولو قد عوقب في صغره إن تذكر لقتله الثعبان بايثون، جماله وفتنته الذهبية أخفت قلبًا عنيدًا وطبعًا عنيفًا، لكنه خضع للعقاب بلا احتجاج. أدميتوس كان شخصًا يستحيل كرهه، خدمه أبولو كراعي بقر، وطوال فترة خدمته تأكد أبولو أنّ كل بقرة ستنجب توأمين[136]، فقد كانت الماشية اختصاصه.

في الوقت ذاته رُفع أسكليبيوس إلى السماء في كوكبة أوفيوكوس Ophiuchus [كوكبة الحواء]، أي حامل الثعبان.

مصادر لاحقة أكدّت أن زيوس رد أسكليبيوس إلى الحياة ورفعه إلهًا، وفي الواقع كان أسكليبيوس وزوجته وبناته يُعبدون في شتى أنحاء عالم البحر الأبيض المتوسط. المعابد المخصصة له، المعروفة بأسكليبيا Asclepia، انتشرت في كل مكان، وتحمل مواطن شبه عديدة للمنتجعات والنوادي الصحية المعاصرة، الكهنة الرسميون هناك ارتدوا الملابس البيضاء، وغسلوا ودلكوا ودللوا العابدين (الذين يدفعون) بالزيوت والكريمات والخاصة المميزة، مثلما يفعلون اليوم. الثعابين التي كانت على الدوام مقدسة عند أسكليبيوس (الأنواع غير السامة منها) تُركت لتزحف كما تحب في غرف التعافي والعيادات، وهو شيء أقل انتشارًا في معابد الصحة اليوم. الروح والعقل كانا أيضًا محل اهتمام وعناية وقتها مثلما هما اليوم، كانت الأحلام تُسرد على الكهنة في الصباح بعد قضاء ليلة في المعبد (فيما يُعرف بالاحتضان)، وأسكليبيوس نفسه كان يتجسد للمرضى، خاصة - على ما أعتقد - لأولئك الذين يدفعون أكثر.

معبد الأسكليبيون Asclepion في مدينة إبيداوروس Epidaurus كان مركز جذب وقتها مثلما هو مسرح المدينة الشهير اليوم، لا يزال بوسع الزائرين رؤية سجلات الأمراض والعلاج والأنظمة الغذائية والأدوية للمرضى الذين توافدوا على المكان من قبل.

الجريمة والعقاب

الظهور المتكرر للآلهة وتداخلهم وتزاوجهم مع المجتمع البشري كان ليكون شيئًا مذهلًا ومثيرًا ومربكًا لو حدث في عالمنا المعاصر، لكن بعض فاني العصر الفضي الحمقى المعتدّين بأنفسهم كانوا يعتبرونه أمرًا عاديًا. بعض الملوك كانوا منفوخين؟متعجرفين لدرجة تجاهلهم لأكثر المبادئ الأولية التي تمثلها الآلهة، وإبدائهم منتهى قلة الاحترام والاستهتار تجاههم. مثل الآباء الذين يغرقون أبناءهم بحكايات أخلاقية قاسية، أو مثل دانتي[1] وهيرونيموس بوس[2] بكل تفاصيلهم الجحيمية التحذيرية، يبدو أن الإغريق كانوا يتلذذون بالتفاصيل الحية والملائمة الممتازة لصنوف العذاب التي يختارها أهل الأوليمبوس وهاديس للرجال والنساء الذين بلغت تجاوزاتهم حدًا لا يمكن التسامح معه.

إكسيون

لم تكن ثمة خطيئة عند زيوس أفدح من خيانة الزينيا، أي خيانة الواجب المقدس للمضيف تجاه ضيوفه وللضيوف تجاه مضيفهم، وربما لم يظهر أحد من الفانين احتقاره للزينيا أكثر من إكسيون Ixion ملك اللابيثيين Lapiths، وهم قبيلة عتيقة من ثيساليا.

أول جرائم إكسيون كانت جشعًا عاديًا. مفهوم المهر ليس غريبًا علينا، أن

(1) دانتي أليجري Dante Alighieri (1265 - 1321): شاعر ومؤلف إيطالي من بدايات عصر النهضة، صاحب الكوميديا الإلهية. [المترجم]

(2) هيرونيموس بوس Hieronymus Bosch (1450 - 1516): رسام هولندي تصور العديد من أعماله الخطيئة والفشل الأخلاقي الإنساني. [المترجم]

تدفع أسرة العروس المحتملة قدرًا من المال لتؤخذ ابنتهم من بين أيديهم، لكن في الأزمنة المبكرة كان ذلك يحدث بالعكس: العريس المحتمل هو من يدفع لأسرة العروس لينال حق الزواج من ابنتهم. تزوج إكسيون من الجميلة ديا Dia لكنه رفض أن يدفع لأبيها ديونيوس Deioneus ملك فوكيس الثمن المتفق عليه للعروس، فانتقم الملك المُهان بإرسال قوة أغارت على قطيع من أفضل أحصنة إكسيون، لكن إكسيون أخفى غضبه وراء ابتسامة عريضة ودعى ديونيوس لتناول العشاء في قصره في لاريسا Larissa، وعندما وصل الضيف ألقاه إكسيون في حفرة تضطرم فيها النيران. هذا التعدّي الفاجر على أصول الضيافة ضاعف فداحته ارتكاب الخطيئة الأعظم: قتل الأقارب كان يعتبر من ألعن المحرمات على الإطلاق، وإكسيون بفعله هذا صار من أوائل مرتكبي قتل ذوي الدم، وإن لم يُطهّر من خطاياه فستطارده الفيوريات حتى يجن.

أمراء ونبلاء وملّاك الأراضي المجاورون في ثيساليا كانت لديهم أسبابهم لكره إكسيون، ولم يعرض أي منهم أن يقوم لأجله بطقوس التطهير catharsis، وهي العملية الشعائرية اللازمة ليغفر له. غير أن ملك الآلهة كان في مزاج متسامح مفاجئ، فرغم إسراع أهل ثيساليا لإظهار نفورهم من جريمة إكسيون المزدوجة، أظهر زيوس له الرحمة، ولم يكتف بأن يعفيه من العذاب، بل دعاه لحضور وليمة في الأوليمبوس أيضًا.

مثل هذا الشرف كان نادرًا ما يحظى به فانٍ. عظمة وبهاء الوليمة الأوليمبية كانت تفوق أي شيء رآه إكسيون من قبل، وخلب لبّه بالذات الجمال الملكي لهيرا. ربما جاء تصرفه نتيجة للتأثير المسكر السام للمناسبة العظيمة أو للنبيذ، أو ليس لأكثر من كونه فظًا أحمقَ بالفطرة، لم يستطع أحد تحديد السبب بالضبط، لكن سلوكه على أي حال كان أبعد ما يكون عن الامتنان المتواضع الذي قد تتوقعه من أي فان دعاه خالد لتناول العشاء على مائدته؛ ارتكب إكسيون خطيئة محاولة إغواء ملكة السماء. أرسل إكسيون لهيرا القبلات، غمز لها، حاول عض أذنها، همس لها بتعليقات

خليعة، ووضع يده على ثدييها متعمدًا أكثر من مرة. لم يكن فقط يهين أكثر أهل الأوليمبوس شرفًا وتبجيلًا، بل كان يتجاوز مرة أخرى قواعد الزينيا، فتجاوز حدود الضيف شيء لا يقل شناعة عن تجاوز حدود المضيف.

بعد التربيتات على الظهر وكلمات الشكر نزل إكسيون من الأوليمبوس، وأخبرت هيرا المستاءة زيوس بتعدي إكسيون على شرفها، واشتعل غضب زيوس بالقدر ذاته، وقرر أن ينصب فخًا لإكسيون. جمع جامع الغيوم غيومًا، وشكلها على هيئة تشريحية تشبه هيرا بالضبط، ثم نفخ فيها الحياة وأرسلها لمروج لاريسا، حيث رأى إكسيون ينام على العشب ويغط بتأثير الوليمة.

عندما استيقظ إكسيون ليجد هيرا بجواره اتجه إليها وجامعها من فوره، ما إن رأى زيوس هذا المشهد الكافر حتى أرسل صاعقة رعدية وعجلة نارية، ألقى انفجار الصاعقة الرعدية إكسيون في الهواء وعلّقه في العجلة النارية، وجعل زيوس العجلة تدور في السماوات، ومع الوقت قرر أنّ في السماء تشريفًا لا يليق بإكسيون، فأرسله وهو لا يزال مقيدًا بعجلته إلى تارتاروس، حيث لا يزال مقيدًا ومشدودًا بها تدور به ويحترق حتى يومنا هذا.

هيرا المصنوعة من الغيوم سُميت نيفلي Nephele، وجماعها مع إكسيون نتج عنه ابنٌ: سنتوروس Centauros، ولد قبيح مشوه كبر ليصير رجلًا تعيسًا لم يجد متعته في البشر، بل في الأحصنة البرية على جبل بيليون Pelion حيث يحب أن يتجول عادة. الكائنات البرية الوحشية الناتجة عن ذلك الاتحاد غير الطبيعي سُميت على اسمه بالسنطورات[137].

عواقب

تفضي كثير من الأساطير اليونانية إلى نتائج عديدة، كثير من الشخصيات الرئيسية في قصة ما، مثلما رأينا من قبل، تذهب وتتزوج وتنشئ سلالات وعائلات يخرج منها لاحقًا مزيد من الأبطال الأسطوريين، وثمة العديد من الأساطير الفرعية التي انبثقت من عجلة إكسيون النارية.

مثلًا، وبما أننا ذكرنا جبل بيليون، يجدر بنا ذكر قصة إفيميديا

Iphimedia، التي كانت واقعة في غرام بوسايدون لدرجة أنها كانت تجلس باستمرار على شاطئ البحر وتغرف من مائه وتصبه على ثدييها وحجرها. بوسايدون تأثر بإظهار العشق هذا أيّما تأثر، فعبر المحيط على موجة عظيمة ليجتمع بها، نتيجة هذا الاجتماع كانت توأمين ولدين: أوتوس Otus وإفيالتيس Ephialtes. كانا ولدين عملاقين بمقاييسنا المعاصرة، إذ كانا يكبران بمقدار سعة يد بشرية كل شهر، وصار جليًا أنهما سيصبحان أضخم الكائنات الحية عندما يبلغان النضج الكامل.

بوسايدون، كما تذكر، كان غيورًا طموحًا، لم تفارق رأسه قط احتمالية أن يزلّ شقيقه الأصغر زيوس زلّة تُطيح به من على عرشه. وضع بوسايدون في رأس ابنيه المتناميين بسرعة فكرة تحدي السماء عبر بنائهم لجبلهم الخاص الذي سيحكمون منه العالم. خطتهم كانت رفع جبل أوسا Ossa وإلقاءه فوق الأوليمبوس، وفوق أوسا سيراكمون جبل بيليون. لكن قبل أن يصل التوأمان للطول والقوة الكافية لتحقيق ذلك، وصل زيوس خبر احتمال تمردهما، فأرسل أبولو ليمطرهما بأسهمه. عقابهما في العالم السفلي كان التقييد في أعمدة بأفاع متلوية.

وعلى سبيل مد أحد خيوط الحكاية على استقامته إلى أحد نتائجه البعيدة (وكمثال أخر لكيف يمكن أن تؤدي قصة ما إلى أخرى وأساطير أكثر أهمية وأبعد تأثيرًا)، لك أن تعرف أن نيفلي لاحقًا ستتزوج ملكًا بيوشيًا يدعى أثاماس Athamas[138]، ومنه أنجبت ولدين: فريكسوس Phrixus وهيلي Helle. نيفلس ستنقذ حياة فريكسوس - مثلما في قصة إسحاق وإبراهيم في العهد القديم - عندما سيربط أثاماس ابنه في الأرض ليضحي به، ومثلما أرسل الرب العبري كبشًا لينقذ حياة إسحاق، أرسلت نيفلي كبشًا ذهبيًا لتنقذ ابنها فريكسوس. الصوف الذهبي لهذا الكبش سيؤدي إلى رحلة جيسون Jason العظيمة ورفقة الأرجونوتس Argonauts. كل هذا بدأ من ملك سكير منحط تجرأ على النظر إلى هيرا بوقاحة.

عجلة إكسيون أصبحت موضوعًا شائعًا عند الرسامين والنحاتين،

وتعبير «عجلة نار a wheel of fire» يُستخدم أحيانًا للإشارة إلى الحمل أو العقاب أو الواجب المؤلم[139]، وتعبير «ألقي بيليون على أوسا» يستخدم أحيانًا أيضًا، ويعني مراكمة الصعب على الصعب.

تانتالوس

ربما أكثر أنواع العذاب التي ابتكرتها الآلهة اليونانية شهرة كان ذلك الذي خُصص للملك الشرير تانتالوس، عواقب جرائمه وتبعاتها ظلت تتردد عبر السنوات، واللعنة التي أصابت بيته لم تُرفع حتى نهاية العصر الأسطوري.

حكم تانتالوس مملكة ليديا في غرب آسيا الصغرى، المنطقة التي ستعرف لاحقًا بمقاطعة الأناضول في تركيا. جبل سيبيلوس Sipylus الغني بالثروات المعدنية جلب على مملكة تانتالوس ثروات عظيمة، ومنها بنى الملك مدينة مزدهرة تُدعى - بمنتهى التواضع - تانتاليس Tantalis. تزوج تانتالوس من ديوني Dione (إحدى الهايديات أو نيمفات المطر، اللواتي أرضعن ديونايسيس الرضيع)، وأنجبت له ابنًا وابنة: بيلوبس Pelops ونايوبي Niobe[140].

ربما جاء فعل تانتالوس من غرابة في شخصيته، أو من أن ثراءه وقوته أوهماه أنه لا يقل عن الآلهة. ارتكب تانتالوس خطيئة إكسيون من قبله وتعدى على ضيافة زيوس له، وعاد من وليمة في الأوليمبوس بجيوب ممتلئة بالنكتار والأمبروزيا المسروقين، بل وارتكب الذنب الذي لا يغتفر بتوزيعه للحكايات والنميمة عن حياة الآلهة الخاصة وسلوكياتهم على أصدقائه وحاشيته بوقاحة وسخرية.

غير أنه لم يكتف بهذا وارتكب جريمة قتل أقارب، أفدح من تلك التي ارتكبها إكسيون عندما ألقى حماه في حفرة النار. عندما سمع تانتالوس أن الأوليمبيين غاضبون من سخريته منهم وسرقته للنكتار والأمبروزيا، أظهر كامل الندم والتوبة وتوسل إليهم ليقبلوا استضافته لهم تكفيرًا عن سوء فعله.

حدث كل ذلك إبان الفترة التي كانت فيها ديميتر تبحث عن ابنتها المخطوفة بيرسفوني، عندما تركت كل ما كان ينمو في العالم يذبل ويموت مع حزنها. كان العالم قاحلًا عقيمًا، ولا أحد يعلم إلى متى سيدوم هذا، بالتالي حظيت فكرة إقامة ملك معروف بالثراء والرخاء والازدهار مثل تانتالوس لوليمة عظيمة بترحيب وحماس شديدين، ترقب الآلهة في شوق أشكال المتع المبهرة على مائدته[141]، غير أنهم لم ينتظرهم سوى الصدمة.

فعل تانتالوس مثلما فعل الملك البيلاسجوسي لايكيون قبله، قدّم ابنه في أطباق على المائدة. قُتل بيلوبس الصغير، وسُلخ، وطُبخ، وحُمر، وغُمس في مرقة شهية، ووُضع أمام للآلهة. شعر الأرباب على الفور أن ثمة أمر ما خاطئ ورفضوا الأكل، لكن ديميتر التي كان عقلها تائهًا مع ابنتها الضائعة أكلت كتف الصبي الأيسر.

عندما فهم زيوس ماذا حدث استدعى كلوثو، إحدى ربات القدر الثلاثة، تلك التي تحيك، فجمعت أجزاء جسد بيلوبس وقلبتها في مرجل ضخم ثم ركبتها مع بعضها مجددًا. ديميتر، بعدما فاقت وأدركت زلتها الشنيعة، كلفت هيفايستوس بنحت كتف من العاج بدلًا من ذلك الذي التهمته، وعندما ركبت كلوثو ذلك الطرف الصناعي وجدته ملائمًا تمامًا. نفخ زيوس الحياة في جسد الصبي، فنهض بيلوبس حيًا مرة أخرى.

جمال بيلوبس الأخاذ جذب انتباه بوسايدون، وصارا عاشقين لبعض الوقت، لكن داخل الشاب الجميل كان ثمة ظلام يعتمل، وحياته اللاحقة وأفعاله القادمة سيجلبان عليه وعلى بيته اللعنة[142]. لعنة بيلوبس ستجتمع مع لعنة أبيه وستظلان تطاردان سلالتهما حتى آخر فرع فيها: أورستيز Orestes.

أما تانتالوس نفسه فقد أُرسل مباشرة إلى تارتاروس، وعوقب بطريقة تلائم ذلك الذي جرؤ على محاولة جعل الآلهة يولمون على لحم ضحية جريمة قتل أقارب. وُضع تانتالوس في حوضٍ تصل مياهه إلى خصره،

وفوق رأسه يلوح فرع شجرة تتدلى منه أشهى الثمرات، يتضور تانتالوس جوعًا وعطشًا، لكن كلما حاول قضم ثمرة يحيد الفرع عن متناوله، وكلما حاول أن ينحني ليشرب تتراجع المياه وتلفظه، ولا يستطيع الابتعاد، إذ تحوم فوقه صخرة تهدد بسحقه لو حاول الهروب، صخرة من العنصر الشاحب المزرَق الذي سيسمى ذات يوم تانتالوم [143] tantalum.

لا يزال تانتالوس يقف هناك حتى يومنا هذا، أقرب ما يكون من الرضا، لكنه لن يناله قط، وكأنه يمثل نوع العذاب الذي سُمي على اسمه: tantalizing حتى نهاية الزمان[144].

سيسيفوس

حب أخوي

العِقاب الأبدي الذي يلاقيه سيسيفوس في هاديس صار أيضًا جزءًا من اللغة والحكايات المتداولة، لكن قصته أغنى بكثير من الصخرة الشهيرة التي حُكم عليه أن يدفعها بلا فائدة ولا نهاية إلى أعلى الجبل. سيسيفوس كان رجلًا شريرًا طماعًا مراوغًا وقاسيًا، لكن من ذا الذي لا يجد شيئًا جذابًا - بل وربما بطوليًا - في الحيوية الملتهبة والتحدي الجامح الذي عاش به حياته (وأكثر من حياته في الواقع)؟ قليلون هم الفانون الذين تجرّأوا على تحدي صبر الآلهة بهذه الطريقة الطائشة، ازدراؤه الطائش ورفضه للاعتذار أو للانصياع يجعلانه أقرب لنسخة؟ لنموذج يوناني من دون جيوفاني Don Giovanni.

دوكليون وبيرا، الناجيان من الطوفان العظيم، أنجبا ولدًا اسمه هيلين Hellen، لا يزال اليونانيون حتى اليوم يطلقون على أنفسهم الهيلينيين نسبة إليه، إيولوس Aeolus ابن هيلين أنجب أربعة أبناء: سيسيفوس وسالمونيوس Salmoneus وأثاماس وكريثيوس Cretheus. بغض سيسيفوس وسالمونيوس بعضهما بأعمق وأعنف درجة من البغض عرفها عالم البشر حتى الآن، بدأ منذ المهد في التنافس على حب والديهما ولم يتوقفا عن التنافس من حينها، لم يتحمل أحدهما رؤية الأخر ينجح قط. كبر الأميران ولم تعد تسعهما مملكة أبيهما أيوليا Aeolia، مثلما كانت ثيساليا تدعى هذه الأيام، واتجها جنوبًا وغربا ليؤسس كل منهما مملكته الخاصة. حكم سالمونيوس مملكة إيليس Elis، وبنى سيسيفوس مملكة

إيفيرا Ephyra التي سيطلق عليها لاحقًا كورينث Corinth. ظل كل منهما يحدق في اتجاه الآخر من فوق كل تلك المسافات وعبر البيلوبونيز، بعداوة مريرة تنمو أكثر مع كل سنة تمر.

بغض سيسيفوس تفاقم حتى حرمه من النوم، أراد أن يرى أخاه ميتًا، ميتًا، ميتًا، تلك الرغبة كانت حارقة إلى حد جعله يطعن نفسه بخنجره في فخذه مرارًا ليشغل نفسه عن ألمها السوداوي الحارق. لكن لم يكن بوسعه فعل شيء، فالفيوريات سينتقمن منه بألعن شكل لو تجرأ على قتل أخيه، قتل الإخوة من أسوأ جرائم ذوي الدم. عزم في النهاية على استشارة عرافة دلفي.

ترنمت البيثيا: «أبناء سيسيفوس وتايرو Tyro سيقتلون سالمونيوس عندما يكبرون».

وقع هذه الكلمات على آذان سيسيفوس كان كالموسيقى، تايرو كانت ابنة أخيه، أخيه الذي يكرهه بالذات، كل ما على سيسيفوس أن يفعله إذًا هو أن يتزوجها وينجب منها أولادًا، وسيكبر أولئك ليقتلوا جدهم. كان بوسع الأعمام تزوج بنات أشقائهم في تلك الأيام دون أن يُنظر لهم شذرًا. هكذا انطلق سيسيفوس ليغوي تايرو بالأحصنة والمجوهرات والقصائد وكاريزما شخصية لا نهاية لها، فسيسيفوس كان بلا أي شك شخصية خلابة عندما يقرر أن يكون كذلك. لم يمر وقت طويل على بدء مسعاه في إغوائها قبل أن يتزوجا، وأنجبت له ولدين صحيحين.

ذات يوم بعد سنوات عديدة، كان سيسيفوس يصطاد السمك بصحبة صديقه ميلوبس Melops، وتحت أشعة الشمس على ضفاف نهر سيثاس Sythas أخذهما الحديث. في الآن ذاته كانت تايرو قد خرجت من القصر بصحبة خادمتها وطفليها - اللذين كانت أعمارهما خمسة وثلاثة أعوام - وسلة مترعة بالطعام والنبيذ، كانت تنوي مفاجأة سيسيفوس بنزهة عائلية.

على ضفة النهر تحدث ميلوبس وسيسيفوس بكسل عن الأحصنة والنساء والرياضة والحرب، بينما تقترب تايرو ورفقتها عبر الحقول.

قال ميلوبس: «أخبرني يا مولاي، لطالما تعجبت من أنك اخترت أن تتزوج ابنة شقيقك الملك سالمونيوس رغم الضغينة المريرة بينكما، فحسب ما أرى أنت لا تحبه مثلما كنت لا تفعل على الدوام».

قال سيسيفوس بضحكة مجلجلة: «لا أحبه؟ أنا أكرهه، أحتقره، ألعنه»، ضحكته جذبت انتباه تايرو القادمة من الناحية المقابلة، وبينما تقترب مع صحبتها أكثر بات بوسعها سماع كل كلمة ينطقها زوجها.

قال: «لقد تزوجت تايرو الساقطة بدافع من كرهي الشديد لسالمونيوس. عرافة دلفي أخبرتني أني لو أنجبت منها أولادًا سيقتلونه عندما يكبرون. عندما يموت على أيدي أحفاده سأكون قد تخلصت من أخي الخنزير دون قلق من ملاحقة الإيرنيات».

«هذا...»، حاول ميلوبس الإكمال بكلمة مناسبة.

«ذكي؟ حاذق؟ عبقري؟».

تأملت تايرو ابنيها اللذين كانا على وشك بلوغ نقطة سيكون بوسعهما فيها سماع صوت أبيهما، فغيرت من مسارهما وقادتهما إلى انعطاف في مجرى النهر، والخادمة تتبعهم.

ربما كانت تايرو قد وقعت أسيرة جاذبية سيسيفوس، لكنها أحبت أباها سالمونيوس بولاء يفوق أي اعتباره عداه، فكرة أن تترك ولديها يكبران ليقتلا جدهما كانت غير مقبولة أبدا، وعلمت جيدًا كيف تتحدى نبوءة العرافة.

قالت لابنها الأكبر: «تعال يا صغيري، انظر في مجرى النهر، أتستطيع رؤية الأسماك الصغيرة؟».

انحنى الصبي الصغير على ضفة النهر ونظر، ووضعت تايرو يدًا على مؤخرة عنقه ودفعته للأسفل. بعدما توقف عن المقاومة فعلت الشيء ذاته مع الطفل الأصغر.

قالت بهدوء أصاب الخادمة بالرعب: «هذا ما ستفعلينه...».

في تلك الأمسية اصطاد سيسيفوس وميلوبس سمكًا وفيرًا، وعندما

بدأ نور السماء بالتراجع وأخذا يجمعان متاعهما ليرحلا ظهرت أمامهما خادمة تايرو وانحنت في احترام مرتبك.

«اعذرني يا مولاي، لكن ملكتي طلبت مني أن أسألك لو كنت تحب أن تحيي الأميرين، إنهما ينتظران جلالتك على حافة النهر، خلف شجرة الصفصاف يا مولاي».

ذهب سيسيفوس إلى المكان الذي أشارت إليه، فوجد ابنَيْه ممَدَّدان على العشب، شاحبان، بلا حياة.

هربت الخادمة لتنفذ بجلدها ولم يُسمع عنها مجددًا. أما تايرو فكانت آمنة في طريقها إلى مملكة أبيها في الوقت الذي بلغ فيه سيسيفوس المهتاج القصر شاهرًا سيفه. بعدما وصلت تايرو إلى بيت سالمونيوس تزوجت عمها الآخر كريثيوس، ومعه ستقضي بقية حياتها تعيسة.

أما سالمونيوس نفسه، الذي كان مختالًا مغرورًا مثل شقيقه الذي يكرهه، كان قد نصَّب نفسه في إيليس إلهًا؛ ادعى أنّ لديه قدرة زيوس نفسها على استدعاء العواصف، وأمر ببناء جسر من النحاس، واستمتع بقيادة عربته فوق الجسر بسرعة هائلة وهو يجر خلفه الغلايات والمراجل والآنية المعدنية ليحاكي صوت الرعد، بينما يلقي حرّاسه في الوقت ذاته مشاعل ملتهبة تجاه السماء لمحاكاة شكل البرق.

هذه الهرطقة الوقحة جذبت انتباه زيوس، فأنهى ذلك العرض كله بصاعقة رعدية حقيقية. بات الملك وعربته والجسر النحاسي وأواني الطبخ المعدنية هباءً منثورًا، وروح سالمونيوس حُكم عليها باللعنة الأبدية في أعمق وأظلم كهوف تارتاروس.

المآثر السيسيفوسية

أقام سيسيفوس مأدبة عظيمة احتفالًا بموت أخيه صانع الرعد الزائف، في اليوم التالي استيقظ على صخب وفد من النبلاء وأصحاب الأراضي والفلاحين المستأجرين يحمل شكوى. بعدما دعك عينيه وطرد الصداع

عن رأسه بكأس من النبيذ الخام، وافق أخيرًا على الجلوس وسماع المظلمة.

«جلالة الملك، أحدهم يسرق ماشيتنا، كل منا خسر عددًا من أبقاره، بل إن قطعانك الملكية أيضًا تتناقص. إنك لملك حصيف وقادر بلا شك على الوصول إلى الجاني».

صرفهم سيسيفوس بعدما وعدهم بالاستقصاء. كان يعتقد جدّيًا أن السارق هو جاره أوتولكس Autolycus، لكن كيف يستطيع برهنة ذلك؟ نعم سيسيفوس ماكر وذكي، لكن أوتولكس هو ابن هرمس ذاته، أمير اللصوص والرعاع، الإله الذي سرق وهو رضيع ماشية أبولو. لم يرث أوتولكس من هرمس فقط النزوع لأخذ الأبقار التي ليست له، بل وأيضًا قدرات سحرية تجعل من المستحيل القبض عليه متلبسًا[145]، علاوة على أن الماشية التي سُرقت من سيسيفوس وجيرانه كان لونها بنيًّا وذات قرون، أما ماشية أوتولكس فكانت بلون أبيض وأسود وبلا قرون. كان الأمر محيرًا، لكن سيسيفوس كان متيقنًا أن وراءه لعنات علمها هرمس لابنه تغيّر ألوان الماشية المسروقة.

قال لنفسه: «حسنًا، سنرى من الأقوى في النهاية، السحر الرخيص لنغل ربّ النصّابين، أم المكر الأصيل لسيسيفوس مؤسس كورينث، وأذكى ملك في العالم».

أمر سيسيفوس بحفر عبارة «أوتولكس سرقني» في قاع حافر كل بقرة في قطعانه وقطعان جيرانه بحروف صغيرة جدًا. مثلما توقّعوا ظلت القطعان المحلية على مدى الأيام السبعة التالية في التناقص، وفي اليوم الثامن زار سيسيفوس ومُلاك الأراضي أوتولكس.

قال أوتولكس بتحية مبتهجة: «أهلًا يا أصدقائي. لأي سبب مشرِّف حظيت برؤيتكم العطرة؟».

قال سيسيفوس: «جئنا لنفحص ماشيتك».

«بالطبع، تفضلوا، أتفكرون في تناسل الأبقار البيضاء مع السوداء أيضًا؟ يقولون إن أبقاري فريدة من نوعها في هذا الإقليم».

أجاب سيسيفوس: «إنها فريدة بلا شك، من رأى حوافر مثل هذه من قبل؟»، ورفع الساق الأمامية لإحدى الأبقار.

انحنى أوتولكس إلى الأمام فقرأ الكلمات محفورة على الحافر، فهز كتفيه بلا اهتمام وقال: «هممم، كانت لعبة ممتعة على أي حال».

أمر سيسيفوس: « خذوها كلها»، وبينما أخذ ملاك الأراضي يقودون الحيوانات خارجين، نظر سيسيفوس تجاه بيت أوتولكس، ثم قال: «أعتقد أني سأسمح ليدي بأن تطول كل أبقارك، حتى آخر عِجلة»، قصد بقوله هذا أمفثيا Amphithea زوجة أوتولكس.

لم يكن سيسيفوس رجلًا طيبًا[146].

العُقاب

انتصار ذكاء سيسيفوس على ابن رب النصابين تمكن من دماغه، وبدأ يقتنع أنه أمهر وأذكى وأوسع الرجال حيلة في العالم. لعب سيسيفوس دور حلّال مشاكل ملكي من نوع ما، وراح يقضي في شتى أشكال المسائل التي تُعرض عليه ويتلقى مقابل حكمه أثمانًا مهولة. لكن ثمة فارق بين المكر والحكم، وبين سرعة البديهة والحكمة.

أتذكر أسوبوس؟ النهر البيوشي الذي في مياهه اغتسلت الكاهنة الثيفية سيملي وجذبت انتباه زيوس ليأتيا للعالم بديونايسيس؟ هذا النهر الربّ التعيس كانت له ابنة، أيجينا Aegina، وكانت جميلة بما يكفي أيضًا لجذب انتباه زيوس، فاتخذ زيوس هيئة العُقاب وانقضَّ على الفتاة وأخذها إلى جزيرة قبالة ساحل أتيكا Attica. الإله النهر المكلوم بحث عن ابنته في كل مكان، وسأل كل شخص قابله إن كان قد رأى أي إشارة على مكان ابنته الحبيبة.

عندما جاء دور سيسيفوس أجاب على سؤال الأب الملحّ قائلًا: «أتقول شابة صغيرة ترتدي جلد الماعز؟... حسنًا، نعم، رأيت فتاة مثلها يخطفها عُقاب قبل وقت غير بعيد، كانت تغتسل في النهر عندما حطَّ عليها من السماء... كان مشهدًا...».

«أرأيت إلى أين أخذها؟».
«هل هذه أساور من الذهب الحقيقي؟ يكاد بريقها يعمي عيني».
«خذها، إنها لك، والآن ارحمني وأخبرني ما الذي حدث لأيجينا».
«كنت على قمة تلٍ ورأيت الأمر كله يحدث، أخذها العقاب إلى... خاتمك هذا، هل هو من الزمرد؟ لا لا داعي، شكرًا لك. دعني أحاول التذكر... نعم، لقد طار بها عبر البحر وحط على هذه الجزيرة. تعال وانظر إليها من النافذة، يمكنك تمييزها على خط الأفق، أترى؟ أعتقد أنهم يسمّونها جزيرة أوينوني Oenone، ستجدها هناك. ما هذا؟ إلى أين أنت ذاهب؟».
هرع أسوبوس وأخذ قاربًا إلى الجزيرة. لم يقطع نصف الطريق قبل أن يراه زيوس ويرمي بقوسه صاعقة رعدية أدى انفجارها لموجة هائلة رفعت أسوبوس وقاربه حتى ألقته في نهره ذاته[147].
هذا السيسيفوس!
كانت عين زيوس على هذا الوغد منذ فترة، لم يفت رب الزينيا ملاحظة تاريخ سيسيفوس في استغلال الضيوف المارين عبر أراضيه، بأخذه منهم ضرائب باهظة ونهبه كنوزهم واستحلاله نساءهم، متجاوزًا بوقاحة كل قوانين الضيافة المقدسة. والآن يفترض سيسيفوس أن بوسعه التدخل في أمور ليست من شأنه؟ أن يتطفل على شؤون من هم أعلى منه ويشي بملك الآلهة ذاته؟ بات من الواجب فعل شيء ما، جعله عبرة للآخرين، ليكن الموت واللعنة من نصيبه.
رغم دماء سيسيفوس الملكية، قرر زيوس أن حياته كانت أكثر شرًا ووقاحة من أن يُمنح شرف اصطحاب هرمس له إلى العالم السفلي، بدلًا من ذلك سيذهب الموت نفسه، ثاناتاوس، ليقيّده ويصطحبه إلى الأسفل.

الضحك على الموت

استمتع ثاناتوس على الدوام بلحظة التجسد أمام أولئك الذين حانت لحظتهم، بقدر ما تستطيع روح قاتمة مثله أن تشعر بشعور مشرق.

لا أحد غيرهم يراه، يتجلى لهم بعباءته السوداء التي تغطي هيئته الهزيلة، تتصاعد منه خيوط غازات جحيمية، ويمدّ ذراعيه لضحيته ببطء قاس متعمَّد، ما إن يلمس طرف إصبعه العظمي جلدها حتى يخرج أنينٌ بائسٌ من الروح بداخلها. استمتع ثاناتوس أيما استمتاع بمشاهدة جلودهم تشحب وعيونهم ترفرف وتنطفئ بينما تخرج الحياة منهم، وأكثر شيء أحبه كان صوت آخر تنهيدة، قشعريرة تصدرها الروح وهي تخرج من الجثة الفانية وتسلم نفسها لأغلاله، وقد باتت جاهزة ليأخذها بعيدًا.

كان سيسيفوس مثل كل المتآمرين الطموحين مدبّري الخطط نومه خفيف، عقله يدور على الدوام، وأبسط صوت كافٍ لإيقاظه وتنبيهه، هكذا كان الحفيف الهامس لدخول الموت إلى حجرة نومه كافيًا لجعله ينتصب جالسًا.

«من أنت بحق الجحيم؟».

«بحق الجحيم فعلًا، إذ إنني الجحيم ذاته، نياهاهاهاها»، أطلق ثاناتوس سراح ضحكته الشريرة الجهنمية التي كانت تكفي غالبًا لإصابة الفانين المحتضرين بالجنون.

«كف عن هذا الأنين! ما خطبك؟ هل تؤلمك أسنانك أم عندك عسر هضم؟ ولا تتحدث بالألغاز، ما اسمك؟».

«اسمي...»، ثم توقف ثاناتوس لإضافة تأثيرٍ درامي، «اسمي...».

«لا أملك إضاعة الليل بطوله».

«اسمي هو...».

«لا يبدو أن لك اسم أصلًا».

«ثاناتوس».

«أوه، إذًا أنت الموت؟ هممم»، بدا سيسيفوس غير متأثرٍ، «حسبتك أطول قامة».

بدأ ثاناتوس يترنّم بلهجة قاطعة: «سيسيفوس يا ابن إيولس، يا ملك كورينث وسيد الـ...».

«نعم، أعرف اسمي جيدًا، أنت من يبدو أنك تعاني من تذكر اسمك، هلّا جلست؟ اجلس ودَعْ قدميك تستريحان».

«قدماي بخير، أنا أحوم لا أمشي».

نظر سيسيفوس إلى الأرض، وقال: «أها، أرى ذلك، وأنت جئت هنا لأجلي، أليس كذلك؟».

لم يعد ثاناتوس متأكدًا إن كانت كلماته التالية ستجلب له الخوف والاحترام اللذين يستحقهما، فعرض على سيسيفوس أغلاله وهزها أمام وجهه مهددًا.

«وجلبت معك القيود أيضًا؟».

«من الحديد الصلب غير القابل للكسر، صُنعت بنيران هيفايستوس على يد السيكلوبس ستيروبيس، وسحرها سيدي هاديس، أيًا كان من تقيده هذه الأغلال، لن يقدر على فكّها إلا الرب هاديس نفسه».

أجاب سيسيفوس: «مذهل، لكن بصراحة لا أعتقد أن هناك شيء غير قابل للكسر، زائد أني لا أرى فيها قفل ولا مزلاج».

«بل إن مشبكها مصنوع بدقة وإحكام لا يسمحان لعين فانٍ برؤيته».

«أيًا كان ما تقول لن أصدق ولو لثانية واحدة أنها ذات فائدة، أراهن أنك حتى لا تستطيع ربطها حول ذراعك النحيلة، هيا، حاول، دعني أرى».

هذه السخرية المباشرة من أغلاله الثمينة لا يمكن تحملها، صاح ثاناتوس: «أيها الرجل الأحمق، إن مثل تلك الأدوات الدقيقة تتجاوز فهمك الفاني، أترى؟ ها أنا ألفّها مرة حول ظهري وأمررها من أمامي، ثم أضمّ ساعداي معًا، ثم أغلق عليهما الأساور، و... هلا ساعدتني بالضغط على هذا المكان؟ بالضبط، هكذا يدخل المشبك في مكانه، ثمة ثقب خفيّ هنا... أرأيت؟».

قال سيسيفوس مفكرًا بعمق: «نعم، نعم، أرى الآن، كم كنت مخطئًا، يا لها من صناعة ماهرة».

«أوه».

حاول ثاناتوس تحريك أغلاله، لكن نصفه العلوي بالكامل بات محكومًا غير قابل للحركة. «إحم... هل من الممكن تقديم مساعدة؟».

اندفع سيسيفوس خارجًا من سريره، وفتح باب خزانته الضخمة في نهاية الغرفة، وبما أن ثاناتوس كان يحوم لا يمشي، كان أسهل شيء في العالم دفع الموت المقيّد بإحكام عبر الغرفة، بدفعة واحدة طار الموت ودخل الخزانة المفتوحة بعنف حتى ارتطم أنفه بظهرها.

وبينما يدير سيسيفوس مفتاح الخزانة صاح ببهجة: «قد يكون قفل هذه الخزانة رخيصًا ومن صنع الإنسان، لكنني أؤكد لك أنه يعمل جيدًا مثل أي أغلال صنعتها نيران هيفايستوس».

صرخات يائسة مكتومة ترددت من الداخل تتوسل ليفتح سيسيفوس الباب، لكن سيسيفوس الذي قهقه: «نياهاهاهاها» هرول مبتعدًا، مغلقًا أذنيه أمام بكائيات الموت.

الحياة بلا موت

مرت أول بضعة أيام من سجن ثاناتوس بلا حوادث تُذكر، لا زيوس ولا هرمس ولا حتى هاديس ذاته فكروا في التأكد من استلام سيسيفوس لموقعه الذي خُصص له في الجحيم، لكن مرور أسبوع دون وصول أي روح ميتة جديدة جعل ألسنة شياطين وأرواح العالم السفلي تتهامس، ثم مرَّ أسبوع آخر دون أن يلج المكان أي شبح محتضر، باستثناء كاهنة مبجّلة لأرتيميس كانت حياتها طاهرة ومشرّفة بما يكفي ليصطحبها هرمس مرشد الأرواح بنفسه إلى الإليزيوم. انقطاع تيار الأرواح المباغت هذا أربك سكان هاديس، إلى أن علّق أحدهم أخيرًا بأن ثاناتوس لم يظهر منذ أيام، فخرجت الحملات للبحث عن الموت، لكن أحدًا لم يجده. لم يحدث شيءٌ مشابه من قبل، بدون ثاناتاوس سينهار النظام بالكامل.

أما على الأوليمبوس فقد انقسمت الآراء؛ ديونايسيس رأى الأمر برمَّته مضحكًا، وشرب نخبه حتى حافة التليُف الكبدي، وأبولو وأرتيميس

وبوسايدون كانوا محايدين، وديميتر خافت أن تتداعى سلطة بيرسفوني إن تعرَّض العالم السفلي للسخرية، علاوة على أن الفصول التي تحكمها مع ابنتها كانت تتطلب نهاية الحياة وبدايتها من جديد، ومن دون وجود الموت لا يمكن تحقيق هذا. العار الذي سببته هذه الفضيحة أغضب هيرا بشِدة، وبالضرورة أصاب زيوس باضطراب شديد. هرمس أيضًا فقد مرَحَه وخفته المعتادين، فسلاسة إدارة العالم السفلي كانت جزءًا من واجباته أيضًا.

بيد أن أكثر مَن لم يقدر على تحمل الوضع كان آريس، وصار في قمة سخطه. نظر آريس إلى العالم ورأى البشر يتقاتلون في الحروب بالشراسة المعتادة، لكن **لا أحد يموت!** تخترق الرماح المحاربين، تدهس أجسادهم الأحصنة، تمزق أمعاءهم عجلات العربات، وتقطع رؤوسهم السيوف، لكنهم لا يموتون. أمسَت الحروب أضحوكة، لو أن الجنود والمدنيين لا يموتون، فما فائدة الحروب إذًا؟ لم تعد تحُل خلافًا ولا تحقق شيئًا، ولا يستطيع أي من جانبي المعركة الفوز.

الآلهة الثانويون أيضًا تراوحت رؤيتهم للمسألة مثل الأوليمبيين، الكيريات مثلًا تابعن شرب دماء من سقطوا في المعركة ولم يُلقين بالًا لما يحدث لأرواحهم. هورايتان من الثلاثة، ديكي ويونوميا، اتفقن مع ديميتر على أن غياب الموت سيقلب النظام الطبيعي للأمور، لكن ثالثتهما ربة السلام أيريني، لم تسعها فرحتها، فلو أن غياب الموت يعني انقضاء الحرب، فزمنها قد حان إذًا.

ظل آريس يتذمر لوالديه هيرا وزيوس بإلحاح متواصل حتى لم يعد بإمكانهما التحمل أكثر من ذلك، فأعلنا أن إيجاد ثاناتوس بات حتميًا، وأمرت هيرا بأن تعرف متى شوهد آخر مرة.

قال زيوس: «أظن يا هرمس أنه لم يمض وقت طويل على إرسالك إياه ليأتي بروح ذلك الشرير أسود القلب سيسيفوس؟».

«اللعنة!»، وضرب هرمس فخذيه بيديه في انزعاج، «بالطبع هو سيسيفوس، أرسلنا ثاناتوس ليقيده ويأتي به إلى هاديس، انتظراني هنا».

رفرفرت الأجنحة في نعل هرمس وطنّت وطار مبتعدًا، ثم عاد في غمضة عين. قال: «سيسيفوس لم يبلغ العالم السفلي قط، أُرسلت ثاناتوس إلى كورينث ليجلبه قبل نصف قمر، ومنذ ذلك الحين لم يُرَ أي منهما».

هدر آريس: «إلى كورينث إذًا، لماذا لا زلت تقف مكانك؟؟».

فُتحت الخزانة محكمة الغلق في غرفة نوم سيسيفوس عنوة، وكشفت عن ثاناتوس المُهان جالسًا بعيون دامعة في ركنها تحت كومة من الملابس. أخذه هرمس إلى الجحيم بعد أن لوّح هاديس بيده لتنفكَّ الأغلال المسحورة عنه.

قال هاديس: «لنا حديث مطوَّل لاحقًا يا ثاناتوس، لكن الآن تتراكم الأرواح فوق بعضها في انتظارك».

توسل ثاناتوس: «أرجوك دعني أولًا أقبض على سيسيفوس الوغد، لن يكون بوسعه خداعي مرتين».

قوس هرمس حاجبيه، لكن هاديس نظر إلى بيرسفوني الجالسة على العرش المجاور له، فأومأت له. ثاناتوس كان من بين الخادمَين المفضَّلَيْن عندها من بين كل سكان العالم السفلي.

قال هاديس مزمجرًا: «تأكد فقط من ألّا تخرّب الأمر مجددًا»، وصرَفه بحركة من يده.

مراسم الدفن

نعرف جيدًا أن سيسيفوس لم يكن أحمقَ، لم يحسب ولو للحظة أن ثاناتوس سيظل محبوسًا في الخزانة إلى الأبد، عاجلًا أم أجلًا سيتحرر الموت وسينطلق في إثره مجددًا.

ذهب إلى فيلّته القروية التي اتخذ منها بيتًا مؤقتًا، وتوجه إلى زوجته. كان سيسيفوس قد تزوج مجددًا بعدما أغرقت ابنة شقيقه تايرو ابنَيْهما في النهر وتركته. زوجته الجديدة كانت عطوفة مطيعة بقدر ما كانت تايرو عنيدة معارضة.

قال بينما يشدها إليه: «عزيزتي، أشعر أن ساعة موتي قد اقتربت. ماذا ستفعلين بعدما يخرج من جسدي نفسه الأخير وتذهب معه روحي؟».

«سأفعل ما ينبغي عليّ فعله يا مولاي، سأغسلك وأعطّرك، وسأضع على لسانك أوبولًا كي تستطيع دفع أجرة المراكبي، وسنقف سبعة أيام وسبع ليال في حراسة نعشك، وسنحرق البخور والقرابين كي نرضي ملك وملكة العالم السفلي، وبهذا ستصبح رحلتك إلى مروج أسفودل رحلة مباركة».

قال سيسيفوس: «نيّتك طيبة، لكن هذا بالضبط ما ينبغي عليك ألّا تفعليه. ما إن أموت، عليك أن تنزعي عني الملابس وتلقيني في الشارع».

«مولاي!».

«أنا جاد تمامًا، هذا ما أرغب فيه، هذا ما أناشدك أن تفعليه، هذا ما آمرك أن تحققيه. مهما يقول الآخرون، عليك ألّا تلقي على روحي الصلوات ولا تحرقي القرابين ولا تقيمي الجنازة. عاملي جثتي وكأنها جثة كلب. عديني بذلك».

«لكن...».

أمسِكها سيسيفوس من كتفيها ونظر في أعماق عينيها ليشدد على صدق أوامره، «بقدر ما تحبينني، بقدر ما أنت مخلصة لي، بقدر ما تتمنين ألّا يأتي شبحي الغاضب ليطاردك، عديني بفعل ما قلت بالضبط، اقسمي على ذلك بروحك».

«أقسـ... أقسم أن أفعل».

«ممتاز، لنشرب إذًا، نخب الـ... الحياة».

كالعادة كان توقيته مثاليًا، ففي مساء ذلك اليوم بالذات أيقظت سيسيفوس همسات الموت بجوار سريره.

«حان وقتك يا سيسيفوس الكورينثي».

«ثاناتوس، أخيرًا، كنت في انتظارك».

«لا تحسب أنك ستخدعني».

«أنا؟ أخدعك؟»، وقف سيسيفوس وانحنى في خضوع، ووضع كلتا يديه في الأغلال، «خداعك هو آخر شيء قد أفكر فيه».

انغلقت الأغلال عليه وحلّق الاثنان هابطَيْن عبر مدخل العالم السفلي. ثاناتاوس ترك سيسيفوس بالقرب من ضفة الستيكس وغادر متعجلًا لحل اختناق مرور الأرواح الذي ينتظره.

كارون المراكبي جدف بقاربه إلى حيث سيسيفوس الذي صعد على القارب، فمدَّ كارون يده إلى الأمام.

قال سيسيفوس وهو يربت على جيوبه: «ليس معي شيء».

دون كلمة أخرى دفعه كارون من القارب ليقع في سواد الستيكس. كان النهر باردًا لدرجة شنيعة، وأصابته المياه بتقرّحات وحروق فوق أي احتمال، لكن سيسيفوس تمكن من عبوره، وبدا بعد أن صار في الناحية الأخرى مثيرًا للشفقة إلى أقصى حد، بالضبط مثلما كان يخطط.

مرت الأشباح عبره، تفادت النظر إليه.

سأل أحدهم: «كيف أذهب إلى قاعة العرش؟»، وبعدما اتّبع ارشاداتهم وجد نفسه في حضرة بيرسفوني.

أحنى سيسيفوس رأسه، «جلالة الملكة، إني أرجو المثول أمام هاديس».

«زوجي اليوم في تارتاروس وأنا أنوب عنه، من أنت؟ وكيف تجرؤ على الوقوف أمامي بمثل تلك الهيئة؟».

كان سيسيفوس عاريًا، إحدى أذنيه كانت ممزقة وإحدى عينيه تدلت من محجرها، امتلأ جسده الشبَحي بآثار العض والكدمات والقروح والجروح المفتوحة، ما ينبئ بالمعاملة السيئة التي تلقاها جسده المادي في شوارع كورينث بالأعلى. أطاعت زوجته تعليماته.

قال منحنيًا أمام بيرسفوني: «سيدتي، إن أحدًا لا يدرك مقدار العار الذي أنا فيه الآن مثلي. إنها زوجتي، زوجتي اللعينة الشريرة المتوحشة الكافرة، هي من جعلتني في هذه الحالة المزرية، بل إني حتى سمعتها وأنا لا زلت

أحتضر تقول لخادمتها 'لن نُضيّع الذهب على مراسم الدفن، آلهة العالم الآخر لا تهمنا في شيء، ألقي بجسده في الخارج لتأكله الكلاب، والأموال المحجوزة للجنازة انفقيها على وليمة هائلة، والأبقار المحفوظة لتقدم قرابينًا لهاديس وبيرسفوني اذبحيها واشويها لنستمتع بها'، ثم ضحكت وصفقت بيديها، تلك يا جلالة الملكة كانت آخر أصوات سمعتها في العالم».

غضبت بيرسفوني أشد الغضب: «كيف جرؤت؟ كيف جرؤت؟ لنعاقبنها عقابًا وخيمًا».

«بالتأكيد يا مولاتي، لكن كيف...».

«سنسلخها حية و...».

«صحيح، لا بأس، لكن اسمحي لي أن أقول... ألن يكون من اللطيف لو...»، وابتسم سيسيفوس وكأن الفكرة خطرت على باله للتو، «ألن يكون مضحكًا لو أعدتيني للحياة في العالم العلوي؟ تخيلي صدمتها؟».

«هممم...».

«وسأجعلها كل يوم تدفع ثمن وقاحتها وقلة احترامها، لا ذهب ولا فضة ولا ولائم، لن تعرف إلا سوء المعاملة والإهانة والعبودية، لا أكاد أنتظر رؤية وجهها عندما أظهر فجأة أمامها، حيًا سليمًا كاملًا... وربما... ربما حتى أكثر شبابًا وحيوية ووسامة من أي وقت مضى؟ إنها في السادسة والعشرين من عمرها، لكن تخيلي لو عشت أكثر منها؟ سأجعلها عبدتي، وسأعذبها كل يوم».

ابتسمت بيرسفوني من الفكرة وصفقت بيديها، «ليكن ذلك». السنوات التي قضتها بيرسفوني في العالم السفلي رسخت لديها كبرياءً ملكيًا واعتقادًا صلبًا بالكيفية الملائمة لإدارة الأمور في مملكة الجحيم.

هكذا أُعيد سيسيفوس إلى العالم العلوي، حيث عاش مع ملكته بسعادة ما تبقى لها من عمر.

أما موته، عندما حان في النهاية، كان مسألة أخرى.

دحرجة الصخرة

زيوس وآريس وهرمس وهاديس لم يسعدوا عندما عرفوا بنجاة سيسيفوس من الموت للمرة الثانية، لكنه كان قرار بيرسفوني، ولا يستطيع أحد الخالدين نقض قرار آخر.

بعد حوالي خمسين سنة من الحياة الهانئة المزدهرة، انقضت فترة حياة زوجة سيسيفوس أخيرًا، وبموتها انتهى العقد المبرم بين سيسيفوس وبيرسفوني، فزاره ثاناتوس زيارة ثالثة وأخيرة.

هذه المرة دفع سيسيفوس الأجرة لكارون وعبر الستيكس بخير حال، هرمس كان ينتظره على الضفة الأخرى.

«انظروا من جاء أخيرًا، الملك سيسيفوس الكورينثي، الكذاب النصّاب المجرم المحتال، رجل على ذوقي. لم يتمكن فانٍ من خداع الموت ولو مرة من قبل، لكنك تمكنت من خداعه مرتين. يا لك من داهية».

انحنى سيسيفوس في تحية متواضعة.

«هذه الإنجازات تستحق فرصة للخلود، اتبعني».

قاده هرمس عبر ممرات ودهاليز لا حصر لها، حتى بلغا قاعة تحت أرضية شاسعة يرتفع فيها منحدر عظيم من الأرض إلى السقف، وبجوار المنحدر استقرت على الأرض صخرة تحت عمود من النور.

قال هرمس وهو يشير إلى مصدر النور: «العالم العلوي».

رأى سيسيفوس أن المنحدر يقود إلى فتحة مربعة في السقف يدخل عبرها شعاع من ضوء النهار ويضيء الصخرة، وبينما يشير هرمس إليها انغلقت واختفى النور.

«الآن، كل ما عليك فعله هو دحرجة تلك الصخرة إلى قمة المنحدر، عندها ستنفتح الفتحة مجددًا، سيكون بوسعك عندها تسلقها والعيش إلى الأبد كملك خالد، ولن يأتيك ثاناتوس مرة أخرى».

«هذا كل شيء؟».

قال هرمس: «نعم، أما لو كنت لا تحب تلك الفكرة فبوسعي بالطبع

أن آخذك إلى الإليزيوم، حيث تستطيع قضاء أبدية هانئة وسعيدة بصحبة بقية الأرواح الطيبة التي عاشت وماتت في سلام. لكن لو اخترت الصخرة فسيكون عليك أن تحاول وتستمر في المحاولة حتى تفوز بحريتك وخلودك. الخيار لك، أبدية مملة هنا أو فرصة لبلوغ الخلود أعلى».

فحص سيسيفوس الصخرة، كانت ضخمة لكنها لم تكن هائلة، وانحدار المنحدر لم يكن شديدًا، خمسة وأربعين درجة تقريبًا لا أكثر. إذًا؛ أبدية يقضيها في التهادي في مروج الإليزيوم مع الطيبين المملين أم أبدية في عالم النهار حيث الضحك والبكاء والمرح والعنف والمجون والجنون؟

«أين الخدعة؟».

قال هرمس: «لا خدعة ولا إجبار»، ووضع يده على كتف سيسيفوس وسطع وجهه بأكثر الابتسامات بهاءً، «اختر كما تحب».

أنت تعلم باقي الحكاية. انحنى سيسيفوس على الصخرة وبدأ يدفعها صاعدًا المنحدر، كان واثقًا عندما بلغ منتصف الطريق أن بلوغه الحياة الأبدية أمر مفروغ منه، وبعد ثلاثة أرباع المسافة أمسى متعبًا، لكن لا يزال فيه طاقة، وبعد أربعة أخماس منها أمسى... تبًا، هذا منهك فعلًا، وعند الخمسة أسداس بدأ الألم، وعند الستة أسباع اشتدت المعاناة، وعند السبعة أثمان... باقي على القمة بوصة، أنملة إصبع، دفعة واحدة أخرى بكامل قوته و... لااااا! انزلقت الصخرة، قفزت من فوق سيسيفوس وتدحرجت حتى القاع. «حسنًا، محاولة أولى لا بأس بها، سأستجمع قوتي وسأصل، أستطيع أن أفعل، أعلم ذلك، سأكتشف طريقة ما، ربما لو صعدت بالعكس جاعلًا وزن الصخرة على ظهري، أستطيع فعلها...».

لا يزال سيسيفوس هناك في تارتاروس حتى الآن، يدفع الصخرة أعلى الجبل ويكاد يصل إلى القمة قبل أن تتدحرج واقعة منه، ليبدأ من جديد. سيظل هناك حتى آخر الزمان، وسيظل مؤمنًا أنه قادر على فعلها، دفعة أخرى واحدة قوية وسيكون حرًا.

وجد الرسامون والشعراء والفلاسفة أشياء كثيرة في أسطورة سيسيفوس، وجدوا صورة لعبثية الحياة البشرية، وعقم المحاولات، وقسوة القدر، وقوة الجاذبية التي لا تُقهر، لكنهم وجدوا أيضًا الشجاعة الإنسانية والقدرة على التكيف والثبات والتحمل والإيمان بالذات... هناك بلا شك شيءٌ بطوليٌ في رفض الاستسلام.

هوبرس

الهوبرِس hubris عند اليونانيين هو نوع خاص من الكبرياء، عادة ما يقود الفانين لعصيان الآلهة وتحديهم، جالبًا عليهم عقابًا حتميًا من نوع أو آخر. إنه خلل شائع - إن لم يكن أساسيًا - في أبطال التراجيديا اليونانية والعديد من الشخصيات الرئيسية في الأساطير اليونانية، وأحيانًا يكون الخلل ليس فينا بل في الآلهة، الذين كثيرًا ما تمنعهم غيرتهم وعنجهيتهم من تقبّل أن يصبح الفانون أندادًا لهم أو يتجاوزوهم.

كل هذه الدموع

قد تذكر أن بيلوبس لم يكن الابن الوحيد لتانتالوس وديوني، بل كانت لديهما أيضًا ابنة تدعى نايوبي. رغم سوء العاقبة التي حلت بوالدها والمغامرات التعيسة لأخيها، كانت نايوبي امرأة واثقة فخورة. تزوجت نايوبي من أمفيون ابن زيوس وأنتيوبي. ربما تذكر أن أمفيون كان عشيقًا سابقًا لهرمس وأحد التوأمين المؤسّسَين لأسوار ثيفا، وهو من سحر الصخور بالغناء لها والعزف على القيثارة[148]. أنجبت نايوبي من أمفيون سبعة بنات وسبعة أبناء، النايوبيين Niobids.

بلغ كبرياؤها حدًا خطيرًا من الغرور والاعتداد بالنفس، وأحبَّت أن تتحدث إلى كل من يعطيها أذنه عن كم هي مهمة وإلى أي مدى دماؤها ملكية وسماوية.

«تمتد أصولي من ناحية أمي إلى تيثيس وأوشيانوس، الجيل الأول للتياتنة كما تعلم، أما من ناحية أبي فهناك طبعًا تمولوس Tmolus، أعرق آلهة الجبال الليدية. زوجي العزيز أمفيون ابن زيوس، وأمه أنتيوبي ابنة

الملك نيكتيوس Nycteus، أحد السبارتيين الأصليين الذين نبتوا من أسنان التنين. لذا من حق أبنائي وبناتي الأحباء أن يتباهوا بأصلهم المميز أكثر من أي أسرة أخرى في العالم، لكني طبعًا لا أشجعهم أبدًا على ذلك، أولاد الأصول الحقيقيون لا يتبخترون».

ربما كانت هذه الحماقة لتمضي بلا أذى كبير لو لم تجنح نايوبي إلى مقارنة نفسها بالتيتانة ليتو أم الآلهة. في اليوم الذي يجتمع فيه أهل ثيفا سنويًا لتمجيد ليتو والتسبيح لها وحكي حكاية ولادة أرتيميس وأبولو الإعجازية في ديلوس [في اليوم المقدس للتيتانة والمكرَّس لشرفها] ألقت نايوبي عن كاهلها عبء مداراة أكثر آرائها تكبّرًا.

«أعترف طبعًا أن توأمَيّ ليتو الحبيبين أرتيميس وأبولو في غاية الجمال وكاملي الألوهية، لكن... طفلين فقط؟ ولد وبنت؟ بحق السماء، لا أفهم كيف تستطيع أن تسمي نفسها أمًا، ومن ذا الذي يمكنه أن يجزم أن بعض من أولادي السبع وبناتي السبعة، إن لم يكن جميعهم، لن يرتقوا إلى السماء وينالوا الخلود[149]؟ بالنظر في أصولهم نجد أن ذلك هو الأرجح لا العكس، أليس كذلك؟ في رأيي الاحتفال بأم كسولة مبتذلة غير منتجة مثل ليتو لا ينمّ إلا عن ذوق غير سليم. في العام القادم سألغي هذا الاحتفال بالكامل».

عندما بلغ ليتو أن هذه الثيفاوية المتكبِّرة تهينها بهذه الطريقة وتجرؤ على مقارنة نفسها بها، أجهشت في البكاء أمام توأميها المتأثرين بدموعها.

قالت بصوت مختنق: «يا لها من امرأة شنيعة متبجّحة متغطرسة، قالت عني كسولة لأني أنجبت طفلين فقط... قالت إني غير منتجة... وقالت عني مبتذلة! وقالت إنها ستمنع أهل ثيفا من الاحتفال بيوم عيدي!».

وضعت أرتيميس ذراعها حولها، بينما راح أبولو يمشي ذهابًا وإيابًا ويضرب قبضته بكفه.

قالت ليتو منتحبة: «عندها أربعة عشر ابنًا وابنة، هكذا أنا، مقارنة بها، بلا قيمة...».

قالت أرتيميس: «يكفي هذا! تعال يا أخي، هذه المرأة جعلت أمّنا تبكي، حان وقت أن نعلمها معنى الدموع».

اتجه أرتيميس وأبولو من فورهما إلى ثيفا، وهناك اصطادا كلًّا من أبناء أمفيون ونايوبي الأربعة عشر. أرتيميس قتلت البنات السبع بأسهمها الفضية، وأبولو قتل الأولاد السبعة بأسهمه الذهبية. عندما بلغ أمفيون خبر المذبحة قتل نفسه بالقفز على سيفه، وحسرة نايوبي كانت غير قابلة للعزاء. هربت نايوبي إلى مسقط رأسها ولجأت إلى منحدرات جبل سيبيلوس. مهما كانت مغرورة وطائشة ومتكبرة وسخيفة من قبل، باتت هيئتها التعيسة المكروبة المحطّمة مؤلمة للناظرين، حتى الآلهة لم يتحملوا سماع نواحها الذي لا ينقطع، فحوَّلوها إلى حجر. لكن حتى الصخور الصلبة لم تكن قوية بما يكفي لاحتجاز كل هذه الدموع؛ دموع نايوبي شقت طريقها بين الصخور وانهمرت في شلال من على جانب الجبل.

حتى يومنا هذا لا يزال بوسع زوار جبل سيبيلوس رؤية تشكيلٍ يمكن تمييز تفاصيل وجه أنثوي فيه، يُعرف هذا في تركيا باسم «الصخرةَ الباكية Ağlayan Kaya[150]»، وتطل على مدينة مانيسا Manisa، الاسم الحالي لما كانت من قبل تانتاليس. المياه النابعة من تلك الصخرة ستظل تنهمر إلى الأبد في حزن لا ينقطع.

أبولو ومارسياس: خدود منفوخة

لم يكن البشر الفانون وحدهم القادرين على إبداء عنجهية مبالغ فيها. جرحٌ في كبرياء الربّة أثينا سيؤدي، بشكل غير مباشر، إلى هلاك كائن متعجرف يُدعى مارسياس Marsyas.

بدأت الحكاية عندما اخترعت أثينا بكل فخر أداة موسيقية جديدة أطلقت عليها اسم أولوس Aulos؛ كانت ذات قصبتين مفرغتين وتنتمي إلى ما نسميها الآن آلات النفخ الخشبية، لا تبعد كثيرًا عن الأوبوا Oboe أو الكور الانجليزي Cor Anglais[151]. لكن كانت هناك مشكلة واحدة

مع هذه الآلة الرائعة: كلما عزفت بها أثينا، ومهما كان الصوت الخارج منها شديد العذوبة، لم تثر غير الضحك الهادر من رفاقها الأوليمبيين. لم يكن هناك سبيلٌ للحصول على صوت جيد من الأولوس إلا عبر النفخ بقوة شديدة لدرجة تجعل وجناتها تنتفخ. النظر إلى الربّة - التي هي في الأصل تجسيد الوقار والحكمة - وقد احمرت بالكامل وانتفخت خدودها كالضفدع، كان شيئًا يفوق قدرة عائلتها عديمة الذوق على فعله دون الانفجار في القهقهة. رغم حكمتها وافتقارها (في الأغلب) للغرور والتكلف، إلا أنها لم تخلُ من الكبرياء بالكامل، ولم تتحمل أن يُسخَر منها. بعد ثلاث محاولات لنيل إعجاب الأرباب بالصوت المعسول لآلتها الجديدة، لعنتها وألقتها من فوق الأوليمبوس.

وقع الأولوس على الأرض في مملكة فريجيا بآسيا الصغرى، بالقرب من منبع نهر مندريس Maeander river (الذي بسبب تعرج ومنحنيات مساره صارت كل مجاري المياه الملتفة المتشعبة تدعى Meander)، حيث التقطه ساتيرٌ يدعى مارسياس. مارسياس كان مثل غيره من أتباع ديونايسيس مصابًا بالفضول وعدد من الصفات الأخرى سيئة السمعة. نفض مارسياس التراب عن الأولوس ثم نفخ فيه، لم ينتج عنه إلا صوت بيب قصير، ضحك مارسياس وحكَّ شفتيه، ثم نفخ هذه المرة بشدة حتى خرج أخيرًا من الأولوس صوت موسيقي عالٍ وطويل. كان هذا ممتعًا. مضى في طريقه وهو ينفخ وينفخ حتى تمكن بعد وقت قصير من أن يعزف نغمة حقيقية.

خلال شهر أو اثنين ذاع صيته في شتى أنحاء آسيا الصغرى واليونان، وبات مشهورًا كـ «مارسياس المزيكاتي»، الذي تقدَّر مهارته في عزف الأولوس على جعل الشجر يرقص والحجر يغني.

استمتع بالشهرة والتملق اللذين جلبتهما إليه موسيقاه. كان مثل بقية الساتيريين لا يريد أكثر من النبيذ والنساء والأغاني ليصبح سعيدًا، وتمكنه من الثالثة جعلت الأول والثانية موجودين بوفرة.

ذات مساء، وبينما النيران تفرقع والمينادات تحت قدميه يحدّقن فيه بولّه، نادى السماء ثملًا:

«أبولو، يا رب القيثارة أنت! أتحسب نفسك موسيقيًا شاطرًا؟ أراهن أنه لو كانت هناك مساسقة.. مبسنقة... مسقسقة... ما هي الكلمة؟».

قالت مينادة ناعسة: «أتقصد مسابقة؟».

«نعم، هذه هي... لو كان هناك ما قالته هذه بيننا... سأكسب بسهولة، بلا مجهود. القيثارة مملة، بوسع أي شخص لعب أوتارها، لكن من يستطيع أن ينفخ في المزامير مثلي؟ مزاميري تغلب أوتارك يا أبولو».

ضحكت المينادات وضحك مارسياس معهم، ثم تجشّأ وغطّ في النوم.

المسابقة

في اليوم التالي، خرج مارسياس برفقة أتباعه العديدين إلى بحيرة أولوكرين Aulocrene، كانوا قد رتبوا لمقابلة ساتيريين آخرين هناك وإقامة وليمة ضخمة، ومارسياس سوف يلعب موسيقى جامحة ماجنة راقصة من تأليفه. سينتزع بعض القصب من شاطئ البحيرة (التي يعني اسمها وفرة القصب أصلًا، aulos تعني القصب، وkrene تعني نبع أو نافورة) ويصنع منهم مبسَمًا جديدًا لأولوسه. قاد تابعيه في طابور مبتهج وهو ينفخ ويرقص، حتى وجد بعدما اتخذ منعطفًا أن طريقه مسدودٌ بمشهد مذهل ومفزع.

انتصب مسرح في وسط الغابة، جلست عليه الميوزات التسعة في نصف دائرة واسعة، وفي مركز المسرح وقف أبولو حاملًا قيثارته، وتتراقص على شفتيه ابتسامة عابسة.

توقف مارسياس فجأة، حاشيته من الساتيريين والفونيين والمينادت تخبطوا فيه وببعضهم في حالة من الهرج.

قال أبولو: «أهلًا يا مارسياس، هل أنت جاهز لتنفيذ كلماتك الشجاعة؟».

قال مارسياس وقد نسي تبجحه الثمل في الليلة الماضية: «كلمات؟ أي كلمات؟».

«قلت 'لو كانت هناك مسابقة بيني وبين أبولو، سأكسب بلا مجهود'، ها هي فرصتك لاكتشاف إن كان هذا صحيحًا، سافرت الميوزات خصيصًا من بارناسوس لسماعنا والتحكيم بيننا، وحكمهنّ نهائي».

«لـ... للــ.. لكن..»، بات فم مارسياس فجأة جافًا وأمست ركبتاه ترتعشان.

«هل أنت موسيقي أفضل مني أم لا؟».

سمع مارسياس همسات من التابعين خلفه تُشكّك فيه، فتأججت بداخله نيران الكبرياء مرة أخرى.

أعلن في فورة تبجّح: «أستطيع بكل تأكيد العزف أفضل منك في منافسة عادلة».

اتسعت ابتسامة أبولو، «ممتاز، انضمّ إليّ على المنصة هنا، سأبدأ أنا. إليك بعض النفحات، حاول تكرارها».

اتخذ مارسياس موقعه بجوار أبولو الذي انحنى ليدوزن قيثارته، بعد أن أتمّ الدوزنة داعب الأوتار برقة وشدَّها بأناقة، وخرج من القيثارة أعذب وأحلى وأدق وأرَقّ لحن ممكن في أربع جمل موسيقية، وبعدما انتهى انفجر تابعو مارسياس في تصفيق حاد.

وعلى الفور وضع مارسياس الأولوس في فمه وكرر جمل أبولو الموسيقية، لكنه أضاف على كل منها بعض التعديلات والتنويعات، بعض النوتات الرشيقة هنا، سلسلة من العوارض هناك. شهقة الإعجاب العميقة من تابعيه وإيماءة الرأس من كاليوبي نفسها شجعاه على المتابعة حتى النهاية بنجاح.

رد عليه أبولو على الفور بتنويع في الجمل الموسيقية في الوقت المضاعف. التعقيد الذي شدّ به الأوتار وداعبها كان مذهلًا، لكن مارسياس رد عليه بسرعة أعلى، فارت النغمات وغلت في مزاميره بإعجاز سحري استخرج من الجمهور تصفيقًا أكثر.

عندها فعل أبولو شيئًا استثنائيًا، قلب قيثارته رأسًا على عقب ولعب الجمل الموسيقية بالعكس. ظل في الجمل المعكوسة لحنٌ، لكنه بات الآن مشبَعًا بغموض فتنَ كل من سمعه. عندما انتهى أبولو، أومأ لمارسياس.

كانت لمارسياس أذن موسيقية ممتازة، فبدأ على الفور بلعب النغمات المعكوسة التي لعبها أبولو، لكن الإله الذهبي قاطعه بسخرية: «لا لا أيها الساتير، عليك أن تقلب آلتك رأسًا على عقب مثلما فعلت أنا».

اعترض مارسياس: «لكن هذا... هذا ليس عدلًا!».

«ماذا عن هذا إذًا؟»، عزف أبولو على قيثارته وغنى، «ربما يقدر مارسياس على النفخ في مزماره الشيطاني، لكن هل يقدر على الغناء بينما يعزف؟».

عزف مارسياس المهتاج غضبًا أفضل ما عنده، صار وجهه بنفسجيًا من فرط المجهود، وانتفخت وجناته حتى بدت على وشك الانفجار، انفجرت آلاف النوتات من الأولوس في وابل من أرباع النغمات وأثمان النغمات وأسداس عشر النغمات، ملأ الهواء بموسيقى لم يسمع العالم مثلها من قبل. لكن كيف يسع مزامير مارسياس أن تنافس صوت أبولو السماوي والانفراطات والتآلفات المتصاعدة من الأوتار الذهبية لقيثارته؟

لاهثًا من فرط التعب، باكيًا من فرط الإحباط، صاح مارسياس عاليًا: «هذا ظلم! صوتي ونَفَسي يغنيان داخل الأولوس مثلما يغني صوتك في الهواء، وبالطبع لا أستطيع أن أقلب مزاميري، لكن أي حكم غير منحاز سيقول بلا شك أن مهارتي هي الأفضل».

الحكم

أنهى أبولو عزفه بانزلاقة انتصار ودار ليواجه لجنة التحكيم الميوزية، «أخواتي العزيزات، لست أنا بالطبع من أقرر، إلى من تمنحنَ الفوز؟».

فقد مارسياس التحكم بأعصابه بالكامل، قادته الإهانة وإحساس حارق بالظلم إلى الحافة، «كيف تحكمنَ بلا انحياز؟ إنهنَّ خالاتك أو أخواتك أو

أيًا كان ما تسمون صلات القرابة الشاذة تلك... إنهن أسرتك، ولن يجرؤن أبدًا على...».

توسلت إحدى الميناادات: «اسكت يا مارسياس».

قالت أخرى: «لا تأخذ على كلامه أيها الرب العظيم أبولو».

«إنه هستيري».

«إنه طيب وشريف».

«لا يقصد إلّا كل خير».

لم تستغرق الميوزات وقتًا طويلًا في التداول وإعلان النتيجة.

قالت يوتيربي: «نعلن بالإجماع أبولو فائزًا».

انحنى أبولو وابتسم ببهاء، لكن ما فعله بعد ذلك سيغير نظرتنا في الرب الذهبي الجميل للموسيقى والمنطق والجاذبية والتناغم للأبد.

جذب أبولو مارسياس، وسلخ جلده، لا توجد وسيلة لطيفة لقول ذلك، نزع الجلد عن الساتير الحي الذي يصرخ ألمًا وعلقه على شجرة صنوبر، ليعاقبه على الهوبرس وتجرّئه على تحدّي أوليمبي، وعلى سبيل العبرة والتحذير للجميع[152].

أصبح «سلخ مارسياس» موضوعًا مفضَّلًا للعديد من الرسامين والشعراء والنحّاتين. رأى البعض في هذه الحكاية صدى لمصير بروميثيوس: رمزًا لسعي الفنان المبدع المضني لمضاهاة الآلهة، أو رفض الآلهة لقبول أنّ فنانًا فانيًا قادر على التفوق على إله[153].

أراكني

الخياطة

في كوخ صغير خارج مدينة صغيرة تدعى هيبيبا Hypaepae بمملكة ليديا[154] عاش تاجر وحرَفي اسمه إدمون Idmon، وكان يعمل في مدينة كولوفون Colophon الإيونية القريبة كبائع أصباغ، وتخصص بالذات في اللون البنفسجي الفوكي الثمين. ماتت زوجة إدمون وهي تنجب فتاة تدعى أراكني Arachne. كان إدمون أبًا فخورًا جدًا بابنته، فقد كانت منذ طفولتها المبكرة خيّاطة فائقة المهارة.

كان للغزل والحياكة بطبيعة الحال أهمية قصوى في تلك الأيام، فبعد الزراعة وتوفير الطعام، قليلة هي الأشياء التي كانت بذات أهمية صنع المنسوجات والملابس في معيشة الإنسان. تُنسج الخيوط من الصوف والكتان ثم تُشَدّ على أنوال ليُحاك منها القماش الصوفي أو الكتاني. كانت تلك مهارة حصرية للنساء لدرجة أن النوع الأنثوي ذاته كانت تُطلق عليه في بعض الثقافات واللغات أسماءٌ تعكس هذه الصنعة، في الإنجليزية نقول «distaff side» من الأسرة للإشارة إلى الفرع الأنثوي منها، والـ distaff هو القضيب الذي يُلفّ حوله الصوف أو الكتان المُجهّز للغزل، وكلمة spinster (تعني «التي تغزل») كانت ذات يوم تُطلق على النساء اللواتي لم يتزوجن، بلا دلالة سلبية متضمنة.

لكن مثل أي مهارة بشرية أخرى، هناك من لديه قدرة غامضة على الارتقاء بالمستوى اليومي العادي الشائع إلى مكانة الفن.

منذ البداية المبكرة كانت مهارة أراكني على النَّوْل مثار حديث وفخر

إيونيا كلها. اتّسم عملها بسرعة ودقة غير طبيعية، كانت تختار خيطًا ملونًا وراء الآخر دون أن تنظر تقريبًا، بثقة ومهارة أذهلت المتابعين المعجبين الذين كانوا يحتشدون عادة في كوخ إدمون لتأمل عملها، لكن ما كان يدفع المراقبين للانفجار في التصفيق العفوي ووصفها بأنها بلا نظير، كانت الصور والأنماط والتصاميم المعقدة التي تخرج من تحت ضباب مكوك مغزلها. الغابات والقصور والبحار والجبال التي ابتكرتها كان فيها من الواقعية ما يشعرك أنّ بوسعك القفز فيها مباشرة. لم يكن سكان كولوفون وهيبيبا الفانين فقط هم من يأتون لرؤيتها تحيك، بل جاءت أيضًا النايادات المحلية من نهر باكتولوس Pactolus، وأوريادات جبل تمولوس أيضًا تزاحمنَ في الكوخ وهززنَ رؤوسهنّ بتعجب.

اتفق الجميع على أن أراكني كانت ظاهرة من النوع الذي قد يتكرر مرة كل خمسة قرون مثلًا. أن تكون بهذه المهارة التقنية فهذا في حد ذاته سبب كاف للاحتفاء، لكن أن تُمنح بالإضافة إلى ذلك مثل هذا الذوق الرفيع - فهي مثلًا لم تبالغ قط في استخدام الدرجات البنفسجية أو أي من الأصباغ الغالية والمبهرجة - فتلك كانت المعجزة.

كمّ المديح الذي تلقّته يوميًا كان كافيًا لإدارة رأس أي شخص، لكن أراكني لم تكن طفلة مدللة أو متغطرسة، بل في الواقع كانت على نولها ذات شخصية عملية رتيبة، لا مزاجية متقلبة، فهمت أنها مُنحت موهبة لم تسع لاكتسابها، بيد أنها أعلت من قدر هبتها عند نفسها، وآمنت أن بتثمينها بهذه القيمة كانت ببساطة صادقة في حق نفسها.

ذات أمسية مصيرية همهمت أراكني وهي تنظر إلى صنيع يدها: «أعتقد أن بالاس أثينا نفسها لو جلست وغزلت معي ستجد أنها غير قادرة على مضاهاة مهارتي، في النهاية أنا أفعل هذا كل يوم أما هي فتحيك من حين إلى حين على سبيل التسلية، لا عجب إذًا أني أفوقها إلى حد كبير».

وجود الكثير من النيمفات في الغرفة الأمامية لكوخ إدمون جعل وصول نبأ كلمات أراكني غير المختارة بعناية لأثينا أمرًا مؤكدًا.

حرب الحياكة

بعد قرابة الأسبوع، وأمام الجمهور المعتاد، جلست أراكني إلى مغزلها لتستكمل بساطًا مزخرفًا يصور إنشاء ثيفا، تلقّى المتابعون تمثيلها لمحاربي أسنان التنين ينبثقون من الأرض بشهقات وتأوهات الإعجاب، لكن قاطعت كل صيحات الـ«أوووه» والـ«آآآه» طرقات على باب الكوخ.

انفتح الباب ليكشف عن عجوز متغضنة منحنية، قالت المرأة بصفير لاهث: «أتمنى أني جئت إلى المكان السليم»، كانت تجر جوالًا ضخمًا، «قيل لي إن خيّاطة رائعة تعيش هنا، اسمها أريادني أليس كذلك؟».

دعوها للدخول، وقالوا لها: «اسمها أراكني»، وأشاروا إلى الفتاة التي تجلس على النول.

«أراكني، أرى ذلك، اسمحوا لي أن أرى، هل هذا شغلك؟ إنه بديع».

أومأت أراكني برضا.

شدت العجوز النسيج، وقالت: «يصعب تصديق أن فانية قادرة على عمل هذا، لا شك أن لأثينا نفسها يد فيه، أليس كذلك؟».

قالت أراكني بنوع من نفاد الصبر: «لا أعتقد أن أثينا قادرة على صنع شيء بهذه الجودة، أرجوكي لا تفكيه».

«أوه، تعتقدين أن أثينا أقل منك؟».

«فيما يخص الغزل هذا ليس مجرد رأي».

«أتساءل ماذا كنت لتقولين لها لو كانت هنا الآن؟».

«كنت سأحثها على الاعتراف أني خيّاطة أفضل منها».

«حثيني إذًا أيتها الفانية الحمقاء».

مع هذه الكلمات انفردت التجاعيد على الوجه العتيق، وانزاحت الغمّة عن الأعين الخاملة الغائمة وبرقت بلون رمادي ناصع، وانتصب الظهر المنحني للعجوز ليكشف عن أثينا ذاتها. تراجع الحضور مصعوقين من المفاجأة، النيمفات بالذات انكمشنَ حول أنفسهن في الأركان، وقد خجلنَ من أن تراهنّ الربّة يضيّعنَ وقتهنّ في الإعجاب بعمل فانية.

شحبت أراكني بشدة وأخذ قلبها يدق بعنف، لكنها تمكنت من المحافظة على رباطة جأشها الخارجية، كان تركيز هذه العيون الرمادية عليها شيئًا مقلقًا، لكن كل ما فيهما من حكمة وثبات لم يستطيعا تغيير الحقيقة الواضحة.

قالت بأقصى درجات الهدوء الذي تمكنت من جمعه في صوتها: «حسنًا، لا أقصد أي إهانة، لكني أؤمن أني كفنانة على النول لا نظير لي، لا على الأرض ولا على الأوليمبوس».

تقوَّس حاجبا أثينا، وقالت: «حقًا؟ لنكتشف هذا إذًا معًا، أتفضلين أن تبدأي؟».

«لا، تفضلي أرجوك...»، أخلت أراكني مقعدها وأشارت إلى النول.

فحصت أثينا الإطار، وقالت: «لا بأس، هذا مناسب. تستخدمين البنفسجي الفوكي؟ ليس سيئًا، لكني أفضل التايري»، وبقولها هذا أخرجت من جوّالها قدرًا من الأصواف الملونة، «والآن...».

لم تمض ثوان إلّا وكانت أثينا منخرطة في العمل، مكوكها الخشبي راح يطير ذهابًا وإيابًا، وبدأت الصور السحرية المذهلة في الظهور. تدافع الحشد إلى الأمام ورأوا أن أثينا لم تكن تصور شيئًا أقل من قصة الآلهة نفسها: ها هو إخصاء أورانوس بكل تفاصيله الدموية، كم بدا الدم لزجًا، ثم ها هي ولادة أفروديتي، كم بدت نضرة ورطبة من رذاذ المحيط، ثم لوحة تظهر كرونوس يبتلع أبناء ريا، وأخرى تظهر زيوس الوليد يرضع من أمالثيا الماعز، بل إن أثينا نسجت بساطًا يصور قصة ولادتها نفسها من رأس زيوس. بعد ذلك تتابعت بورتريهاتتصوّر الرؤوس للآلهة الاثني عشر أنفسهم على عروشهم فوق الأوليمبوس، لكنها مع ذلك لم تكن قد انتهت بعد.

وكأنها أرادت أن تهين أراكني علنًا وعمدًا لاحساسها بالأفضلية، أخذت أثينا تنسج لوحة تستعرض الثمن الذي دفعه الفانون الذين تجرأوا على افتراض أنهم أندادٌ للأرباب أو أفضل منهم. في البدء صورت رودوبي Rhodope وهايموس Haemus ملكة وملك ثراقيا، اللذان تحولا إلى جبال لتجرّوئهما على اعتبار نفسَيهما زوجين بعظمة هيرا وزيوس، وفي صورة

أخرى نسجت صورة لجيرانا Gerana ملكة البيجميز Pygmies، التي ادّعت أنها على درجة من الجمال والأهمية تفوق ملكة السماء، فحولتها هيرا الغاضبة إلى طائر الكركي، وفي ذات الركن غزلت صورة لأنتيجوني Antigone، التي حُوّل شعرها إلى ثعابين عقابًا على وقاحة مشابهة[155]. في النهاية زخرفت أثينا إطار عمليها بتصميمات الزيتون، شجرتها المقدسة، ثم نهضت لتتلقى الاحتفاء المستحق.

أراكني كانت كريمة بما يكفي لتشارك في التصفيق، لكن عقلها اشتغل بذات سرعة مكوك غزل أثينا، وعرفت بالضبط ما الذي ستصنعه. سيطر عليها نوع من الجنون، الآن وقد وجدت نفسها في موقع لم تسع إليه تنافس فيه ربّة أوليمبية، أرادت أن تظهر للعالم ليس فقط أنها الخياطة الأفضل، بل إن البشر أفضل من الآلهة في كل شيء. أغضبها تصوير أثينا لأشياء في غاية العظمة مثل ميلاد الآلهة وتأسيس المجلس الأوليمبي، ثم اتباع ذلك بحكايات سخيفة عن عقاب هوبرس البشر. لا بأس، لعبة الحكايات هذه يمكن أن يلعبها اثنان... ستريها!

جلست أراكني وطرقعت أصابعها، وبدأت. أول الأشكال التي انبثقت للحياة من تحت أصابعها الطائرة كان ثورًا، وعلى ظهر الثور تركب فتاة شابة. اللوحة التالية أظهرت الثور يرتفع في الهواء ويعبر فوق البحر، والفتاة تنظر إلى الخلف من فوق الأمواج باتجاه شباب يجرون وراءها في هلع. أيمكن أن يكون...؟ هل هذا مشهد خطف يروبا وهؤلاء الشباب هم كادموس وأشقاؤه؟

تصاعدت همهمة من المراقبين المتدافعين من جميع الجهات لإلقاء نظرة فاحصة. سلسلة الصور التالية جعلت نية أراكني أوضح ما يكون؛ فها هي أستيريا Asteria، ابنة التياتنة فيبي وكويوس، تحول نفسها في يأس إلى طائر سمّان وتحاول الهروب من الاهتمام المفترس لزيوس المتخذ هيئة عُقاب، بعدها نسجت أراكني صورة لزيوس في هيئة بجعة يفرض نفسه على جسد ليدا Leda زوجة تندريوس Tyndareus، والآن ها هو في هيئة ساتير راقص يطارد الجميلة أنتيوبي، ثم يظهر الرب الشهواني في أغرب

تجلياته على الإطلاق: غيث من المطر الذهبي، وبتلك الهيئة غير المعتادة يجتمع بداناي Danaë ابنة أكريسيوس Acrisius ملك أرجوس ويسجنها. كثير من مواقف الخطف والإغواء هذه كانت موضوعًا لنميمة العديد من الفانين، لكن أن تحييها أراكني بخيوط الحرير الملون فهذا أمر لا يُغتفر. أتبع ذلك مشاهد أخرى من المسيرة المنحرفة لزيوس، مثل اعتدائه على النيمفة أيجينا والجميلة بيرسفوني في هيئة ثعبان أرقط. إشاعة أن زيوس اجتمع ببيرسفوني، ابنته من ديميتر، بهذه الهيئة كانت قد تناقلت همسًا، غير أن تمثيل أراكني لها كان تجديفًا.

مع ذلك لم يكن زيوس الإله الوحيد الذي حكت الحكايات المكتوبة بالخيط عن انحطاطه؛ فها هي مشاهد لبوسايدون رب البحر، على هيئة ثور في البداية يعدو في أثر المذعورة أرني Arne من ثيساليا، ثم مرة أخرى على هيئة دولفين يطارد ميلانثو Melantho ابنة دوكليون.

جرائم أبولو كانت التالية في ترتيب الظهور: أبولو الصقر، أبولو الأسد، أبولو راعي الغنم، في كل الأشكال يستلب الفتيات بلا خجل. وظهر أيضًا ديونايسيس، يخفي نفسه في هيئة عنقود عنب ضخم ليخدع الجميلة إيريجوني Erigone، ثم في نوبة غضب يحول ألكاثوي Alcathoë والمينيادات Minyades[156] إلى خفافيش لتجرّؤهم على تفضيل حياة من التأمل على أخرى من الاحتفال الصاخب.

كل هذه المواقف وغيرها مما استحضره فن أراكني اشتركت في ثيمة استغلال الآلهة لنساء الفانين بطرق مخادعة ووحشية في الغالب. أنهت أراكني عملها بحياكة إطار من أوراق اللبلاب والزهور المتداخلة على الحواف، وعندما أتمته وضعت مكوكها جانبًا بهدوء، ثم وقفت منتصبة.

الجائزة

وقف المراقبون مذعورين ومفتونين ومرتبكين. وقاحة الفتاة كانت تخطف الأنفاس، لكن لم يكن هناك من يقدر على إنكار المهارة والفن الخارقَيْن اللذين أبدتهما في عملها الجريء المجدِّف.

اقتربت أثينا لتفحص كل ركن في عملها، ولم تستطع أن تجد فيه خللًا أو زللًا، كان كاملًا، كاملًا لكنه مدنّس ومتجاوز لكل الحدود. مزقت أثينا الشبكة بصمت وقطعت كل مشهد فيها، ثم في النهاية بعدما لم تعد قادرة على كبح ثورتها، انتزعت مكوك المغزل وقذفته على رأس أراكني.

الألم الذي أحدثه المكوك الذي أصاب أراكني في جبهتها يبدو أنه أيقظها من نوبتها، ما هذا الذي فعلته؟ أي جنون هذا الذي مسّها؟ لن يُسمح لها بالغزل مجددًا، ستدفع بلا شك ثمنًا مريعًا على وقاحتها، الجزاءات التي حلت بالفتيات اللواتي سجلت مصائرهن في نسيجها ستكون لا شيء مقارنة بما سيصيبها بلا شك.

التقطت كومة من الخيوط السميكة عن الأرض، وصاحت: «لو سأُمنع من الخياطة لن أستطيع الحياة»، وهرعت راكضة خارج الكوخ قبل أن يفكر حتى أي شخص في إيقافها.

تدافع الحشد حول النافذة والباب المفتوح وراقبوا أراكني في رعب ذاهل بينما تجري على الحشائش ثم تطوّح حبلًا فوق أحد أغصان شجرة التفاح، وتشنق نفسها. استداروا عندها ونظروا إلى أثينا.

تدحرجت دمعة على وجنة الربة، وقالت: «يا لها من فتاة حمقاء!».

اتخذت أثينا طريقها إلى خارج الكوخ في اتجاه الشجرة واتبعها الجمهور المحتشد في صمت مروع. أراكني كانت تتأرجح من طرف الحبل، بعينين ميتتين جاحظتين.

قالت أثينا: «موهبة مثل موهبتك لا يجب أن تموت، ستغزلين وتحيكين إلى الأبد... تغزلين وتحيكين، تغزلين وتحيكين، تغزلين وتحيكين....».

وبينما تتكلم أثينا أخذت أراكني تتغضن وتنكمش، والحبل الذي تدلت منه امتد ونحف حتى بات خيط حريري لامع نحيل تتعلق فيه أراكني التي لم تعد فتاة، بل كائنًا مصيره الانشغال بالغزل والحياكة طوال الوقت.

هكذا خُلق أول عنكبوت (أو أول أراكنيد arachnid [فصيلة العنكبيات])، ذلك لم يكن عقابًا مثلما يعده البعض، وإنما جائزة على الفوز بمسابقة عظيمة، هدية الفنان، الحق في غزل وحياكة أعظم الأعمال إلى الأبد.

مزيد من التحولات

رأينا الآلهة تحوِّل رجالًا ونساءً إلى حيوانات بدافع الشفقة أو العقاب أو الغيرة، لكن مثلما هم قادرون على أن يكونوا ضيّقي الأفق مغرورين كما البشر، يمكن أيضًا أن تكون الرغبة هي دافعهم المحرك. رأينا كيف يسيل لعابهم على اللحم الفاني والخالد على السواء. قد تكون غرائزهم أحيانًا لا تزيد عن شهوة بدائية، لكنهم يقعون أحيانًا في الحب بصدق أيضًا. توجد كثير من الحكايات عن أرباب يطاردون أجمل الشباب والشابات ويحوّلونهم إلى حيوانات ونباتات وزهور، بل وأحيانًا إلى صخور ومجاري مياه[157].

نايسوس وسيلا

نايسوس Nisus كان ملك مدينة ميجارا Megara على ساحل أتيكا[158]، وكان قد مُنح حصانة ضد الأذى على شكل خصلة شعر بنفسجية حفظته من كل أشكال الضرر البشري. لسبب ما هاجمت مملكته قوات الملك مينوس الكريتي. ذات يوم، الأميرة سيلا Scylla[159] ابنة نايسوس لمحت مينوس على أحد مراكبه الحربية بينما تبحر بالقرب من الأسوار، فوقعت في حبه. تغلبت عليها الرغبة حتى أصابتها بالجنون، فقررت سرقة خصلة شعر أبيها البنفسجية ومنحها لمينوس على متن سفينته ليرد جميلها بكرَم الحب. غير أنها عندما سرقت خصلة نايسوس بات معرضًا للأذى مثل أي فانٍ، وقُتل في غارة على قصره بينما كانت ابنته تتسلل سرًا في طريقها لمقابلة مينوس.

مينوس لم يسعد قط من خيانة سيلا لأبيها، بل أصابه الاشمئزاز ولم

يقترب منها وطردها من سفينته، ورفع الأشرعة وغادر ميجارا، وأقسم ألّا يعود إليها أبدًا.

لكن شغف سيلا به كان قويًا لدرجة أنها لم تتنازل عن حبه، وأخذت تعوم خلف السفينة وهي تنادي اسمه بيأس، بكت وصرخت وانتحبت وهي تنادي اسمه بحزن شديد حتى تحولت إلى نورس، ويتجلى حس دعابة الآلهة في تحويلهم لأبيها في الوقت ذاته إلى عُقاب البحر.

ومنذ ذلك الوقت، لا يزال الأب يهاجم ابنته فوق المحيطات انتقامًا منها.

كاليستو

قبل أن يتحول لايكيون ملك أركاديا إلى ذئب - لو لا زلت تذكر ذلك - إبان الأيام الأولى للبشر البيلاسجوسيين، أنجب فتاة جميلة اسمها كاليستو Callisto. كاليستو كانت نيمفة نشأت عذراءً مكرسة للصيّادة أرتيميس.

لفترة طويلة ظلت تفور داخل زيوس الرغبة في هذه الفتاة الجميلة البعيدة عن المنال، حتى خدعها ذات يوم بتحويل نفسه إلى هيئة أرتيميس ذاتها، فألقت الفتاة بسهولة نفسها بين ذراعي الربّة التي تتبعها، فقط لتجد نفسها وقد باتت فريسة زيوس.

بعد فترة، رأتها أرتيميس تغتسل في النهر، وجن جنون الربة عندما رأت تابعتها حبلى، فطردت كاليستو المسكينة من دوائرها. هامت كاليستو على وجهها في العالم تعيسة ووحيدة، ثم أنجبت ولدًا يدعى أركاس Arcas. هيرا، التي لم يُعرف عنها قط الرحمة لأي من عشيقات زوجها مهما كنّ ساذجات بريئات، عاقبت كاليستو أكثر بتحويلها إلى دب.

بعد أعوام طويلة، كان أركاس الشاب يصطاد في الغابة، وصادف دبة أنثى ضخمة، وكان على وشك رشق رمحه فيها عندما تدخل زيوس ليمنع جريمة قتل الأم غير المتعمَّدة تلك، ورفع كليهما إلى السماء في كوكبتي الدب الأكبر والدب الأصغر Ursa Major and Ursa Minor. لكن هيرا التي لم يهدأ غضبها لعنت الكوكبتين أكثر وقررت أنهما لن يتشاركا المياه

نفسها أبدًا، ما يفسر (بحسب ما قيل لي) وضعهما المتعاكس في السماء إلى الأبد[160].

بروكني وفيلوميلا

كان لبانديون Pandion ملك أثينا ابنتين، بروكني Procne وفيلوميلا Philomela. بروكني، الأكبر، غادرت أثينا لتتزوج من تيريوس Tereus ملك تراقيا Thrace، وأنجبت منه ابنًا: إكتيس Ictys.

في إحدى السنوات، ذهبت شقيقتها الأصغر فيلوميلا إلى تراقيا لتقضي معهم الصيف بأكمله. تيريوس، الذي كان قلبه من أكثر القلوب التي نبضت قتامة على الإطلاق، اضطرب بشدة من جمال شقيقة زوجته الصغرى، فجرّها ذات ليلة إلى إحدى الغرف واغتصبها، ثم قطع لسانها خوفًا من أن تعرف زوجته والعالم فداحة جرمه. شعر بالأمان لمعرفته بأن الفتاة غير قادرة على القراءة ولا الكتابة ولن تستطيع أبدًا إخبار أي شخص بالحقيقة الشنيعة لما حدث.

لكن فيلوميلا غزلت على مدار الأسبوع التالي بساطًا صورت فيه لأختها تفاصيل الاعتداء الذي تعرضت له. الشقيقتان المنتهكتان الغاضبتان وضعتا معًا خطة انتقامية تكافئ وحشية جريمته الشريرة، عرفتا أكثر ما يؤلم تيريوس، كان رجلًا منفرًا عنيفًا شريرًا ذا نوبات غضب جامحة وشذوذ لا يوصف، لكن لديه نقطة ضعف وحيدة: حبه العميق لابنه إكتيس، بروكني وفيلوميلا عرفتا بهذا التعلق غير المحدود. إكتيس كان ابن بروكني أيضًا، لكن الحب الأمومي الذي شعرت به يومًا طغت عليه كراهية متأججة ورغبة عارمة في الانتقام. تخففت الأختان من كل شفقة وذهبتا إلى غرفة نوم الطفل، وقتلتاه أثناء نومه.

قالت بروكني لزوجها في الصباح التالي: «فيلوميلا ستعود إلى أثينا قريبًا، ما رأيك أن نقيم وليمة الليلة لوداعها، على شرف الضيافة الكريمة التي أبديتها لها؟».

أصدرت فيلوميلا صوت تأوه وأومأت برأسها بحماسة.
«يبدو أنها تؤيد الفكرة أيضًا».
زمجر تيريوس موافقًا.

على مائدة العشاء تلك الليلة، قُدّم حساءٌ شهيٌ التهمه الملك بشراهة، امتص كل العصارة بقطع الخبز، لكنه شعر أنه لا يزال في معدته مكانٌ للمزيد. كان ثمة طبق يداريه غطاء فضي كالقبة بعيدًا عن متناول يده.
«ما الذي تحت ذلك الغطاء؟».

دفعت فيلوميلا الطبق ناحيته بابتسامة، رفع تيريوس الغطاء المقبَّب ثم صرخ رعبًا عندما رأى رأس ابنه ينظر له بتجهّم، وانفجرت الشقيقتان في ضحك مبتهج. عندما أدرك تيريوس ما حدث له، وفهم لماذا كان الحساء لذيذًا لهذه الدرجة، أطلق زئيرًا هائلًا وانتزع رمحًا من على الحائط. ركضت الشقيقتان خارجتان من القاعة وتوسلتا الرحمة من الآلهة بينما يطاردهما تيريوس، وما إن خرج تيريوس من القصر إلى الشارع مطاردًا الشقيقتين، حتى وجد نفسه يرتفع في الهواء. تحول إلى طائر هدهد، وصرخات الغضب والألم التي يطلقها باتت أشبه بصيحات يائسة، وتحولت بروكني إلى طائر سنونو، وفيلوميلا إلى عندليب.

رغم أنّ العندليب مشهور بعذوبة وجمال أغانيه، لكن لا ذكر هذا الطائر هو فقط من يغني، أما الأنثى فتظل صامتة مثل فيلوميلا بلا لسان[161]. أنواع عديدة من السنونو لا تزال تسمى بروكني حتى يومنا هذا، ولا يزال الهدهد يرتدي تاج الملك.

جانيميد والعقاب

في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى كانت تقع مملكة تدعى طروادة Troad أو تروي Troy، على اسم ملكها تروس Tros. كانت طروادة تواجه اليونان عبر بحر إيجه، وخلفها تقع الأراضي التي ندعوها الآن بتركيا وكل أراضي الشرق القديم. إلى شمالها الدردنيل وجاليبولي

وجنوبها جزيرة لسبوس العظيمة. إيليوم Ilium المدينة الرئيسية للمملكة (والتي سيُطلق عليها لاحقًا ببساطة مدينة طروادة) اشتقّت اسمها من إيلوس Ilos، أكبر أبناء تروس وزوجته الملكة كاليروي Callirrhoë، وهي ابنة لربّ النهر المحلي سكامندر Scamander. لا يُعرف إلا القليل عن الابن الثاني للزوجين، أساراكوس Assaracus، لكن الابن الثالث جانيميد Ganymede هو من سيجذب العيون ويقطع أنفاس كل من يقابله.

لم يخطُ على الأرض من قبل قط يافعٌ أجمل من الأمير جانيميد، شعره كان ذهبيًا وبشرته كالعسل الدافئ، وشفتاه دعوة طرية ناعمة لإطلاق المرء العنان لنفسه والانخراط في قبلات سحرية محمومة.

البنات والنساء من كل الأعمار كنّ يصرخن ويفقدن الوعي عندما ينظرن إليه، الرجال الذين لم تراودهم في حياتهم قط رغبة في الجنس نفسه كانت قلوبهم تدق كالمطارق وتفور الدماء في عروقهم وتضرب في آذانهم عندما يلمحونه، ويجفّ اللعاب في حلوقهم ويجدون أنفسهم يتلعثمون ويرددون أي شيء لإرضائه أو لجذب انتباهه، وعندما يعودون لبيوتهم كانوا ينظمون ويمزّقون القصائد التي تقفي «العيون» مع «الشجون» و«الشباب» مع «العذاب».

على عكس الكثيرين ممن مُنحوا هبة الجمال، لم يكن جانيميد متقلب المزاج أو مزعجًا أو مدللًا، بل كان سلوكه جذابًا وغير متكلف. عندما يبتسم كانت ابتسامته طيبة وتتوهج معها عيناه العنبريتان بدفء الود. من عرفوه عن قرب قالوا إنّ جماله الداخلي كان يكافئ جماله الخارجي بل قد يفوقه.

ربما لو لم يكن أميرًا كانت الضجة المثارة حول جماله الخلاب ستصبح أسوأ وتجعل حياته مستحيلة، لكن لأنه كان الابن المفضّل لحاكم عظيم لم يجرؤ أحد على محاولة إغوائه، فعاش حياة هانئة مع الأحصنة والموسيقى والرياضة والأصدقاء. كان يُفترض أن يزوجه الملك تروس ذات يوم بأميرة يونانية، ويكبر ليصبح رجلًا وسيمًا قويًا، فالصبا في النهاية لا يدوم، لكن هذه الخطة لم تأخذ في اعتبارها ملك الآلهة.

لا نعرف بالضبط إن كان زيوس قد سمع الشائعات عن هذه المنارة الساطعة من جمال الصبا أو إن كان رآه بالصدفة، لكن المهم أنّ الرغبة سلبت لبّه. رغم الدماء الملكية لهذا الفاني عالي الشأن، ورغم الفضيحة الذي سيسببها فعله، ورغم الغضب الحتمي الذي سيعصف بهيرا، تحول زيوس إلى عُقاب وانقضَّ على الأرض، التقط الفتى بين مخالبه وطار به إلى الأوليمبوس.

كان فعلًا دنيئًا بلا شك، لكن الحقيقة المفاجئة التي اتضحت أنه كان أكثر من مجرد شهوة غاشمة، ويبدو أن زيوس بالفعل عشق الفتى وأراده أن يكون بجواره دائمًا، لم تؤدِ أفعال الحب الجسدي إلا لتعزيز هذا العشق. منح زيوس جانيميد هبة الخلود وجعله حامل قدحه. من الآن وحتى نهاية الزمان، سيظل جانيميد هو الذي سحَرَ جماله الداخلي والخارجي قلب الإله. كل الآلهة الأخرى، باستثناء هيرا بطبيعة الحال، رحبوا بالشاب الجديد في السماء، كان من المستحيل ألّا يُحب، وجوده أضاء الأوليمبوس.

زيوس بعث هرمس إلى الملك تروس ومعه هدية من الأحصنة السماوية لتعويض أسرته عن فقيدهم.

قال له هرمس: «ابنكم إضافة محبوبة ومرغوبة للأوليمبوس، لن يموت قط، وعلى عكس بقية الفانين سيظل جماله الخارجي يضاهي جماله الداخلي، سيظل دائمًا راضيًا، إن أبا السماء يحبه حبًا جمًا».

كان لملك وملكة طروادة ابنان آخران على أي حال، والأحصنة كانت أفضل من كل أحصنة العالم، وابنهما جانيميد سيصبح عضوًا أبديًا في الحضرة الأوليمبية، وزيوس يحبه فعلًا...

لكن هل أحب الفتى زيوس في المقابل؟ يصعب معرفة هذا، يعتقد القدماء أنه فعل؟ أحبه، كان يُصور دائمًا مبتسمًا سعيدًا. صار جانيميد رمزًا للحب المثلي، الشيء الذي سيصبح جزءًا مركزيًا من حياة الإغريق. يبدو أنه كان في اختيار اسمه نوع من التلاعب اللفظي المقصود، فهو مشتق

من ganumai (مبهج) و medon (أمير) و/ أو medeon (أعضاء تناسلية)، جانيميد إذًا هو الأمير المُبهج مع الأعضاء التناسلية المبهجة، وسيُحرف الاسم مع الوقت إلى كلمة كاتامايت catamite.

ظل زيوس وجانيميد رفيقين سعيدين لفترة طويلة جدًا، بالطبع لم يكن زيوس مخلصًا للفتى كل هذا الوقت مثلما لم يكن كذلك لزوجته، لكن مع ذلك كانا لا يكادان يفترقان.

عندما اقترب عصر الآلهة من نهايته، كافأ زيوس هذا الصبي الجميل، تابعه وعشيقه وصديقه المخلص، بوضعه ككوكبة في السماء، في أهم جزء منها: دائرة الأبراج الفلكية Zodiac، حيث سيلمع هناك دومًا كحامل القدح، Aquarius [الدلو].

عشاق القمر

كلمة عن أختين خالدتين. قابلنا في السابق إيوس، أو أورورا Aurora كما يسميها الرومانيون، وعرفنا أن وظيفتها كانت بدء كل يوم عبر فتح البوابات التي كانت تسمح للرب أبولو من قبل، والآن تسمح لشقيقها هيليوس بالخروج بعربة الشمس. أختها سيليني (لونا Luna عند الرومانيين) كانت تقود في السماء المعادل الليلي لعربة الشمس: عربة القمر. أنجب زيوس من سيليني ابنتين: بانديا Pandia، التي يحتفي بها الأثينيون كلما اكتمل القمر، وإرسا Ersa (أحيانًا هيرسي Herse)، التمثيل السماوي لقطرات الندى.

بعدما ملّ زيوس من سيليني، وقعت في الحب عدة مرات. لفت نظرها ذات يوم شابٌ وسيمٌ شجاعٌ اسمه سيفلوس Cephalus، فاختطفته. لم تأبه لحقيقة أنه كان مرتبطًا بالفعل، متزوجًا من بروكريس Procris ابنة إريكثيوس أول ملوك أثينا (الناتج عن ماء هيفايستوس المهدور) وزوجته الملكة براكسثيا Praxithea.

رغم جمال سيليني وبهائها، وعظمة وفخامة قصر القمر الذي وضعت سيفلوس فيه، وجد الشاب المخطوف نفسه يفتقد زوجته بروكريس إلى

أقصى درجة، كل فنون الحب الفضية التي جربتها ربة القمر معه فشلت في إثارته، في النهاية وافقت من فرط شعورها بالخيبة والإذلال على أن تدعه يعود لزوجته. لكن كبرياءها وغيرتها كانا يفوران كل ذلك الوقت بداخلها، كيف يجرؤ على تفضيل إنسانة على ربَّة؟ لم تتحمل فكرة أن امرأة عادية قادرة على تحفيز سيفلوس بينما مجهود ربة سماوية يتركه باردًا.

هكذا شرعت سيليني بخبث ولا مبالاة في زرع الشكوك في عقله.

بينما كانا في طريقهما إلى بيته تنهدت سيليني وهزت رأسها بأسى، «كم يحزنني التفكير في سلوك بروكريس الجميلة النقية عندما كنت غائبًا عنها».

«ماذا تقصدين؟».

«أعني... عدد الرجال الذين كانت تتسلى معهم في غيابك، لا أقدر حتى على التفكير فيه».

أجابها سيفلوس بحمية: «أنت لا تعرفينها، إن إخلاصها لا يقل عن جمالها».

قالت سيليني: «ها! كل ما يتطلبه الأمر هو العسل والفضة».

«وما هذا؟».

«الكلام المعسول والعملات الفضية توقع أنقى القلوب في الخيانة».

«يا لك من سوداوية».

«أنا أعبر سماء العالم كل ليلة وأرى ما يفعله الناس في الظلام، لست سوداوية بل واقعية».

قال معترضًا: «لكنك لا تعرفين بروكريس، إنها ليست كالآخرين، إنها مخلصة وحقيقية».

«كلام فارغ، بل هي ستقفز في سرير أي شخص ما إن تدير لها ظهرك، سأخبرك بشيء...»، سكتت فجأة وكأن فكرة خطرت لها على حين غرة، «ما رأيك أن تذهب لها متنكرًا؟ أظهر أنك ترغب فيها، أمطرها بالمجاملات، أخبرها أنك تحبها، وقدم لها الهدايا والحلي... أراهن أنها سترمي نفسها بين يديك».

«مستحيل».

«كما تحب، لكن...»، هزت سيليني كتفيها وأشارت إلى جانب الطريق الذي كانا يمشيان عليه، «أنظر، هذه كومة ملابس وخوذة، وآه لو صارت لك لحية أيضًا...».

اختفت سيليني في اللحظة التي وجد فيها سيفلوس أنه صارت له لحية. الملابس على جانب الطريق التي ظهرت بشكل لا يمكن تفسيره، بدت وكأنها تومئ له.

رغم كل اعتراضه واتخاذه الموقف العكسي، زرعت فيه كلمات سيليني بذرة الشك، وبينما كان يرتدي الملابس التنكرية قال سيفلوس لنفسه أنه لم يرضخ للشكوك، لكنه فقط سيظهر لسيليني أن تشاؤمها أخطأ هدفه، سيناديها هو وبروكريس في هذه الليلة بينما تعبر السماء في عربتها وسيصيحون: «كم كنت مخطئة يا ربة القمر» و«أنت لا تعرفين شيئًا عن قلوب البشر المحبين» وأشياء من هذا القبيل. سترى!

بعد فترة قصيرة فتحت بروكريس بابها لتجد غريبًا وسيمًا ملتحيًا يرتدي عباءة ويعتمر خوذة. كانت تبدو منهكة وشاحبة، الاختفاء المباغت الذي يصعب فهمه لزوجها آلمها كثيرًا. قبل أن تجد الوقت لتسأل زائرها شيئًا كان سيفلوس قد دفعها بكتفه ودخل البيت وصرف الخدم.

قال بلهجة تراقية ثقيلة: «إنك امرأة ذات جمال أخّاذ».

احمرَّت وجنتا بروكريس، «سيدي، يجب أن...».

«تعالي، لنجلس معًا على الأريكة».

«أنا فعلًا لا أستطيع أن...».

«هيا، لا أحد يرانا».

علمت أنه يستغل قواعد الزينيا أكثر من اللازم، لكنها استجابت، فقد كان ضاغطًا جدًا.

«ما الذي تفعله حسناء مثلك وحدها في بيت ضخم كهذا؟»، التقط سيفلوس ثمرة تين من إناء نحاسي وأخذ قضمة شهوانية منها، ثم دلّى النصف المتبقي الطري ذو العصارة أمام بروكريس[162].

«سيدي!».

بينما انفتح ثغرها لتحتج، دفع فيه سيفلوس الثمرة ذات العصارة.

قال: «هذا مشهد يضايق حتى الآلهة، كوني لي».

قالت بصعوبة عبر عصارة التين وبذوره: «أنا متزوجة».

«وما الزواج؟ أنا رجل غني، سأعطيك كل ما تودين من مجوهرات وحليّ، فقط لو تمنحيني نفسك. إنك في غاية الجمال، وأنا أحبك».

تمهلت بروكريس قليلًا، ربما لم يكن توقفها ذلك أكثر من أنها تحاول ابتلاع ما تبقى من التين، وربما أغراها الحديث عن الأشياء الثمينة، وربما تأثرت بتصريح الحب المباغت الكاسح. لكن ذلك التمهل كان طويلًا بما يكفي ليشتعل غضب سيفلوس وينزع تنكّره ويفصح عن هويته.

هدر كالرعد: «إذًا هذا ما يحدث وأنت وحيدة! يا لك من امرأة خائنة شائنة!».

حدقت فيه بروكريس بغير تصديق: «سيفلوس؟ أهذا أنت؟».

«نعم إنه أنا، أنا زوجك المسكين! هكذا إذًا تفعلين وأنا غير موجود؟ اذهبي، اغربي عن وجهي يا بروكريس يا خائنة، لا أود أن أراك مجددًا».

اندفع إلى الأمام وهو يهزّ قبضته، فهربت بروكرويس المرعوبة، ركضت خارجة من المنزل إلى الغابة، لم تتوقف حتى انهارت من الانهاك على حافة أيكة مقدّسة للربة أرتيميس.

في الصباح التالي وجدت أرتيميس بروكريس ممددة على الأرض هناك، فأقنعتها بالإفصاح عن ما حدث لها.

لمدة سنة ويوم ظلت بروكريس مع الصيّادة الإلهية وحاشيتها من العذراوات القويات، لكنها في النهاية لم تستطع أن تتحمل أكثر من ذلك.

«أرتيميس، لقد اعتنيت بي، ودربتني على فنون الصيد، وكيف يجب علينا تجنب الرجال دائمًا، لكني لا أستطيع أن أكذب عليك، لا زلت في قلبي أحب زوجي سيفلوس بقدر ما فعلت دائمًا، أعلم أنه أساء إليّ، لكن إساءته جاءت من حبه العظيم لي، وأتوق لأن أغفر له وأن أنام بين ذراعيه، زوجة له من جديد».

أسفت أرتيميس لرؤيتها ترحل، لكنها كانت في مزاج طيب، فلم تكتف

بترك بروكريس تعود لزوجها من دون أن تنتزع عينيها أو تطعمها لخنازيرها (وهي أفعال لم تكن غريبة أبدًا على أرتيميس)، بل منحتها أيضًا هديتين رائعتين لتقدمهما لسيفلوس في بادرة سلام.

لايلابس وألوبكس توميسيوس

إحدى الهديتين اللّتين تلقتهما بروكريس لتهديهما لزوجها كانت كلبًا مذهلًا يدعى لايلابس Lailaps لديه القدرة على الإمساك بأي شيء يطارده، أي شيء مهما كان، سواء انطلق خلف غزال أو خنزير أو دب أو أسد أو حتى إنسان، لا يمكن أن يفشل في انتزاع حنجرته. الهدية الأخرى كانت لا تقل قيمة: رمح يصيب هدفه دائمًا. أيًا كان من يحوز هاتين الهديتين بوسعه أن يقول عن نفسه بأريحية إنه أعظم صياد بشري في العالم. لا عجب إذًا أن سيفلوس استقبل زوجته بحفاوة في بيته وحضنه وسريره وهي محملة بمثل تلك الهدايا.

سمعة سيفلوس كصياد عظيم وحكايات مهاراته في الصيد تنامت وانتشرت من مملكة إلى أخرى، وبلغت في النهاية آذان وصي العرش الثيفاوي كريون Creon[163]. ثيفا كانت مبتلاة في تلك اللحظة من التاريخ - مثلما هي عادة على طول تاريخها المؤلم - بثعلبة مفترسة تدعى محليًا بالثعلبة الكادمية وتعرف في أنحاء العالم اليوناني بألوبكس توميسيوس Alopex Teumesios أو الثعلبة التوميسيوسية، وهي لصة قضت الآلهة بأنها لن يُقبض عليها أبدًا، مهما انطلق في إثرها من كلاب وأحصنة وبشر أو نُصبت لها الفخاخ. يُعتقد أن من أطلق هذا الرعب المكار على ثيفا كان ديونايسيس الذي لا يزال متعطشًا للانتقام من المدينة التي سخرت من أمه سيملي ونبذتها.

بعدما سمع كريون اليائس عن المهارات الخارقة لسيفلوس وكلبه العجيب لايلابس، أرسل إلى أثينا متوسلًا أن يستعيره، فأعاره له سيفلوس بسعادة، ولم يمض وقت قبل أن يُطلق الكلب خلف الثعلبة.

المهزلة الناتجة عن ذلك تفصح عن صفة أساسية في العقل اليوناني:

مشقه للمفارقات. ما الذي يحدث عندما تطلق كلبًا لا تفلت منه فريسة خلف ثعلبة لا يمكن القبض عليها؟ تشبه هذه كثيرًا معضلة مقابلة القوة التي لا يمكن مقاومتها للجسم الذي لا يمكن تحريكه.

انطلقت الثعلبة الكادمية هنا وهناك، وخلف ذيلها اندفع لايلابس الذي لا تهرب منه فريسة، وربما كانا ليظلا عالقين في هذه الدائرة المنطقية حتى الآن لو لم يتدخل زيوس ليحل المشكلة.

نظر ملك الآلهة من عليائه إلى المشهد وتأمل في المعضلة الغريبة المناقضة لنفسها التي تعَدّ إهانة لكل أشكال المنطق والمعنى، وتنافي بشكل مزعج كل المضامين التي تجسّدها الكلمة اليونانية العظيمة nous [عقل]. سلطة زيوس تحدها قاعدة جذرية تقول إنه لا إله يستطيع أن يلغي مرسومًا سماويًا لإله آخر، ما يعني أن مصير الكلب والثعلبة هو أن يعلقوا في هذه الحالة إلى الأبد، في إهانة علنية لنظام العالم. حل زيوس المعضلة بتحويل كل من الثعلبة والكلب إلى حجر، هكذا يظلان ثابتين عبر الزمان، كل الاحتمالات العظيمة لكليهما لن تتحقق إلى الأبد. لكن حتى هذه الحالة الساكنة بدت لزيوس تحديًا آخر للمنطق، فرفعهما إلى السماء حيث أصبحا كوكبتَيّ الكلب الأكبر والكلب الأصغر Canis Major and Canis Minor.

أما سيفلوس وبروكريس، فيؤسفني أن أقول إنهما لم يدوما معًا كثيرًا. رغم أن سيفلوس حُرم من لايلابس، ظل مسلحًا بالرمح المسحور الذي لا يخطئ هدفه، وبات سيفلوس لا يحب أن يفعل شيئًا أكثر من التجول في التلال والوديان حول أثينا ليصطاد ما يجده في طريقه من فرائس. وذات أمسية قائظة، وبعد ثلاث ساعات من المطاردة ورمي الرمح، تمدد سيفلوس المنهك المتعرّق ناعسًا. لكن حَرّ ذلك اليوم لم يتركه ليرتاح حتى وهو في ظل شجرة بلوط ضخمة.

نادى سيفلوس بكسل على الريح الغربية، «تعال يا زيفروس، متع جسدي بلمستك، احتضنّي، داعبني، دلّعني، لاعبني...».

غير أن بروكريس لسوء الحظ كانت قادمة إلى سيفلوس، لتفاجئه بطبق زيتون وبعض النبيذ، اقتربت في وقت لم يسمح لها إلا بسماع الجزء الثاني

فقط من كلام زوجها، «متّع جسدي بلمستك، احتضنّي، داعبني، دلعني، لاعبني...». أبعد كل غضبه السابق من احتمال خيانتها أنه هو من يخونها؟ لم تصدق بروكريس أذنيها، وقع من بين أصابعها المرتجفة الطبق وقربة النبيذ، وصدرت عنها شهقة لم تستطع كتمانها.

اعتدل سيفلوس جالسًا، ما هذا الذي يتلصص خلفه؟ صوت التشمّم هذا يقترح أنه خنزيرٌ! يا للسماء! التقط رمحه وقذفه تجاه الأكمة التي سمع الصوت قادمًا من ناحيتها، لا يحتاج للتصويب بعناية، فالرمح المسحور سيقوم بدوره.

وقام الرمح المسحور بدوره، وفاضت روح بروكريس بين ذراعي سيفلوس الباكي.

حكاية فاتنة وغريبة وتعيسة[164]، ولا تنس أن كل هذا حدث فقط لأن سيليني قررت اختطاف إنسان شهي.

إندميون

سيفلوس لم يكن الشاب الوحيد الذي لفت انتباه ربة القمر. ذات ليلة كانت سيليني تبحر بعربتها في السماء فوق غرب آسيا الصغرى، فلمحت تحتها إندميون Endymion، راعيًا شابًا ذا جمال خلّاب يفترش الأرض عاريًا نائمًا خارج كهف في جبل لاتموس Latmos. رؤية أعضائه الجميلة تلتمع تحت أشعتها الفضية والابتسامة الشهوانية المرتسمة على شفتيه بينما يحلم ملأت سيليني بشهوة عارمة إلى حد أنها نادت زيوس، والد إندميون، ورجته أن يحافظ على إندميون هكذا إلى الأبد بلا تغيير. أرادت أن تراه بتلك الهيئة كل ليلة، فمنحها زيوس ما طلبت. ظل إندميون حيثما كان غارقًا في نوم أبدي، ومع كل قمر جديد تختار سيليني يومًا في الشهر القمري لا تظهر فيه عربتها، وتنزل إلى الفتى النائم وتمارس معه الحب. لم تمنعها هذه الطريقة الجنسية غير الاعتيادية من أن تنجب منه خمسين ابنة. سأترك لك حرية تخيل الأوضاع الجسدية والعملية والطرق التي سمحت بحدوث هذا. علاقة غريبة بلا شك، لكنها علاقة نجحت وجعلت سيليني سعيدة[165].

إيوس وتايثونوس

الحياة العاطفية لإيوس شقيقة سيليني لم تكن أقل صخبًا, كانت ربة الفجر قد خرجت قبل فترة من علاقة كارثية مع رب الحرب، وعندما عرفت أفروديايتي عشيقة آريس الغيورة بالعلاقة، قررت من أعماق قلبها أن إيوس لن تعرف السعادة في المجال الذي تبسط أفروديايتي عليه سلطتها: الحب.

إيوس كانت تيتانة قديمة بكل شهوات هذا العرق القديم، علاوة على أنها، بما أنها ربة الفجر كانت تؤمن بالأمل والفرصة والوعد الذين يأتون مع كل يوم جديد. هكذا كانت إيوس عبر السنوات تتخبط بتفاؤل تعيس بين علاقة وعلاقة، لكل منها نهاية تعيسة حتمية بفعل لعنة أفروديايتي، اللعنة التي كانت إيوس غير مدركة بها.

كان مزاج إيوس الشهواني ينجذب على الأخص لشباب الفانين، ومثلما خطفت سيليني سيفلوس، حاولت إيوس فعل الشيء نفسه مع شاب يدعى كلايتوس Cleitus، وأدى هذا إلى انكسار قلبها، فالشاب الفاني مات في وقت بدا لها غمضة عين.

لابد أنه كان هناك شيءٌ ما في هواء طروادة هذه الأيام. لاوميدون Laomedon، ابن شقيق جانيميد حامل قدح زيوس الجميل[166]، أنجب ابنًا يُدعى تايثونوس Tithonus. كبر تايثونوس ليصبح في جمال عم أبيه تقريبًا، ربما كان تايثونوس أنحف نوعًا ما وأقصر قامة من جانيميد، لكن هذا لم يجعله أقل جاذبية، كانت له ضحكة فاتنة خاصة به وحده تجعله خلابًا لا يمكن مقاومته، ويجعلك تود وضع ذراعك حوله وامتلاكه للأبد.

ذات مساء رأت إيوس هذا الشاب الاستثنائي يمشي على الشاطئ

خارج أسوار إيليوم، وأدركت على الفور أن كل علاقة ومداعبة واختطاف وافتتان مرت به حتى الآن، بل حتى علاقتها بآريس، لم تكن إلا نزوات طفولية، أهواء بلا معنى، وهذا هو الحب الحقيقي، هذا هو كل شيء.

حب من أول نظرة

رفع تايثونوس نظره ورأى إيوس قادمة على الرمال، فوقع في حبها فورًا وبالكامل مثلما حدث معها بالضبط، تشابكت كفوفهما لحظيًا قبل حتى أن يتبادلا كلمة، ومشيا معًا على الشاطئ كما يفعل العشاق.

«ما اسمك؟».

«تايثونوس».

«أنا إيوس، الفجر، تعال معي إلى قصر الشمس، عش معي وكن حبيبي وزوجي وقريني، كن ملكي ورعيتي، كنّ كل شيء لي».

«سأفعل يا إيوس، أنا لكِ إلى الأبد».

ضحكا ومارسا الحب والأمواج تخبط فيهما، أصابع إيوس الوردية وجدت طرقًا لإثارة نشوة تايثونوس حتى الجنون. علمت أنها قادرة على إنجاح هذه العلاقة من ناحيتها هذه المرة.

جناحها المصنوع من المرجان والعقيق واللؤلؤ والرخام واليشب من قصر الشمس بات بيتهما، قليلون هم الأزواج الذين عرفوا سعادة كسعادتهما، حياتهما كانت كاملة، تشاركا في كل شيء، قرآ لبعضهما الشعر، تمشيا معًا لمسافات طويلة، استمعا للموسيقى ورقصا وركبا الأحصنة وجلسا صامتين وضحكا ومارسا الحب، معًا، وراقبها كل صباح بفخر بينما تفتح البوابات لهيليوس الذي يهدر بعربته خارجًا منها.

المنحة

لكن ظلت مشكلة واحدة تؤرق إيوس، عرفت أنّ حبيبها الفاني لا بدّ سيؤخذ منها ذات يوم، مثلما حدث مع كلايتوس من قبل، فكرة موته أصابتها بحزن عميق داخلي لم تقدر على إخفائه كما ينبغي.

سألها تايثونوس ذات مساء متفاجئًا من التجهّم على محياها: «ما خطبك يا حبي؟».

«أنت تثق بي، أليس كذلك يا فتاي العزيز؟».

«حتمًا ودائمًا».

«سأرحل غدًا بعد الظهر، وسأعود بأسرع ما يمكن، لا تسألني إلى أين أنا ذاهبة أو لماذا».

وجهتها كانت الأوليمبوس، وهدفها كان المثول أمام زيوس.

«يا أبا السماء الخالد، يا سيد الأوليمبوس، يا جامع الغيوم وجالب العواصف، يا ملك كل الـ...».

«نعم، نعم، نعم، ماذا تريدين؟».

«أسألك منحة يا زيوس العظيم».

«بالطبع تريدين منحة، لا يزورني أي من أفراد أسرتي لأي سبب آخر، الكل يريد خدمة ومنحة وهبة، لا شيء غير ذلك. ماذا تريدين هذه المرة؟ لطلبك علاقة بذلك الولد الطروادي على ما أظن؟».

اضطربت قليلًا لكنها تابعت: «نعم جلالتك، أنت تعلم كيف يكون الأمر عندما نعاشر شباب الفانين...»، سمحت لنفسها بإلقاء نظرة جانبية على جانيميد الذي كان يقف خلف عرش زيوس، جاهزًا على الدوام لإعادة ملء كأسه بالنكتار، ومع نظرتها تورد جانيميد ببهاء وابتسم وخفض عينيه.

«أعلم... ماذا تريدين؟»، بدأ زيوس يدق بأصابعه على مسند عرشه، هذه ليست علامة طيبة أبدًا.

«سيأتي ثاناتوس ذات يوم ليأخذ أميري تايثونوس، لن يستطيع قلبي تحمل ذلك، أسألك أن تمنحه الخلود».

«فعلًا؟ الخلود؟ أهذا كل ما تريدين؟ الخلود؟ هممم، لم لا؟ لا أرى ما يمنع، حصانة من الموت، هذا كل ما تريدين له؟».

«نعم يا مولاي، هذا كل شيء».

وما الذي قد تريده غير ذلك؟ يبدو أنها صادفت زيوس وهو في مزاج جيد، أخذ قلبها يدق مبتهجًا.

قال زيوس وهو يصفق بيديه: «لكِ ما شئت، من الآن فصاعدًا أميرك سيصبح خالدًا».

قفزت إيوس من وضع الراكع المبتهل وهي تطلق صرخة بهجة، واندفعت لتقبل يد زيوس الذي بدا سعيدًا جدًا بدوره، وابتسم متقبلًا شكرها.

«لا لا، لا داعي، يسعدني ذلك، أنا واثق أنك ستعودين لتشكريني عما قريب».

«بالطبع، أتريد مني أن أفعل؟»، بدا لها ذلك طلبًا غريبًا.

قال زيوس وهو لا يزال غير قادر على كبح ابتسامته: «أوه، أنا واثق أنك ستأتين من نفسك قبل مضي وقت طويل». لم يعرف زيوس ما الذي أصابه بتلك الشيطنة المباغتة، لكننا نعلم أنها كانت لعنة أفروديتي التي لا ترحم.

هرعت إيوس عائدة إلى قصر الشمس حيث كان عاشقها الولهان ينتظر عودتها بصبر، وعندما أخبرته بما حملت من أنباء احتضنها، ورقصا معًا في أرجاء القصر بضجة شديدة حتى أن هيليوس دق على الحوائط معترضًا وقال مزمجرًا أن بعض الناس هنا مضطرون للاستيقاظ قبل الفجر.

ليس كل ما يتمناه المرء يحبه

أنجبت إيوس من تايثونوس طفلين: إمثيون Emathion الذي سيحكم شبه الجزيرة العربية، وممنون Memnon الذي سيكبر ليصبح من أعظم وأكثر المحاربين المرهوبين في العالم القديم بأسره.

ذات مساء، تمدد تايثونوس واضعًا رأسه في حِجر إيوس وأخذت هي تمرر أصابعها في شعره الذهبي بكسل. كانت تدندن لحنًا ناعمًا ثم قطعت لحنها بشهقة متفاجئة.

قال تايثونوس: «ما خطبك يا حبي؟».

«أنت تثق بي، أليس كذلك يا فتاي العزيز؟».
«حتمًا ودائمًا».
«سأرحل غدًا بعد الظهر، سأعود بأسرع ما يمكن، لا تسألني إلى أين أنا ذاهبة أو لماذا».
«ألم نخُض هذه المحادثة من قبل؟».
وجهتها كانت الأوليمبوس، وهدفها كان المثول أمام زيوس مرة أخرى.
«أها! ألم أقل إنك ستعودين؟ ألم أفعل يا جانيميد؟ ألم تكن تلك كلماتي لك بالضبط يا إيوس؟».
«قلتَ لي: 'أنا واثق أنك ستعودين لتشكريني عما قريب'».
«هذا ما قلتُ، ما هذا الذي تودين أن تعرضيه علي؟».
مدت إيوس يدها تجاه زيوس، كانت تحمل شيئًا بين سبابتها الوردية المرتعشة وإبهامها الوردي المرتجف، خيط رفيع من الفضة.
قالت بصوت مهتز: «انظر!».
نظر زيوس، «تبدو وكأنها شعرة».
«إنها شعرة، من رأس تايثونوس، شعرة رمادية».
«و...؟».
«مولاي، لقد وعدتني، لقد أقسمت أنك ستمنح تايثونوس الخلود».
«وكذا فعلت».
«إذن كيف تفسر هذه؟».
«لقد سألتني الخلود فمنحت فتاكي الخلود، لم تقولي شيئًا عن التقدم في السن ولم تطلبي قط شبابًا دائمًا».
«أنا... لكن... أنت...»، تقهقهرت إيوس إلى الخلف مرتاعة، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا.
«'الخلود' هي الكلمة التي استخدمتها، ألم تفعل يا جانيميد؟».
«نعم يا مولاي».
«لكني افترضت... أعني... ألم يكن ما قصدته واضحًا؟».

قال زيوس وهو ينهض: «آسف يا إيوس، لا تتوقعي مني تفسير كل ما يطلبه مني الجميع، حبيبك لن يموت، هذا ما أضمنه لك، ستظلان معًا دائمًا».

تُركت إيوس وحدها، يمسح شعرها البلاط بينما تبكي.

الجندب

رحَّب تايثونوس الوفي والطفلان المتقافزان بعودة إيوس، وهي فعلت كل ما بوسعها لتداري نكبتها، لكن تايثونوس شعر بأن ثمة ما يضايقها. بعدما نام الطفلان في الليل أخذ تايثونوس زوجته إلى الشرفة وصبَّ لها كأسًا من النبيذ، وجلسا يتأملان النجوم معًا لوهلة قبل أن تتحدث.

«إيوس، حبيبتي، حياتي، أعلم ما لا تقولينه لي، أستطيع رؤيته بنفسي، يخبرني إياه انعكاسي في الزجاج كل صباح»

«آه يا تايثونوس»، دفنت وجهها في صدره وانتحبت من أعماق قلبها.

مرّ الزمن، تابعت إيوس القيام بواجبها وفتح البوابات مع كل يوم جديد، وكبر الولدان وتركا البيت، وتتالت السنوات في إثر بعضها بلا تمهّل وبلا رحمة، بالحتمية التي حتى الآلهة لا يستطيعون تغييرها.

أمسى الشعر الشحيح المتبقي على رأس تايثونوس كله أبيض، أمسى مجعدًا متغضنًا منكمشًا ضعيفًا شديد الوهن إلى حد مزرٍ مع التقدم الشديد في العمر، ومع ذلك لا سبيل للموت. صوته الذي كان في غاية العذوبة والحلاوة للأذن بات خشنًا جافًا ذا صرير، بشرته وهيأته تداعتا إلى حد بات معه المشي شبه مستحيل.

صار يتبع إيوس الجميلة دائمة النضرة في كل مكان بالإخلاص بالحب نفسه، ويقول بصوت الصرير الأجش: «ارحميني، ارحميني، اقتليني، دمريني، أتوسل إليك».

لكن لم يعد بوسعها فهمه، كان كل ما سمعته منه زقزقات حادة غير مفهومة، لكن بداخلها خمَّنت جيدًا ما كان يحاول قوله.

لم يكن لدى إيوس القدرة على منح الخلود أو الشباب الأبدي، لكنها امتلكت ما يكفي من القوى الإلهية لفعل شيء ينهي معاناة حبيبها. ذات مساء، عندما شعرت أن كليهما لم يعودا قادرين على احتمال الوضع، أغلقت عينيها وركزت بشدة، وراقبت عبر دموعها جسد تايثونوس المنكمش البائس يتبدل، تبدلًا محدودًا جدًا في الواقع، ليتحول من شيخ ذاوٍ إلى جندب[167].

تقافز تايثونوس بهيأته الجديدة على الأرض الرخامية الباردة حتى حافة الشرفة، ومنها قفز في الليل إلى الخارج. رأته تحت ضوء شقيقتها القمري البارد يتعلق بأحد أعواد العشب الذي تأرجح به مع نسيم الليل. صوت حكّ أرجله الخلفية كان صريرًا، ربما كان كلمة وداع ومحبة مبتهجة. نزلت دموعها، وفي مكان ما بعيد، بعيد جدًا، ضحكت أفروديتي[168].

زهرة الشباب

يمكن اعتبار قصة إيوس وتايثونوس نوعًا من التراجيديا المحلية[1]. تقدم لنا الميثولوجيا الإغريقية قصصًا عديدة عن الحب بين الآلهة والفانين تنتمي في الغالب إلى تصنيف «رومانسية منكوبة»، ربما مع لمسات من الرومانسية الكوميدية والسخرية والرعب. في هذه العلاقات يبدو أن الآلهة يعبرون عما يريدون بالزهور. ما لدينا هنا إذًا هو باقة مختارة من الرومانسيات الزهرية.

هيسينثوس

هيسينثوس Hyacinthus كان أميرًا جميلًا من إسبارطة Sparta، شاء حظه التعيس أن يحبه كيانان سماويان: زيفروس الريح الغربية، وأبولو الذهبي. فضّل هيسينثوس أبولو الجميل، وأعرب عن رفضه مرة تلو الأخرى لمحاولات الاقتراب المتكررة للريح المتلاعبة الملحّة.

ذات أمسية، وبينما كان أبولو وهيسينثوس يتنافسان في ألعاب رياضية، وفي نوبة غضب وغيرة من زيفروس، حرفت الريح قرص أبولو الطائر عن مساره ليتجه بسرعته الكاملة تجاه هيسينثوس، فأصابه في جبهته وقتله على الفور.

(1) التراجيديا المحلية domestic tragedy هي الحكايات المأساوية التي كان أبطالها من الطبقات المتوسطة والعادية من المجتمع، فلا ينعكس أثرها إلا على أشخاصها، على عكس التراجيديا الكلاسيكية classical tragedy التي كان أبطالها من الأرستقراطيين ذوي الشأن، فينعكس أثرها على المجتمع الذي يؤثر فيه الأبطال. [المترجم]

رفض أبولو في غمرة حزنه أن يسمح لهرمس بنقل روح الشاب إلى هاديس، وظل بدلًا من ذلك يمزج الدماء الفانية التي تدفقت من جبين معشوقه بدموعه الإلهية العطرة، هذا المزيج وقع على الأرض وتشربته التربة، فنبتت منها زهرة بديعة جميلة الرائحة لا تزال تحمل اسم هيسينث Hyacinth [الخزامى] حتى يومنا هذا.

كروكس وسمايلاكس

كروكَس Crocus كان شابًا فانيًا اشتاق بلا أمل لنيمفة تدعى سمايلاكس Smilax، فحولته الآلهة (لا نعلم بالضبط من منهم) بدافع الشفقة إلى زهرة الزعفران التي نسميها كروكَس، بينما صارت هي كرمة شائكة لا تزال كثير من أنواعها اليوم تُدعى سمايلاكس.

طبقًا لنسخة أخرى من نفس الأسطورة، كان كروكَس حبيب ورفيق الرب هرمس، وقتله هرمس دون قصد برمي القرص، وحُزن هرمس حوَّله إلى زهرة كروكَس. تشبه هذه النسخة حكاية أبولو وهيسينثوس لدرجة تجعلني أتساءل إن كان شاعرٌ جوالٌ في مكانٍ ما قد سَكِر أو اختلطت عليه الحكايات.

أفروديتي وأدونيس

كان لقبرص ملكٌ قبل زمن بعيد يدعى ثياس Theias، وكان مشهورًا بجماله الملحوظ. أنجبت له زوجته سينكريس Cenchreis ابنة اسمها سميرنا Smyrna، تعرف أيضًا بميرًا Myrrhe، وستكبر الفتاة وهي تداري على سر عشقها المحرّم لأبيها الوسيم.

قبرص كانت مقدسة عند أفروديتي، فقد كانت أول أرض وطأتها قدمها بعد ولادتها من زبَد البحر، وكانت أفروديتي الغاضبة هي من نفخت في سميرنا هذه الرغبة الشاذة في أبيها، فيبدو أن الربّة كانت مستاءة مؤخّرًا من عدم كفاية صلوات وقرابين الملك ثياس لها. أبدى ثياس جرأة بتوجّهه

لبناء مزار جديد مكرَّس لديونايسيس الذي صارت عبادته تنتشر بين سكان الجزيرة. أفروديايتي عدَّت إهمال معابدها أسوأ الذنوب، أفدح بكثير حتى من سفاح القربى. لكن في عقول الفانين، حتى عند سكان قبرص سيئي السمعة المعروفين بتحررهم وتفسّخهم الأخلاقي، كان سفاح القربى من أسوأ المحرمات على الإطلاق. حاولت سميرنا المعذّبة أن تكبت مشاعرها المذنبة، لكن أفروديايتي التي كانت عازمة على ما يبدو على زرع الأذى، سحرت هيبوليتي Hippolyte خادمة سميرنا، لتؤدّي بالأزمة كلها إلى كارثة مريعة.

ذات مساء، بعدما شرب ثياس حتى الثمالة مثلما اعتاد أن يفعل منذ اكتشف فضائل الربّ ديونايسيس، قادت هيبوليتي بتأثير لعنة أفروديايتي سميرنا إلى غرفة وسرير الملك، ومارس الملك الحب بشوق ولهفة مع ابنته، فشل في ظلمة الليل وضباب النبيذ في التعرف على ثمرة بذرته هو شخصيًا في سريره، كل ما عرفه هو أنّ هناك شابّة مطيعة صغيرة جميلة مترعة بالرغبة جاءت لتسعده، وكأنها سقوبة سماوية.

بعد أسبوع من الزيارات الملتهبة المبهجة، استيقظ ثياس ذات صباح عازمًا على معرفة من هي، أذاع نبأ أنه سيكافئ بجبل من الذهب من يكشف له هوية زائرته الغامضة التي أضفت على لياليه الأخيرة متعًا ليس لها مثيل.

كانت سميرنا تُشبع عواطفها في ما يشبه الحلم الشهواني المجنون، لكن عندما سمعت أن قبرص بأكملها أصبحت تبحث عن سر الزيارات الليلية للملك ثياس، هربت من القصر واختبأت في الغابة. تمنت سميرنا أن تموت، لكنها لم تستطع هجر الطفل الذي شعرت به ينمو في أحشائها. توسلت إلى السماء لتشفق عليها، واحتجّت على قوانين البشر التي جعلت من حبها ذنبًا[169]، فاستجابت الآلهة لصلواتها وحولت سميرنا إلى شجرة المر myrrh الباكية.

بعد عشرة أشهر انشقَّت الشجرة وقذفت من داخلها طفلًا فانيًا، مسحت النايادات الرضيع بالدموع اللينة التي تذرفها شجرة المر – وهو بلسم لا

يزال مصدر أغلب زيوت الولادة والتتويج حتى يومنا هذا - ومُنح اسم أدونيس Adonis.

كبر ابن سميرنا ليصبح شابًا ذا جمال جسدي لا مثيل له. يا إلهي، لقد كتبت هذا كثيرًا حتى صار من غير الممكن أن تصدِّقه مني مجددًا. لكن تظل الحقيقة أن كل من رآه سُحر وفُتن إلى الأبد، وتظل الحقيقة أن اسمه لا يزال يحيا كوصف للنموذج المثالي للجمال الذكوري. على الأقل علينا إدراك أن أدونيس كان جميلًا بما يكفي ليفتن من لم يفتنها قلب أي فان آخر قبله، تلك التي كانت أفعالها سبب ميلاده، ربة الحب والجمال نفسها، أفروديتي.

أصبحا عاشقَيْن. كم كان الطريق لهذا الحب وعرًا: في نوبة غضب انتقامية جامحة تسببت الربة في جعل الأب يرتكب الفعل المحرَّم مع ابنته التي أنجبت الطفل الذي أحبته أفروديتي أكثر ربما من أي كائن آخر. ربما عمر كامل من العلاج النفسي لن يكفي لعلاج الفوضى النفسية التي نتجت.

أدونيس وأفروديتي فعلا كل شيء معًا. علِمَتْ أن بقية الآلهة يكرهون الفتى، ديميتر وأرتيميس لا يطقنَ رؤية كل تلك الفتيات اللواتي ينهَرنَ من فرط حبهنّ له، وهيرا رفضت بشكل قاطع ثمرة العار هذا الذي يمثل بشكل صارخ كل ما هو ضد مؤسسة الزواج والأسرة المقدسة، أما آريس فقد عصفت به الغيرة من افتتان معشوقته به. شعرت أفروديتي بكل هذا وعزمت على أن تجعل أدونيس آمنًا من كل أذى قد تتسبب به له أسرتها الناقمة عليه.

أبدى حبيبها الفاني الغالي شغفًا كبيرًا بالصيد، مثل أغلب الشباب والرجال الإغريق، فأخبرته أفروديتي أن بوسعه مطاردة الفرائس ذات الحجم المعقول والشراسة المحدودة، الأرانب مثلًا والحمائم وما إلى ذلك، وممنوع منعًا تامًا من مطاردة الأسود والدببة والخنازير والآيائل الضخمة. لكن سيظل الأولاد أولادًا، وعندما تبتعد الفتيات لا يستطيعون مقاومة الارتداد لطبيعتهم الأصلية والاستعراض، وهكذا حدث ذات مساء

عندما وجد حبيب أفروديتي نفسه يتَتبع أثر خنزير ضخم (ويقول البعض إن الخنزير في الواقع كان آريس متنكرًا). حاصر أدونيس الوحش، وسحب رمحه إلى الخلف استعدادًا للإجهاز به عليه، غير أن الخنزير استدار ليواجهه بزئير متوحش وأنياب منتصبة. ترك أدونيس مرعوبًا الرمح يقع وقفز إلى الخلف، لكنه كان شابًا شجاعًا وتمكن من الثبات وغرس قدميه بحزم في الأرض ليواجه الهجوم، وبينما يندفع الخنزير إلى الأمام استدار أدونيس بجسده برشاقة الراقصين وتفادى الهجوم العنيف، وقبض على رقبة الوحش بينما يمضي. لكن الخنزير كان ماكرًا، إذ ترك رأسه يتدلى إلى الأرض، جاعلًا الفتى يعتقد أنه أخضعه، فانحنى أدونيس وضغط بيد على رأس الحيوان وبالأخرى تحسس حزامه بحثًا عن سكينه. شعر الخنزير أن فرصته حانت فرفع رأسه مزمجرًا شاهرًا أنيابه الهائلة، فمزّق معدة أدونيس، ووقع الشاب على الأرض بجرح قاتل.

وصلت أفروديتي في الوقت المناسب لترى حبيبها ينزف حتى الموت، والخنزير - أم هو آريس؟ - يقبع في انتصار بينما يجري مبتعدًا إلى أعماق الغابة. لم يكن ثمة شيء بوسع الربّة الباكية أن تفعله لأدونيس إلا احتضانه ومراقبته يُخرج أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها. من دمائه ودموعها نبتت زهرة شقائق نعمان حمراء ستسمّى بعد ذلك على اسم الريح (أو anemoi باليونانية) التي تنفخ بتلات هذه الزهرة استثنائية الجمال بسرعة شديدة، وتُعرف بعمرها القصير كما الشباب، وهشاشتها كما الجمال[170].

إيكو ونارسيسوس

تايريسياس

أشهر الحكايات التي تتضمن تحول شاب صغير إلى وردة، تبدأ بأم تأخذ صغيرها لرؤية متنبّئ. مثلما يوجد كهنة وسيبيلات يتكلمون نيابة عن العرّافين السماويين، يوجد بعض البشر الفانين الذين أنعمت عليهم الآلهة بهبة النبوءة، والذهاب لاستشارة أحد هؤلاء لا يختلف عن حجز موعد لرؤية طبيب.

أشهر هؤلاء المتنبّئين في الميثولوجيا اليونانية كانا كاسندرا Cassandra وتايريسياس Tiresias. كاسندرا كانت العرّافة الطروادية التي كانت لعنتها أن تكون محقة تمامًا في كل تكهناتها، ومع ذلك لا يصدقها أحد. تايريسياس الثيفاوي لم تكن حياته أقل وطأة، فقد وُلد ذكرًا، ثم حولته هيرا إلى أنثى عقابًا له على ضربه لثعبانين يتجامعان بعصا، وهو فعل أزعجها كثيرًا في ذلك الوقت لسبب لا يعرفه أحد غيرها. عاد تايريسياس إلى هيئته الذكورية الأصلية مجددًا بعد سبعة أعوام في خدمة هيرا ككاهنة، فقط لتصيبه أثينا بالعمى لأنه رآها عارية بينما تغتسل في النهر[171]. تفسّر تلك القصة عماه، لكنني أفضل التنويعة التي تقول إنه ذهب إلى الأوليمبوس بعد استدعائه للتحكيم في رهان بين زيوس وهيرا، اللذين كانا يتجادلان عن أي الجنسين يستمتع بالجنس أكثر، وتايريسياس كان في موقع فريد من نوعه للإجابة عن ذلك السؤال بعد أن عاش ذكرًا وأنثى، واتفقا على أن حكمه سيكون نهائيًا.

تاريسياس أعلن أن تجربته للجنس كانت أمتع بتسع مرات عندما كان

أنثى منها عندما كان ذكرًا، أغضب هذا هيرا التي كانت راهنت زيوس أن الرجال يستمتعون بهذا الفعل أكثر، ربما كان رأيها يستند إلى شهوانية زوجها التي لا تنضب مقابل رغبتها الجنسية المعتدلة. كافأت هيرا تايريسياس بحرمانه من البصر. ولأن أحد الآلهة لا يستطيع عكس قرار أصدره آخر، كان أفضل ما استطاع زيوس فعله هو تعويض تايريسياس بالبصيرة؛ فمنحه النبوءة[172].

نارسيسوس

كان هناك نايادة تدعى ليرايوبي Liriope اجتمعت برب النهر سيفيسوس Cephissus وأنجبت ابنًا يدعى نارسيسوس Narcissus، والذي كان جماله لافتًا لدرجة جعلتها تقلق على مستقبله. ليرايوبي رأت ما يكفي من الحياة لتعرف أن الجمال الساحق كان ميزة خطيرة قد تؤدي إلى عواقب مدمّرة. عندما بلغ نارسيسوس الخامسة عشر من عمره وصار يلفت الأنظار غير المرغوبة، قررت أن تفعل شيئًا.

قالت له: «نحن ذاهبان إلى ثيفا لمقابلة تايريسياس وسماع ما يخبئه لك القدر».

هكذا مشت الأم وابنها لأسبوعين متجهين إلى ثيفا، وانضما إلى الطابور الذي يتشكل كل صباح خارج معبد هيرا الرؤية المتنبئ.

عندما حان دورهما أخيرًا، شرحت لتايريسياس: «رغم أنك كفيف ولا تستطيع رؤية ابني، ثق في كلامي عندما أقول لك إن كل من يراه يدوخ من جماله، لم يمش على الأرض قط فانٍ أجمل منه».

احمرّ نارسيسوس بالكامل وعضّ على شفتيه من شدة ألم الإحراج.

تابعت ليرايوبي: «أعلم عن الآلهة ما يكفي لأن أخاف أنّ مثل هذا الجمال هو إلى اللعنة أقرب من البركة، يعرف العالم ماذا حدث لجانيميد وأدونيس وتايثونوس وهيسينثوس وغيرهم من الشباب الذين يقلُّ جمالهم كثيرًا عن جمال ابني، لذا أرجوك أخبرني أيها العرّاف العظيم إن كان ابني

سيعيش حياة مديدة وسعيدة، هل مويرته أن يصير شيخًا راضيًا؟[173] أنت يا من ترى في ظلمتك ما يخفى علينا جميعًا، قل لي أرجوك ماذا يخفي القدر لابني الحبيب».

مرر تايريسياس يديه على الخطوط الخارجية لوجه نارسيسيوس، وقال: «لا تخافي، لو ظل غير قادرٍ على التعرف على نفسه، سيعيش حياة سعيدة ومديدة».

ضحكت ليرايوبي بصوت عال، « لو ظل غير قادرٍ على التعرف على نفسه؟ يا له من قول بلا تطبيق حقيقي! كيف يستطيع أي شخص معرفة نفسه؟».

إيكو

لنترك ليرايوبي المبتهجة تشكر تايريسياس في معبد هيرا بثيفا ولنسافر مسافة قصيرة إلى سفح جبل هيليكون، حيث الجداول والمروج خارج مدينة ثيسبياي Thespiae المترعة بالنيمفات الحسناوات، كنّ على درجة مبهرة من الجمال لدرجة أنهنَّ كنَّ يتلقينَ زيارات أحيانًا من زيوس ذات نفسه، الذي لاحظنا بالفعل ضعفه أمام النيمفات الحسناوات.

الأوريادة إيكو Echo لم تكن الأقل حسنًا، لكنها اتسمت بصفة جعلت زيوس وغيره من الخاطبين المحتملين يحذرون منها: كانت ثرثارة من العيار الثقيل. كانت إيكو مزيجًا من النمّامة القروية والجارة الفضولية والصديقة المقربة المهتمة أكثر من اللازم، وكان أصعب شيء عليها هو أن تمسك لسانها. لم يكن ثمة شيء شرير في لغوِها، بل إنها كثيرًا ما كابدت العناء لتقف في صف أصدقائها أو لتداري عليهم أو لتمدحهم وتعكس لهم أجمل صورة عن أنفسهم. كان فيها شيءٌ من حب الذات أيضًا، فقد كان صوتها جميلًا في الكلام والغناء على حد سواء، وأحبت أن تستخدم صوتها مثل كل من مُنحوا حلاوة اللسان. كانت تحميها إلى حد ما الربّة أفروديتي التي أحبت سماع غنائها الذي كان دائمًا في مديح الحب، باختصار كانت إيكو

رومانسية. قد يصفها منتقديها بأنها طريّة، متدفقة العاطفة، رخوة، مدلوقة لكن أحدًا لا يستطيع أن يُنكر نواياها الطيبة وسعة قلبها.

استمتع زيوس بزيارة شقيقات إيكو الأوريادات وبنات أعمامهنّ من النايادات في السر، واستمتعت إيكو بكونها حافظة أسرار الجميع وصديقتهنّ. أثارتها فكرة أن صديقاتها ورفيقاتها لديهنّ علاقات حميمة مع زيوس جامع الغيوم وملك الآلهة ذات نفسه، وأحبت التشبث بهذا السر في نفسها.

هيرا كانت تستريب دائمًا من غياب زيوس، غير أن غيابه صار يطول مؤخرًا. أخبرها طائر حسون تابع لها أنّ زوجها يقضي وقته في منحدرات جبل هيليكون، فقررت ذات أمسية ذهبية أن تذهب إلى هناك لترى إن كان بوسعها القبض عليه متلبسًا في خيانته. لم تكد تترجل من عربتها حتى هرعت إليها نيمفة تثرثر بلغو متتابع غير مفهوم، تلك كانت إيكو بكامل طاقتها اللغوية.

«الملكة هيرا!».

رفعت هيرا حاجبيها، «هل أعرفك؟».

هتفت إيكو وهي تركع على ركبتيها: «كم نحن محظوظون بتشريف جلالتك لنا وقدومك لرؤيتنا! أي شرف هذا وأي مجد أصابنا! وبعربتك الخاصة أيضًا؟ هل يُسمح لي بأن أُطعِم الطواويس؟ زيارة رب أوليمبي لنا؟ لا أستطيع تذكر متى كانت آخر مرة منّ بها أوليمبي علينا بشرف الملاحظة، إن هذا لـ...».

«زوجي زيوس زائر دائم الزيارة لهذه الغابات والجداول بكل تأكيد».

إيكو كانت تعلم جيدًا أن زيوس الآن على ضفة نهر ليس بعيدًا يفعل أشياء غير مهذبة لنيمفة نهر جميلة، حب إيكو للتآمر والدراما والرومانسية دفعها لحماية العاشقين، وابل هائل جارف من الثرثرة الفارغة هطل من ثغرها مثل الماء من النافورة بينما تقود الربّة في اتجاه معاكس عن ذلك الذاهب إلى النهر.

«ثمة شجرة سنديان رائعة في هذا الخلاء هناك، أفكر في تكريسها لجلالتك، بعد إذنك طبعًا... عفوًا؟ زيوس؟ أوه، لا، لم أره من قبل قط هنا».

«فعلًا؟»، حدقت هيرا بثبات في إيكو، «سمعتُ إشاعة أنه هنا الآن، في هذا اليوم بالذات».

«لا لا يا ملكتي! لا لا لا! في الواقع... أحد خدم الميوزات جاء إلى هيليكون قبل نصف ساعة ليأخذ مياهًا من النبع، وذكر أن اليوم بالتحديد زيوس في ثيسبياي ليشرّف معبده هناك».

«أوه! حسنًا، شكرًا لك»، أومأت هيرا باقتضاب وعدم راحة ثم عادت إلى عربتها وطارت بها إلى الغيوم. كم هو محرج أن يضبطَك آخرون تحاولين القبض على زوجك الخائن.

ابتعدت إيكو وهي راضية عن نفسها لكونها مفيدة لصديقتها النيمفة وزيوس. للأمانة كانت ستفعل الأمر نفسه بذات السعادة لو كان العاشقان فانيَيْن، يسعدها أن تُسهِّل الطريق لكل العاشقين في كل مكان، هي نفسها لم تشعر بالحب قط، عدا حبها لمساعدة الآخرين على الحب، وهو ما تعدّه أسمى أشكال الحب.

كانت تُؤْثر الآخرين على نفسها لدرجة أنها لم تهتم حتى بإخبار زيوس أو أختها بالمساعدة التي قدمتها لهم، وهو أمر كان سيفعله أي شخص يسعى للحصول على مكافأة. راحت تغنّي بينما تجمع الأزهار وشعرت كم أنّ حياة النيمفات طيبة.

إيكولاليا

في اليوم التالي، عاليًا في الأوليمبوس، استدعت هيرا طائرها الحسون الذي همس لها من قبل بخيانة زيوس.

صاحت به: «لقد كذبت عليّ، جعلتني أبدو حمقاء!».

قبضت هيرا على الطائر بقوة من منقاره حتى صار لا يكاد يتنفس،

وكانت على وشك معاقبته عقابًا رهيبًا غريبًا كان ليغيِّر شكل طائر الحسون إلى الأبد، لكن رفيقه رفرف بجوار أذنها بشجاعة وصاح: «لكن يا ملكتنا العظيمة لقد قال لك الحقيقة! لقد رأيت الملك زيوس هناك بنفسي، حتى في الوقت الذي كنت جلالتك فيه تتحدثين مع النيمفة إيكو كان نائمًا مع نايادة على مسافة أقل من نصف ميل. لو أنك لا تصدقينني فبوسع الفراشات ومالك الحزين أن يخبروك بالشيء نفسه. اسألي كاهنات معبد ثيسبياي متى آخر مرة زارهم زيوس، إنه لم يذهب إلى هناك منذ ثلاثة أقمار».

أرخت هيرا قبضتها من على الطائر الذي كاد أن يصبح قرمزيًا بالكامل، واستطاع أخيرًا التنفس من جديد، لكن حتى الآن لا يزال لبعض ذكور الحسون صدور بلون وردي.

كانت إيكو تخوض باستمتاع في الجدول عندما نزلت عربة الطواويس تحمل هيرا مرة أخرى. هرعت النيمفة إلى حافة النهر ناثرة المياه حولها لترحب بالربة، انفرج ثغرها الجميل عن ابتسامة واسعة رسمت في وجنتيها غمازتين، لكن خط الابتسامة تحول إلى رقم 5 دائري من الرعب بعدما رأت الغضب على وجه هيرا.

قالت الربّة بهدوء ثلجي: «قلتِ إن زوجي لم يكن هنا، قلتِ إنه لم يكن هنا بالأمس، قلتِ إنه كان في ثيسبياي يشرّف معبدًا».

قالت إيكو المذعورة بتلعثم: «هذا... هذا بقدر علمي».

«أيتها الكاذبة النمّامة الحمقاء المتآمرة! كيف تجرؤين على خداع ملكة السماء؟ من تحسبين نفسك؟».

«أنا...»، ولأول مرة في حياتها لم تستطع إيكو التفكير في شيء تقوله.

«تلعثمي وتَهتهي بقدر ما تريدين، تحبّين وقع صوتك، أليس كذلك؟ اسمعي إذًا...».

سحبت هيرا نفَسًا عميقًا ورفعت ذراعيها عاليًا، التمعت عيناها بضوء بنفسجي، انكمشت إيكو أمام رهبة المشهد وتمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها.

«آمر قدرتك الخبيثة الكاذبة على الكلام أن تهدأ، من الآن فصاعدًا متصمتين إلّا عندما يتحدث أحدهم إليك، وعندها لن يكون بوسعك أن تردّي إلا بتكرار آخر ما يُقال لك. لا أحد غيري قادر على حل هذه اللعنة، هل أنت فاهمة؟».

بكت إيكو: «...فاهمة».

«هذا عقاب من يجرؤ على عدم طاعة الآلهة».

«...طاعة الآلهة!».

«لا تسأليني الغفران والرحمة».

«...الغفران والرحمة».

دارت هيرا بحركة حادة وزمجرة ساخرة ومضت مبتعدة، تاركة خلفها الحمقة التعيسة ترتعد من الخوف والإحباط. مهما حاولت أن تتحدث لا تخرج من فمها أي كلمات، كما لو أن حلقها يضيق وينكمش كلما حاولت أن تفعل. اقتربت منها احدى شقيقاتها ووجدتها كأنها على وشك التقيؤ.

«أهلًا إيكو، ماذا تفعلين؟».

قالت إيكو: «ماذا تفعلين؟».

«سألتك أولًا».

«سألتك أولًا».

«بل أنا فعلت».

«بل أنا فعلت».

«لو أنك مصرَّة على هذا اذهبي إلى الجحيم».

صاحت فيها إيكو وهي تبكي من البؤس: «اذهبي إلى الجحيم».

انفضَّ من حولها أصدقاؤها وأسرتها واحدًا تلو الآخر. بالنسبة لشخص مثل إيكو التي عاشت حياتها لأجل النميمة اللطيفة فقط، التي لم تحب شيئًا أكثر من الثرثرة المبتهجة، والتي حُرمت الآن من كل متعة مستقاة من القيل والقال، كانت تلك اللعنة مريعة إلى حد أنها لم تعد ترغب في شيء عدا أن تُترك وحدها لتنغمس في حزنها الصامت.

إيكو ونارسيسوس

عزلة إيكو المؤلمة وجحيمها الخاص كسرهما ذات يوم صوت ضحك وصياح والصخب العاصف للصيد، شباب ثيسبياي كانوا يطاردون خنزيرًا في الغابة. انفصل عنهم أحد الصيادين، وكان شابًا ذا جمال لا مثيل له حتى أن إيكو، التي لم تعرف شغف العواطف طيلة حياتها، وقعت في الحب في تلك اللحظة نفسها.

الشاب كان نارسيسوس، وقد صار الآن أكبر سنًا وأكثر بهاءً من أي وقت مضى. لم يقع قط ضحية لشغف العواطف، وقد أمسى الآن معتادًا على صرخات الإعجاب وفقدان الوعي في حضوره من البنات والأولاد والرجال والنساء والفونات والساتيريين والنيمفات والدرايادات والأوريادات والسنتوريين، وبات يؤمن أن كل حوار الحب هذا عبث ليس إلّا، فهو يجعل الناس أغبياء. كره نارسيسوس تصرف الناس من حوله، وأثار جنونه أن يرى نظرة الحب التي لا يمكن أن يخطئها تقفز في عيون الآخرين، ثمة شيء ما غاضب وبشع في هذه النظرة، شيء جائع ضائع يائس، شيء كئيب تعيس.

بالنسبة لنارسيسوس فلم يكن الحب والرغبة إلا أمراضًا، وقد تعلم ذلك الدرس في العام السابق بأسوأ شكل ممكن، عندما أعلن فتى يدعى أميناياس Ameinias حبه له، أجابه نارسيسوس بأقصى لطف ممكن أنه لا يبادله الحب، لكن أميناياس لم يتقبل الرفض وأخذ يطارد نارسيسوس في كل خطوة؛ كان يمشي معه إلى المدرسة صباحًا ويحدق فيه مثل جرو ضائع ولهان، حتى لم يعد نارسيسوس قادرًا على التحمل وصرخ فيه ذات يوم أن يذهب ولا يقترب منه مرة أخرى أبدًا.

في هذه الليلة استيقظ نارسيسوس على صوت غريب خارج نافذة غرفة نومه، نظر منها فرأى في ضوء القمر أميناياس يتدلى من شجرة كمثرى معلقًا بحبل حول رقبته، وبحروف مختنقة ردَّد لعنة قبل أن يموت:

«ليكن نصيبك من الحب مثل نصيبي يا نارسيسوس الجميل[174]».

منذ ذلك الحين عوَّد نارسيسوس نفسه على خفض رأسه وتغطية جسده بقدر الإمكان، والاقتضاب والفظاظة مع الغرباء وعدم النظر في أعينهم أبدًا.

أما الآن، بعد أن نظر حول نفسه ووجد رفقته من الصيادين قد ذهبوا وبات وحيدًا تمامًا، قرر أن يستغل مياه الجدول الباردة وضفافه الطحلبية المغرية، فخلع ملابسه وقفز في الماء.

ما إن وقعت أعين إيكو على ذلك العود الذهبي الرشيق، الذي يضيء الشمس نصفه وتغطي مياه الجدول بقيته، حتى حبست أنفاسها، وعندما تلصصت من بين أوراقَ الشجر ولمحت وجه نارسيسوس فائق الجمال لم يعد بوسعها التحكم في نفسها. فلولا لعنة هيرا كانت ستصيح عليه في التو واللحظة، لكنها ظلت تتأمل في صمت وعجب الشاب العاري يفرد ملابسه وقوسه وأسهمه على العشب ويستلقي على الأرض لينام.

عندما يأتي الحب متأخرًا فهو يأتي كعاصفة. اجتاح كيان إيكو المسكينة بالكامل شغف هائل بهذا الفتى ذي الجمال المستحيل. لا شيء، ولا حتى لعنة هيرا القاسية، جعل قلبها يدق من قبل بهذا العنف داخلها، اندفعت الدماء عبر أذنيها، كان الأمر وكأنها في مركز إعصار هائج. كان عليها أن ترى ذلك الشاب الوسيم عن قرب أكثر. لو أنها شعرت بكل هذا الشغف الساحق من العواطف في داخلها بمجرد رؤيته، ربما إذًا هذه هي طبيعة الأمور، وهو سيشعر بالشيء نفسه ما إن يراها، أليس كذلك؟ بالطبع هذا ما يجب أن يكون! تسللت إلى الأمام وهي لا تكاد تجرؤ على التنفس، مع كل خطوة تأخذها كان لهيب المشاعر يتأجج بداخلها حتى باتت ترتجف وترتعد من شدة الحماسة. حكايات الحب من أول نظرة التي سمعتها في حياتها اتضح أنها حقيقية في النهاية، هذا الفتى الجميل سيبادلها الحب بلا جدال، وإلّا لا معنى للأشياء وللكوزموس بأسره.

أنا وأنت نعلم بالطبع أنّ الأشياء والكوزموس لم يكن لها معنى قط ولن يكون، وإيكو المسكينة على وشك أن تكتشف ذلك.

شيء ما جعل نارسيسوس النائم يفتح عينيه إبان اقتراب إيكو، ربما كان صوت طائر أو دقات قلبها.

وتقابلت عيناهما.

إيكو كانت نيمفة حسناء، بل جميلة في الواقع، لكن نارسيسوس لم ير منها إلا عينيها، تلك النظرة مجددًا! تلك النظرة الجائعة الممسوسة المهووسة! هذه العيون المحتاجة المهتاجة!

قال وهو يبتعد: «من أنت؟».

«من أنت؟».

«لا عليك إذًا، هذا شأني أنا».

«هذا شأني أنا».

«ليس شأنك، لقد أيقظتني!».

«لقد أيقظتني!».

«أفترض أنك مثل البقية وقعت في حبي».

«وقعت في حبي».

«الحب! لم أعد أستطيع سماع كلام الحب».

«كلام الحب».

«يا للقرف، ابتعدي، لا تبقي هنا».

«لا تــبقي هنا».

«لن يؤثر فيّ بكاؤك ولا عويلك، أكره رؤيتك أمامي».

«رؤيتك أمامي!».

صاح نارسيسوس: «توقفي عن ذلك فورًا، لقد أصبتني بالجنون».

«أصبتني بالجنون».

«اذهبي قبل أن أفعل شيئًا خاطئًا».

«أفعل شيئًا خاطئًا».

«لا تغويني الآن».

«تغويني الآن».

التقط نارسيسوس مقلاع الصيد ولقَّمه بالحجارة: «اذهبي فورًا، سأؤذيك إن لم تفعلي، لماذا لا تفهمين؟».

«لماذا لا تفهمين؟».

أول حجر أخطأ إيكو، فدارت وهربت قبل أن يتمكن نارسيسوس من تلقيم مقلاعه بحجر آخر، ونادى من خلفها بينما تجري: «ولا تعودي أبدًا».

كررت باكية: «لا تعودي أبدًا».

ظلت تجري وتجري حتى وقعت على الأرض وغرقت في النحيب بقلب مفطور من الحزن والعار.

الفتى والمياه

راقبها نارسيسوس ترحل وهز رأسه في غضب، ألن يرتاح أبدًا من هؤلاء الناس الباكين الملتاعين ومن لوعتهم وجنونهم وتعلقهم؟ ما الحب وما الجمال؟ مجرد كلمات، مجرد كلمات.

شعر بالقيظ والظمأ من كل ذلك الضغط والدراما فركع ليشرب من الجدول، لكنه حبس نَفَسه من الذهول عندما رأى في المياه أجمل وجه وقعت عليه عيناه على الإطلاق، وجه جميل مذهول لأكثر الشباب جمالًا على الإطلاق، كان له شعرٌ ذهبيٌّ وشفاه حمراء طرية، وبحماسة أدرك نارسيسوس أن عيني الفتى الجميلتين كانتا تنضحان بالجوع واللهفة والرغبة الذين كان ينفر منهما دائمًا في وجوه الآخرين، لكن ذات التعبير على ذلك الوجه الجميل جعل قلبه يدق ويرقص من الفرحة.

لا بدّ أن ذلك يعني أن الكائن المتألق في النهر يشعر تجاهه بذات الشعور! انحنى نارسيسوس ليقبّل تلك الشفاه الجميلة، وارتفعت الشفاه الجميلة من أسفل لتقبّله، لكن ما إن مس وجه نارسيسوس الماء حتى تداعت ملامح الغريب إلى آلاف القطع المتراقصة المتماوجة ولم يعد بوسعه رؤيته، فوجد نارسيسوس أنه لا يقبل إلا المياه الباردة.

همس من بين أنفاسه: «اثبت مكانك أيها الجميل»، وبدا أن الفتى الجميل يقول له الشيء ذاته.

رفع نارسيسوس يده، فرفع الفتى في الماء يده ردًا عليه، أراد نارسيسوس أن يتحسس الوجنة الحسناء لوجه الفتى الذي أراد أن يفعل له الشيء نفسه أيضًا، لكن الوجه تشقق وتفكك في اللحظة التي اقترب فيها منه نارسيسوس.

مرة تلو الأخرى تابع المحاولة.

في الآن ذاته كانت إيكو قد عادت لتجرب حظها مجددًا، بعد أن استقوت بحبها واشتدت بنيرانه المشتعلة. رقص قلبها في مكانه عندما سمعته يقول: «أحبك».

رددت: «أحبك».

«ابق معي!».

«ابق معي!».

«لا تتركني!».

«لا تتركني!».

لكن عندما اقتربت من نارسيسوس استدار ليواجهها بزمجرة وصاح فيها:

«اذهبي، اتركينا وحدنا، لا تعودي أبدًا أبدًا أبدًا».

قالت بعويل: «أبدًا أبدًا أبدًا».

التقط نارسيسوس حجرًا وقذفه عليها بزمجرة متوحشة، ركضت إيكو وتعثرت، التقط إيكو قوسه وكان على وشك أن يرميها بسهم لولا أنها سارعت بالنهوض والاختفاء في الغابة.

عاد نارسيسوس لينظر بهلع إلى الجدول، مذعورًا من أن يكون الفتى المذهل قد اختفي، لكنه كان هناك، مرتاعًا وقلقًا ومحمرّ الوجه مثله، لكنه جميلٌ ومحبٌّ مثلما كان، وعيناه الزرقاوان العميقتان تلتمعان. ركع نارسيسوس مجددًا واقترب بوجهه من المياه...

شفقة الآلهة

ركضت إيكو صعودًا على جانب الجبل، تبكي وتنوح من الحسرة والأسى. اختبأت في كهف أعلى النهر الذي تمدد نارسيسوس على ضفته.

رددت إيكو داخل رأسها كلمات الصلوات لربّتها المفضلة أفروديتي، وتوسلت إليها بيأس أبكم أن تريحها من آلام الحب غير المحتملة، ومن عبء وجودها المضني.

استجابت أفروديتي للنيمفة بما استطاعت أن تقدمه لها، حررت إيكو من جسدها وأغلب وجودها المادي، لكن لم يكن لديها القوى لإبطال لعنة هيرا، هكذا ظل الصوت موجودًا، الصوت الذي أودى بإيكو إلى المشاكل من البداية، الصوت الذي حُكم عليه أن يظل يردد ما سمع. لم يبق شيء آخر من النيمفة التي كانت حسناءَ سوى صوتها، لا يزال بوسعك سماع إيكو حتى الآن تردد آخر بضع كلمات قلتها في كهف أو وادٍ أو جرف أو شارع أو ميدان أو معبد أو أطلال أو غرفة خاوية.

ونارسيسوس؟ ظل هناك بجوار النهر، يمضي عليه اليوم تلو اليوم، غارقًا بكل شغف ويأس في حب انعكاسه، يتأمل ذاته، مترعًا بالحب والتوق لنفسه، بأعين لا ترى إلا نفسه ولا تشعر إلا بنفسه ولا تدرك وجودَ نفسٍ غير نفسه. ظل ينحني على الماء متلهفًا مشتاقًا حتى حولته الآلهة إلى الزهرة الجميلة التي تحمل اسمه إلى اليوم [نارسيسوس Narcissus أو النرجس]، والتي تحني رأسها على الدوام لتنظر إلى نفسها في البُرك والأحواض والجداول.

بوسعك أن تقرر إن كانت الصفات التي ورثناها نحن واللغة من هؤلاء الصغار سيئي العاقبة هي صفات إنسانية عادية أم مصائب كريهة. الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية مُدرج فيه اضطراب الشخصية النرجسية والإيكولاليا (التكرار عديم المعنى لما يقوله الآخرون)، أي أنهما طبيًا وقانونيًا بمثابة أمراض عقلية. اضطراب الشخصية النرجسية، الذي يشيع عنه الكلام حاليًا، يُعرف من الخيلاء

والأهمية الذاتية والجوع الكبير لتلقي الإعجاب والتقدير والتصفيق، وفوق كل ذلك الهوس بالصورة الشخصية، في المقابل مشاعر الآخرين تُدهس بالأقدام ولا محل لها من الإعراب، وأشياء مثل المراعاة والصدق والنزاهة لا يُبالى بها، محلها يكون التبجّح والمغالاة والتفاخر، وأي نقد أو استخفاف لا يمكن تحمله بل ويُرد عليه بالعدوانية والغضب وسلوكيات غريبة متفجرة[175].

ربما أفضل تعريف للنرجسية هو الحاجة للنظر إلى الآخرين كأسطح عاكسة ترضينا فقط عندما تعكس صورة

نحبها أو تعجبنا عن أنفسنا أي أننا عندما ننظر في عيون الآخرين فنحن لا ننظر لنرى من نحن، بل كيف ننعكس في أعينهم. بهذا التعريف، من منا يستطيع أن يتبرأ من النرجسية؟

عشّاق

تريستان وإيزولد، روميو وجولييت، هيثكليف وكاثرين، سو إيلين وج. ر.، وغيرهم من العشاق تعيسي الحظ الذين نعرفهم جيدًا يدينون بالكثير للجذور التراجيدية الإغريقية التي سبقتهم.

بيراموس وثيزبي

عندما نسمع اسم بابل Babylon نفكر في الحضارة الشرقية المشهورة بالتبذير والوفرة. حدائقها المعلقة كانت من عجائب الدنيا السبع الأصلية، وكانت بابل لبعض الوقت أكبر مدينة في العالم[176]. الإمبراطورية البابلية احتلت الكثير من آسيا الصغرى، والبعض يعتقد أنّ أحداث هذه القصة وقعت في سيليسيا، المملكة التي أسسها سيليكس قبل أن ينضمّ لكادموس وبقية أبناء أجينور في رحلة البحث عن يروبا. لكن أوفيد في نسخته من الحكاية كان سعيدًا بوضع الأحداث في قلب بابل، ومثله سأفعل أنا أيضًا.

في بابل إذًا عاشت عائلتان كان بينهما نزاعٌ يعود لأجيال قديمة لا أحد يذكر سببه. انتصب قصراهما متجاورين في الشارع الرئيسي للمدينة، لكن أبناء الأسرتين كانوا ينشأون على اعتبار بعضهم أعداءً، ويُحرَّم عليهم تبادل الكلام والكتابة وحتى الإشارات.

كان لإحدى الأسرتين ابنٌ اسمه بيراموس Pyramus وللأخرى ابنة تدعى ثيزبي Thisbe، بشكل ما وقعا في حب بعضهما رغم العقبات التي تعيق ذلك. اكتشفا وجود ثقب صغير في الجدار المشترك بين قصرَيْهما المتجاورَيْن، عبر تلك الفتحة تهامسا، وتبادلا آراءهما في الحياة والشعر والموسيقى حتى وجدا نفسيهما واقعين في الحب. ثقب الحائط كان

أصغر من أن يسمح لهما بالتلامس، لكنه سمح بتبادل الأنفاس الملتهبة لعاطفتهما الشابة المتّقدة من ثغر لثغر، وقد ضاعفت من حدتها الطبيعة المحرَّمة لمشاعرهما وقربهما الشديد وبُعدهما الأكبر في اللحظة نفسها.

تبادُل الأنفاس اللاهثة المشتعلة هذا تأجج ذات ليلة بينهما وقد تجاوز جنونهما الاحتمال، فقررا أن يهربا من قصريهما ويلتقيا في الليل عند قبر سَلَفِ بيراموس الملك الأشوري نينوس Ninus، مؤسس مدينة نينوى العظيمة.

وهكذا انسلت ثيزبي بخفة وذكاء من بين القائمين على غرفتها وحرّاس قصر أبيها في الخارج ولم يمض وقت قبل أن تتجاوز أسوار المدينة التي بنتها قبل زمن بعيد سلَفها الملكة سميراميس Semiramis. عندما بلغت ثيزبي المقابر أخيرًا، لم تجد حبيبها بيراموس، بل أسدًا متوحشًا تقطر أنيابه بدماء ثور افترسه قبل قليل. ركضت ثيزبي هاربة من المقبرة مرعوبة من زئير الأسد، وفي خضمّ هلعها وهروبها السريع وقع منها برقعها. اقترب الأسد من البرقع وتشمَّمه، ثم أخذه بين أسنانه وأخذ يهز رأسه، فتلطخ البرقع بدماء الثور على خطم وأنياب الأسد، ثم تركه يقع على الأرض وأطلق زئيرًا أخيرًا، وابتعد إلى قلب الليل.

بعد قليل وصل بيراموس إلى المكان وجلس ينتظر حبيبته لبعض الوقت تحت شجرة توت يثقل فروعها الحمل الصيفي للثمرات الناضجة البيضاء كالثلج. من بين فروع الأشجار تسلل شعاع من ضوء القمر وأضاء وشاح ثيزبي الملقى على الأرض، رطبًا وملطخًا بالدماء. انتزع بيراموس الوشاح، واستطاع برعب تمييز شعار أسرة ثيزبي مطرَّزًا على الكتان الدامي، بل والأهم من ذلك تمكن من تمييز عبق الفتاة الذي تبادل معها أنفاس الحب الساخنة مرات عديدة. آثار الأقدام المخلبية على الأرض أعلنت بوضوح عن وجود أسدٍ.

الدم، آثار الأقدام المخلبية، شعار العائلة، رائحة ثيزبي ذاتها... المعنى الواضح والمأساوي لكل هذا انبثق مرة واحدة أمام بيراموس، وبصرخة

يأس عالية أخرج سيفه وطعن نفسه في بطنه، وأخذ يمزق الجرح أكثر وأكثر ومن جانب لآخر في جنون ليسرّع اجتماعه بحبيبته الميتة. انبثقت الدماء منه مثل نافورة، فصبغت التوت الأبيض باللون البنفسجي.

نادى بيراموس السماء: «أخذتم حبيبتي ثيزبي قبل أن نجتمع في حياتنا القصيرة، فدعونا نصير معًا في ليلة الموت الأبدية»، مع هذه الكلمات النبيلة خرجت آخر أنفاسه[177].

هنا تدخل ثيزبي، وترى بين يدي بيراموس الميت برقعها رطبًا ملطخًا بالدماء، وترى آثار الأسد المخلبية وتقرأ بوضوح القصة التي يرسمها المشهد.

هتفت: «أيتها الآلهة، هل أنتم تحقدون على حبنا لدرجة أنكم لم تسمحوا لنا حتى بوهلة مقتضبة من السعادة؟».

تقع عيناها على سيف بيراموس، لا يزال ساخنًا ومبتلًا بالدماء ويشير إلى نجوم السماء في الأعلى. قفزت ثيزبي على السيف فاخترق أعماق بطنها وهي تطلق صرخة انتصار وسعادة، في واحدة من أكثر حوادث الانتحار فرويدية على الإطلاق.

عندما بلغت الأسرتان موقع الحادثة، انهار أفرادهما في أحضان بعضهم يبكون ويتوسلون الغفران. انتهى النزاع، وحُرق جسدا العاشقين واجتمع رمادَهما في جرَّة واحدة.

أما فيما يخص روحَيهما، فقد تحول بيراموس إلى نهر ظل يحمل اسمه لألف عام، وتحولت ثيزبي إلى بحيرة يصب فيها هذا النهر. مسار نهر بيراموس (والذي بات الآن يُدعى جيحان Ceyhan) بُنيت عليه السدود لتوليد الطاقة الكهرومائية، وهكذا صارت طاقة الحبيبين تضيء بيوت الأتراك الآن.

إضافة إلى ذلك، قررت الآلهة أن تشرّف حب العاشقَيْن وتضحيتهما، بأن تصبح ثمار التوت من هذه اللحظة فصاعدًا كلها بنفسجية داكنة، لون حبهما ودمائهما.

جالاتيات

إيسيس وجالاتيا

من بين النيريديات العديدات بنات الأوشيانية دوريس وربّ البحر نيريوس، كانت هناك واحدة تُدعى جالاتيا Galatea، سُميت كذلك لبشرتها البيضاء بياض اللبن[1]، وأحبها السيكلوبس بوليفيموس Polyphemus (لم يكن بوليفيموس من السيكلوبسات الأصليين، كان من الذرية القبيحة المتوحشة لبوسايدون والأوشيانية ثوسا Thoosa).

لكن جالاتيا أحبّت إيسيس Acis، راعٍ من صقلية ذو قَدرٍ بسيط من الجاذبية والجمال. رغم أن إيسيس كانَ ابنًا لنيمفة النهر سيميثيس Symaethis والربّ بان، إلا أنه كان فانيًا. ذات يوم، بوليفيموس الغيور رأى جالاتيا وإيسيس بين ذراعي بعضهما، فألقى صخرة ضخمة على الفتى سحقته وقتلته على الفور. جالاتيا الملتاعة استطاعت استدعاء ما يكفي من القوة والموارد، أو ربما كان لها أصدقاء مهمّون في الأوليمبوس، وتمكنت من تحويل إيسيس إلى روح نهر خالد واقترنت به إلى الأبد. جورج هاندل Georg Händel الموسيقار الكلاسيكي حوَّل قصتهما لأوبرا رعوية بعنوان إيسيس وجالاتيا Acis and Galatea.

جالاتيا II

وعلى ذكر الفتيات المسماة بجالاتيا، فثمة اثنتان أخريان تستحقان أن نعرِّج عليهما.

---

(1) الاسم حرفيًا باليونانية القديمة «البيضاء بياض اللبن». [المترجم]

باندیون Pandion من مدينة فايستوس Phaestos بكريت كان له ابنٌ اسمه لامبروس Lampros، وتزوج الابن من جالاتيا أخرى. لم يكن لدى لامبروس أي رغبة في إنجاب البنات، وأخبر زوجته أنها لو وضعت أنثى فعليها أن تقتلها، وتُتابع المحاولة حتى تنجب الولد الذي رغب فيه. طفلهم الأول كان فتاة، وجالاتيا لم تجد في قلبها قدرة على قتلها - وأي أم تقدر أن تفعل؟ - فقالت لزوجها أن الرضيع هو ذكر سليم، وأنها تريد أنْ تسميه لوكيبوس Leucippos (الحصان الأبيض).

لامبروس صدَّق زوجته ولم يكلف نفسه عناء الفحص التشريحي، وربّاه ولدًا، وكبر لوكيبوس كوَلدٍ ذكيٍّ ممتازٍ يحبّه الجميع ويتقبلونه. غير أن سنَّ المراهقة اقتربت، وازداد خوف جالاتيا من أن تظهر على ابنتها الحبيبة المنحنيات الجسدية الطبيعية وألّا ينمو على ذقنها الملساء أي شيء فتنفضح حقيقة لعبتها أمام لامبروس، الذي لم يكن رجلًا يتجاوز مثل هذا الخداع.

لجأت جالاتيا ولوكيبوس إلى معبد ليتو (أم أبولو وأرتيميس) طلبًا للأمان، وهناك صلّت للتيتانة أن تغير جنس ابنتها، استجابت ليتو وتحولت لوكيبوس على الفور إلى ذكر شاب. نبت الشعر حيث ينبغي أن ينبت عند الذكر، وظهرت الانبعاجات السليمة واختفت الانبعاجات الخاطئة. لم يُدرك لامبروس شيئًا مما حدث وعاشوا في سعادة دائمة.

ظلت مدينة فايستوس بعد ذلك لأجيال ممتدة تحتفل بعيد يدعى إكدوسيا Ekdusia [178]، طقوسه تستدعي من كل صغار الذكور الفايستوسيين الذين يعيشون بين النساء والفتيات أن يرتدوا ملابس أنثوية، وعليهم أن يُقسموا يمين المواطنة قبل أن يتخرّجوا من حالة الـ agela أو خانة الأطفال ليصبحوا ذكورًا كاملي الأهلية ويرتدون ملابسهم[179].

لوكيبوس II، دافني وأبولو

ثمة أسطورة أخرى جديرة بالذكر تحكي عن لوكيبوس آخر متحوّل الجنس - هذا اللوكيبوس ابن لإينوميوس Oenomaus - وقع في حب

النايادة دافني Daphne، التي كان يحبّها أيضًا أبولو لكنه لم يحاول استمالتها أو إغواءها بعد.

تنكّر لوكيبوس في هيئة فتاة لينضم لدافني وصحبتها من النيمفات، كي يكون بقرب محبوبته. رأى أبولو الغيور ذلك، فجعل أعواد القصب تهمس لدافني بأنّ عليها وعلى رفيقاتها أن يستحممن في النهر، وهكذا تخفّفنَ من ملابسهنّ واستحممنَ عاريات، وعندما رفض لوكيبوس خلع ملابسه، لأسباب واضحة لنا، تكاثرت عليه الفتيات مداعبات وخلعنَ عنه ملابسه، واكتشفنَ سرّه المحرج الذي لا يمكن مداراته، وطعنه بالرماح حتى مات.

بحدوث هذا استيقظت شهوة أبولو للدماء، فتجسد وانطلق مطاردًا دافني. قفزت الفتاة الجميلة خارجة من النهر وركضت بأقصى سرعة تقدر عليها، لكنه اقترب منها بسرعة، وكان على وشك الوصول إليها عندما أرسلت صلواتها لأمها جايا وأبيها ربّ النهر لادون Ladon، وما إن بلغها ولمسها حتى شعر بجلدها يتبدل تحت أصابعه. تشكل حول ثدييها اللحاء، وشعرها بدأ يتفرع إلى أوراق خضراء وصفراء لامعة، وصُعق أبولو عندما أدرك أنه لا يحتضن نايادة، بل شجرة غار.

لأول مرة في حياته ندم أبولو. أصبح الغار نباتًا مقدسًا عنده، وصارت أكاليله من تلك اللحظة فصاعدًا تُكَلِل جبهة الفائز بالألعاب البايثانية في دلفي، وحتى يومنا هذا لا يزال الفائز بأي جائزة كبيرة يطلق عليه laureate[180] [من نبات الغار laurel].

جالاتيا III وبجماليون أيضًا

لأنّ جزيرة قبرص كانت أول محطة أرضية لابنة الماء أفروديتي، عبد القبارصة ربّة الحُبّ والجمال لزمن طويل بحمية خاصة، فاستحقوا على ذلك سمعة بالتحرر والخلاعة والانغماس في الشهوات والحياة المستهترة. سكان اليونان القاريَّة كانوا ينظرون لقبرص على أنها مكان منحَط، جزيرة الحب المتحرر.

عند الميناء الجنوبي لمدينة أماثوس Amathus، كانت هناك مجموعة من النساء يُعرفن بالبروبيتيديات Propoetides أو «بنات بروبيتوس Propoetus» الساخطات بشدة على مدى التساهل الجنسي الشائع هناك، حتى أنهنّ جَرؤنَ على الاقتراح بالتخلي عن أفروديايتي كربّة حامية للجزيرة. عقابًا على هذا الكفر والوقاحة، أصابت أفروديايتي الغاضبة تلك الشقيقات برغبة شهوانية ناهشة، ونزعت عنهنَّ في الآن ذاته كل شعور بالحياء أو العار، وهكذا فقدت هذه النسوة القدرة على الخجل وشرعنَ في بيع أجسادهنّ بلهفة ورخص وبشكل عشوائي في أرجاء الجزيرة.

وكان ثمة نحّات شاب جذّاب حساس يُدعى بجماليون Pygmalion رأى ذلك السلوك الفاضح عديم الحياء من البروبيتيديات وأصابه قرف شديد حتى أنه قرر أن يهجر كل أشكال الحب والجنس إلى الأبد.

«يا للنساء!»، همهم بهذا لنفسه ذات صباح بينما هو منكبّ على تمثال مكلّف به لأحد جنرالات الجيش في أماثوس، «لن تجدني يومًا أُضيع أيًا من وقتي على امرأة، لا لا، الفن يكفيني، الفن كل شيء، الحب لا شيء، الفن هو الحياة، الفن.... حسنًا، هذا غريب!».

تراجع بجماليون ونظر إلى عمله، تجعدت جبهته في تعبير متفاجئ، القالب الذي يتخذه تمثال الجنرال كان أغرب ما يكون. يكاد بجماليون يُقسم أن للجنرال لحية، إضافة إلى أنه يميل للامتلاء نوعًا ما عند الأجناب، لكنه متأكد أن صدر المحارب القديم لم يكن يزينه هذان النهدان الممتلئان، ولا كانت رقبته بهذه النحافة والنعومة والجاذبية التي لا تقاوم.

خرج بجماليون إلى الساحة وغمر رأسه في نافورة المياه الباردة هناك، ثم عاد منتعشًا إلى ورشته ونظر إلى عمله غير المكتمل، ولم يملك إلّا هزّ رأسه في حيرة. عندما كان يتجول في أنحاء فيلا الجنرال لدراسة هيئته، رأى أن هيئة الرجل كانت مرسومة بخطوط أقرب لقالب الخنزير الإفريقي الوحشي من أي هيئة بشرية، لكنه مع ذلك يخرج من الرخام بهيئة جمالية إعجازية مصقولة، جمال أنثوي على وجه الخصوص.

التقط إزميله، وجرى بعينه على عمله وقرر أنه ببعض الضربات الحاسمة محكمة التصويب يستطيع أن يعود بتمثاله إلى مساره السابق من دون إضاعة قالب الرخام الثمين، الذي أنفق عليه دخل شهر كامل.

بوم، طراخ، بوم.

يا سلام، ممتاز.

توك توك توك.

لا شك أنّ ما حدث كان نابعًا من نزوة غير واعية ما.

تشيك، تشيك، تشيك.

أو ربما عسر عضم.

الآن، لنتراجع مرة أخرى ونرى...

لا!!!

محاولته لإنقاذ العمل واستعادة ذكورية الجنرال وبهرجته العسكرية في وجه التمثال وهيئته، أدت بشكل ما إلى تعزيز النعومة والرشاقة والحسية الأنثوية، و- اللعنة على ذلك - جاذبيتها الجنسية.

صار الآن محمومًا. علم في أعماقه أنه لم يعد يُنقذ الجنرال، بل كان في مهمة لمتابعة ذلك الجنون الذي سيطر عليه حتى آخره.

الجنون كان بالطبع من عمل أفرودايتي. لم تُسعد ربة الحب عندما اختار أكثر شباب جزيرتها وسامة وأكثرهم جاذبية أن يدير ظهره للحب، رأت أفرودايتي أن أي شاب يعيش في الجزيرة التي كانت موطئ أول خطواتها بعد ولادتها بين الأمواج، يجب أن يمتلئ بشغف استثنائي للحب. الحب والجمال، مثلما نكتشف جميعًا خلال حياتنا، ليس فيهما شفقة ولا رحمة.

عمل بجماليون لأيام وليال طوال في نوبة من السعار الإبداعي. أجيال عديدة من الفنانين اللاحقين يعرفون جيدًا حالة الإلهام والنشوة المؤلمة اللاهثة التي سيطرت عليه، لم تخطر على باله أفكار ولا طعام ولا شراب، في الواقع لم يكن واعيًا في الأصل، كان فقط يدق ويدق ويدق.

أخيرًا، وبينما يتورَّد الأفق بحمرة إيوس ويؤشر الضوء المتلألئ القادم

من الشرق ببداية اليوم الخامس، تراجع إلى الخلف وقد واتاه ذلك الإحساس الإعجازي الذي يعرفه الفنانون الحقيقيون: بشكل ما، بات يعلم يقينًا أنه انتهى.

بالكاد وجد الجرأة على رفع عينيه. كل عمله حتى الآن كان في التفاصيل الدقيقة عن قرب، ملامح الشكل الكامل لم تكن موجودة إلّا في ركن مظلم ما من عقله لا يمكن الوصول إليه، تلك هي المرة الأولى التي يستطيع فيها استيعابه كله. أخذ نفسًا عميقًا، ثم نظر.

بكى من الصدمة، ووقع منه إزميله.

من الزهور كاملة التشكيل التي توَّجت الشعر على رأس التمثال إلى أخمص أصابع القدمين التي لا مثيل لها، كان التمثال أفضل شيء صنعه بفارق عظيم عمّا عداه، بل في الواقع كان بلا شك أجمل عمل فني رآه العالم، وذلك يعني بالنسبة لفنان حقيقي مثل بجماليون أنه كان أجمل حتى من أي شخص مشى على وجه الأرض، فهو يعلم أن الفن يتفوق دائمًا على ما تستطيع الطبيعة أن تقدمه.

لكن مع ذلك فما رآه في القوام الذي شكلته أصابعه في الرخام من خياله المتأجج كان أكثر من أن يكون أجمل شيء في العالم الآن، بل كانت حقيقية، كانت بالنسبة لبجماليون حقيقية أكثر من السقف فوق رأسه ومن الأرض تحت قدميه.

دقَّ قلبه بسرعة، اتسعت حدقتاه، ضاق صدره، جوهر وجوده ذاته كان يتقلب كما لو كان في إعصار، كان في حالة من الفرح والوجع في نفس الوقت: كان يحب.

الفتاة - التي عرف فورًا أن اسمها يجب أن يكون جالاتيا من بياض الرخام الجميل الذي كان أقرب للبن - كان تعبير وجهها ووقفتها ينبئان بحالة من السموّ المتردد، بحالة بين اليقظة والتعجب، بدت وكأنها متفاجئة نوعًا ما أو على وشك أن تشهق تعجبًا، لكن مِن ماذا؟ مِن جمال العالم؟ مِن وسامة الفنان الشاب الذي يُمتّع أعينه المشتاقة بالنظر إليها؟ ملامحها

كانت عادية وكاملة، لكنها كذلك كانت كملامح العديد من الفتيات. كان فيها ما يزيد عن الجاذبية العادية، كان فيها روح جميلة تغني من أعماقها. خطوطها رقيقة خفيفة ناعمة سلسة لدنة، حسِّية، أثداؤها كانت طرية تبرز للخارج، الطريقة التي تلمس بها رقبتها بإيماءة رقيقة متواضعة جعلت عُريها أكثر جاذبية بكثير.

دار بجماليون حولها ليستوعب السخاء الشديد الذي اتسع به دوران ردفيها والامتلاء المجيد لفخذيها. أيجرؤ على لمس بشرتها؟ مدَّ يديه، برفق كي لا يؤلمها، لكن أصابعه لم يقابلها إلّا الرخام القاسي البارد. كانت جالاتيا بالنسبة للعين حية دافئة تتحرك، لكن بالنسبة لأيدي بجماليون التي تتحسسها ووجنته المستندة على جسدها، كانت جالاتيا باردة كالموت.

شعر بالسقَم والحيوية الشديدة في الوقت ذاته، تقافز إلى أعلى وإلى أسفل، صرخ بأعلى صوته، زمجر، ضحك، غنّى، سبَّ، أظهر كل سلوك مختل محتد مشتد منتعش منتشٍ مكلوم يسلكه أيّ شاب انكبَّ على وجهه في الحب على حين غرة.

في النهاية ألقى بجماليون نفسه على جالاتيا، أحاط بها بذراعيه وساقيه، التصق بها بكل خلية في جسده، قبّلها وتحسَّسها ومسَّدها، حتى انفجر كل شيء في داخله.

لم ينحسر الجنون الذي التهم روحه بعد هذه النوبة الأولى، فهو الآن قد كرَّس نفسه لجالاتيا بكل غليان وعاطفة وانتباه الحب الحقيقي، ناداها بأرق الكلمات، وخرج إلى السوق ليشتري لها العباءات والأكاليل والحلي، زيَّن رسغَيْها بالأساور وجيدها بقلائد اليشب واللآلئ، اشترى أريكة وفرشها بالحرير البنفسجي التايري، مدَّدها على الأريكة وغنَّى لها الأناشيد، كان مثل أغلب الفنانين البصريين العظام شاعرًا سيئًا وموسيقيًا مؤسفًا.

عشقه كان غامرًا زاخرًا، لكنه غير متبادل بالمرة (إلا في أقصى خيالاته تفاؤلًا وجموحًا)، كان حبًا من طرف واحد، وفي أعمق أعماق قلبه النابض عرف ذلك جيدًا.

حلّ يوم عيد أفروديتي. قَبَّل بجماليون جالاتيا الجميلة الباردة مودعًا وغادر البيت. اجتمع القبارصة كلهم وآلاف الزوار من خارج الجزيرة في أمانثوس من أجل ذلك العيد السنوي، امتلأ الميدان المقابل للمعبد عن آخره بالحجاج الذين جاءوا لربّة الحب والجمال سائلين النجاح في أمور القلب. نُحرت العجول المُكلّلة بالزهور قرابينًا، وعبقَ الهواء بروائح البخور، وزُيِّنَ كل عمود في المعبد بالورود، وترددت الصلوات في كل مكان.

«أعطني زوجة».

«أعطني زوج».

«حسّني أدائي».

«أبطئي أدائي».

«ارفعي من قلبي هذا الشعور».

«اجعلي مناندر يحبني».

«اجعلي زانثيبي تتوقف عن خيانتي».

الصيحات المتوسلة والبكاء المتضرع ملأ الهواء.

شق بجماليون طريقه عبر جموع المتوسلين والمتسوّلين، بلغ درجات سُلَم المعبد، دفع الرشاوي للحراس، تملّق الكاهنات، وفي النهاية وجد من يقوده إلى الحرم الداخلي للمعبد الذي لا يسمح إلّا لأغنى المواطنين وأكثرهم نفوذًا أن يُصلُّوا فيه مباشرة أمام التمثال العظيم لأفروديتي. ركع أمام التمثال.

همس: «يا ربّة الحب العظيمة، يقولون إنك تحققين أماني العشاق المتيَّمين في يوم عيدك، حققي أمنية فنان مسكين يرجوك أن...».

كان معه على حاجز المذبح رجال ونساء مهمُّون يلقون أمانيهم على أفروديتي، ورغم أن احتمال أن يسمع أحدهم بجماليون كان ضئيلًا، منعه شيء من الخجل أو العار أن ينطق برغبته الحقيقية.

«...فنان مسكين يرجوك أن تمنحيه فتاة حية مثل تلك التي صنعها من

الرخام. حققي هذا يا ربتنا العظيمة، وستكسبين عبدًا مخلصًا سيكرِّس كل حياته وفنه لخدمتك ولمديح الحب».

أفروديتي المستمتعة قرأت ما بين سطور الدعوة، علمت جيدًا ما يريده بجماليون حقًا. الشموع على المذبح أمام بجماليون توهجت وقفزت في الهواء تسع مرات.

طار بجماليون عائدًا إلى بيته. سيظل بقية أيام حياته غير قادرٍ على قول أي طريق اتخذه إلى لبيت أو كم استغرق، ربما أوقع في طريقه شخصًا أو أربعين شخصًا خلال اندفاعه المحموم عبر الجموع.

التمثال الخالي من أي حياة لم يزل متمددًا على الأريكة الملكية مثلما تركه. لم ينحت شيئًا من قبل قط وشعر أنه بهذا التمنّع والبعد والبرود، لكن مع ذلك، بكل إيمان وعنفوان وجنون العشق، انحنى بجماليون وقبل جبهتها الباردة، قبلها مرة، مرتين... قبلها عشرين مرة، ثم قبل رقبتها ووجنتيها و...، ثانية واحدة! هل نار شوقه هي ما سخّن الرخام أم إنّ هناك بالفعل سخونة حقيقية تتصاعد تحت شفتيه الجائعتين؟ تحت لمسة فمه كان الصخر المنيع يطرى، يتحول إلى لحم، لحم ليّن لدن شهي.

قبلها مرة وأخرى وأخرى، ومثلما يذوب شمع العسل تحت أشعة الشمس، ذاب العاج البارد لمحبوبته من لمساته الحانية بفمه ويديه.

أصبح مذهولًا، لا يستطيع أن يصدق، وضع إصبعًا على عروق ذراعها وشعر بالنبضات وبتدفّق الدماء البشرية! نهض واقفًا، أيمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ أتكون تلك حقيقة؟ احتضن جالاتيا بين ذراعيه، وشعر بها تعتدل وتأخذ أول شهقات الهواء، إنها فعلًا حقيقة! جالاتيا حيَّة!

«أفروديتي، يا أعظم الآلهة، إني أشكرك، وأتعهد بنفسي خادمًا لك إلى الأبد».

انحنى ليقبل شفتيها الدافئتين اللّتين استجابتا لقبلاته بلهفة، ولم يمض وقت قبل أن يذوب العاشقان بين أحضان بعضهما، يضحكان ويبكيان ويتنهدان، ويحبان.

تبدَل القمر تسع مرات قبل أن يُتوَّج اتحاد المحبين بميلاد طفلٍ ذكرٍ أطلقا عليه بافوس Paphos، اسمه سيُطلق على المدينة التي سيعيش فيها بجماليون وجالاتيا بقية حياتهما السعيدة الراضية.

لم يجد الفانون العاشقون النهايات السعيدة في الميثولوجيا اليونانية سوى مرة أو مرتين على الأكثر، ربما ذلك الأمل هو ما يمنحنا الاعتقاد أن بحثنا الشخصي عن السعادة قد لا يكون عقيمًا في النهاية[181].

هيرو ولياندر

البحر اليوناني أو هيليسبونت Hellespont صار يُطلق عليه الدردنيل في أيامنا الحالية، ويشتهر بأنه كان مسرحًا لأعنف معارك الحرب العظيمة حول شبه جزيرة جاليبولي. هذا المضيق كان دائمًا ذا أهمية استراتيجية فائقة في الحرب والتجارة، لكونه جزءًا من الحدود الطبيعية الفاصلة بين أوروبا وآسيا، ورغم الهوة الرمزية الهائلة بين ضِفّتيه، إلا أنه في الواقع ضيّق بما يكفي ليعبره سبّاح قوي.

مدينة أبيدوس Abydos كانت وطن لياندر Leander[182]، وهي تقع في الجانب الآسيوي من هيليسبونت، لكن لياندر كان واقعًا في حب كاهنة لأفروديايتي تدعى هيرو Hero، والتي تعيش في برج في مدينة سيستوس Sestos في الجانب الأوروبي. كانا قد تقابلا في مهرجان سنوي لأفروديايتي. كثير من الشباب وقعوا أسرى «مروج الزهور التي تنبت من أطراف هيرو»[183]، ووجهها كان بنقاوة وبهاء سيليني، لكن لياندر الوسيم كان الوحيد الذي أيقظ الشغف في داخلها. وضعا معًا خطة في الوقت الوجيز الذي قضياه بصحبة بعضهما في المهرجان تسمح لهما برؤية بعضهما بعد أن يعودا لبيتيهما ويفصلهما المضيق؛ ستشعل هيرو في كل ليلة مصباحًا في نافذتها من البرج، ولياندر سيحتضن التيارات والأمواج ويسبح عبر هيليسبونت بأعين مركزة على نقطة النور في قلب الظلام، ويتسلق البرج ليكون معها.

بما أنها كاهنة، كانت هيرو قد أقسمت الالتزام بالعفّة، لكن لياندر أقنعها أن التحقّق الجسدي لحبهما سيكون شيئًا مقدسًا ستوافق عليه أفروديتي بلا شك، بل إنّ بقاءها في الواقع عذراء بينما هي تكرّس نفسها لربّة الحب هو إهانة للربّة. أقنعت هذه الحجة الممتازة هيرو، وصار المصباح يُضاء كلّ ليلة والمضيق يُعبر والبرج يُتسلق والحب يُمارس، باتا أسعد العشاق في العالم.

استمرت هذه الحالة السعيدة طوال الصيف، لكن الصيف تحول بسرعة إلى خريف وهبت العواصف الاعتدالية. ذات ليلة هبت الرياح الثلاثة: بورياس Boreas وزيفروس ونوتوس Notus - الشمالية والغربية والجنوبية - في الوقت نفسه، وضربت إحداها المصباح في نافذة هيرو فانطفأ. هيرو الذي كان يعبر المضيق الذي باتت أمواجه عالية كالأسوار لم يجد شيئًا يرشده فضلَّ طريقه، ووقع في المشاكل، وغرق.

انتظرت حبيبها الليل كله. في الصباح التالي، ما إن فتحت إيوس بوابات الفجر وبات هناك ضوء كاف للرؤية، نظرت ورأت جسد لياندر المحطَّم متناثرًا على الصخور تحت برجها. الألم واليأس اللذان اجتاحا هيرو جعلاها تقفز من النافذة وتلقي نفسها على الصخور[184] ذاتها.

الكثيرون بعد مياندر سبحوا في هيليسبونت، أشهرهم كان الشاعر جورج بايرون، الذي تمكن من فعلها في محاولته الثانية في 3 مايو 1810، سجّل في مذكراته الوقت المستغرق ساعة وعشر دقائق، وكتب «فعلت ذلك بأقل قدر من الصعوبة، وإني لأطري نفسي على ذلك الإنجاز أكثر من أي مجد آخر من أي نوع، سواء سياسي أو شعري أو بلاغي».

سبح اللورد بايرون بصحبة الملازم ويليام إيكينهيد William Ekenhead من البحرية الملكية، والذي حصل على نصيبه من الخلود عندما أدرجه بايرون في ملحمته الشعرية الساخرة العظيمة دون خوان. امتدح بايرون شجاعة بطله خوان في السباحة عبر نهر الوادي الكبير بمدينة إشبيلية قائلًا:

ربما كان بوسعه عبور هيليسبونت
وهي مأثرة فعلناها بكثير من الفخر
أنا وولياندر وإيكينهيد[185].

ويبدو أن شكسبير كان مولعًا بقصة الحب القديمة هذه، فقد أعطى شخصية في مسرحية (الكثير من اللغط حول لا شيء Much Ado About Nothing) اسم هيرو، ووضع هذه الكلمات الساخرة البديعة المفتقدة للرومانسية على لسان روساليند في مسرحية كما تشاء:

لياندر كان ليعيش سنوات عديدة مديدة مع هيرو الكاهنة، لولا ليلة منتصف صيف قائظة، ذهب فيها الفتى ليغسل نفسه في هيليسبونت، وأصابه شدٌّ عضلي فغرق، ومؤرخو ذلك الزمن الحمقى قالوا إن السبب كان هيرو من سيستوس. يموت الرجال طوال الوقت وتأكلهم الديدان، والحب ليس السبب.

أريون والدولفين

الإغريق، مثل كل الحضارات العظيمة، ثمَّنوا الموسيقى بشدة ووضعوها في مكانة عالية بين بقية الفنون، حتى أنّ الموسيقى أخذت اسمها مباشرة من كل بنات الذاكرة التسعة [Music - Muses]. كان انتشار المهرجانات والجوائز الموسيقية سمة جذرية في العالم الإغريقي بقدر ما هي كذلك في ثقافتنا اليوم.

قليلون هم مَن نالوا سمعة وشهرة خلال حياتهم كموسيقيين مثلما نالهما الشاعر والموسيقي والمغني أريون من مدينة ميثيمنا في جزيرة ليسبوس[186]. كان ابنًا لبوسايدون والنيمفة أونكيا Oncaea، لكنه رغم نسَبه اختار أن يكرس موهبته الموسيقية لتمجيد وعبادة الرب ديونايسيس. الآلة التي اختار أن يلعبها كانت الكيثارا kithara، وهي تنويع على القيثارة[187]. يُنسب إليه في كل مكان اختراع قصيدة الديثيرامب dithyramb، وهي أناشيد حماسية تغنيها الجوقة لتمجيد النبيذ والاحتفالات والنشوة.

بعينيه البنيتين الحالمتَيْن، وصوته العذب، وقدرته السحرية على جعل الأصابع تدق والسيقان تدور، أصبح أريون بسرعة معشوق سكان البحر الأبيض المتوسط. أكثر داعميه حماسة وراعيه الأساسي كان برياندر Periander ملك كورينث[188]، وكان برياندر هو مَن اكتشف مهرجان الموسيقي الكبير الذي يقام في تارنتوم Tarentum، وهي ميناء بحري مزدهر يقع في مشط القدم الإيطالي. منح برياندر أريون الأموال ليعبر البحر ويشارك في مسابقات المهرجان، بشرط أن يتقاسما أموال الجوائز إثر عودته.

رحلة الذهاب كانت بلا أحداث تذكر، وصل أريون إلى تارنتوم وشارك

في المسابقات وكسب بسهولة الجائزة الأولى في كل نوع منها، لم يسمع الحكام ولا الجمهور مثل هذه الموسيقى الأصلية الحماسية من قبل قط. جائزته كانت صندوقًا مليئًا بالذهب والفضة والعاج والأحجار الثمينة والآلات الموسيقية المصنوعة بحرفة ليس لها مثيل، وقد قدَّم أريون حفلة مجانية لسكان المدينة تعبيرًا عن امتنانه للجائزة الكريمة في اليوم التالي.

منطقة تارنتوم كانت مشهورة بالعناكب الذئبية الضخمة المنتشرة في الريف حول المدينة. أطلق سكان المدينة على العناكب «التارنتولات» على اسم مدينتهم. سمع أريون أن سم التارنتولا يسبب نوبة من الهيستيريا المحمومة، فأوحى له هذا بارتجال نشيد ديثيرامبي أمام الجمهور سماه التارنتيلا Tarantella. الإيقاع المجنون لهذه الموسيقى الشعبية أصاب جمهور المدينة بالجنون[189]، لكنه هدّأهم عندما اقترب من انتهاء حفلته بأعذب وأرقّ الألحان الرومانسية. بحلول الساعات الأولى من اليوم التالي كان بوسعه أن يحظى بأي فتاة أو فتى أو رجل أو امرأة في جنوب إيطاليا يريدهم، وقيل إنه، مثل كل الموسيقيين الناجحين، فعل ذلك.

حشْدٌ ضخم ذهب لتوديع أريون في الصباح التالي، الكثيرون نفخوا له القبلات والبعض بكوا من أعماق قلوبهم. وُضع أريون مع متاعه – التي تضمُّ صندوق كنزه – في قارب متجه إلى سفينة شراعية صغيرة لكنها تؤدي الغرض، يقودها قبطان بحري وتسع ملاحين مدنيين. لم يمض وقت طويل قبل أن يستقر أريون على متن السفينة. فَرَدَ الطاقم الأشرعة وأبحر القبطان متوليًا كورينث.

في البحر

ما إن اختفت الأرض من الأفق وأصبحت السفينة في البحر المفتوح، شعر أريون أن ثمة خطب ما. كان معتادًا على تحديق الآخرين فيه، فهو كان جميلًا بقدر ما هو موهوبًا، لكن النظرات المصوَّبة إليه من الطاقم كانت من نوع مختلف. مرت الأيام بهذا المناخ المتجهِّم المنذر، وازداد أريون

توترًا، ما كان في عيون البحارة كان يشبه الشهوة بشكل ما، لكنها شهو
موجهة لشيء أكثر ظلامًا، ما الذي يريدونه بالضبط؟ ثم ذات أمسية حارّ
اقترب منه أكثر البحارة قبحًا وشرًا.

«ما الذي في الصندوق الذي تجلس عليه يا ولد؟».

بالطبع! وقع قلب أريون من صدره، هذا إذًا ما يريدون، سمع البحار
عن الكنز. افترض أنهم يريدون بعضًا منه، لكنه لن يشارك جائزته التي تعب
من أجل أن يستحقها مع أي شخص عدا برياندر. كان قد نوى أن يمنح
الطاقم بقشيشًا سخيًا في نهاية الرحلة، لكنه الآن قرر ألّا يفعل.

أجاب: «آلتي الموسيقية، أنا كيثاريست».

«أنت ماذا؟».

هزَّ أريون رأسه اشمئزازًا وكرر وكأنه يتحدث إلى طفل: «أنا...
أعزف... على... الكيـــــثـــــاااارا».

وقد كان مخطئًا.

«إذًا... فلتعزف... لنا... بعض... الألـــحـــااااان».

«لا أفضّل أن أفعل بعد إذنك».

اقترب القبطان، «ما الذي يحدث هنا؟».

«هذا الفتى المغرور يقول إنه عازف لكنه لا يريد أن يعزف، يقول إن
لديه كيثارا في صندوقه».

«أهذا صحيح؟ أنا واثق أنك لن تمانع أن تعرضها علينا، أليس كذلك
أيها الشاب؟».

اجتمع الآن حوله بقية أفراد طاقم السفينة.

«أنا... أنا لا أشعر أني بحالة مناسبة للعزف، ربما في الليل سأكون
بحال أفضل».

«لماذا إذًا لا تقوم وتذهب لترتاح في الظل؟».

«لا... لا، أفضّل الهواء الطلق».

«امسكوه يا رجال».

رفعت الأيادي الخشنة أريون عاليًا بسهولة وكأنه جرو حديث الولادة.
« اتركوني، دعوني وشأني، هذه ممتلكاتي أنا». «أين المفتاح؟».
«ضاع... ضاع مني».
«ابحثوا عن المفتاح يا رجال».
«لا، أرجوك لا تفعل...».
وجدوا المفتاح بسهولة وانتزعوه من حول رقبة أريون، وبينما يفك القبطان القفل ويرفع غطاء الصندوق انطلقت صافرات وهمهمات خافتة من الجميع، لمعة الذهب وبريق الأحجار الكريمة تراقصا على وجوه البحارة الجشعين، وعرف أريون أنه انتهى.
«أنا مستعد لمشاركة بعض من كنزي معكم...».
عرْضه بدا مضحكًا للبحارة بشكل ما، فشرعوا في الضحك من قلوبهم.
قال القبطان: «اقتلوه»، وأخذ من الصندوق حبلًا من اللآلئ وتأمله في النور.
أخذ البحار الأقبح سكينًا واقترب من أريون بابتسامة شريرة.
«أرجوك... أرجوك... هل يسعني على الأقل أن أغني أغنية أخيرة؟ مرثيتي؟ لحني الجنائزي؟ أنتم مدينون لي بذلك على الأقل، ستعاقبكم الآلهة إن أرسلتموني إلى حتفي دون تأبين من نوع ما...».
قال البحار القبيح بزمجرة وهو يقترب أكثر: «سأغلق فمك إلى الأبد لأرتاح من كلماتك اللعينة».
قال القبطان: «لا، لا، عنده حق، لنجعل طائرنا هنا يغني أغنية البجعة الأخيرة، أفترض أنك ستحتاج لكيثارتك؟»، والتقط الكيثارا من الصندوق وأعطاها لأريون الذي دوزنها ثم أغلق عينيه، وبدأ في الارتجال. أهدى أريون هذه الأغنية لأبيه بوسايدون.
غنى: «يا سيد البحار، يا ملك المد وسلطان الجزر، يا مُرجِف الأرض، يا أبي الحبيب... كم نسيتك من قبل في صلواتي وقرابيني، لكنك يا سيدي العظيم لن تنسى ابنك. يا سيد البحار، يا ملك المد وسلطان الجزر، يا مُرجِف الأرض، يا أبي الحبيب...».

ومن دون إنذار مسبق قفز أريون من فوق السفينة متشبثًا بكيثارته ووقع في قلب الأمواج، آخر شيء سمعه كان ضحك الطاقم وصوت القبطان الجاف: «كان هذا سهلًا، الآن لنَعُدّ غنائمنا».

لو أن أي منهم كلف نفسه عناء النظر إلى الأسفل، كانت عيناه ستقابل مشهدًا مذهلًا. غاص أريون تحت السطح عازمًا تمامًا على فتح فمه وترك مياه البحر تدخله بلا مقاومة، فقد قال له أحدهم من قبل إن الغرق هو ميتة لطيفة مريحة مثل الوقوع في النوم، فقط إن لم تقاومه، الاختناق كابوس مرعب مريع، لكن الغرق الحقيقي ليس إلا انعتاقًا رقيقًا بلا ألم. على الرغم من هذه المعرفة المطمئنة أبقى أريون على فمه مطبقًا بإحكام وراح يركل الماء بوجنتين منتفختين والكيثارا في حضنه.

ثم فجأة، عندما باتت رئتاه على وشك الانفجار، حدث شيء مذهل، شعر بنفسه يُرفع إلى أعلى بقوة وبسرعة، كان يُدفع في المياه حتى اخترق السطح في الأعلى، ما الذي يحدث؟ لا بد أنه يحلم. فوران الماء، الرذاذ والفقاقيع، التمايل في كل الاتجاهات، الأفق المتقلب، الضغط في أذنيه، الهدير واللمعان، كل هذا كان يمنعه من فهم ما يحدث، ثم جرؤ على النظر إلى أسفل بعينيه اللتين يحرقهما الملح ورأى أن... أنه... أنه على ظهر دولفين، دولفين! كان يمتطي دولفينًا فوق الأمواج! لكن بشرته كانت زلقة وبدأ في الانزلاق عنه، غير أن الدولفين تلوى وتقلب حتى وجد أريون نفسه في وضع سليم مجددًا، لقد ناور الحيوان متعمدًا ليجعله في أمان! هل سيمانع لو مد يده وتمسك بالزعنفة الظهرية كما يتمسك الفارس بقرن الحيوان أو بلجامه؟ لم يمانع الدولفين، بل إنه اشتد قليلًا وكأنه يُعرِب عن موافقته، وزاد من سرعته عبر المياه. ببطء التقط أريون حزام كيثارته وثبته وراء ظهره حتى يتمكن من الاستمتاع بالرحلة بيديه على الزعنفة.

اختفت السفينة الآن بالكامل من مجال الرؤية، التمعت الشمس فوق الدولفين والرجل بينما يشقان طريقهما في البحر، بجناحين من رذاذ المياه قزحية اللون. إلى أين هما ذاهبان؟ هل يعلم الدولفين؟

«أيها الدولفين، فلتتجه إلى كورينث، وسأرشدك عندما نصل هناك».

طقطق الدولفين وصفَّر وكأنه يشير إلى فهم ما قيل، فضحك أريون. تابعا المضي قدمًا في مطاردة الأفق الذي لا يقترب أبدًا. بعدما تيقن أريون من ثباته سحب الكيثارا من على ظهره وغنى أغنية أريون والدولفين، لم تبلغنا الأغنية للأسف، لكنهم يقولون إنها كانت أجمل أغنية ألَّفَها على الإطلاق.

في النهاية بلغا الخليج. خاض الدولفين في المياه المزدحمة بالسفن التي تشحن وتُفَرغ برشاقة وأناقة وسهولة، البحارة على الزوارق المزدحمة والصنادل والقوارب استداروا وحدقوا في المشهد العجيب للشاب الوسيم الذي يمتطي دولفينًا. وجَّه أريون الدولفين بشدَّات رقيقة على الزعنفة، ولم يتوقفا حتى بلغا المرفأ الملكي.

قال أريون وهو يترجل من الدولفين إلى الرصيف: «أرسلوا إلى الملك برياندر، قولوا له أن شاعره قد عاد، وأطعموا الدولفين».

الصرح

فرحة برياندر برجوع فنانه المفضَّل كانت غامرة. حكاية نجاته ملأت بلاط الملك بالذهول والعجب، واحتفلوا طوال الليل وحتى النهار، ولم يخرجوا قبل مساء اليوم التالي لرؤية الحيوان والإطراء عليه، لكن ما رأوه كان مشهدًا حزينًا. عُمّال الميناء الجهَلة أخرجوا الحيوان إلى الشاطئ ليطعموه، وقضى المسكين الليلة والصباح التالي على رصيف الميناء بلا مياه تُطَرّي جلده وترطبه، يحيط به الأطفال الفضوليون وتحرق جسده أشعة الشمس وتجففه، إلى أن ذَبُل. انحنى أريون على الأرض بجواره وهمس في أذنه، تموَج الدولفين في استجابة عاطفية، وأطلق تنهيدة مرتجفة عميقة، ثم مات.

أنَّب أريون نفسه بمرارة على موت الدولفين، وحتى أوامر برياندر ببناء برج عالٍ لتخليد ذكراه وتمجيده لم ترفع من معنوياته. على مدى الشهر التالي أمست كل أغانيه حزينة والقصر كله دخل في الحداد معه.

ثم جاءت أنباء تقول إن السفينة ذات البحارة التسعة والقبطان الوغد ألقتها عاصفة على شاطئ كورينث، أرسل برياندر الرسل ليأمروا الطاقم بالمثول أمامه، وطلب من أريون أن يظل بعيدًا بينما يستجوبهم.

قال الملك: «كان يُفترض بكم أن تحملوا شاعري أريون من تارنتوم، أين هو؟».

قال القبطان: «للأسف يا مولاي العظيم لدي خبر حزين، عاصفة هوجاء ألقت الفتى المسكين عن السفينة، استعدنا جثته ودفناها في البحر بكل احترام. شيء مؤسف، كان فتى لطيفًا وأحبَّه الرجال».

همهم البحارة: «نعم، بالطبع، فتىً لطيف، خسارة محزنة...».

قال برياندر: «ليكن ذلك، بلغتني أخبار أنه فاز بمسابقات الغناء وجاءكم بصندوق كنز ضخم، نصفه لي».

فردَّ القبطان يديه: «فيما يخص هذا... فالصندوق قد ضاع خلال العاصفة العنيفة، انفتح غطاؤه وانزلقت محتوياته إلى البحر، تمكنّا من استعادة القليل من محتوياته، قيثارة فضية من نوع ما وأولوس وبعض الحلي، أتمنى لو كان هناك المزيد يا مولاي، صدقًا».

عبس برياندر: «أرى ذلك... غدًا صباحًا عند المرفأ الملكي سأراكم جميعًا عند الصرح الجديد، ستجدونه بسهولة، فعلى قمته ثمة نحت لدولفين، اجلبوا معكم ما تبقى من الكنز وربما أسمح لكم بالاحتفاظ بنصيب أريون بما أن الفتى المسكين قد مات. بوسعكم الذهاب الآن».

قال برياندر لأريون بعدما نقل له ما قيل: «لا تخف، ستتحقق العدالة».

في الصباح التالي وصل القبطان ورجاله التسعة إلى الصرح، كانوا يضحكون غير مرتابين، سعداء بأنهم لم يأتوا إلّا بالقليل من كنز أريون وربما حتى يعطيهم الملك الساذج منه نصيبًا.

وصل برياندر مع حراس قصره في الساعة المتفق عليها بالضبط. «صباح الخير يا قبطان، أهذا هو كل ما تمكنت من إنقاذه من الكنز؟ نعم، أرى ما تقصده، ليس بالكثير أبدًا، والآن هلّا ذكرتني بما حدث لأريون؟».

كرر القبطان القصة بطلاقة وبساطة، كل كلمة كانت مثل التي قالها بالأمس بالضبط.

«إذًا هو ميت فعلًا؟ وأنت فعلًا استعدت جسده وجهّزته لدفن لائق وأعدته للأمواج؟».

«بكل تأكيد».

«وهذه الحلي هي كل ما تمكنت من إنقاذه من الجوائز؟».

«يؤسفني قول ذلك يا مولاي، لكن نعم».

سأل برياندر: «كيف ترد إذًا على اكتشاف كل هذا مخبأً في تجاويف ألواح سفينتك الخشبية؟».

اقترب الحراس مع إشارته حاملين ركامًا يستقر فيه أغلب الكنز.

ابتسم القبطان ابتسامة ساحرة: «آه، نعم، حسنًا... يا لنا من حمقى لمحاولتنا خداعك أيها الملك العظيم. مات الفتى المسكين مثلما قلت وهذا كنزه، ونحن لسنا إلا بحّارة مساكين فقراء يا مولاي. دهاؤك وحصافتك فضحانا يا سيدي».

قال برياندر: «لا بأس بما تقول، لكن لا زال هناك أمرٌ يؤرقني، كنت قد اصطنعت لأريون كيثارا من الفضة والذهب والعاج، ولم يكن يذهب إلى أي مكان من دونها، لماذا لا أراها بين بقية أشيائه؟».

قال القبطان: «قلنا لك يا مولاي كم كنا مولعين بأريون، كان مثل أخ صغير لنا جميعًا، أليس كذلك يا رجال؟».

همهم البحارة: «نعم، نعم...».

«كنا نعلم كم تعني له الكيثارا، فجعلناها في كفنه قبل إرسال جسده إلى مثواه بين الأمواج، ماذا كان يمكن أن نفعل غير ذلك؟».

ابتسم برياندر، وابتسم القبطان، لكن ابتسامته انمحت فجأة، فقد صدر من فم الدولفين على قمة الصرح فجأة صوت كيثارا. حدق القبطان ورجاله في مصدر الصوت بذهول، ثم انضم صوت أريون لأنغام الكيثارا، وتلك كانت الكلمات التي جاءت من فم الدولفين المنحوت:

قال القبطان: «اقتلوه يا رجال».
«اقتلوه الآن وهاتوا ذهبه».
صاح البحّارة: «سنقتله الآن».
«وسنلقي به للأسماك».
قال الشاعر: «أرجوكم، دعوني فقط أغني».
«أغنية وداع أخيرة».
أطلق أحد البحارة صرخة رعب، وخرَّ بقيتهم راكعين، لم يبقَ واقفًا غير القبطان الذي شحب وجهه.
انفتح الباب في قاعدة الصرح وخطا منه أريون نفسه خارجًا، يلعب على كيثارته ويغني.
لكن الدولفين أنقذه.
وعلى ظهره عبرَ الأمواج.
خاضا البحر حتى كورينث.
الدولفين والشاعر الجوال.
شرع البحارة في البكاء والتوسل وطلب السماح، ألقى كل منهم باللوم على الآخر، ولاموا بالأخص القبطان.
قال برياندر وهو يدور على عقبيه: «فات الأوان، اقتلوهم جميعًا الآن. تعال معي يا أريون، وغنِ لي عن الحب والنبيذ».
بعد نهاية حياة الموسيقي الطويلة الناجحة، الإله أبولو الذي كانت الموسيقى والدلافين عنده مقدسة، وضع أريون ومنقذه في السماء بين القوس والدلو، في كوكبة الدولفين Delphinus.
هكذا صار بوسع أريون ومنقذه من موقعهما في السماء أن يرشدا الملاحين في الأسفل، وأن يذكّرونا جميعًا بالعلاقة الغريبة المذهلة التي كانت ذات يوم بين البشر والدلافين.

فيلمون وباوكيس

أو جزاء الضيافة

على مرتفعات شرق فريجيا في آسيا الصغرى، ثمة شجرتا بلوط وزيزفون متجاورتان، أفرعهما تتلامس. إنها منطقة قروية بسيطة، أبعد ما تكون عن القصور البهية والقلاع المتشامخة، يحيا فيها الفلاحون المزارعون على الكفاف؟قوتهم، اعتمادهم الكامل على رأفة ديميتر بمحاصيلهم وحيواناتهم. التربة هناك ليست غنية، ويعاني الناس دائمًا لملء مخازنهم بأعلاف تكفي لإطعامهم فترة شهور الشتاء، عندما تعتزل ديميتر العالم لتبكي غياب ابنتها الجميلة بيرسفوني من العالم العلوي. لم تكن شجرتا البلوط والزيزفون مبهرتين بأي شكل عند مقارنتهما ببساتين الحور الضخمة والطرق المزدانة بأشجار السرو الأنيقة المنتشرة على الطرق الممهَّدة التي تربط بين ثيفا وأثينا، لكنهما مع ذلك مقدستان أكثر مما عداهما من الأشجار في عالم البحر الأبيض المتوسط. يأتيهما الحجاج الأتقياء الحكماء ليعلقوا على فروعهما الهدايا المنذورة.

قبل سنوات بعيدة، نشأت مستعمرة في الوادي بالأسفل، كان حجمها بين القرية والمدينة، أطلقت على نفسها اسمًا بذلك الأمل اليائس الذي يميز الأسماء التي تُطلق على المستعمرات الفاشلة: يومينيا Eumeneia، أي (مكان الشهور السعيدة)، في رجاء يائس أن تبارك ديميتر تربتهم القاحلة وتمنحهم الحصاد الوفير، ونادرًا ما فعلت.

في منتصف الأجورا، أي الميدان الرئيسي، انتصب معبد هائل لديميتر، يقابله معبد آخر بالحجم نفسه تقريبًا مكرس لهيفايستوس (فالناس بحاجة لمباركة أفران حدادتهم ووُرَشهم أيضًا). يمكنك أن ترى في أرجاء القرية

العديد من المزارات لهستيا وديونايسيس، كروم العنب المتناثرة التي تتسلق جوانب الجبال كانت تتلقى العناية ذاتها التي تتلقاها أشجار الزيتون أو حقول الذرة. كانت الحياة صعبة، لكن رجال هذه المنطقة ونساءها وجدوا كثيرًا من العزاء في نبيذ هذه الأرجاء الحامض.

على رأس أحد الطرق المتعرجة التي تقود إلى خارج المدينة، كان هناك كوخ حجري صغير، يعيش فيه زوجان مسنّان اسمهما فيلمون Philemon وباوكيس Baucis. كانا متزوجين منذ شبابهما البعيد، والآن وهما في أرذل عمريهما لا يزالان يحبان بعضهما، مثلما فعلا دائمًا، بشدة وعمق لا يتزحزحان إلى حدٍ يثير عجب وإعجاب جيرانهما. كانا أفقر من الغالبية، حقولهما هي الأكثر عقمًا في يومينيا، لكن أحدًا لم يسمع من أيّهما شكوى قط. باوكيس كانت تحلب عنزتهم الوحيدة كل يوم، وتحيك الملابس وتغسلها وترتقها، بينما فيلمون ينثر البذور ويغرس ويحفر في الأرض خلف كوخهما، وفي أواخر الأمسيات يجمعان الفطر البري والحطب الجاف، أو ببساطة يتمشيان على الجبل متشابكي الأيدي، يتحدثان في شتى الأمور أو يستمتعان بالصحبة الصامتة. لو توفّر ما يكفي من الطعام لطبخ العشاء يأكلان، وإن لم يكن يخلدان للسرير مبكرًا جائعَين، ويكتفي أحدهما بالنوم في حضن الآخر. ذهب أبناؤهم الثلاثة من البيت قبل زمن طويل، كل منهم يعمل على إنشاء أسرته الخاصة في مكان بعيد، ولم يزورا أبويهما قط، ولم يكن هناك من يطرق على باب العجوزين في أغلب الوقت، إلا في تلك الأمسية الحاسمة.

كان فيلمون قد عاد لتوه من الحقل وجلس مستعدًا للحصول على قصة شَعْره الشهرية. قليل من الشُعيرات هي كل ما تبقى لتتويج رأسه العجوز الصلعاء، لكن طقس قص الشعر الشهري هذا كان ممتعًا لكليهما. صوت الـ«طق طق طق» المباغت على بابهما جعل باوكيس تجفل حتى كادت تقع منها الشفرة التي كانت تشحذها، نظرا إلى بعضهما متفاجئين، غير قادرين على تذكُر آخر مرة جاءهما فيها زائرٌ.

وقف على العتبة غريبان: رجل ملتحٍ برفقة آخر أصغر سنًا أملس الوجه، ربما كان ابنه.

قال فيلمون: «أهلًا، كيف أستطيع مساعدتك؟».

ابتسم الرجل الأصغر وخلع قبعته الدائرية الغريبة ذات الحافة البارزة، وقال: «مساء الخير يا سيدي، نحن مسافران متعَبان وجائعان، غريبان عن هذا الركن من العالم، أتساءل لو كان بوسعنا التطفل على حسن أخلاقكم...».

تزاحمت باوكيس خلف زوجها، وقالت: «ادخلا، هيا، الجو بارد في الخارج في هذا الوقت من السنة، نحن أعلى قليلًا من بقية المدينة والبرد هنا أقسى. لماذا لا توقد النيران يا فيلمون ليستطيع زائرَينا تدفئة نفسَيْهما؟».

«بالطبع يا عزيزتي بالطبع»، وانحنى على المدفأة ليوقظ الجمرات الغافية.

قالت باوكيس: «دعني آخذ عنكما معاطفكما، اجلس يا سيدي، وأنت أيضًا يا سيدي أرجوك».

قال أكبر الضيفين: «هذا لطف منك، اسمي أسترابوس Astrapos، وهذا هو ابني أرجوروس Arguros».

انحنى الأصغر منهما عند ذِكْر اسمه ثم جلس بجوار النار، قال: «نحن نشعر بظمأ شديد»، وتثاءب بصوت عال.

قالت باوكيس: «لا بد إذًا أن تشربا شيئًا. زوجي، فلتجلب إبريق النبيذ وسأحضر أنا التين الجاف وجوز الصنوبر، أتمنى لو توافقا أيها السيدان على تناول العشاء معنا، للأسف لا نقدر على تقديم إقامة ثرية، لكننا سنحتفي بكما بأقصى ما نستطيع».

قال أرجوروس: «لا أرى ما يمنع».

«دعني آخذ منك قبعتك وعصاك...».

«لا، يبقى هذان معي»، وشدَّ الشاب عصاه إلى جانبه. كانت عصا غريبة التصميم، تساءلت باوكيس إن كان ذلك المنحوت حولها عنبًا؟ كان يحرك عصاه ببراعة حتى بدت وكأنها حية.

قال فيلمون وهو قادم بإبريق النبيذ: «أخشى أنكما قد تجدان نبيذنا المحلي ضعيفًا قليلًا ولاذعًا بعض الشيء، يسخر منّا الناس من القرى المجاورة بسببه، لكني أؤكد لكما أنه ما إن تعتادا على طعمه ستشعران أنه قابل للشرب إلى حد كبير، أو على الأقل هذا ما اعتدنا عليه».

«ليس سيئًا»، قال أرجوروس بعد رشفة: «كيف أقنعت القطة بالجلوس على الإبريق؟».

قال أسترابوس: «تجاهلاه، يحسب نفسه ظريفًا».

قالت باوكيس وهي تقترب بالتين والجوز على طبق خشبي: «بصراحة أعترف أن ذلك كان مضحكًا، أكره أن أفكر يا سيدي الشاب فيما قد تقوله على تيني الجاف».

«أنت ترتدين عباءة لذا لا أستطيع رؤيته، لكن الفاكهة المجففة على الطبق تبدو لطيفة بما يكفي».

«سيدي!»، صفعَته باوكيس بمزاح واحمر وجهها. يا له من شاب غريب.

الغرابة القليلة التي تتبع عادة مرحلة الشرب وتناول البسيط من الطعام تداعت بسرعة مع مرح وبهجة أرجوروس والضحكات الصاخبة لمضيفَيه. بدا أن شيئًا ما يضايق أسترابوس، وبينما اقترب فيلمون من المائدة وضع يدًا على كتفه.

قال فيلمون: «أتمنى أن تغفر لي فضول الرجل العجوز يا سيدي، لكنك تبدو مشتّتًا قليلًا، هل ثمة ما يسعني مساعدتك فيه؟».

قال أرجوروس: «دعك منه، إنه يبدو دائمًا هكذا وكأنه كان في مقلب نفايات، فهو يأتي بملابسه من هناك، ها ها! لكن في الواقع ليس به خطب لا تستطيع وجبة جيدة حلُه».

تلاقت أعين باوكيس وفيلمون للحظة خاطفة، لم يكن في حافظة الطعام إلا القليل. ضلع خنزير مالح كانا يخزنانه لعيد منتصف الشتاء، وبعض الفاكهة المحفوظة والخبز الأسود ونصف ثمرة كرنب. علما أنهما

سيتضوّران جوعًا لأسبوع على الأقل لو أطعما حتى نصف شهية مثل هذين الرجلين القويين، لكن الضيافة شيء مقدس واحتياجات الضيوف هي الأهم.

قال أرجوروس: «كأس آخر من ذاك النبيذ سيكون لطيفًا».

قال فيلمون وهو ينظر للإبريق: «أوه، يؤسفني أن ليس هناك المزيد...».

قال أرجوروس وهو ينتزع الإبريق: «هذا هراء، هناك الكثير»، ثم ملأ كوبه وكوب أسترابوس أيضًا.

قال فيلمون: «كم أن هذا غريب، كنت متيقّنًا أن الإناء لم يبقَ فيه إلا أقل من ربعه».

قال أرجوروس: «أين قدحيكما؟».

«لا أرجوك، لا نحتاج للمزيد...».

«هراء»، تراجع أرجوروس في مقعده وتناول الكوبين الخشبيين على المائدة الجانبية خلفه: «والآن، لنشرب معًا».

ذُهل فيلمون وباوكيس، ليس فقط مِن أنّ الإبريق كان فيه ما يكفي من النبيذ لملء قدحَيْهما حتى الحواف، بل لأن جودته أيضًا كانت أفضل بكثير ممّا تذكر كلاهما، في الواقع كان أفضل نبيذ تذوقاه على الإطلاق، إلا لو كانا يحلمان.

مسحت باوكيس المائدة بأوراق النعناع وهي في غاية العجب.

همس فيلمون في أذنها: «عزيزتي، تلك الأوزة التي كنا ننوي التضحية بها إلى هستيا الشهر القادم، لا شك أن هستيا ستتفهم لو أطعمناها للضيوف، فهذا أهم».

وافقته باوكيس، «سأذهب وأنحرها، حاول أن تُسخِّن النار بما يكفي لتسويتها كما ينبغي».

لكن الأوزة ظلت مستعصية على باوكيس، مهما حاولت المرأة التربص والانقضاض عليها بحذر كانت تقفز من قبضتها وتزبط كل مرة. عادت باوكيس في النهاية إلى الكوخ في حالة من الإحباط المضطرب.

قالت: «أيها السادة، أنا في غاية الأسف»، كان في عينيها دموع، «يؤسفني أنّ وجبتكما ستكون متواضعة غير لطيفة».
قال أرجوروس وهو يصبّ النبيذ للجميع: «صه يا امرأة، أنا لم أجلس على وليمة أفخم من هذه قط».
«سيدي!».
«هذه هي الحقيقة، أخبرهم يا أبي».
منحهم أسترابوس ابتسامة متجهّمة، «لقد انغلق في وجوهنا كل باب آخر في يومينيا، بل إن بعض سكان القرية أهانونا، وبعضهم بصقوا في وجوهنا، وغيرهم ألقوا علينا الحجارة، بل إن هناك من أطلق الكلاب خلفنا. أنتم آخر بيت حاولنا معه، ولم نجد منكم إلا اللطف وروح الزينيا في أبهى صورها، كنت بدأت أخشى أن الزينيا زالت من العالم».
تحسست باوكيس يد فيلمون من تحت المائدة واعتصرتها، قالت: «سيدي، لا نملك إلا الاعتذار عن سلوك جيراننا، الحياة صعبة وهم لم يجدوا من يربّيهم على تبجيل قواعد الضيافة كما ينبغي».
قال أسترابوس: «لا داعي للبحث لهم عن أعذار، أنا غاضب»، وبينما يتكلم كان من الممكن سماع صوت هزيم الرعد.
نظرت باوكيس عبر المائدة ورأت في أعين أسترابوس شيئًا أخافها.
ضحك أرجوروس، وقال: «لا تقلقا، أبي ليس غاضبًا منكما، بل هو سعيد بكما».
قال أسترابوس وهو ينهض: «اخرجا من الكوخ وتسلقا الجبل، لا تنظرا خلفكما، مهما حدث لا تنظرا خلفكما، لقد استحققتما الجائزة واستحق جيرانكما العقاب».
بأيدٍ متشابكة نهض فيلمون وباوكيس، علما أن ضيفيهما كانا أكثر من مجرد مسافرين عاديين.
قال أرجوروس: «لا حاجة للانحناء».
أشار أبوه إلى الباب: «إلى قمة الجبل الآن».

نادى أرجورروس من خلفهما: «تذكرا، لا تنظرا إلى الخلف».
بأيد متشابكة صعد فيلمون وباوكيس الجبل.
قال فيلمون: «أتعلمين من كان هذا الشاب؟».
قالت باوكيس: «هرمس. عندما فتح لنا الباب لنذهب رأيت الثعابين ملتفين حول عصاه، كانت حية».
«إذًا الرجل الذي قال إنه أبوه كان... لا بد أنه كان...».
«زيوس!».
«رباه!»، توقف فيلمون في الطريق الصاعد على الجبل ليلتقط أنفاسه، «الظلام يشتد يا حبيبتي، وصوت الرعد يقترب، أتساءل لو أن...».
«لا يا حبيبي، يجب علينا ألّا ننظر إلى الخلف، لا يجب أن نفعل».
زيوس، المشمئز من عدوانية وصفاقة التعدي على قوانين الضيافة التي قابلهم بها أهل يومينيا، قرر أن يفعل بهؤلاء القوم ما فعله قبل زمن أيام دوكليون والطوفان العظيم. اجتمعت الغيوم بإشارة منه والتمع البرق وهزم الرعد وبدأ الغيث في الهطول.
وعندما بلغ الزوجان المسنّان قمة الجبل كانت السيول تتدفق حولهما.
قالت باوكيس: «لا يمكننا أن نقف تحت المطر وظهورنا موجهة لبلدنا بهذه الطريقة».
«سأنظر لو فعلت أنت».
«أحبك يا فيلمون، يا زوجي».
«أحبك يا باوكيس، يا زوجتي».
استدارا ونظرا إلى الأسفل، وفي الوقت الذي شاهدا فيه الفيضان العظيم يغمر يومينيا بالكامل، تحول فيلمون إلى بلوطة وباوكيس إلى زيزفونة.
وقفت تلك الشجرتان لمئات السنين متجاورتين، ترمزان إلى الحب الأبدي واللطف المتواضع، تثقل فروعهما المتشابكة الهدايا التي تركها الحجاج المحبين[190].

فريجيا والعقدة الجوردية

أحب اليونانيون أسطورة تأسيس مُدنهم. منح أثينا شجرة الزيتون للمدينة التي حملت اسمها وتنشئتها لإريكثيوس (الناتج عن العصابة المخصبة بمني هيفايستوس لو لا تزال تذكر) ليصبح مؤسس المدينة، ساعد في تعزيز شعور الأثينيين بأنفسهم، قصة كادموس وأسنان التنين أدت للشيء نفسه مع الثيفاويين، وأحيانًا تتحول عناصر الأسطورة إلى وقائع تاريخية حقيقية يمكن تمييزها، مثلما حدث في حالة تأسيس مدينة جورديوم Gordium.

عاش في مقدونيا Macedonia فلاح فقير طموح يدعى جوردياس Gordias. ذات يوم، وبينما يعمل جوردياس في أرضه القاحلة الصخرية، حط عُقاب من السماء على سارية عربته التي تجرها الثيران، وحدق فيه بنظرة ثاقبة.

قال جوردياس لنفسه: «كنت متأكدًا من ذلك، علمت على الدوام أن مصيري هو العظمة، هذا العقاب يثبت ذلك، ينتظرني قدَر عظيم».

رفع محراثه وقاد ثوره وعربته مئات الأميال متوجّهًا إلى عرّافة زيوس سابيزيوس Zeus Sabazios[191]. ظل العقاب متشبّثًا في السارية بمخالبه بإحكام بينما يندفع جوردياس إلى الأمام، لم يجفل للحظة، مهما تخبطت العربة بعنف وتمايلت فوق الحفر والأحجار.

قابل جوردياس في طريقه فتاة صغيرة من تيلميسوس Telmissus، مُنحت قدرًا مماثلًا من القوى التنبؤية والجمال الخلاب الذي سلب قلبه، بدت أنها كانت تتوقع وصوله وحثته على أن يسرع إلى تيلميسوس حيث يجب أن يضحي بثوره إلى زيوس سابيزيوس.

جوردياس، وقد تحمس من اتجاه آماله كلها للتحقق، تعهد بأن يتَّبع نصيحتها فقط إن وافقت على الزاوج منه، فأحنت رأسها موافقة على اقتراحه، واتجها معًا إلى المدينة.

وصادفت هذه اللحظة بعينها موت ملك فريجيا في فراشه، وبما أنه لم يترك وريثًا أو خليفة من أي نوع، اجتمع أهل عاصمة المملكة في معبد زيوس سابيزيوس ليتفقوا على ما الذي يجب عمله، أخبرتهم العرّافة أن عليهم تتويج أول رجل يدخل مدينتهم على عربة. هكذا كان أهل المدينة متجمهرين ومتحمسين حول بوابات المدينة في ذات اللحظة التي وصل فيها جورديا سوعرّافته، وطار العُقاب من موضعه مطلقًا صيحة عالية ما إن عبرا عتبة المدينة. ألقى أهل المدينة بقبعاتهم عاليًا، وهللوا حتى بُحت حلوقهم.

في وقت قليل جدًا تحول جورد ياس من مزارع وحيد رقيق الحال يحك التراب المقدوني بحثًا عن لقمة عيشه إلى ملك فريجيا المتوَّج المتزوج من عرّافة تيلميسوسية جميلة. وضع الخطط لإعادة بناء المدينة (التي أطلق عليها بأدنى قدر من التواضع جورديوم) واستقر ليحكم فريجيا، وعاش في ثبات ونبات ما بقي من حياته. أحيانًا، حتى في عالم الأساطير الإغريقية، تمضي الأمور على ما يرام.

صارت عربة الثيران أثرًا مقدسًا، رمزًا لِحقّ جورد ياس السماوي في الحكم. نير العربة رُبط في عمود منحوت من خشب القرانيا في الأجورا بحبل، وعُقِد الحبل أكثر العُقَد تعقيدًا في العالم، فقد أراد جورديا سأن يتيقن من أنّ العربة لن تُسرق من ميدان المدينة الرئيسي. مع الوقت شاعت أسطورة، بتلك الطريقة الغامضة التي تشيع بها الأساطير بلا مصدر بعينه، أنّ من يحل تلك العقدة الشيطانية سيحكم ذات يوم آسيا. حاول أن يحلها الكثيرون، البحّارة المخضرمون والرياضيون وصنّاع الألعاب والفنانون والحرَفيون والنصابون والفلاسفة والأطفال ذوو الطموح، لكن أحدًا لم يقترب حتى من إرخاء انحناءاتها ودوراتها المتشابكة المدروسة المتداخلة.

ظلت العقدة الجوردية بغير حل لأكثر من ألف عام، حتى دخل المدينة ذات يوم ملك فاتح مقدوني عبقري مستهتر اسمه أليكساندر [الإسكندر] على رأس جيشه، وعندما سمع عن الأسطورة نظر إلى تشابك الحبال العظيم نظرة واحدة، ثم رفع سيفه وضربها ضربة واحدة، فقطع العقدة الجوردية ونال على ذلك المديح ممن حوله ومن أجيال مستقبلية عديدة[192].

بالعودة إلى زمن جورديا‌س، فقد كبر ابنه ميداس Midas ليصبح شابًا طيبًا ودودًا يحبه كل من يعرفه.

ميداس

الغريب القبيح

عندما حان وقت جوردياس، مات وخلّف وراءه ابنه ميداس ملكًا. حياة ميداس - الذي كبر ليصبح طيبًا ودودًا يحبه كل من يعرفه - كانت بسيطة لكن راقية. فريجيا لم تكن مملكة ثرية، لكن أغلب وقت وأموال ميداس كانا يذهبان على مزرعة ورود مذهلة في ساحة القصر، واشتهرت تلك المزرعة كأحد أعاجيب ذلك العصر. لم يحب ميداس شيئًا أكثر من التجول في جنته الملونة العطرة ورعاية أحواضه، التي احتوى كلٌّ منها على ستين زهرة مزهرة.

ذات صباح، وبينما يتجول في الحديقة ملاحظًا باستمتاع فطري كيف تلتمع قطرات الندى ببهاء على البتلات الرقيقة لزهوره العزيزة، تعثر ميداس في جسد نائم قبيح منتفخ الكرش متكور على الأرض ويغط كخنزير.

قال ميداس: «أوه، أنا أسف جدًا، لم أرك».

نهض الرجل على قدميه بتجشؤ عال ثم انحنى، قال: «أستميحك العذر، لم أتمكن من مقاومة جاذبية العطر الراقي لزهورك في الليلة السابقة، ثم غلبني النوم».

قال ميداس بتهذيب: «لا عليك»، كان قد نشأ على احترام الكبار على الدوام، «لماذا لا تأتي معي إلى القصر وتشاركني الإفطار؟».

«لا مانع، هذا لطف منك».

لم يعلم ميداس أن هذا القبيح ذا الكرش كان في الواقع سايلينوس، خليل الربّ ديونايسيس.

اقترح ميداس ما إن صارا داخل القصر: «ربما تودّ أن تستحم؟».

«لماذا؟».

«لا شيء، مجرد فكرة عابرة».

ظل سايلينوس لعشرة أيام وعشر ليال، قام فيهم بغزوات عظيمة على خزائن مؤونة ميداس الهزيلة، لكنه كافأه بأغانٍ وقصص ورقصات فاحشة.

أعلن سايلينوس في الليلة العاشرة أنه سيغادر في الصباح التالي.

قال: «سيدي يشتاق إليّ، هل بوسع رجالك إيصالي إليه؟».

قال ميداس: «بكل سرور».

في اليوم التالي قاد ميداس وحاشيته سايلينوس في رحلة طويلة إلى حقول العنب الجنوبية التي يحب ديونايسيس زيارتها في هذا الوقت من العام. بعد معاناة لساعات مع القيظ والطرق المختنقة والمرتفعات المنحدرة والممرات الجانبية الضيقة، قابلوا ربّ النبيذ وصحبته يتنزهون في الحقول. سعادة ديونايسيس بلقاء صديقه القديم كانت بالغة.

قال: «من دونك طعم النبيذ لا يطيب ولا الموسيقى تُطرِب ولا الرقص يُمتع، أين كنت؟».

قال سايلينيوس: «ضللت الطريق»، ثم دفع ميداس المتردّد أمام الإله، «وهذا الرجل الطيب آواني في قصره وأعطاني خير ما يملك، شربت أغلب نبيذه وأكلت أغلب طعامه وتبولت في أواني مياهه وتقيأت على وسائده الحريرية، ولم يشتك قط، إنه روح طيبة». سايلينيوس ضرب ميداس على ظهره، وابتسم ميداس بأفضل ما استطاع، لم يكن يعلم بشأن أواني المياه والوسائد الحريرية.

كان ديونايسيس مثل كل كثيري الشرب يَسهل أن تشتعل عاطفته وأحاسيسه، وضع يده بامتنان على ميداس، وأعلن للعالم بأسره: «أترون؟ أترون؟ بعدما كاد المرء أن يفقد الإيمان بالبشر كافة، يظهرون استحقاقهم للتقدير بفعل مثل هذا. هذا الرجل مثال لما يعنيه أبي بالزينيا، أثلجت قلبي. أخبرني هيا».

ميداس كان يتوق للرحيل، «أعذرني؟»، يكفيه الأيام والليالي العشرة مع سايلينيوس، اشتاق لأن يكون وحيدًا مع زهوره، ديونايسيس الثمل وحاشيته من الميناذات والساتيريين كانوا أكثر مما يحتمله صبره النافد.

«أخبرني بالجائزة التي تحب، أي شيء، أيًا ما...»، تجشأ، «...يرغبه قلبك سألقّحه لك... أقصد... سأحققه لك، هيا، قل لي»، قال الجملة الأخيرة بعدوانية وهو يستدير مواجهًا اللاأحد.

«أتعني يا مولاي أن بوسعي أن أطلب منك أي شيء؟».

من منا لم يستمتع بالتخيلات السعيدة عن تحقيق الجن والسحرة لأمنياتنا؟ يؤسفني أن أقول إن ميداس لم يتمالك نفسه إزاء هذا العرض وضربت الدماء في رأسه.

ذكرت أن فريجيا كانت من الممالك الفقيرة، ومع أن أصدقاء ميداس لم يعتبروه بخيلًا أو جشعًا، إلّا أنه كان يتوق، مثل أي حاكم، لأموال أكثر لينفقها على جيوشه وقصره ورفاهية رعاياه. نفقات البيت الملكي تتراكم على ميداس، وهو ملك أطيب من أن يرهق رعاياه بأعباء الضرائب الثقيلة، من هنا وَجَدت أكثر الأمنيات غرابة طريقها للخروج من رأسه المحموم عبر فمه.

قال: «إذًا فأنا أتمنى أن يتحوّل كلّ ما ألمسه إلى ذهب».

ارتسمت على وجه ديونايسيس ابتسامة شيطانية: «أهذا ما تريد حقًا؟».

«هذا ما أريد».

قال رب النبيذ: «عد إلى بيتك، استحمّ في النبيذ ثم ادخل في سريرك، وعندما تستيقظ صباحًا ستكون أمنيتك قد تحققت».

الاصبع الذهبي

من المحتمل أن ميداس لم يصدّق شيئًا مما قيل له في هذه المحادثة، الآلهة كانوا مشهورين بالتملص من وعودهم.

لكنه مع ذلك، وعلى سبيل الاحتياط - فما الضرر في النهاية؟ - صبَّ

ميداس في تلك الليلة بعض براميل النبيذ من خزانته شبه الخاوية في حوض استحمامه الملكي. الأبخرة المتصاعدة من حمام الكحول ضمنت وقوعه في نوم عميق مطمئن بعده.

استيقظ ميداس على صباح منعش لامع طرد من رأسه كل أفكار وأماني الآلهة الثملة، قفز عن سريره وهو لا يفكر إلا في زهوره وهرع إلى حديقته المحببة.

لم تبد الزهور في عينه من قبل أجمل من اليوم قط. انحنى ميداس وتشمم الوردة المهجّنة الوردية الصغيرة التي بدت في أجمل حالاتها في منتصف الطريق بين البرعم والازدهار الكامل، عبقها الرائع ملأ قلبه سعادة ومرحًا، مدّ يده بحب لفتح البتلات عن بعضها، فتحولت الزهرة على الفور حتى ساقها إلى الذهب، ذهب صلب.

حدق فيها ميداس عاجزًا عن التصديق.

لمس زهرة أخرى، ثم أخرى، في اللحظة التي لمست فيها أصابعه كل منها تحولت فورًا إلى ذهب. اندفع في أرجاء حديقته مثل المحموم يحكّ يده في كل شجرة ووردة، حتى بات كل شيء يبرق ويلمع ويتلألأ باللون الأصفر الذهبي.

راح ميداس يحدق في ما كانت يومًا حديقة لأندر الورود وقد صارت الآن أثمن كنوز العالم وهو يتقافز ويصرخ من السعادة. أصبح غنيًا! أصبح في لحظة فاحش الثراء! بل لا يوجد على الأرض من هو أغنى منه.

صياحه المنتشي جذب زوجته وجاءت تجري عبر باب القصر تحمل بين ذراعيها ابنتهما الرضيعة، ووقفت تتأمل المشهد.

«لماذا تصيح يا عزيزي؟».

جرى ميداس إليها واحتضن الأم والطفلة ببهجة ليس لها مثيل، وقال: «لن تصدقي، كل ما ألمسه يتحول إلى ذهب، أنظري؟ كل ما عليّ فعله هو أن... أوه!».

تراجع إلى الخلف ليرى أن زوجته وطفلته الرضيعة باتتا الآن تمثالًا

واحدًا يلتمع تحت شمس الصباح، تمثالًا جامدًا كان أي نحات في العالم سيفتخر بصناعته أيما فخر.

قال ميداس لنفسه: «سأنظر في هذا الأمر لاحقًا، لا بد أن ثمة طريقة لاستعادتهما، ديونايسيس لن يكون بهذه الـ.... أما الآن فدعنا نصنع بعض الذهب».

الحارس على البوابة، والبوابة الجانبية ذاتها للقصر، والعرش المفضل للملك، تحولوا بالكامل إلى الذهب.

المائدة الجانبية، وكأس الشراب، وأدوات الطعام... ذهب.

لكن ما هذا؟ كرااك! كادت سنته أن تنكسر عندما حاول قضم خوخة ذهبية صلبة، وها هي شفتاه تتذوقان الطعم المعدني للنبيذ، وارتطمت كتلة ذهبية بوجهه كانت قبل ثوان منديلًا كتانيًّا.

بدأت السعادة غير المحدودة تفتر عن ميداس بعدما أدرك المدى الكامل لقدرته.

بوسعك تخيل البقية، فورًا تحولت كل سعادة وحماسة امتلاك الذهب إلى رعب وذعر. كل ما يلمسه ميداس يتحول إلى ذهب، لكن قلبه تحول إلى رصاص. لا كلماته ولا أنينه ولا صرخات التضرع إلى السماء بوسعها استعادة دفء الحياة في زوجته وابنته المتجمدتَين. مرأى رؤوس زهوره الحبيبة وهي تقع عن سيقانها لثقلها جعله ينحني بؤسًا. كل ما حوله تلألأ والتمع وبرق بهالة مضيئة ذهبية، غير أن قلبه كان رماديًا كئيبًا كالجرانيت.

أما الجوع والعطش فكانا مأساة أخرى، لثلاثة أيام ظل الطعام والشراب يتحولان إلى ذهب لا يمكن أكله ما إن يمسّه. شعر ميداس أنه جاهز للموت.

استلقى على سريره الذهبي، الذي لم تمنحه ملاءاته ولا أغطيته الذهبية دفئًا ولا راحة، وغطّ في نوم محموم. حلم بوروده تعود مرة أخرى إلى حياتها الناعمة الرقيقة، وروده كلها، بما فيها الزهور التي صار يعلم الآن أنها أهم من كل ما عداها، زوجته وابنته. رأى في خضم أحلامه المستعرة الألوان الهادئة تعود إلى وجناتهما والضوء يشع مرة أخرى من أعينهما. بينما تتلاعب هذه الصور المخادعة بعقله تردد صوت ديونايسيس داخله.

«أيها الإنسان الأحمق! من حظك السعيد أن سايلينيوس يحبك، لأجله فقط سأرحمك. عندما تستيقظ في الصباح، اذهب إلى نهر باكتولوس Pactolus واغمس يديك في مياهه، وعندها ستزول عنهما اللعنة. وكل ما ستغسله في ذلك النهر سريع الجريان سيعود إلى طبيعته».

في الصباح فعل ميداس ما أملاه عليه الصوت في حلمه، وحررته مياه النهر مثلما وُعد من لعنته. قضى ميداس بقية الأسبوع بسعادة مجنونة يجري ذهابًا وإيابًا من وإلى النهر، ويغمر فيه زوجته وابنته وحراسه وخدمه وزهوره وممتلكاته، ويصفق بيديه بسعادة كلما عاد كل منهم لطبيعته عديمة الثمن - لكن لا تُقدر قيمتها - الأصلية.

بعد هذا، صارت مياه باكتولوس التي تجري حول سفوح جبل تمولوس أكبر مصدر طبيعي في منطقة بحر إيجة كلها للإلكتروم electrum، وهي سبيكة طبيعية من الذهب والفضة.

آذان الملك ميداس

قد تحسب أن ميداس تعلم درسه الآن، الدرس الذي يكرر نفسه مرارًا وتكرارًا عبر قصة البشرية: لا تعبث مع الآلهة، لا تثق في الآلهة، لا تُغضب الآلهة، لا تُتاجر مع الآلهة، لا تنافس الآلهة، دع الآلهة في حالها، عامِل كل منحة على أنها لعنة وكل وعد على أنه فخ، والأهم من كل ذلك: لا تهِن إلهًا أبدًا.

بكل تأكيد، تغيَّر ميداس في أحد جوانب شخصيته: لم يعد الآن زاهدًا في الذهب فقط، بل في كل أشكال الثراء والامتلاك. بعد وقت غير طويل من رفع ديونايسيس للعنته عنه، تحول ميداس إلى تابع مخلص للإله ذي قدم الماعز بان، رب الطبيعة والفونيون والمروج وكل الأشياء البرية في العالم.

ترك ميداس زوجته وابنته تحكمان فريجيا، وخرج بالزهور في شعره والصندل في قدميه والقليل المتواضع من الملابس يغطي عورته، وكرس نفسه للحياة الهيبية الرعوية البسيطة السعيدة.

كان من الممكن أن يظل كل شيء على ما يرام، لولا أن سيده بان ركبت رأسه فكرة تحدي أبولو في مسابقة لتحديد مَن الأفضل، القيثارة أم المزامير.

ذات أمسية، في مرج يمتد في سهول جبل تمولوس، وضع بان المزمار في فمه أمام جمهور من الفونيين والساتيريين والدرايادات والنيمفات والعديد من أنصاف الآلهة والخالدين الأقل قدرًا، تردد صوت أجش لكن مستساغ على الطريقة الليدية، بدا وكأنه مزيج من صوت الأيل وجريان المياه وجري الأرانب وخَبب الخيول، أحب الجمهور تلك النغمة الخشنة الريفية، وميداس بالذات الذي كان يعبد بان بكل المرح والطرب والعبث والجنون التي يمثلها الربّ ذو قدم الماعز.

عندما وقف أبولو ولعب أول نغمات قيثارته، عمّ الصمت، ومن بين أوتاره انبثقت رؤى الحب الكوني والتناغم والسعادة، وإحساس عميق بجمال الحياة وشعور بالسماء ذاتها.

عندما انتهى نهض الجمهور وصفّق الجميع، وتمولوس ربّ الجبل صاح: «قيثارة أبولو العظيم تفوز، الكل متفق؟».

صاح الساتيريون والفونيون: «نعم نعم».

هلّلت النيمفات والدرايادات «أبولو أبولو!».

صوت واحد فقط اعترض.

«لا!».

«لا؟»، استدارت عشرات الرؤوس لترى من الذي جرؤ على الانشقاق.

نهض ميداس على قدميه: «أنا أعترض، أنا أرى أن مزامير بان صوتها أفضل».

حتى بان كان مذهولًا. أبولو وضع قيثارته أرضًا بهدوء واقترب من ميداس.

«قل هذا مجددًا؟».

بوسعنا القول إن ميداس كانت لديه على الأقل شجاعة التمسك برأيه.

ازدرد لعابه مرتين قبل أن يرد: «أنا... أنا أقول إن مزامير بان صوتها أفضل، موسيقاها أكثر... أكثر حيوية وفنًا».

لا بد أن أبولو كان في مزاج رائق هذا اليوم، فهو لم يذبح ميداس حيث يقف ولم يسلخ جلده عن لحمه مثلما فعل مع مارسياس عندما واتته الجرأة الحمقاء لتحديه، بل إنه لم يسبب لميداس أدنى ألم، وإنما قال بيسر: «أتعتقد فعلًا أن بان عَزف أفضل مني؟».

«بلى».

قال أبولو وهو يضحك: «إذًا في هذه الحالة لا بد أن لديك آذان حمار».

وما إن خرجت الكلمات من فم الإله حتى شعر ميداس بشيء غريب دافئ خشن يحدث لفروة رأسه، وعندما وضع يدًا متفحّصة على رأسه انطلقت صيحات وصرخات الضحك والقهقهة من الحشد، فقد كان بوسعهم رؤية ما لا يراه ميداس؛ أذنا حمار رماديتان شقتا طريقهما خارجتين من بين شعره، وراحتا ترتعشان وتتلوّيان أمام عيون العالم بأسره.

قال أبولو: «يبدو أن لديك بالفعل أذني حمار».

احمرّ ميداس من العار والخجل، ودار على عقبيه وهرَب من المكان، تطارده سخرية وتهكم وضحك الجميع، وقد باتت أصواتهم أوضح في أذنيه الضخمتين المغطاتين بالفرو.

حياته كتابع جوّال لبان انتهت، ربط رأسه بما يشبه العمامة وعاد إلى زوجته وأسرته في القصر بجورديوم. اكتفى من تجربة حياة البدوي خالي البال، وقرر الاستقرار مجددًا في حياة المَلك.

الشخص الوحيد الذي رأى أذني الحمار كان بطبيعة الحال الخادم الذي يقص شعر الملك كل شهر، لا أحد غيره في فريجيا عرف بالسر الرهيب، وميداس كان عازمًا أن يظل الحال كذلك.

قال ميداس للحلاق: «إليك الاتفاق: سأمنحك راتبًا ومعاش تقاعد أكثر من أي شخص من العاملين بالقصر لو حافظت على فمك مطبقًا بشأن ما رأيت، لكن لو تفوَّهت بكلمة إلى أي شخص، سأذبح أسرتك كلها أمام

عينك وأقطع لسانك، وسأتركك تهيم على وجهك منفيًا فقيرًا أخرس، هل تفهم؟».

أومأ الحلاق المرعوب.

لأعوام ثلاثة حافظ كل منهما على جانبه من الاتفاق، زوجة الحلاق وأسرته باتوا سعداء أثرياء بالأموال الزائدة التي جاءتهم، ولم يعرف أحد عن القدرة السمعية الزائدة المضحكة للملك، وعمامات الملك صارت موضة رائجة في شتى أنحاء فريجيا وليديا وتراقيا وما حولها، كل شيء كان على ما يرام.

لكن القابض على سر كالقابض على الجمر، خاصة تلك الأسرار المثيرة مثل التي اطلع عليها الحلاق الملكي، الذي صار يستيقظ كل يوم شاعرًا بالثقل الساحق لما يعرفه يغلي ويفور ويتضخم بداخله. أحب الحلاق زوجته وأسرته وكان في الأصل وفيًا كفاية للملك ولا يحب أن يرى من يهينه أو يحرجه، لكن السر المتضخم الذي لا يُفصح عنه كان يجب أن يجد منفذًا ما وإلا انفجر. لم تشعر بقرة لم تُحلب، ولا امرأة حامل في توأمين تجاوزت موعد وضعها، ولا بطن امتلأت فوق سعتها من قبل بهذا القدر اليائس المؤلم من الحاجة للتفريغ والانعتاق أكثر من الحلاق المسكين.

أخيرًا وجد خطة شعر أنها ستريحه من الحمل على عاتقه من دون أن تهدِّد سلامة أهله. بعد أن استيقظ من كابوس رأى فيه نفسه يقف على شرفة في الميدان الرئيسي لجورديوم وينادي مصرحًا بالسر لسكان المدينة المذهولين، خرج مع أول شعاع من ضوء النهار إلى أعماق الريف القريب، وفي مكان ناءٍ بالقرب من مجرى مياه حفر حفرة عميقة في الأرض وهو ينظر حوله في كل مكان ليتيقن أن ليس هناك أي احتمال لأن يسمعه أحد، ثم انحنى، وصنع بيديه ما يشبه البوق حول فمه، وصرخ في الحفرة بهذه الكلمات:

«للملك ميداس أذنا حمار!».

نبش بجنون ليغلق الحفرة قبل أن تهرب الكلمات منها، غير أنه لم يلاحظ بذرة وحيدة صغيرة حملها الهواء وتركها تستقر في قاع الحفرة...

بعدما أتمَّ الحلاق الردم أخذ يدب على الأرض بعنف ليمحوَ أي أثر لسره الخطير، ثم هرع عائدًا إلى جورديوم، واتجه من فوره إلى حانته المفضلة وطلب إبريقًا من أفضل أنواع النبيذ في المكان. صار بوسعه الشرب أخيرًا من دون خوف من أن يطلق النبيذ سراح لسانه المكبوت، شعر وكأنه أطلس وقد وضع السماء والأرض عن عاتقيه.

في الآن ذاته وعلى مدى الأسابيع القليلة التالية، في تلك البقعة النائية بجوار الجدول، فإنّ جايا، بدفئها ونفسها الحنون، نفخت الحياة في البذرة الصغيرة في قاع الحفرة وبدأت في التبرعم، ولم يمض وقت طويل قبل أن تخرج قصبة صغيرة رقيقة وتخترق برأسها تراب الأرض إلى الهواء في الأعلى، وهمست القصبة للريح: «للملك ميداس أذنا حمار!».

حمل النسيم الكلمات الواهنة ونقلها لأعواد البردي على ضفة النهر: «للملك ميداس أذنا حمار!».

همْس الريح ووشوشة البردي نقلته الأعشاب وأوراق الشجر، وبسرعة صارت ترددها أشجار السرو والصفصاف، وتابعت الرياح نقل الأصوات.

تنهّدت الفروع: «للملك ميداس أذنيّ حمار!».

غنت الطيور: «للملك ميداس أذنا حمار!».

وفي النهاية بلغت الأنباء المدينة: «للملك ميداس أذنا حمار!».

استيقظ الملك ميداس منتفضًا، خارج القصر كان هناك ضحك في كل مكان، اقترب من نافذته وقرفص وأنصت.

كانت الإهانة أكثر من قدرته على التحمّل. لم يتوقف لينزل بانتقامه على الحلاق وأسرته، بل صنع مزيجًا سامًا من دماء الثيران، ورفع عينه إلى السماء، وضحك بمرارة وهز كتفيه، شرب المزيج ومات.

يا لميداس المسكين، سيظل اسمه دومًا يعني الشخص المحظوظ الثري لكنه في الواقع تعيس وفقير، ليته اكتفى بحديقته وأزهاره، ففي النهاية الأصابع الطينية أفضل من الذهبية.

ملاحق

الشقيقان

كلمة أخيرة عن إبيميثيوس وبروميثيوس، ابني الأوشيانية كلايميني (أو آسيا) والتيتان إيابتوس، والشقيقان الأصغر لأطلس الذي يحمل السماء ومينويشس الذي فجَّرته صاعقة رعدية. الفرضية الشائعة تقول إن كلمة بروميثيوس تعني «التفكير المسبق/ التدبّر» وإبيميثيوس «التفكير اللاحق»، إبيميثيوس إذًا يندفع لتحقيق الأشياء من دون التفكير في عواقبها بينما يتأمل فيها شقيقه الأكبر بحصافة وحدَّة ذهن. لكن يمكن المجادلة بإفحام أن قيام بروميثيوس بجلب النار للبشر لم يكن فعلًا ذكيًا ولا حصيفًا ولا متبصرًا بشكل خاص، كان مندفعًا كريمًا... وربما نابع من الحب، لكنه لم يكن بكل تأكيد حكيمًا. إبيميثيوس كان أيضًا شخصًا طيبًا سليم الطويَّة، وعثراته كانت فقط... كنت سأقول إنسانية، لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا، فقد كان تيتانًا، عثراته كانت بكل تأكيد تيتانية العواقب. الفارق المحسوس بين الأخوين لا يزال يستخدمه الفلاسفة حتى اليوم للتعبير عن أشياء جوهرية في تكويننا.

في محاورات أفلاطون (بروتاجوروس Protagoras)، تقترح الشخصية في العنوان أسطورة خلق مختلفة نوعًا عن التقليدية الشائعة:

يقول بروتاجوروس لسقراط إن الآلهة قررت تعمير الطبيعة بسلالات جديدة من الحياة الفانية، إذ لم يكن في العالم حتى ذلك الوقت إلا الخالدين. خلقوا من الأرض والماء والنار السماوية والنَّفَس الإلهي الحيوانات والبشر، وكلفوا بروميثيوس وإبيميثيوس بمهمة توزيع السمات

والخصائص على هذه الكائنات ليتمكنوا من الوصول إلى حياة نافعة ناجحة. قال إبيميثيوس أنه سيقوم بالتوزيع وليأتِ بروميثيوس لاحقًا ليتفقد عمله، واتفق الشقيقان على ذلك.

انطلق إبيميثيوس لتحقيق مهمته بحماسة، منح بعض الحيوانات الدروع، مثل وحيد القرن وآكل النمل والمدرَّع، ومنح آخرين بشكل يكاد يكون عشوائيًا الفرو الثقيل المضاد للظروف الجوية ووسائل التمويه والسم والريش والأنياب والمخالب والحراشف والخياشيم والقشور والأجنحة والشعر وغير ذلك الكثير. وزَّع السرعة والشراسة ومنح الخفة والطيران، بات كل حيوان مجهزًا بتصميم خاص حاذق متخصص في شيء ما، من المهارة الملاحية إلى الموهبة في الحفر أو بناء الأعشاش أو السباحة أو القفز أو الغناء. كان إبيميثيوس يهنئ نفسه على منح الدلافين والخفافيش القدرة على تحديد الموقع بالصدى عندما أدرك أن تلك كانت آخر المنح المتاحة لديه، وأنه - لافتقاره الجوهري للتفكير المسبق - أهمل تمامًا التفكير في ما سيمنحه للكائن المسكين الضعيف الهش العاري الذي يمشي على قدمين، الإنسان.

ذهب إبيميثيوس مفعمًا بالذنب إلى شقيقه وسأله عمّا يجب فعله الآن بعدما لم يعد هناك شيء في سلة المنح، لا يملك البشر أدنى وسيلة للدفاع عن أنفسهم أمام وحشية ومراوغة وضراوة الحيوانات بعد أن صارت مجهزة بشكل مذهل، الأسلحة التي مُنحت للوحوش ستقضي بلا شك على البشرية المتواضعة.

حلّ بروميثيوس كان سرقة فنون أثينا ونيران هيفايستوس، فهكذا يستطيع الإنسان استخدام الحكمة والحذاقة والصناعة ليحمي نفسه من الحيوانات. ربما لا يكون بوسعه السباحة جيدًا كالسمك، لكنه قادر على تعلم صناعة المراكب، ربما لا يستطيع الركض بسرعة الحصان، لكنه قادر على استئناسه وركوبه، وذات يوم ربما يستطيع صنع أجنحة تنافس أجنحة الطيور.

إذًا مُنح الإنسان وحده من بين كل الكائنات الفانية، بالصدفة والخطأ

غير المقصود، صفات أوليمبية، ليست بالكَم الذي يسمح له بمنافسة الآلهة، لكن بما يكفيه لحماية نفسه من الحيوانات المجهزة بالكامل.

اسم بروميثيوس يعني كما قلت مسبقًا: التدبّر، والتدبر له آثار بعيدة المدى، برتراند راسل Bertrand Russell في (تاريخ الفلسفة الغربية History of Western Philosophy) عام 1945 قال:

«الإنسان المتحضّر يتميز عن سلفه الهمجي بالتعقل أكثر من أي شيء، أو باستخدام مصطلح أكثر شمولًا: بالتدبُّر. إنه مستعد لتحمل آلام لحظية مقابل الوصول إلى متع مستقبلية، حتى لو أن هذا المستقبل بعيد... التدبُّر الحقيقي لا يكون إلا عندما يفعل الإنسان شيئًا لا تدفعه تجاهه أي نزعة لحظية، بل يفعله فقط لأن المنطق يخبره أنه سينتفع من هذا في تاريخ مستقبلي... الفرد إذًا بعد أن صار بوسعه استعراض حياته كاملة، بات يضحِّي بحاضره باستمرار لأجل مستقبله»[1].

بالنظر إلى الأمر بهذه الطريقة قد يكون بروميثيوس أبا حضارتنا بشكل أعمق من مجرد كونه الشخص الذي جاء بالنار، سواء كانت حقيقية أو رمزية، فبروميثيوس هو من منحنا هبة التدبُّر، أن نكون قادرين على التصرف بشكل يتجاوز الغريزة الوقتية. أكان التدبُّر البروميثيوسي هو ما جعلنا نترقى من الصيد وجمع الثمار إلى الزراعة والسكن في القرى والتجارة؟ أنت لا تزرع البذور ولا تخطِّط وتبني وتخزِّن وتقايض إلّا لو كان بوسعك التفكير في المستقبل.

لكن راسل يذكِّرنا، كيلا تأخذنا عبادة النموذج البروميثيوسي المثالي الأقرب للمسيح المخلص أكثر من اللازم (ثمة شعار يوناني شائع يقول: mēdén ágan، أو «لا شيء أكثر من اللازم»)، أن اليونانيين كانوا واعين على ما يبدو للحاجة إلى مقابلة تأثير بروميثيوس بالعواطف الأعمق الأكثر ظلمة والأقل استقرارًا:

من الواضح أن هذه العملية (التصرف بتدبُّر وتفكير مسبق) قد تُؤخذ

---

(1) تاريخ الفلسفة الغربية في 3 أجزاء، منشورات دار التنوير، 2019.

أبعد من اللازم، كما في حالة البخيل مثلًا. لكن حتى من دون الوصول إلى مثل هذه الحالات المتطرفة، فالتدبُّر قد يتضمن بسهولة ضياع بعضٌ من أجمل الأشياء في الحياة. يستعيد المرء بالثمالة، سواء الروحية أو الجسدية، حدة الشعور الذي قضى عليه التدبُّر؛ فهو يجد العالم مليئًا بالجمال والمباهج وتتحرر مخيلته فجأة من سجن الهموم اليومية. الحياة من دون العامل الباخوسي مملَّة، وبوجوده خطيرة. صراع التدبر والعاطفة اللحظية هو صراع قائم على مدار التاريخ، وليس علينا أن نقف في صف أحدهما أمام الآخر.

التعقيد في شخصية بروميثيوس جدير بالإعجاب، فقد منحنا النار، نار الخلق، لكنه منحنا أيضًا التدبُّر الحضاري، الذي كبح لدينا نارًا من نوع آخر أكثر جموحًا. ذلك الرفض لاعتبار أي كيان سماوي كاملًا مثاليًا كافيًا بنفسه، سواء كان زيوس أو موروس أو بروميثيوس، هو من أكثر ما يثير الإعجاب في الإغريق، بالنسبة لي على الأقل...

أمل

معنى إغلاق بندورا للجرّة تاركة إلبس Elpis في قاعها بالنسبة للإغريق، ومعنى ذلك بالنسبة لنا اليوم، كان محل جدال بين المفكرين والدارسين على الدوام منذ اختراع الكتابة، وربما من قبل ذلك.

يؤكد البعض على الطبيعة الوحشية لانتقام زيوس من البشرية، يحاججون بأن كل أمراض ومتاعب العالم قد سُلطت على الإنسان وحُرم مقابل ذلك من عزاء الأمل. الحديث عن هجران الأمل يسبق عادة نهاية السعي أو الاهتمام، بوابة الجحيم عند دانتي تقول لكل وافد أن يترك خلفه كل أمل، إذًا تصديق أن الحياة قد تكون بلا أمل هو شيء مريع.

لكنّ آخرين يعتقدون أن إلبس تعني شيئًا أكثر من الأمل، إلبس هو التوقُّع، توقع الأسوأ بالذات، أي بمعنى آخر النذير المخيف بالهلاك الوشيك. هذا التفسير لأسطورة بندورا يعني أن ذلك الكيان الأخير المحبوس في الجرة

كان في الواقع أسوأهم على الإطلاق، ومن دونه حُرم الإنسان من الشعور الدائم بفظاعة مصيره والقسوة العبثية للوجود، أي أننا أصبحنا بعد حبس إلبس مثل إبيميثيوس، قادرين على العيش يومًا بيوم، غير مدركين - أو على الأقل متجاهلين - بوجود ظل الألم والفشل والموت الحتمي الذي يحوم حولنا جميعًا. هذا التفسير القاتم للأسطورة متفائل بشكل ما.

نيتشه نظر للأمر بنظرة مختلفة نوعًا ما؛ بالنسبة إليه كان الأمل أكثر كائنات الجرة خبثًا، لأنه يطيل عذاب وجود الإنسان. جعل زيوس الأمل في الجرة لأنه أراد أن يخرج منه ويعذّب البشر كل يوم بوعد زائف بأن شيئًا جيدًا سوف يحدث، وإغلاق بندورا للجرة عليه كان مأثرة عظيمة أنقذتنا جميعًا من أسوأ بلايا زيوس. جادل نيتشه أن الأمل يجعلنا حمقى بما يكفي لتصديق أن للوجود هدف ومعنى، ومن دونه نستطيع على الأقل أن نعيش متحررين من وهم الطموح.

نأمل (أو لا نأمل) أن نصل لإجابة ما عن هذه التساؤلات بأنفسنا.

الچيجانتيون

ثمة بعض القصص في الأساطير اليونانية تشير إلى حدوث جيجانتوماكي Gigantomachy، أو «حرب الچيجانتيين»، وهم جنس محارب (ليس طويلًا على نحو خاص أو عملاقًا كما نستخدم الكلمة بشكل معاصر، مثلما ذكرتُ سابقًا) ولد مئة من أفراده من جايا ودماء أورانوس المخصي. ربما كانت تلك الحرب محاولة أخيرة من جايا لاستعادة السيطرة على الكوزموس. ثمة تزامن في بعض المصادر بينها وبين التيتانوماكي أو اندماج بينهما. الأكيد على أية حال هو حدوث نوع من التمرد العنيف بقيادة ملك الچيجانتيين يوريميدون Eurymedon ضد الآلهة.

لا نعلم أسماء المشاركين، لكن مصير القلة من أعتى المقاتلين تضمنته السجلات. أقواهم على الإطلاق: إنسلادوس Enceladus (المثير للضجة) دفنته أثينا تحت جبل إتنا، ومن سجنه هناك يستمر في التذمُّر

بركانيًا[193]. بوليبوتس Polybotes انسحق تحت نيسيروس Nisyrus، وهي جزء من جزيرة كوس Cos التي هشَّمها بوسايدون وألقاها عليه[194]. داميسوس Damysus (الغازي) مات في بداية الصراع، لكن شُهرته جاءت لاحقًا عندما نبش جثته السِنتور كايرون ليستخدمه كقطع غيار. دلق هيفايستوس وعاءً مليئًا بالحديد الذائب فوق التعيس ميماس Mimas (المحاكي)، وكلايتيوس Clytius (المشهور) التهمته مشاعل هيكاتي. زيوس كان يطارد سيكيوس Syceus، لكن جايا حمته عبر تحويله إلى شجرة تين[195]. هيبوليتوس Hippolytus (الذي تدهسه الأحصنة) قتله هرمس، الذي تسلل مرتديًا عباءة إخفاء. وديونايسيس قتل تايفويوس Typhoeus (المُدخِّن) بعصاه المقدسة الثيرسوس.

قرأتُ عن أحد العمالقة يُدعى أريستايوس Aristaeus (الأفضل)[196] نجى من الحرب بعد أن خبأته أمه جايا في هيئة خنفساء روث. أما عن الكيفية التي لاقى بها ثوون Thoon (السريع) وفويتيوس Phoitios (الطائش) وموليوس Molios وإمفيتوس Emphytos (المتجذر) وغيرهم الكثيرون من الچيجانتيين حتفهم فهي بحسب علمنا غير مسجلة.

الغريب أن ثمة ذكر لمحاولة الچيجانتي بورفيرون Porphyrion (البنفسجي) لاغتصاب هيرا وقتل زيوس وهركليز له، ما يضع موته في مكان على الخط الزمني أبعد بكثير من بقية الجيجانتوماكي. لكن متى كان لأداة متسقة مثل الخط الزمني أي فائدة في فض تعقيد وتشابك وميوعة وفوضى الأسطورة اليونانية؟

أقدام وأصابع

استخدم الإغريق مثلنا الأقدام للقياس. قدم واحدة أو بوس Pous (والجمع podes بودات) كانت مكونة من خمسين أو ستين إصبع قدم (داكتيلا daktyla) وكانت تقريبًا بطول القدم الأمريكية أو الإنجليزية. البليثرون plethron (أي عرض مسار الركض) كان مقداره مئة بوس،

والستاديون stadion (أي طول مسار الركض، ومن هذه الكلمة حصلنا على كلمة استاد stadium) ستة بليثرون، والميل (أو ميليون million) يساوي ثمانية ستاديون. كلمات الأقدام - أطباء الأقدام podiatrists والأخطبوط octopus (أو octopod) والحامل الثلاثي tripod وغيرهم - تُظهر الرحلة العجيبة للحرف P بينما يتحول بشكل غريب إلى حرف F كلما اتجه إلى الغرب، هكذا تحولت pous إلى Fuss في الألمانية وfoot في الإنجليزية. في القرن التاسع عشر، العالِم اللغوي فريدريك فون شليجل Friedrich von Schlegel لاحظ هذا التحول الاحتكاكي العظيم Great Fricative Shift، الذي صار لاحقًا جزءًا من قانون جريم Grimm's Law المسمى على شرف الأخوين جريم اللذين كانا مَن بذلا مجهودًا هائلًا لإظهار كيف يمكن تتبع أغلب لغات أوروبا والشرق الأوسط إلى الهند واللغات الهندو - أوروبية البدائية العتيقة.

خاتمة

جمعت هنا بعض الأفكار عن طبيعة الأسطورة وذكر مختصر لبعض المصادر التي لجأت إليها في أثناء كتابتي لهذا الكتاب.

لن أكتفي من تكرار أن هدفي لم يكن قط تفسير الأساطير أو شرحها، بل كان على الدوام فقط حكيها. قمت بالطبع باللعب في الخطوط الزمنية محاولًا الوصول إلى سردية متماسكة. نسختي مثلًا من «عصر الإنسان» تختلف عن النسخة المعروفة للشاعر هسيود، لكي أفصِل بوضوح حقبة حكم كرونوس عن خلق البشر. كان انفجار القصص في اليونان قبل حوالي ثلاثة آلاف عام مفعم بالطاقة إلى حد أن أغلب القصص تقريبًا بدت وكأنها تحدث بالضرورة في نفس الوقت. لو جاء أحدهم وقال لي إني «أخطأت» في هذه القصص، فأعتقد أن بوسعي الرد والتبرير أنها كلها في النهاية ليست إلا حكايات خيالية. عندما أعبث ببعض التفاصيل فأنا أفعل ما كان الناس يفعلونه بالأساطير على الدوام، بهذا المنطق أشعر أنني أقوم بدوري في الحفاظ عليهم على قيد الحياة.

الأسطورة الخرافية والواقعية والدين

مثلما تتشكل اللؤلؤة حول ذرة رمل، من الأساطير ما يُبنى على ذرة حقيقة، مثل أسطورة روبن هود Robin Hood مثلًا التي يبدو أنها مشتقة من شخصية تاريخية حقيقية[197]. المادة السردية التي يصنع تراكمها الحكايات تتوارث عبر الأجيال، وتتعرض للتحسين والمبالغة على طول طريقها حتى يصبح لها في مرحلة ما صفات الأسطورة الواقعية، وعلى الأرجح تكون مكتوبة، فكلمة Legend [أسطورة ذات أصل واقعي] مشتقة من الأصل اللاتيني legere، أي «كي يُقرأ»[198].

أما الأساطير الخرافية فهي ذات بنية خيالية رمزية. لا أحد يصدق أن هيفايستوس كان موجودًا فعلًا ذات يوم، لكنه يرمز إلى، ويمثل، فنون الحدادة والصناعة ومهارة الحِرفيين. أما تصوير مثل هذه الشخصية بهيئة داكنة قبيحة عرجاء تغرينا بمحاولة الشرح والتفسير؛ ربما لاحظنا أن الحدادين الحقيقيين كانوا غالبًا رغم قوتهم داكنين كثيري الندوب وضخام العضلات وقصيري القامة إلى حد يجعل النظر إليهم يسبب الضيق، ربما كانت الثقافات من البداية تطلب من الأنسب قامة والأكثر طولًا الانضمام إلى صفوف المحاربين، أما الأطفال الذكور الأقصر أو ذوو العَرج أو العيوب يُرسلون من البداية إلى الورش والأفران، من ثم أي ربٍّ للحدادة تتخيله الثقافة الجمعية سيعكس على الأرجح النموذج البشري المعروف بالفعل، هكذا تُخلق الآلهة من هذا النوع على شاكلتنا لا العكس.

لكن رغم الأصل الرمزي لا التاريخي للأساطير والشخصيات الخرافية، فقد مرت بالتحسين والتعزيز وإعادة التشكيل نفسه التي تمر بها الحكايات ذات الأصل الواقعي. الأساطير الخرافية أيضًا كُتبت، بالذات الإغريقية منها بفضل هومر وهسيود ومَن نحوا نحوهم، وأُرّخت وفُصلت بطرق تمنحنا خطوطًا زمنية وأشجار أنساب وتواريخ للشخصيات تسمح بسرد الحكايات بالطريقة التي اتبعتها في هذا الكتاب.

إذًا، ببساطة، الأساطير الخرافية هي تلك التي تتعامل مع الآلهة والوحوش التي لا يمكن رؤيتها أو الإشارة إليها. ربما آمن بالفعل عدد من أفراد المجتمع الإغريقي بالسِنطورات وتنانين المياه وأرباب البحر وربّات الحب، لكنهم كانوا سيعانون الأمَرَّين على الأرجح لإثبات وجودهم حقًا وإقناع الآخرين به. أعتقد أن أغلب من حكوا وأعادوا حكي الأساطير كانوا مدركين في مكان ما في وعيهم أنهم يحكون حكايات خيالية، ربما كانوا يحسَبون أن العالم كان ذات مرة عامرًا بالنيمفات والوحوش، لكنهم بلا شك كانوا متأكدين أن مثل تلك الكائنات لم يعد لها وجود. أما الصلوات والطقوس والتضحيات، تلك الضرائب المدفوعة لقوى طبيعية غير مرئية، فكانت أمرًا مختلفًا. في مرحلة ما من التاريخ تتحول

الأسطورة إلى عقيدة ثم إلى دين، تتحول من حكايات تُسرد حول النار إلى أنظمة عقائدية تتطلب الطاعة. تشكلت الطوائف الكهنوتية التي صارت تخبر الناس بالطريقة التي يجب أن يتصرفوا بها. طريقة تدوين الأساطير في كتب مقدسة وطقوس وعلوم لاهوتية هي مادة لكتاب آخر خارج نطاق قدراتي، لكن بوسعنا القول إنّ اليونانيين القدامى لم يكن عندهم كتب مقدسة سماوية مثل الإنجيل أو القرآن. كانت هناك طقوس وشعائر تهيئة متعددة الأشكال تتضمن حالات تأمل تشبه ربما الطقوس الشامانية التي نراها الآن في بعض نواحي العالم، وكان هناك أيضًا العديد من المعابد والمزارات، بل إنه في الواقع أيضًا، حتى في عصر المنطق والفلسفة الأثيني العظيم، كان من الممكن أن يُحكم على رجل مثل سقراط بالإعدام لأسباب دينية[199].

الإغريق

الاعتقاد بأن الإغريق كانوا بشرًا أرقى مُنحوا التنوير والحكمة والعقلانية أكثر من غيرهم هو اعتقاد خاطئ، يمكننا أن نجد بسهولة عند الكثير من اليونانيين القدامى ما هو غريب ومقيت بالنسبة لنا. النساء مثلًا لم يلعبن أي أدوار حقيقية في الشؤون التي تدور خارج البيت، والعبودية كانت شائعة، والعقاب كان قاس والحياة كانت وحشية. كان ديونايسيس وآريس آلهة لهم مثلما كان لأبولو وأثينا، وكذا كان بان وبرايابوس وبوسايدون أيضًا. لكن ما يجعل الإغريق مستساغين لنا لهذه الدرجة هو أنهم بدوا واعين عن بصيرة وحذاقة وحيوية بالأوجه المختلفة لطبيعتهم. كانت عبارة «اعرف نفسك» منحوتة عند مدخل معبد أبولو في دلفي، وكأن الناس - لو أننا نستبطن الناس من الأساطير مثلما نفعل من بقية ما كتبوا - فعلوا أقصى ما بوسعهم لتحقيق ذلك القول القديم.

إذًا فرغم أنّ الإغريق كانوا أبعد ما يكونون عن الكمال، إلا أنهم طوَّروا على ما يبدو فن رؤية الحياة والعالم وأنفسهم بصدق وشفافية أكثر من أغلب الحضارات، بما فيها على الأرجح حضارتنا.

المكان

اليونان، أين هي؟ وما هي؟ لم تكن بلدًا من نوع ما في زمن الأساطير. يوجد الآن كيان، يمكن تعريفه سياسيًا يسود مساحة من الأرض ومجموعة جزر بحرية، بوسعنا زيارته، لكن العالم اليوناني الذي دارت فيه الأساطير يتضمن الكثير من آسيا الصغرى ويشمل تركيا وأجزاء من سوريا والعراق ولبنان، وكذلك مناطق من شمال إفريقيا ومصر والبلقان وألبانيا وكرواتيا ومقدونيا، قصة أريون والدولفين تأخذنا إلى جنوب إيطاليا، وثمة أساطير أخرى تتعاطى مع أناس كانوا يصفون أنفسهم ذات زمن بالهيلينيين والأيونيين والأرجويين والأتيكيين والتراقيين والأيوليين والسبارتيين والدوريكيين والأثينيين والقبارصة والكورينثيين والثيفاويين والفريجيين والصقليين والكريتيين والطرواديين والبيوتيين والليديين... والكثيرون غيرهم. أعلم جيدًا أن هذا كله مثير للارتباك وربما أيضًا للتوتر لدى أي شخص غير الأكاديميين أو مواطني اليونان. ثمة خريطة يمكن استشارتها، لكن فيما عدا ذلك أتمنى ألّا تحطِم أعصابك في محاولة فهم الأمر برمته، يعلم الله أني حطمت أعصابي بما يكفي ولا أودّ أن أتسبَّب لك بالارتباك ذاته.

مصادر قديمة

أن تعيد حكي الأساطير اليونانية يعني أن تنتهج نهج عمالقة قدامى. في مقدمة هذا الكتاب ذكرتُ ملحوظة إديث هاميلتون بأن الأساطير الإغريقية «من إبداع شعراء عظام».

مع أن أصولها القديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ والفولكلور غير المكتوب، كنت قادرًا أثناء التحضير لهذا الكتاب - مثلما نحن جميعًا قادرين - على استشارة الشعراء الأوائل للثقافة الغربية، الذين كانوا بالصدفة إغريقيين، وكان موضوع كتابتهم بالصدفة هو الأساطير.

ثمة بيبليوتيكا Bibliotheca (مكتبة) متفردة من المصادر الباقية التي ترسم الخريطة الزمانية للأسطورة اليونانية منذ خلق الكون وميلاد

الآلهة وتمتد حتى نهاية تفاعلهم وتدخلهم في شؤون البشر. بدأ الأمر مع هومر، الذي ربما كان شاعرًا جوالًا (أعمى) أيوني أو لم يكن كذلك، لكن اسمه مرتبط بقصيدتين ملحمتين عظيمتين: (الإلياذة) Iliad و(الأوديسة Odyssey)، اللتان يُعتقد أنهما جُمعتا في وقت ما من القرن الثامن قبل الميلاد، وتحكيان عن حصار طروادة وتوابعه، لكن إشارات هومر المفيدة لأساطير قديمة فيهما كانت لا حصر لها. أقرب معاصريه كان الشاعر هسيود (كان فردًا بلا شك) فعل أقصى ما بوسعه لإنشاء ما يمكن اعتباره خطًا زمني للميثولوجيا اليونانية، قصيدته (ميلاد الآلهة Theogony) تسرد قصة الخلق وصعود التياتنة وأصل الآلهة وتأسيس المجلس الأوليمبي، وقصيدته (الأعمال والأيام Erga kai Hemerai) تحكي قصص خلق البشر العظيمة عن بروميثيوس وبندورا، وتقسِّم عصور البشر إلى خمسة: الذهبي والفضي والبرونزي والبطولي والحديدي.

غيرهم من الشعراء والكتَّاب والرحَّالة اليونانيين وبعدهم من الرومانيين سدوا الثغرات وأوضحوا الغوامض وزينوا ودمجوا وأضافوا للحكايات الأسطورية اليونانية التي ينحدر أغلبها من خريطة هسيود للأنساب. يوجد في هذه المكتبة قاموس عظيم للأساطير قد يكون أكثر المصادر قيمة، كان يُعتقد سابقًا أنه من عمل باحث يُدعى أبولودورس الأثيني Apollodorus of Athens الذي عاش وعمل في القرن الثاني قبل الميلاد، لكن هذا محل شك الآن. إذ يُعتقد في أيامنا الحالية أنه يعود لمن يُطلق عليه تحقيرًا لقب أبولودورس الزائف Pseudo-Apollodorus، ويعود للقرن الأول أو الثاني الميلادي. ثمة مصادر أخرى مقنعة و/أو موثوقة - جميعها تعود على الأرجح إلى القرن الثاني الميلادي - تتضمن الرحَّالة اليوناني ومؤلف الكتب الإرشادية باوسانياس Pausanias، ومؤلفي 'الروايات' لونجيوس Longus (الذي كتب باليونانية) وأبوليوس Apuleius (الذي كتب باللاتينية) والكاتب السردي اللاتيني هايجينوس Hyginus.

يعلو فوق كل أولئك الشاعر الروماني أوفيد (43 ق.م - 17 ب.م) الذي يحكي كتابه (ميتامورفوسيس Metamorphoses) [مسخ الكائنات

/ التحولات] عن الفانين والنيمفات وغيرهم ممن حولتهم الآلهة إلى حيوانات أو نباتات أو أنهار أو حتى إلى حجارة، بدافع العقاب أو الشفقة. أعماله الأخرى مثل (فنون الحب Ars Amatoria) و(البطلات Heroides) تتضمن أيضًا تقديمًا جديدًا لأساطير يونانية باستخدام الأسماء اللاتينية للآلهة، جوف أو جوبيتر لزيوس وديانا لأرتيميس وكيوبيد أو أمور لإيروس. أوفيد خصيب الإنتاج قليل الاحترام فاحش الكلام وسينمائي في طاقته وانتقاله الذي لا ينقطع بين وجهات النظر. مسرحيات شكسبير وقصائده تعج بالإشارات التي تؤكد أنه - وغيره العديد من الكتّاب - تأثر بأوفيد إلى حد كبير. أوفيد لم يحجم عن الاختراع والإضافة والإزالة، وهذا كان له عليّ تأثير مشجع لأن أكون... أقول واسع الخيال مثلًا؟ في بعض حكاياتي أيضًا.

مصادر حديثة

أطفال عديدون على جانبي المحيط الأطلنطي كبروا - مثلي - وهم يقرأون تجميعات كلاسيكية للأساطير اليونانية كتبها أربعة أمريكيين ذوي شعبية لا تنضب، اثنان منهم من القرن التاسع عشر: ناثانييل هاوثورن Nathaniel Hawthorne، الذي منحنا (كتاب الأعاجيب للبنات والأولاد Wonder - Book for Girls and Boys) عام 1851، وجزءه الثاني (حكايات تانجلوود Tanglewood Tales) عام 1853، والثاني كان توماس بولفينش Thomas Bulfinch، الذي تحول كتابه (عصر الخرافة The Age of Fable) عام 1855 إلى مجموعة (ميثولوجيا بولفينش Bulfinch's Mythology) عام 1881، وصدرت منها 160 طبعة محدثة على مدار 160 عام. القرن العشرون هيمن عليه عمل إديث هاميلتون الذي لا مثل له (ميثولوجيا: حكايات الآلهة والأبطال الخالدة :Mythology Timeless Tales of Gods and Heroes) عام 1942، والذي لا يزال لحسن الحظ مطبوعًا منشورًا، وكتاب برنارد إيفسلين Bernard Evslin (أبطال وآلهة ووحوش الأساطير اليونانية Heroes, Gods and Monsters

of the Greek Myths) عام 1967. المعادل البريطاني يتضمن (مغامرات أوليسيس Adventures of Ulysses) عام 1808 لتشارلز لامب Charles Lamb و(الأساطير اليونانية المفضلة Favourite Greek Myths) عام 1905 ل. س. هايد L. S. Hyde، وهذا الأخير بالذات كان من مفضّلاتي الأساسية عندما كنت طفلًا.

كل أولئك استحقوا ولا يزالون يستحقون كل تقدير، لكنهم كانوا ينزعون لتفادي أو تهذيب الأجزاء الجنسية أو العنيفة، التي هي أجزاء محورية من العالم الأسطوري اليوناني. الشاعر والروائي روبرت جريفز Robert Graves لم تكن لديه مثل تلك الدوافع المتحفظة، لكن عمله ذا الجزأين متفرد البنية السردية: (الأساطير اليونانية The Greek Myths) عام 1955، كان رغم دقة تفاصيله وأكاديميته يرسم مسارًا أدبيًا ميثوجرافيًا يميل غالبًا لاستعراض وتأكيد هوسه بعقائد «الربّات البيضاء». نهج جيمس فريزر James Frazer ومن جاءوا بعده بمن فيهم جوزيف كامبل Joseph Campbell، رغم قيمته العالية إلا أنه أقل تركيزًا على الإغريق وله أغراض أخرى سيكلوجية وأنثروبولوجية ومقارنة. على الإنترنت هذه الأيام توجد الكثير من المواقع المخصصة لمساعدة الشباب على إيجاد الأساطير اليونانية، وإن كنت ربما سترغب في الاستلقاء بعد قراءة من يصفون كادموس بـ«صاحبي» وهرمس بـ«الروش» وهاديس بـ«جدع عنده مشاكل».

الموقع الإلكتروني الوحيد الذي أرشحه من أعماق قلبي هو theoi.com، وهو ببساطة مصدر عظيم مخصص بالكامل للأساطير اليونانية، إنه مشروع هولندي نيوزيلندي يحتوي أكثر من 1500 صفحة من النصوص ومعرض من 1200 صورة تضم لوحات المزهريات والتماثيل والفسيفساء واللوحات الجدارية المتعلقة بتيمات من الأساطير اليونانية، ويقدم أيضًا فهرسة شاملة للأنساب والمواضيع والعناوين. قائمة المراجع هائلة، وقد تأخذنا في متاهة عظيمة نقفز فيها من مصدر إلى مصدر بحماسة من يجمع الفراشات.

تهجئة الأسماء

بما أن الكثير من الأساطير اليونانية وشخصياتها بلغَتنا عبر كتاب رومانيين، ولأن أبجديتنا أقرب إلى اللاتينية من اليونانية، تهجئة الأسماء والأماكن هنا قد تصيب وقد تخطئ. كان بوسعي اختيار أن أقدِّم فقط تهجئة يونانية، هكذا كنت سأكتب Kerberos وIason وKadmos عوضًا عن Cerberus وJason وCadmus. هل كان يجب أن أستخدم Cronus بدلًا من Kronos؟ ربما كان يفترض بي تفضيل Aktaion عن Actaeon؟ Narkissos يبدو شخصًا هائجًا مقارنة بـ Narcissus الذي نعرفه جميعًا جيدًا. على أي حال لقد كنت غير متسقٍ في اختياراتي، لكنني كنت متسقًا في عدم اتساقي.

نطق الأسماء

نصيحتي لك هي نطق الأسماء في رأسك بأكثر طريقة مريحة لك. حرف الـkappa اليوناني يغطي أصوات الـ k الثقيلة، وحرف الـ chi يغطي الصوت الحلقي الاحتكاكي الذي تنطق به الـ ch في كلمات مثل loch وBach [لوخ، باخ]، وإن كان نطقك لكل الـch بصوت الـk العادي لن يكون خاطئًا. حرف eta أو e الطويلة كما يسمونه، كان ينطق (يـ) كما كانوا يدرسونه في المدارس اليونانية القديمة.

هل ننطقThetis إذًا ثيتيس أم ثييتيس أم ثايتيس؟ هل Metis هي متيس أم ميتيس أم مايتيس؟ هل Ares هو آهرييس أم إيرييس؟ ينطق اليونانيون المعاصرون الأسماء بطريقة، وينطقها الأكاديميون الإنجليز أو الأمريكان بطرقهم الخاصة أو بالطرق الشائعة.

رأيي هو أن من يقول لك أن ثمة طرق صحيحة أو خاطئة بشكل حاسم، يمكن الشك في كلامه.

اللوحات

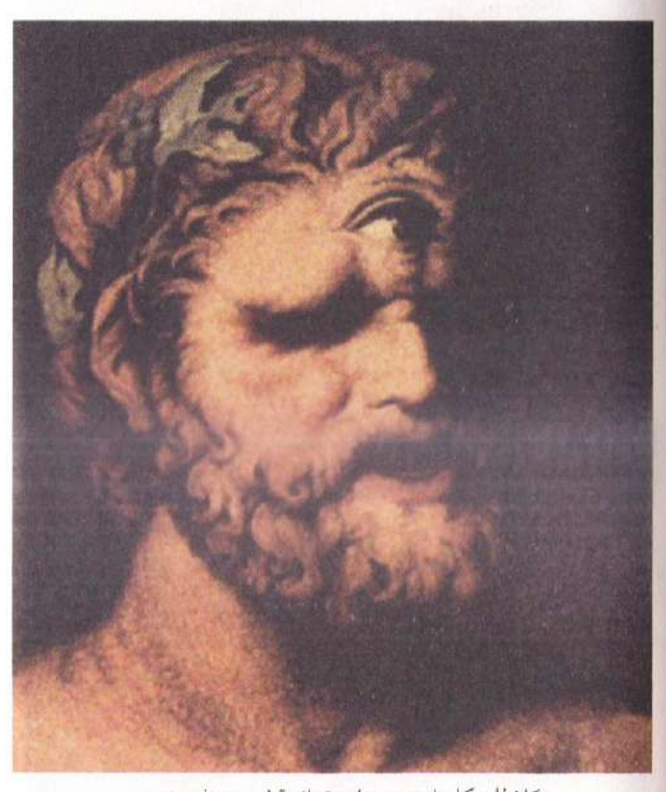
صور الجزء الأول



جايا، الربة الأولية وتجسيد الأرض، وُجدت في أول الخلق
Gaia, Mother Goddess Greek relief. Ancient Art Architecture Collection Ltd / Alamy



ثيميس، الربة التيتانة التي صارت تجسّد القانون والعدالة والنظام. تظهر هنا جالسة على المقعد الدلفي الثلاثي، تحمل كأسًا في يد وفي الأخرى غصنًا من نبات الغار
Attic Red-Figure Cup, bpk / Antikensammlung, Berlin.



كان للسيكلوبات عين واحدة دائرية في منتصف جبهتهم
Polyphemus, Johann Heinrich Wilhelm Tischbein, 1802. Landesmuseum Oldenburg



هيبنوس، تجسيد النوم، سينجب مورفيوس الذي يصنع الأحلام
Bronze head of Hypnos, c.275 BC. British Museum / Alamy.



كرونوس يستخدم المنجل لتشويه والده أورانوس
The Mutilation of Uranus by Saturn by Giorgio Vasari, c.1560. Palazzo Vecchio, Room of the Elements.



لوحة (ولادة فينوس) لبوتيتشيلي، تُظهر أفروديتي تنزل في قبرص
The Birth of Venus, Sandro Botticelli, c.1485. Uffizi Gallery. Florence / Bridgeman.



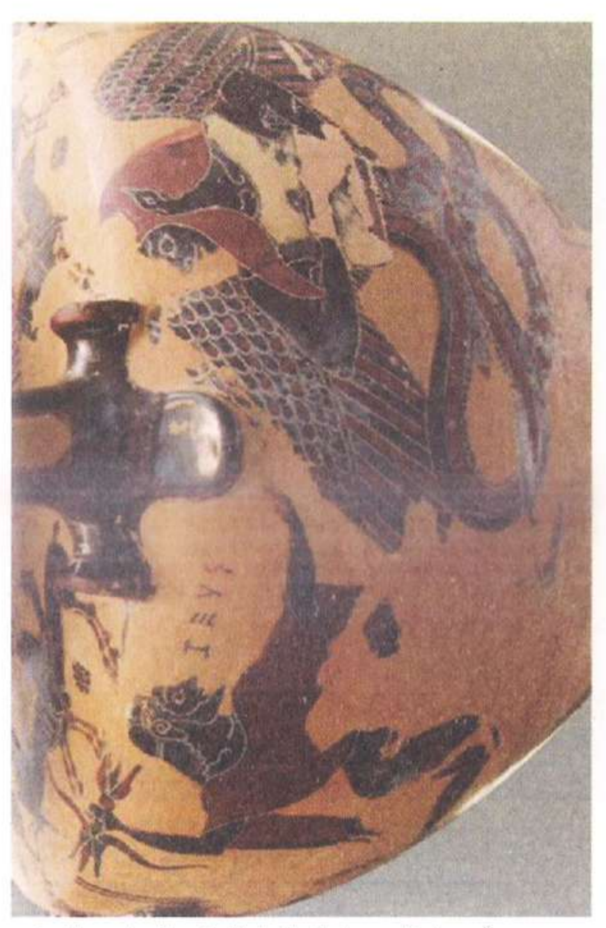
كرونوس يلتهم أبناءه
Saturn Devouring One of His Sons, Francisco de Goya, c.1823. Prado Museum, Madrid / Alamy.



كرونوس يأخذ صخرة الأومفالوس من ريا
Attic Red Figure attributed to the Nausicaa Painter, c.475 – 425 BC. Metropolitan Museum of Art, New York.



زيوس الرضيع تطعمه النيمفات وأمالثيا الماعز في كريت
The Feeding of the Child Jupiter, Nicolas Poussin, c.1640. National Gallery of Art, Washington DC. / Bridgeman.



زيوس يصوِّب صاعقة رعد على الثعبان ذي الساقين والجناحين: تايفون

Attic Black-Figured Hydria, c.540–530 BC.

Staatliche Antikensammlungen, Munich.



الميوزات: الشقيقات التسعة اللواتي تمثل وترعى كل منهنّ نوعًا مختلفًا من الفنون

The Dance of the Muses, Joseph Paelinck, 1832.

Private Collection / Alamy.



الآلهة تحارب التياتنة في حرب العشرة أعوام المعروفة بالتيتانوماكي

The Battle Between the Gods and the Giants, Joachim Antonisz Wtewael, c.1608. Art Institute of Chicago /Bridgeman.



آلهة الأوليمبوس المنتصرون

The Gods of Olympus, Sala dei Giganti, c.1528.
Palazzo del Te / Bridgeman.

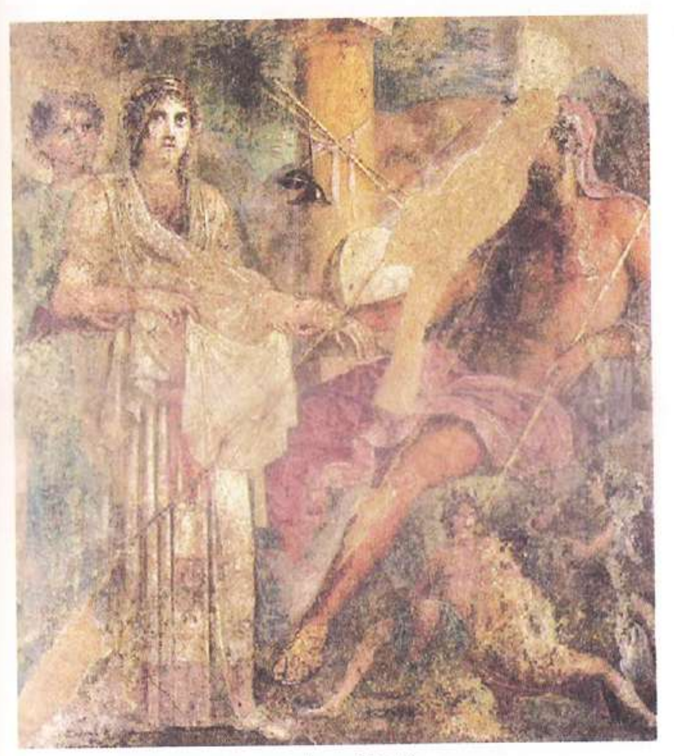


اثنان من الجيجانتيين يحاربان الآلهة في الجيجانتوماكي
Marble Relief of the Battle of Giants, Gigantomachy.
Getty Images / De Agostini Picture Library



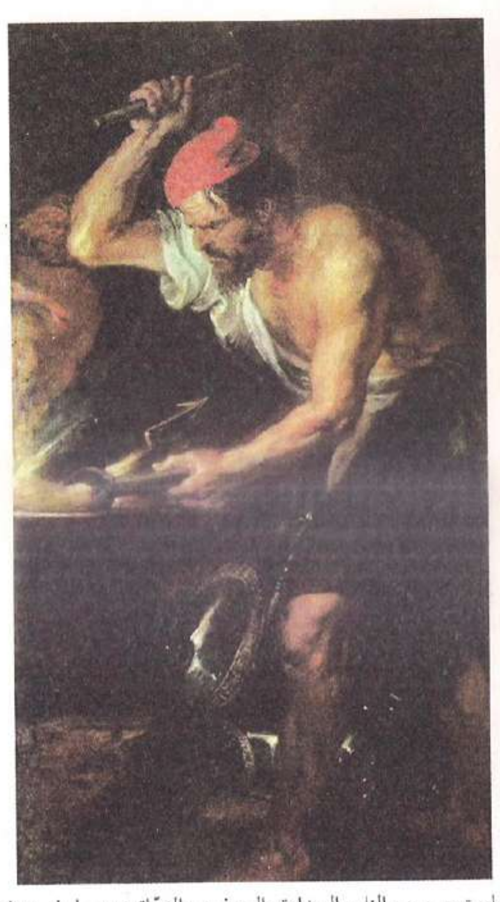
الموبراي أو ربات القدر، كلوثو تغزل خيطًا يمثل الحياة ولاكسيس تقيس طوله
وأتروبوس تقصّه لتنهي الحياة
Relief of the Three Moirai. Alte Nationalgalerie,, Berlin

صور الجزء الثاني



حفل زفاف هيرا وزيوس

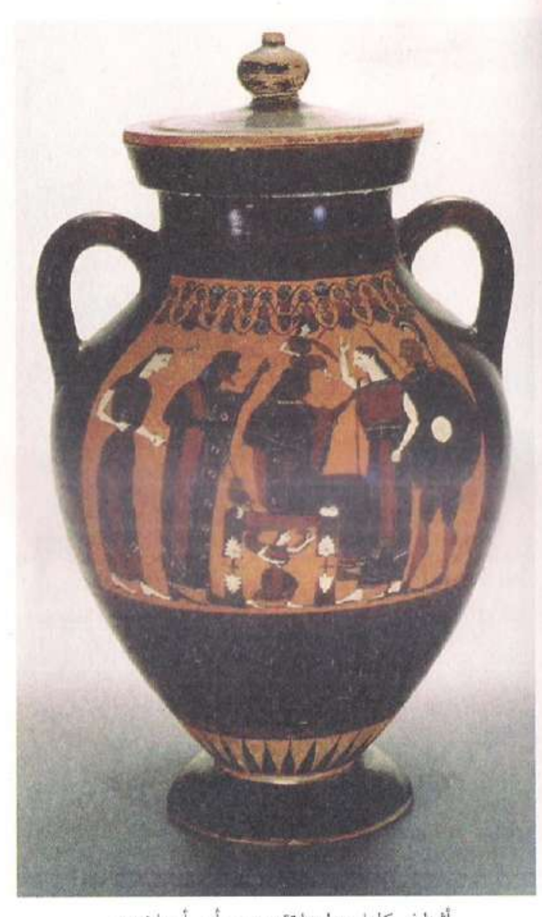
Hierogamy, unknown artist, 1st Century AD.
Museo Archeologico Nazionale, Naples /
Bridgeman.



هيفايستوس، رب النار والحدادة والحرفيين والنحّاتين، يعمل في ورشته
Vulcan Forging Jupiter's Lightening Bolts, Peter Paul
Rubens, 1636–38. Prado Museum, Madrid /
Bridgeman.



آريس نائم في سلام، وأفروديتي تراقبه صاحية ومنتبهة
Venus and Mars, Sandro Boticelli, c.1485.
National Gallery, London / Alamy.



أثينا في كامل عتادها تقوم من رأس أبيها زيوس
Black-figure Amphora, 6th century BC. Louvre, Paris / Bridgeman.



بالاس أثينا، ربة الحرب
Minerva or Pallas Athena, Gustav Klimt, 1898.
Wien Museum Karlsplatz, Vienna / Bridgeman.



صمم هيفايستوس لرسول الآلهة هرمس صندل التالاريا ذا الجناحين، الذي سيصبح علامة هرمس المميزة

Red-Figure Cup, 5th century BC. Louvre, Paris / Bridgeman.



أبولو مسحور بهدية هرمس له: الموسيقى
Apollo, Italian School, 17th century. Musee Massey, Tarbes, France / Bridgeman.



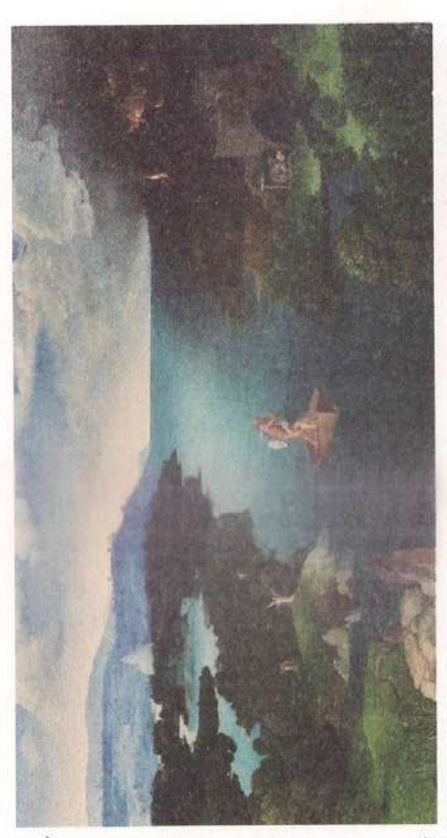
بروميثيوس يحضر النار للبشر

Prometheus Bringing Fire to Mankind, Friedrich Heinrich Fuger, 1817. Neue Galerie, Kassel, Germany / © Museumslandschaft Hessen Kassel / Ute Brunzel / Bridgeman.



قال زيوس لبروميثيوس: «ستظل ممددًا على هذه الصخرة إلى الأبد، لا أمل لك في هروب ولا غفران، سيأتيك هذان العقابان كل يوم ليمزّقا كبدك مثلما مزّقت قلبي، وسيأكلانه أمام عينيك، ولأنك خالد سينمو لك كبد جديد كل ليلة. لن ينتهي هذا العذاب أبدًا»

Prometheus Bound, Jacob Jordaens, c.1640. Wallraf-Richartz-Museum, Köln, Germany / Alamy.



في اللحظة التي تغادر فيها روح البشري جسده، يقودها هرمس أو ثاناتوس عبر الكهوف تحت الأرضية إلى حيث يقابل نهر ستيكس (الكراهية) نهر أكرون (الويل)، هناك سيمد كارون العابس الصامت يده ليتلقى أجرته على نقل الأرواح عبر ستيكس

Charon Crossing the River Styx, Joachim Patenier or Patinir, 1515–24. Prado, Madrid, Spain / Bridgeman.



انقضى العصر البشري للآلهة والبشر عندما فتحت بندورا الجرة، وأطلقت سراح المرض والعنف والخداع والبؤس والحاجة في العالم

Pandora, John William Waterhouse, 1896. Private Collection / Alamy.



بيرسفوني تصبح ملكة العالم السفلي لستة أشهر، وفي الأشهر الستة الأخرى تعود لأمها ديميتر ربة للخصوبة والزهور والسعادة

The Return of Persephone, Frederic Leighton, c.1891.
Leeds Museums and Galleries (Leeds Art Gallery)
UK / Bridgeman.



إيروس وسايكي... كيوبيد وأنيما... الحب والروح
Cupid and Psyche, Francois Edouard Picot, 1817.
Louvre, Paris / Bridgeman.



فيتون يرجو أباه أبولو ليدعه يقود عربة الشمس عبر السماء

The Fall of Phaeton, Peter Paul Rubens, c.1604–8.
National Gallery of Art, Washington DC / Bridgeman.

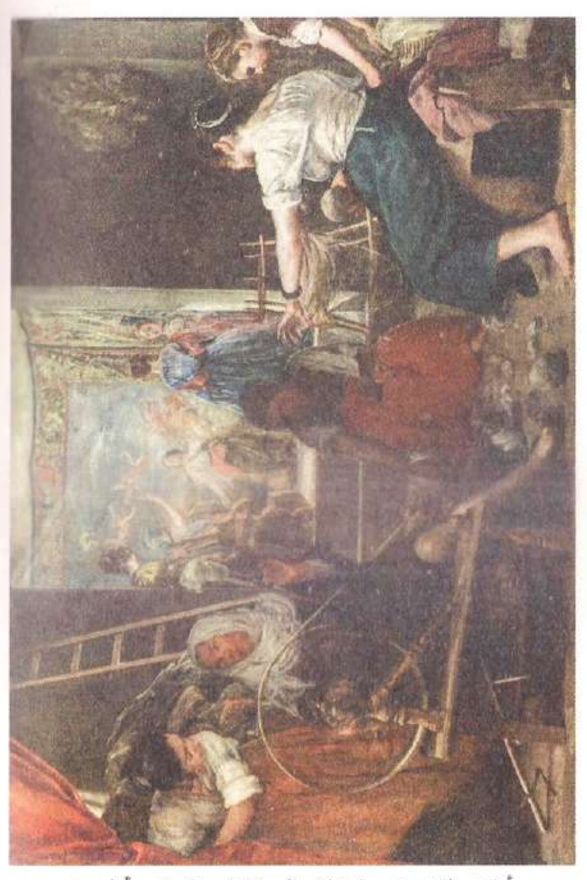


سايلينوس ذو الكرش، معلم ديونايسيس، بصحبة السايلينيين
Drunken Silenus Supported by Satyrs, Peter Paul Rubens (studio of), c.1620, National Gallery, London / Bridgeman.



أبولو، كي يعاقب مارسياس على الهوبرس الذي ارتكبه بتجرّوئه على تحدي رب أوليمبي، سلخ جلد الساتير عن جسده حيًا

Apollo and Marsyas, Michelangelo Anselmi, c.1540. National Gallery of Art, Washington DC / Bridgeman.



أراكني الفخورة بمهارتها في الحياكة في منافسة مع أوليمبية
The Spinners, or The Fable of Arachne, Diego Rodriguez de Silva y Velazquez, 1657. Prado, Madrid / Bridgeman.



آريس، رب الحرب
Head of Ares, after Greek original by Alkamenes, 420 BC. State Hermitage Museum, St Petersburg, Russia / Alamy.



أرتيميس، ربة العفّة والصيد، ربة الكلاب والأيائل، وملكة الراميات والصيادات
Diana, Paul Manship, 1925. National Gallery of Art, Washington, DC, USA / Alamy.

المراجع

[1] خدعة الولادة العذرية تلك، أو التكاثر اللاجنسي parthenogenesis، يمكن إيجادها في الطبيعة حتى الآن، عند حشرات المن aphids وبعض السحالي وحتى عند أسماك القرش، وهي طريقة منطقية وشائعة للحصول على صغار. لكن لن يكون هناك أي تنوع في الناتج مثل الذي يتسبب فيه امتزاج مجموعتين مختلفتين من الجينات، وهذا هو الحال نفسه عند الآلهة اليونانية، الشخصيات المثيرة للاهتمام كلها حصيلة اتحاد والدين، لا واحد.

[2] حتى الآن لا يزال اسم السماء في اللغة اليونانية أورانوس ouranos.

[3] البرنتوصور brontosaurus أو (عظاءة الرعد) نال اسمه من برونتس. الشقيقات الروائيات الثلاثة من يوركشاير ربما نلن اسمهم من برونتس أيضًا، فأبوهم وُلد باسم Brunty لكنه غيره إلى Brontë، ربما ليمنح اسمه الأيرلندي بعضًا من الرعد الكلاسيكي، أو ربما لتكريم الأميرال نلسون Admiral Nelson الذي أصبح دوق برونتي. الدوقية [أي المقاطعة التي يحكمها الدوق] كان تقع على منحدرات إتنا Etna، ويُعتقد أن اسمها مشتق من السيكلوبس الذي يقبع أسفلها.

[4] Hecatonتعني مئة، وchires تعنى أياد، أي يعني الاسم (ذو المئة يد).

[5] تيثيس هو أيضًا الاسم الذي أعطاه علماء المستحاثات للبحر القديم الذي كان سلف البحر الأبيض المتوسط.

[6] بما أنه كانت هناك تقريبًا ثلاثة آلاف أوشيانية، لن يكون من المجدي ذكرهن جميعًا، حتى لو كانت كل أسمائهن معروفة. لكن يجدر بنا تقديم كاليبسو Calypso وأمفيترايتي Amphitrite، وستيكس Styx المرعبة المظلمة التي ستصبح ربة نهر مهم مثل أخيها نيلوس. ثمة أوشيانية أخرى تستحق الذكر، لكن ذلك فقط بسبب اسمها: دوريس Doris، دوريس الأوشيانية. ستتزوج رب البحر نيريوس Nereus ومنه ستنجب نيريديات Nereids عديدات، وهن نيمفات البحر الطيبات.

[7] أصبحت ثيميس لاحقًا تجسيدًا للقانون والعدالة والتقاليد، والأعراف، أي القواعد التي تحكم كيف يجب أن تكون الأخلاق والأشياء.

[8] من تايفون Typhon جئنا بكلمات تيفوس Typhus، وتيفود Typhoid، وأسوأ العواصف الاستوائية على الإطلاق إعصار التيفون The Typhoon. لاحقًا سنقابل اثنين من ذرية تايفون المقيتة من نصف امرأة نصف ثعبان بحر تُدعى إيكدنا Echidna.

[9] سيُعبد مومِوس بطريقة جادة هزلية، كالإله المرشد للسخرية. استخدمه إيسوب Aesop [كاتب إغريقي أشهر كتاباته (حكايات إيسوب)] في بعض حكاياته، وهو بطل مسرحية ضائعة لسوفوكليس Sophocles [من أعظم كتاب المسرحيات الإغريقيين].

[10] الشيء المربك أن الرومان سموا نيمسيس إنفيديا Invidia، وهي الكلمة اللاتينية للحسد.

[11] شخصية دريم [حلم] في كتب Sandman المصورة للكاتب نيل جايمان تُعرف أيضًا باسم مورفيوس، وهي مصدر الإلهام لشخصية مورفيوس التي لعبها الممثل لورنس فيشبورن في أفلام Matrix للأختين واكوسكي.

[12] بل ربما أربعة استثناءات، فهيبنوس ليس بهذا السوء في النهاية، كلما عشت أكثر صرت متيمًا به أكثر، وبالحديث عن العيشة أكثر، فربما جيراس ليس شنيعًا إلى هذه الدرجة. إذًا خمسة.

[13] اسمهم لا يشير إلى حجمهم، بل إلى أصلهم التحت - أرضي، أي جايا - جنتيون، وبالصدفة اسم جايا في اليونانية المتأخرة اختُصر إلى جي Ge، لا تزال جايا معنا في علوم الأرض مثل (geology) [جيولوجيا] و(geography) [جغرافيا]، ناهيك عن ذكر الدراسات البيئية الحديثة التي أعادت لها اسمها الكامل، مثال عظيم على ذلك (فرضية جايا Gaia Hypothesis) الشهيرة لجيمس لوفلوك James Lovelock.

[14] السكر في منّ الدردار manna ash، وهي أشجار لا تزال تنمو في جنوب أوروبا، أعطى اسمه للمحلي الكيميائي المعاصر مانيتول Mannitol.

[15] على الأقل قد يجد السماء الأب المخلوع بعض العزاء في كوكب أورانوس

Uranus المسمى على اسمه بالنطق الروماني. جرت العادة على تسمية الكواكب بأسماء الألهة في نظائرها الرومانية.

[16] في الواقع لا تزال منطقة وسط اليونان حيث يقع جبل أوثريس تُدعى ماغنيسيا Magnesia حتى اليوم، ومنحت اسمها للماجنيسيوم magnesium والمغناطيس magnets وطبعًا الماجنتيت magnetite [أكسيد الحديد الأسود]، والمنجنيز Manganese أيضًا بسبب خطأ إملائي.

[17] مثلما هو حال كل الأشخاص الجذابين لدرجة استثنائية، يتوجب علينا أن نعتذر أو ننظر في اتجاه آخر كلما سبب جمالنا عدم الارتياح.

[18] السؤال عن الزمن الذي يستغرقه الخالد ليُفطم ويمشي ويتحدث ويكبر هو سؤال مضنٍ. تصر بعض المصادر على أن زيوس كبر من الطفولة إلى الشباب في عام واحد. الزمن الإلهي وزمن الفانين لا يسيران على التوازي كما يبدو، بالضبط مثل زمن الكلاب وزمن البشر، أو زمن الأفيال وزمن الذباب. من الأفضل على الأرجح ألا نركز لدرجة حرفية على البنية الدنيوية للأسطورة.

[19] مال زيوس دومًا للعب، أطلق عليه الرومان جوبيتر Jupiter أو جوف Jove، أي أن عنده بشكل شبه حرفي jovial disposition [نزوع إلى اللهو]. جوستاف هولست Gustav Holst في متتاليته الأوركسترية الكواكب The Planets أطلق على زيوس (جالب البهجة The Bringer of Jollity).

[20] مع أن كانت هيرا آخر من وُلدت قبل زيوس بترتيب الولادة، إلا أنها تعد الآن ثاني الأبناء، حدث نوع من عكس ترتيب الأقدمية بينما كانوا ينبثقون من أحشاء كرونوس. بات زيوس رسميًا الأكبر من الأبناء، بينما صارت هستيا، التي كانت أول من وُلد، الأصغر. هذا منطقي لو كنت إلهًا.

[21] حكى لنا هسيود Hesiod شاعر القرن الثامن ق.م الحكاية كاملة، لكن شعراء آخرين غنوا عن قصيدة تدعى Titanomachia لشاعر القرن الثامن إيوميلوس الكورنثوسي Eumelus of Corinth (أو ربما الشاعر الجوال الأعمى الأسطوري ثامريس التراقي Thamyris of Thrace)، وهي مذكورة بشكل محير في نصوص عديدة، لكنها لم تصل إلينا. يصف هسيود المعركة الضارية التي هزت الأرض

كالتالي: «هاج البحر اللانهائي بجنون، وانشقت الأرض بصوت عظيم، ارتجت السماء الشاسعة وتأوهت، و... ترنحت فوق أعمدتها تحت ثقل ضربات الآلهة التي لا تموت، وبلغ الاضطراب العنيف أعماق تارتاروس السحيقة المعتمة، وأصوات أقدام المتحاربين خلال هجماتهم المتبادلة وضجة مقذوفاتهم الثقيلة. عندها، رفعوا رماحهم القاتلة على بعضهم، وبلغت صرخات الجيشين نجوم السماء، وتقابلا في ساحة الوغى بصيحات قتالية عظيمة».

[22] انظر ملحق (الچيجانتيون) صفحة (يُعدل هذا الهامش بعد التنسيق بإضافة رقم الصفحة)

[23] جاءت البايريديات Pierides أيضًا من بيريا، وهن تسعة شقيقات ارتكبن خطأ تحدي الميوزات، فقط ليتحولن إلى طيور عقابًا لهن. يشير ألكسندر بوب Alexander Pope [شاعر إنجليزي من القرن الثامن عشر] إلى بيريا واصفًا إياها بينبوع الحكمة والمعرفة في بيت شعر شهير في قصيدته (مقالة في النقد Essay on Criticism):

قليل العلم، خطيره
اشرب كثيرًا من النبع البيري حتى ترتوي
أو لا تقربه

[24] لإعطاء الممثلين طولًا زائدًا ومكانة رمزية أيضًا.

[25] والذي أعطانا أيضًا (عبر الكلمة التي تعني ازدهار برعم أخضر) اسم عنصر الثاليوم thalium، المفضل عند كتاب روايات الجريمة والقتل بالسم.

[26] التي تشارك اسمها مع ميوز الكوميديا.

[27] الأتروبين Atropine، السم المستخرج من نبات اللفاح، ونبات الباذنجان المميت Atropa belladonna، يدينان باسميهما للشقيقة الثالثة الأكثر خطرًا.

[28] لاحقًا سيعتبر اليونانيون ربات القدر بنات أنانكي Ananke (أي الضرورة) ولسن أبناء نيكس. ثمة تشابه قوي بينهن وبين النورنات في الميثولوجيا النوردية.

[29] التاجيديات Tagides كنّ النيمفات المختصات بنهر تاجة Tagus فقط، لكن الآن وقد ذكرتهن، يمكننا أن ننسى كل ما يتعلق بهن، فنحن لن نلتقي بهن مجددًا..

[30] مينويشس MENOETIUS شقيق أطلس، الذي يعني اسمه «الجبار المنكوب»، كان خصمًا قويًا ضاريًا مريعًا أيضًا، لكن زيوس دمره بواحدة من أوائل صاعقات الرعد.

[31] وإن كانت الصور الأحدث تصوره يحمل العالم لا السماء.

[32] عند بعض المتخصصين في الميثولوجيا Kronos التيتان هو كيان مختلف عن Chronos الزمن، لكني أفضل النسخة التي توحد بين الاثنين.

[33] يستشير علماء الفلك الباحثين الكلاسيكيين عندما يودون تسمية جسم سماوي في نظامنا الشمسي. الأقمار العديدة التي تدور حول ساتورن [زحل] منها تيتان وإيابتوس وأطلس وبروميثيوس وهايبريون وتيثيس وريا وكاليبسو، وهناك أيضًا حلقات ساتورن، ربما تشير إلى الزمن مثل الحلقات في الشجرة.

[34] بعض التياتنة الإناث كنّ جذابات للغاية، وزيوس -بكل شهوانيته ورغباته الجنسية وعرضته للوقوع في الحب مثل أي كائن حي عاش أو سيعيش- كان يستبطن النوايا بالفعل لواحدة أو اثنتين منهن.

[35] «التفكير المسبق» و«البصيرة» و«التدبر» هم معنى اسم بروميثيوس.

[36] حسن الضيافة، أو زينيا xenia، كانت من أكثر الأخلاق توقيرًا في العالم اليوناني لدرجة أن هستيا شاركت رعايتها مع زيوس ذاته، الذي كان يطلق عليه في بعض المناسبات زيوس زينوس، وكانت الآلهة أحيانًا تختبر حسن ضيافة البشر مثلما سنرى في قصة فليمون وباوكيس، وكان هذا يُعرف باسم ثيوزينيا theoxenia. من يعانون من رهاب الأجانب xenophobia لا يمدون يدهم بالسلام على الأغراب بالطبع.

[37] أحيانًا قد ترى الاسم ديس Dis (ثراء باللاتينية) مستخدمًا لسليل هاديس في الثقافة اليهو - مسيحية لوسيفر Lucifer. دانتي Dante في الجحيم Inferno أطلق على مدينة الجحيم اسم ديس. اليوم لا أحد سوى مشفري الكلمات المتقاطعة يستخدم هذا الاسم تقريبًا.

[38] أو «الكوكب القزم» مثلما يصنفوه بمنتهى قلة الاحترام. أقمار بلوتو تُدعى ستيك ونيكس وكارون وكيربيروس وهايدرا.

[39] وهو أمر غريب بالطبع لأن النايادات هن نيمفات المياه العذبة، على عكس النيريادات نيمفات المياه المالحة والأوشيانيات. ربما لم يستشر علماء الفلك الباحثين الكلاسيكيين هذه المرة عندما خصصوا المسميات.

[40] بروتوس Proteus عجوز البحر متغير الشكل كان يرعى الوحوش البحرية ويعلم الكثير. لتحصل على معلومات منه عليك أن تصارعه، وهو أمر في غاية الصعوبة إلى حد محبط، فقد كان قادرًا على التحول بسرعة شديدة إلى أي شكل جديد، من السحلية إلى الفهد إلى الدولفين إلى الزغبة. من قدرته المذهلة على التبدل حصلنا على كلمة (سريع التقلب والتغير protean).

[41] لا تخلط بينه وبين أريون المغني وكاتب الأغاني، الذي سنقابله لاحقًا.

[42] يُترجم اسم De-meter عادة إلى «أم الشعير» أو «أم الذرة»، وإن كان يُعتقد الآن أنه كان يشير في الأصل على الأرجح إلى «أم الأرض»، ما يشير إلى انتزاع جيل زيوس زمام العالم بالكامل من جايا.

[43] علينا ألا ننسى أن جايا كوكبٌ أيضًا: فهي كوكبنا الأصلي. باللاتينية هي Tellus أو Terra Mater، ودخلت الإنجليزية كـ «Earth» (مشاركة الأصل اللغوي نفسه مع الربة الجرمانية Erde أو Erda أو Joeth أو Urd).

[44] أود أن أقترح ماري دريسلر Marie Dressler [ممثلة أمريكية قديمة (1868-1934)] والسيدة براكنيل Lady Bracknell [شخصية من روايات الشاعر الإنجليزي أوسكار وايلد] والعمة أجاثا Aunt Agatha [شخصية خيالية من قصص الكاتب الإنجليزي بي. جي. وودهاوس] كثلاثة أمثلة عظيمة يمكن تتبع أصولهن إلى هيرا.

[45] منذ أخذ زيوس هذا القرار بدا أن رقم 12 صارت له خواص هامة، فهو قابل للقسمة على 2 و3 و4 و6، ما يجعله مركبًا مرتين أكثر من رقم 10 الأحمق، ولا تزال الدستة موجودة حولنا في الأبراج الفلكية وساعات اليوم والشهور والبوصات والبنسات (على الأقل عندما كنت صبيًا كان في الشلن اثنا عشر بنسًا)، ناهيك عن ذكر قبائل إسرائيل وأتباع المسيح وأيام الكريسماس ودورة الاثني عشر عامًا الآسيوية... إنه عالم اثنى عشري بامتياز.

[46] كان الآلهة بالنسبة لها، لو فكرت في الأمر مليًا، أبناء وبنات أخ، فهم أبناء كرونوس، وهي نتاج مباشر لقذف أورانوس.

[47] مبدأ هام يفرض نفسه هنا، وسنقابله مجددًا مرارًا: لا يستطيع أي إله فك لعنة أو انمساخ أو تعويذة أو سحر وضعه إله آخر.

[48] كوكب فولكان وسكانه – وبالأخص كابتن سبوك Spock – ليس لهم علاقة بقدر علمي [كوكب خيالي من المسلسل الشهير Star Trek]. يشير الرومانيون أحيانًا إلى فولكان باسم مولسيبر Mulciber، أي المصهر، في اعتراف إما بقدرته على تليين الحديد للعمل عليه أو لقدرته على تهدئة غضب البراكين.

[49] لا يزال اليونانيون يضيفون راتنج الصنوبر للنبيذ، يسمون المشروب الناتج رتسينا retsina ويقدمونه لزوارهم. لا أحد يعرف لماذا قد يقدم ناس يتسمون عادة باللطف وحسن الضيافة شيئًا مماثلًا، طعمه لا يختلف كثيرًا عن كنهه، مثل التربنتين الذي يستخدمه الفنانون في لوحاتهم الزيتية، وأنا أعشقه.

[50] تلك بالطبع لن تكون آخر مرة نشهد فيها زيوس يتلاعب بالأيمان ويتنصل من الالتزامات.

[51] أو Cos، الموطن الأصلي للخس الروماني الذي يحمل ذات الاسم وأحد المكونات الأساسية في سلطة سيزر الشهيرة.

[52] في الواقع لا تجري في عروق الآلهة دماءٌ، بل سائل جميل بين الفضي والذهبي اسمه أيكور Ichor، وكان ذلك سائلًا غريبًا، فرغم أنه يحتوي كل خصائص الحياة الأبدية الموجودة في الأمبروزيا والنكتار، كان قاتلًا وشديد السمية للفانين.

[53] سيكون في قوة أثينا البحرية والملاحية إنقاذٌ للأثينيين، فقد انتصروا بهما على الفرس في معركة سالاميس Salamis، لكن يمكن القول إن زراعة الزيتون وبقية المهارات والفنون والتقنيات المتعلقة بأثينا لها أهمية أعظم.

[54] بالإضافة إلى درعها، كانت أثينا تُصور كثيرًا وهي تحمل إيجيسًا Aegis. لم يُتفق بدقة على شكل هذا الإيجيس أو كنهه، يصفه البعض أحيانًا بأنه جلد حيوان (ماعز على الأغلب، الماعز في اللغة اليونانية aiga)، وإن كان أحيانًا أخرى يُمثل كفرو أسد أو نمر في التماثيل أو على الأشكال السيراميكية. إيجيس زيوس كان على شكل درع مغطى بجلد الماعز وغالبًا ما يُرى عليه وجه جرجونة. أحب ملوك البشر وأباطرتهم تقديم هالة نصف إلهية بوضع إيجيسًا على أكتافهم كنوع من التعبير عن

حقهم في الحكم. تُستخدم الكلمة في أيامنا هذه للتعبير عن القيادة أو السلطة، يُقال إن كذا حدث تحت إيجيس Under the aegis شخص ما أو مؤسسة ما، أي أن هذه الأفعال حدثت بأوامر منهم أو برعايتهم.

[55] ارتبطت باسمها دومًا كلمة Parthenos، أي العذراء باليونانية، من هنا جاء اسم معبدها البارثينون the Parthenon على جبل أكروبولس.

[56] من حقنا استخدام كلمة كاريزما Charisma المستهلكة هنا، فهي يونانية في النهاية.

[57] في منطقة تراقيا الآن، تحيط بها اليونان وبلغاريا وتركيا.

[58] أفروديتي وأثينا، اللتان تساويانها في قدر الجمال، لم تولد أيٌّ منهما بالمعنى الحرفي للولادة.

[59] لماذا حول أبولو الغربان إلى اللون الأسود؟ ولماذا صار نبات الغار عنده مقدسًا؟ سنكتشف ذلك لاحقًا.

[60] شكلت الألعاب البايثانية الأوليمبية وكذلك الألعاب النيميانية Nemean والإسثميانية Isthmian ما يُدعى بـ «الألعاب البانهيلينية Panhellenic الأربعة». جوائز تلك الألعاب لا تقارن بمكاسب المسابقات الحالية المربحة، الفائز بالألعاب الأوليمبية كان يربح إكليلًا من شجرة الزيتون، والفائز بالبايثانية كان ينال إكليلًا من الغار، وإكليلًا من الصنوبر للفائز بالإسثميانية، والجائزة الأكثر إثارة على الإطلاق كانت من نصيب الفائز المحظوظ بالألعاب النيميانية: إكليلًا من الكرفس.

[61] يُعتقد أن اسم دلفي مشتق من delphys التي تعني (الرحم)، ويمكن بالطبع أن يكون مشتقًا من adelphi، والتي تعني «أشقاء» (لأنهم جاءوا من الرحم ذاته). إذًا ربما كان المكان المقدس مسمى على اسم أبولو التوأم، أو ربما على اسم رحم جايا. ثمة نظرية أخرى تقترح أن أبولو جاء إلى بايثو على دولفين، أي delphis باليونانية، والدولفين في النهاية سمكة ذات رحم. لكن كيف استطاع السفر كل تلك المسافة على الأرض فوق دولفين؟ ذلك أمر لا أستطيع تفسيره.

[62] عندما تتنبأ الكاهنة، يُقال إنها ممسوسة من الرب أبولو أو التيتانة ثيميس أو الربة جايا، أو ربما ثلاثتهم. الكلمة اليونانية للمسّ الإلهي هي enthusiasmos، ومنها جاءت كلمة enthusiasm [الحماس الشديد]. أن تكون متحمسًا بشدة لشيء ما هو أن تكون ممسوسًا من الإله بشكل ما.

[63] يقول البعض أن البخار يهسّ خارجًا من النبع الكاستالياني الذي ينبع من تحت الأرض، ما يبهج الماعز المحلي على ما يبدو. ربما يذكر ذلك بعض الناس بفتحة تنفس ونفخ الدولفين، ما يطرح تفسيرًا آخر لتغيير اسم بايثو إلى دلفي. كاستاليا بالصدفة هو اسم العالم المستقبلي في رواية هيرمان هسه Hermann Hesse (لعبة الكريات الزجاجية The Glass Bead Game).

[64] اليوم هو جبل كيليني Kyllini.

[65] خوذة هرمس الأنيقة تُدعى البيتاسوس The Petasus، صولجانه يُدعى الكريكيون The Kerykeion، أو الكاديوسيوس The Caduceus عند الرومانيين. يعرف العالم الصولجان عادة كرمز للطب ولسيارات الإسعاف، بالتبادل مع عصا أسكليبيوس أو بالالتباس بين الاثنين. (سنعرف المزيد عن أسكليبيوس لاحقًا).

[66] خيميائيو القرون الوسطى وعصر النهضة أطلقوا عليه هرمس تريسماجيستوس Trismegistus (أي هرمس ثلاثي العظمة). ولما كان قادرًا على إحكام غلق الأنابيب الزجاجية والصناديق والعلب بالسحر، وُصف اختراع بالون ماغديبورغ (الذي كان يستخدم الضغط الجوي والخواء في إحكام الغلق إلى درجة مذهلة) في القرن السابع عشر بأنه «مختوم هرماتيكيًا hermetically sealed»، وهو تعبير لا يزال يستخدم حتى اليوم.

[67] Megala Kazaniaميجالا كازانيا، الاسم المعاصر لقمة جبل الأوليمبوس، ويعني حرفيًا (الغلايات العملاقة)، ويظل حتى يومنا هذا مشهدًا مرضيًا لمحبي الجبال الذين يجرؤون على تسلق أعالي الأوليمبوس.

[68] لا أحد يدرك بالضبط إن كان من صنع أيادي الهيكاتونكيريس أو الركام الجليدي.

[69] الكلمة اليونانية لتعبير «بين النهرين» هو ميسوبوتاميا Mesopotamia، وهو الاسم التي كانت تُعرف به هذه المنطقة عند اليونانيين.

[70] انظر ملحق (أقدام وأصابع) صفحة (يُعدل هذا الهامش بإضافة رقم الصفحة بعد التنسيق الداخلي).

[71] هذه إحدى النظريات التي تفسر منشأ كلمة أنثروبوس، والتي تعني بشكل قاطع man [رجل/ إنسان]. شيء مؤسف أن كثيرًا من الكلمات التي تشير إلى جنسنا

يبدو أنها تشير فقط إلى الذكور، Human تأتي من نفس أصل homo اللاتينية والتي معناها (رجل)، هكذا تتجاهل كلمة humanity [بشرية] بمنتهى قلة الذوق نصف تعداد نوعنا، أما كلمتا Folk وPeople فهما محايدتان. لكن يجدر بنا التذكر أن كلمة man متصلة في الأصل بـ mens (أي العقل) وmanus (أي اليد)، وكانت في الواقع محايدة چندريا حتى حوالي بضعة آلاف سنة مضت.

[72] في الاسم معانٍ أكثر من ذلك، pan-dora تعني « مُنِحَتْ كل شيء» وتعني أيضًا «مَنَحَتْ كل شيء».

[73] قيل إن أول من أخطأ قراءة Pandora's Pithos [جرّة بندور] كـ pyxis [صندوق]، كان، من بين كل الناس، إيراسموس Erasmus، باحث القرن السادس عشر العظيم وأمير الفلسفة الإنسانية.

[74] انظر ملحق (أمل) صفحة (يُعدل هذا الهامش بإضافة رقم الصفحة بعد التنسيق الداخلي).

[75] البصيرة، لا التنبؤ...

[76] لكلمة مستذئب مرادف آخر في الإنجليزية غير werewolf، وهي ليكانثروب lycanthrope، وهي تعني باليونانية «الرجل الذئب».

[77] هذا طبقًا لأوفيد على الأقل، غيره من المصادر تقترح جبل إتنا Etna أو جبل أثوس Athos. في نفس الوقت تقريبًا كان نوح يرسو على جبل أراراط. يؤكد علم الآثار على ما يبدو أنه حدث في الماضي بالفعل فيضان هائل.

[78] انظر ملحق (الشقيقان) صفحة (يُعدل هذا الهامش بإضافة رقم الصفحة بعد التنسيق الداخلي).

[79] عادة كانوا يضعون في فم الميت أوبولًا Obol، وهو من العملات الإغريقية، تلقى كارون عن طيب خاطر أيضًا داناكي danake، وهو عملة فارسية مقابلة تضمنها النظام المالي الإغريقي مع الوقت.

[80] وصف فيرجيل Virgil لزيارة إينياس Aeneas للعالم السفلي تخبرنا عن لون قارب كارون.

[81] سنحكي قصة إغواء زيوس ليروبا هنا بعد وقت غير بعيد.

[82] جزر الكناري كانت حيث اختار الشاعر جورج بايرون George Byron أن تكون الجزر المباركة في قصيدته دون خوان Don Juan.

[83] لكن ليس في فرنسا، رغم اسم الشارع الأشهر في باريس الشانزليزيه.

[84] قامت هيكاتي بدور هام في مسرحية شكسبير (ماكبث).

[85] بوسع هيليوس أن يكون بطيء البديهة بقدر ما هو لامع خفيف سريع في عربة الشمس. حكاية استلامه مهمة عربة الشمس من أبولو سنعرفها لاحقًا.

[86] رغم أن البعض يؤيدون ذلك، لكني أميل لتصديق أن بان (أو فاونوس Faunus عند الرومانيين) أقدم من الأوليمبيين، ربما قديم قدم الطبيعة ذاتها. سنقابله من وقت لآخر بينما نمضي قدمًا.

[87] هناك جبلان باسم إيدا، أحدهما كريتي حيث وُلد زيوس، وآخر في فريجيا Phrygia بآسيا الصغرى، التي تقع اليوم في الأناضول بتركيا، وذلك حيث نشأ هرمافروديتوس.

[88] متاحف العالم الكبرى كانت تخفي الكنوز التي تمثل الأشكال ثنائية الجنس مثل هرمافروديتوس، لكن الكثير منها خرج للنور أخيرًا مؤخرًا، مثل تلك المعروضة في متحف أشموليان Ashmolean بأكسفورد وغيره من المؤسسات الرائدة، ما بدأ اتجاهًا جديدًا لإعادة اكتشاف تلك المنطقة المهملة. يتزامن ذلك مع فهم جديد عابر للمجتمعات للمرونة الجندرية.

[89] أو ربما بان.

[90] تمثال النحات ألفرد جلبرت Alfred Gilbert المصنوع من الألمنيوم الشهير، في مركز نافورة شافتسبري Shaftesbury التذكارية في ميدان بيكاديلي Piccadilly بلندن، ليس في الواقع تمثالًا لإيروس بل لأنتيروس، وقد أُختير على وجه الخصوص لتمثيل الحب الإيثاري الذي لا يتطلب مبادلة، إحياءً لذكرى إنجازات إيرل [الإيرل: لقب نبيل إنجليزي] شافتسبري السابع، التي أدت للإسراع من القضاء على عمالة الأطفال وإصلاح قوانين الجنون وغيرها.

[105] حتى طبيعة والد فيتون محل جدل، بعض المصادر تقول إن أباه هو تيتان الشمس هيليوس. لكنني سأسلك مسلك أوفيد وأنسب أبوته إلى الرب أبولو.

[106] أو سيكنوس Cycnus.

[107] اسم هيليوس الروماني هو سول Sol، ولو تنفست الغاز المسمى على اسمه (هيليوم Helium) سيجعلك تضحك بنفس الدرجة الحادة العالية التي كان يسخر بها هو نفسه من فيتون.

[108] ثمة كلمة لطيفة تعني وضع المرء بين النجوم: catasterism، وهي المعادل الكلاسيكي للمقابل المسيحي (التطويب canonization [اعتبار شخص من بين القديسين]). هناك كتاب عتيق مفقود يسمى Catasterismi، يحكي المنشأ الكلاسيكي للنجوم، ويُنسب إلى مؤلف سكندري غير حقيقي اسمه إيراتوسينيس Eratosthenes.

[109] قبل تلك الفكرة الفينيقية المذهلة كانت الكتابة تتخذ أشكالًا بصرية، مثل الهيروغليفية، لا علاقة لها بطريقة نطقها. عندما نكتب (24) مثلًا لا يعطيك هذا الرمز أي فكرة عن طريقة النطق، بل ستقرأه طبقًا للغتك الأساسية، لكن الكتابة بالحروف الألفبائية (أي الصوتية) مثل (أربعة وعشرين، twenty - four، vingt - quatre) تخبرك بالضبط كيف تنطقها. ذلك كان فتحًا عظيمًا، اقتباس اليونانيين للأبجدية الفينيقية في نظام كتابة لا يزال يُستخدم إلى الآن، والكتابة الكريلية ذات العلاقة الوثيقة به انتشرت من بلغاريا في القارن التاسع ق.م إلى البلقان وروسيا وأماكن عديدة في شرق أوروبا وآسيا، بينما تبنى الرومانيون حروف ألفا وبيتا اليونانية في نظام أبجدية سيصل إلى ذلك الذي تقرأه وتفسره أنت بسهولة في هذه اللحظة [لو كنت تقرأ بالإنجليزية أو باللغات التي تستخدم أبجدية شبيهة بالطبع]. هيرودوت Herodotus أبو التاريخ، الذي كان يعيش في القرن الخامس الميلادي، كان لا يزال يطلق على هذه الكتابة (الكادمية Cadmean).

[110] ليست إلكترا المنكوبة ابنة أجاممنون Agamemnon وكلايتمنسترا Clytemnestra، بل إلكترا أخرى تسبقها بزمن بعيد. في الاسم مدعاة للتأمل، فهو الاسم الأنثوي من إلكترون Electron، وهي الكلمة اليونانية للكهرمان. لاحظ الإغريق أنك لو دعكت

قطعة كهرمان بقماشة، سيجتذب الكهرمان بشكل سحري الغبار والزغب، أطلقوا على تلك الظاهرة (الكهرمانية)، منها ستُشتق كل كلمات الكهرباء Electric وكهربية Electricity، وإلكترون وإلكتروني Electronic وما إلى ذلك.

[111] منح اسمه لمضيق الدردنيل، موقع الحملة الجاليبولية التعيسة في الحرب العالمية الأولى.

[112] بعض المصادر تدعي أن آريس وأفروديتي هما والدا هارمونيا، ترقيتها اللاحقة لمكانة ربة التناغم harmony (عند الرومانيين هي كونكورديا Concordia) يدعم بلا شك نظرية النسب السماوي. لكن بالنظر لما سيفعله آريس لاحقًا بهارمونيكا، قد تفكر فيه كأكثر الآباء شذوذًا؛ شديد الولاء لتنينه وشديد القسوة مع ابنته البشرية. يوجد عدد من دارسي الميثولوجيا، منهم الكاتب الإيطالي روبرتو كالاسو Roberto Calasso ذو التفسير المبدع للأساطير الذي يستحق القراءة، يقترحون أن هارمونيا كانت فعلًا ابنة أفروديتي وآريس لكنها مُنحت لإلكترا الساموثراكية لتتبناها.

[113] تقع في السهل الذي يفصل تركيا عن سوريا، يُطلق عليه الآن تشوكوروفا.

[114] إقليم في وسط اليونان، شمال خليج كورنث. يجدر بنا ذكر أنه كان يُسمى ذات يوم (كادميس Cadmeis).

[115] يدعو أوفيد التنين الإزميني باسم Anguis Martius، أي ثعبان مارس. يبدو أن كلمتي ثعبان وتنين كانتا تستخدمان بالتبادل في الأساطير الإغريقية، بالضبط مثل كلمتي Wurm (دودة) وDrachen (تنين) في الأساطير الألمانية.

[116] كوثونيوس كان بالطبع الاسم الذي يميز طبيعتهم جميعًا ككائنات ذات أصل أرضي Cthonic.

[117] الدولة المدينية أو The Polis ستصبح الوحدة الأساسية للحكومات في اليونان القديمة. أثينا كانت المثال الأبرز على الدولة المدينية، لكن ثيفا وسبارطة Sparta ورودس Rhodes وساموس Samos والعديد غيرهم كانت دولًا مدينية مزدهرة في العالم الإغريقي، تشكلت بينهم التحالفات وقامت الحروب وانتشرت التجارة. رغم أن اليونانيين هم من منحونا كلمة الديموقراطية Democracy، إلا أن الدول المدينية كان يحكمها أيضًا الملوك أو التيرانوس tyrannos باليونانية

(أي عندما نقول tyrant [طاغية] لا نعني بها دومًا المستبدين) أو بحكم الأقلية، أو الأوليجاركية Oligarchy باليونانية. من كلمة polis اشتُقت كلمات مثل polite [مهذب] وpolitics [سياسة] وpolice [شرطة].

[118] لم أجد تعريفًا مقنعًا لهذا الجيردل girdle. البعض يعتقدون أنه حزامٌ، وآخرون يظنونه شيئًا أقرب للدعامات أو المشدات الداخلية للخصر أو الصدر، وغيرهم وصفوه بأنه «حمالة صدر أسطورية»، وصفه كالاسو بأنه «زنار ناعم مخادع».

[119] «إكليلٌ من الضوء الذهبي يتدلى حتى يكاد يلمس الأرض»، بحسب الوصف المثالي لروبرتو كالاسو في كتابه (زواج كادموس وهارموني).

[120] مسرح أحداث مسرحيات الليلة الثانية عشرة لشكسبير والأيدي القذرة لجان بول سارتر. الدالماتاي Dalmatae (اسم تعود جذوره للكلمة الألبانية القديمة التي تعني «غنم») هم قبيلة إليرية تقع في الشمال الغربي لتلك المنطقة، ومنها جاء اسم الساحل الدلماسي Dalmatian coast (والكلاب الدلماسية أيضًا).

[121] بما أنه أصلًا من تاير [صور اللبنانية]، فكادموس على الأرجح ختم حديثه بالكلمة الشائعة عبر الشرق الأوسط تأكيدًا على الدعاء: أمين.

[122] كان ابنا كادموس وهارمونيا أصغر من أن يتولى أي منهما الحكم حينها، في الوقت المناسب سيحكم بوليدوروس ثيفا، وإليريوس سيحكم مملكة إليريا التي ستحمل اسمه مثلما رأينا من قبل.

[123] بيروي الحقيقية، الأوشيانية التي ربت الآلهة صغارًا بالفعل، منحت اسمها لمدينة بيروت.

[124] كان القسم بمياه ذلك النهر الباردة الكريهة شائعًا بين الآلهة، مثلما في حكاية أبولو وفيتون لو لا زلت تذكرها.

[125] قصة مذهلة، أوفيد نفسه قال معلقًا عليها: «كيف يمكن أن يصدق الإنسان هذا...».

[126] الاسم على الأرجح جاء من تزاوج اسم الرب (ديو Dio = زيوس)، واسم مكان الميلاد نايسوس.

[127] زيوس الممتن لهن كافأهن بوضعهن في السماء في كوكبة الهايديس Hyades، وهي كوكبة عنقودية اعتقد الإغريق أنها تشرق في السماء قبل سقوط المطر.

[128] الكتب 10 و11 و12 من القصيدة الملحمية الشاسعة ديونيسياكا Dionysiaca للشاعر الإغريقي نونوس البانوبوليسي Nonnus of Panopolis في القرن الخامس الميلادي، تحكي بالتفصيل عن علاقتهما والأحداث الوخيمة التي تلتها.

[129] يفسر نونوس هذا الفعل (وهو يفعل هذا كثيرًا، ما يجعل قصيدته شديدة الملل حتى مع موضوعها العظيم) بجعل إيروس يأتي ليعزي ديونايسيس بحكايات عشاق ذكور آخرين. حكى له عن كالاموس Kalamos وكاربوس Karpos (كاربوس هو ابن زيفروس الريح الغربية من كلوريس Chloris نيمفة الخضرة والزرع الجديد، منها اشتق الكلورفيل chlorophyl والكلور Chlorine)، شابان جميلان عشقا بعضهما، ثم خلال سباق سباحة (السباقات الرياضية والصيد بين الشباب الوسيمين التي تنتهي إلى نهايات وخيمة تيمة متكررة، مثلما سنراها لاحقًا مع هايئنسوس وأكتيون وكروكس وأدونيس وغيرهم) يموت كاربوس، فينتحر كالاموس من فرط حزنه. تحول عندها كالاموس إلى قصب وتحول كاربوس إلى فاكهة، ولا يزال كالاموس وكاربوس الكلمتان اليونانيتان للقصب والفاكهة حتى اليوم.

[130] قيل إنه منح أسرار زراعة العنب لكل مكان في العالم إلا بريطانيا وإثيوبيا، والحقيقة الحزينة أن كلا البلدين لا يملكان سمعة جيدة في صناعة النبيذ، وإن كان ذلك يتغير في وقتنا الحاضر إذ يحاول صُناع النبيذ الإنجليز صنع اسمٍ لأنفسهم، وربما الشيء نفسه يحدث مع الخمر الإثيوبي.

[131] الشاعر وكاتب المسرحيات الأثيني يوربيديس Euripides صور الحكايات الغامضة العنيفة لهؤلاء العابدين المتطرفين بكل وحشيتهم الصادمة في القرن الخامس قبل الميلاد في الباخوسيات، في هذه الدراما الدموية يعود ديونايسيس إلى ثيفا لينزل انتقامه على شقيقات أمه اللواتي رفضن تصديق قولها بأنها حامل في ابن زيوس. أصاب الرب الملك بينثيوس بالجنون، وجعل خالاته المسحورات (أجافي وإينو وأوتونوي) يمزقن أطراف الرجل المسكين.

[132] أوفيد كان يشير إلى ديونايسيس في أثناء إعادة حكي أساطيره أحيانًا باسم (ليبر Liber)، ما يحمل احساسًا بالحرية liberty والخلاعة libertine، والكتب أيضًا [liber باللاتينية تعني كتاب أو وثيقة].

[133] لو كنت تود إثارة إعجاب أصدقائك، يمكنك أن تحفظ القائمة التالية لأسماء كلاب الصيد من الذكور والإناث، كما ذكرها أوفيد في نسخته من الأسطورة، أو على الأقل قد تفيدك كقائمة بكلمات سر محتملة لمواقع الإنترنت:

الذكور: ميلامبوس Melampus، إكنوباتيس Ichnobates، بامفجوس Pamphagos، دورسيوس Dorceus، أوريباسوس Oribasos، نيبروفونوس Nebrophonos، ليلابس Lailaps، ثيرون Theron، بتيرلاس Pterelas، هايليوس Hylaeus، لادون Ladon، درومास Dromas، تيجريس Tigris، ليوكون Leucon، أسبولوس Asbolos، ليكون Lacon، أيلّو Aello، ثووس Thoos، هاربالوس Harpalos، ميلانيوس Melaneus، لابروس Labros، أركاس Arcas، أرجيودوس Argiodus، هايلاكتور Hylactor.

الإناث: أجري Agre، نابي Nape، بيمينس Poemenis، هاربايا Harpyia، كاناكي Canache، ستيكتي Sticte، ألسي Alce، لايسيسي Lycisce، لاكني Lachne، ميلينكايتيس Melanchaetes، ثيروداماس Therodamas، أوريسيتروفوس Oresitrophos.

[134] كورونيس koronis باليونانية تعني (الغراب)، لكن معناها الأصلي كان (منحني)، لست متأكدًا بالضبط إن كان هذا يشير إلى إنحناء منقار الغراب أم إلى منحنيات جسد الأميرة.

[135] يستخدم البعض عصا أسكليبيوس (أو عصا هيبوقراط)، وهي عصا خشنة يدور حولها ثعبان واحد، ويستخدم آخرون الكاديوسيوس، عصا هرمس، وهي أنحف نوعًا وأكثر أناقة ويلتف حولها ثعبانان يتلاقى رأساهما على قمتها ولها جناحان. لا يبدو أن ثمة سبب مهني أو طبي لأي الخيارين، إنما هي مسألة تفضيل شخصي لا أكثر.

[136] الشاعر والدارس كاليماخوس Callimachus الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، اقترح أن أبولو وأدميتوس أصبحا عاشقين حميمين خلال فترة الخدمة.

[137] لم يُر على الأرض هجين بشري/ فرسي من هذا النوع من قبل إلا واحد: كايرون العظيم، معلم أسكليبيوس وأكيليس وغيرهم الكثير. يمكن تتبع ولادة كايرون إلى كرونوس ابن أورانوس وجايا وأبي زيوس وهيرا. خلال هدنة مؤقتة إبان حرب التياتنة انجذب كرونوس لأوشيانية ذات جمال عظيم تدعى فيليرا Phylira، لكنها رفضت محاولاته للتقرب منها، حتى تعب كرونوس من تمنعها وحول نفسه إلى فحل أسود هائل وأخذها رغمًا عنها. كايرون كان ذرية هذا الجماع، ورغم أنه يسبق السنطورات بعدة قرون، إلا أنه يُعد منهم بالاصطلاح.

[138] أثاماس كان شقيقًا لسيسيفوس ذي الشهرة العطنة، سبب سوء سمعته سنعرفه عما قريب.

[139] يصيح الملك لير عند شكسبير:

إنكم لتسيئون إليَّ إذ تخرجوني من القبر. إنك روح مباركة، أما أنا فمربوط في الجحيم على عجلة من نار تسَّاقط عليها دموعي كأنما هي رصاص مصهور. [من الترجمة العربية لمسرحية الملك لير لإبراهيم رمزي].

[140] كان هناك ابنٌ آخر يُدعى بروتياس Broteas، كان يحب الصيد ومرت حياته بلا أحداث تستدعي الذكر مقارنة بأخيه وأخته، وقيل إنه نحت تمثال سيبيل Cybele أم الآلهة الأناضولية في صخور جبل سيبلوس، لا تزال أجزاء من التمثال ظاهرة لسياح الأيام الحالية.

[141] تغذى أهل الأوليمبوس على الأمبروزيا والنكتار، لكنهم وجدوا متعتهم في أشكال وأصناف طعام الفانين أيضًا.

[142] اصطلح تاريخيًا على تسمية هذا البيت ببيت أتريوس Atreus على اسم أحد أبنائه. سقوط بيت بيلوبس وأتريوس يشمل مصائر العديد من الأبطال والمحاربين، وصولًا إلى حرب طروادة وتوابعها اللاحقة. كان أجاممنون وكلايتمنسترا وأورستيز جميعًا من سلالة بيلوبس، وقيل إنهم ورثوا عنه لعنته ولعنة تانتالوس من قبله. اسم بيلوبس لا يزال يعيش بالطبع في جزيرة بيلوبونيز Peloponnese الواقعة في الجنوب الغربي من بر اليونان الرئيسي.

[143] التانتالوم من تلك المعادن المقاومة للحرارة التي صارت ضرورية في أيامنا الحالية لصناعة الكثير من الأجهزة الكهربية.

[144] التانتالوس tantalus هي خزانة خشبية صغيرة تحتوي على مشروبين أو ثلاثة، غالبًا من البراندي أو الويسكي أو الروم. المشروبات معروضة من وراء زجاج والخزانة محكمة الغلق، هكذا تعذب tantalizing أطفال البيت برؤيتها بلا وصول.

[145] المخادع النصاب النشال المرح المتلاعب في مسرحية حكاية الشتاء لشكسبير كان اسمه أوتولكس.

[146] هذا التعدي على أمفثيا سبب انتشار شائعة تقول إن سيسيفوس هو الأب الحقيقي لابنة أوتولكس أنتيكليا Anticlea. أنجبت أنتكليا لايرتيس Laertes، ولايرتيس أنجبت البطل العظيم أوديسيوس Odysseus، الذي يلقب أيضًا بأوليسيس Ulysses، والذي كانت سمته الأكثر شهرة هي المكر وسعة الحيلة.

[147] أسوبوس كان مسؤولًا عن نهرين على الأقل، أحدهما في بيوشيا ويغذي ثيفا، والآخر يجري عبر كورينث وهو الذي وقع فيه هنا.

[148] ما إن تزوج أمفيون من نايوبي وأخذها إلى ثيفا، حتى أضاف ثلاثة أوتار جديدة للقيثارة التي كانت أصلًا ذات أربعة أوتار، كي يستطيع أن يعزف الموسيقى بعد ذلك، تشريفًا لمسقط رأسها في آسيا الصغرى، على الطريقة التي لا تزال تسمى حتى اليوم الطريقة الليدية Lydian mode.

[149] في هذا الزمن، وفي زمن الأبطال الذي سيتبعه، احتمال أن يبلغ إنسان مكانة الخلود كان قائمًا دومًا، سيحدث هذا لهرقليطس Herakles. تأليه الأباطرة سيكون ممكنًا في الحضارة الرومانية اللاحقة، ومثله التقديس في الكنيسة الكاثوليكية، والوضع بين النجوم catasterized لممثلي السينما في ممر الشهرة بهوليود Hollywood Walk of Fame.

[150] الصخرة من الحجر الجيري، لكن عنصر النيوبيوم niobium الذي يشبه في كثير من تركيبه وصفاته التانتالوم، حصل على اسمه من ملكة الدموع.

[151] ثمة صدفة لطيفة في أن من الاستخدامات الأساسية لعنصر البالاديوم المسمى على اسم بالاس أثينا هو صناعة آلات النفخ الخشبية. أم هل هي صدفة فعلًا؟ هممم...

[152] لو أنك لا تستطيع هضم فكرة صدور هذه الدرجة من القسوة من إله بهذا البهاء، يمكنك اختيار قراءة أخرى للحكاية. العالم اللغوي وخبير الأساطير المجري

كارولي كيريني Károly Kerényi، أحد الرواد في دراسة الميثولوجيا الإغريقية، أشار إلى أن الساتيريين كانوا يرتدون عادة جلودًا حيوانية، ويعتقد أن ما فعله أبولو في الواقع كان مصادرة ما يرتديه مارسياس وتركه يرحل عاريًا، لا عقاب أكثر من ذلك. هذا التفسير لطيف ومقنع، لكنه ليس التفسير الذي اعتنقته أجيال من الفنانين.

[153] إحدى نسخ الأسطورة تقترح أن أبولو الغيور الغاضب هو من تحدى مارسياس الموهوب لا العكس، ما يجعل هذه حكاية عن الغيرة الإلهية أكثر من الهوبرس الإنساني.

[154] تدور في ليديا العديد من الأساطير الإغريقية. استعمر اليونانيون منطقة أطلقوا عليها إيونيا Ionia، تضمنت منطقة مملكة ليديا، وهي اليوم إقليم الأناضول بتركيا.

[155] أشفقت عليها الآلهة لاحقًا وحولوها إلى طائر لقلق، تصطاد اللقالق الثعابين منذ ذلك الحين على ما يبدو. هذه ليست أنتيجوني الثيفاوية ابنة أوديبوس Oedipus، وانما فتاة طروادية لها الاسم ذاته.

[156] بنات ميناس Minyas ملك بيوشا، أسماؤهن كانت لوسيبي Leucippe وأرسيبي Arsippe وألكاثوي. اكتشف العلماء نوعًا جديدًا من الخفافيش الأوروبية أطلقوا عليه Myotis Alcathoe على شرفهن. مصير الشقيقات الثلاثة كان يُستخدم عادة كتحذير لكل من يبتعد عن الطريقة الديونايسيسية في الحياة، وإن كنا على الأرجح نتلقى تحذيرات في الاتجاه العكسي في أيامنا هذه.

[157] أحيانًا يمكن وصف هذه الأساطير بالأساطير السببية أو aetiological، أي أنها تمنح تفسيرات لكيف صارت الأشياء إلى ما هي عليه الآن. يمكن أن نقرأ أراكني كقصة تبرر لماذا تغزل العناكب، وميليسا تخبرنا عن صنع النحل للعسل، إلى آخره، أي هي حكايات من نوع (كيف حصل الفيل على خرطومه؟). كثير من الزهور والحيوانات حصلت على مسمياتها العلمية اللاتينية من أصولها الميثولوجية، مثل «Daphne Laureola» لنبات دفنة عود الغار، بل حتى بلغت تلك الأصول بعض الأسماء المتداولة العادية مثل نارسيسيس Narcissus [النرجس] وهيسينث Hyacinth [الخزامي] وغيرهم.

[158] أتيكا هي منطقة في اليونان تتضمن مدينة أثينا، الشكل الكلاسيكي من اللغة اليونانية يُوصف بأنه (اليونانية الأتيكية)، عرفناه عبر شعر ودراما وخطابة وفلسفة

الكتاب الأثينيين العظام في القرن الخامس وبدايات الرابع قبل الميلاد. كانت أتيكا على الأرجح بالنسبة لليونانيين الذين يعيشون خارجها مثل إنجلترا بالنسبة لبقية بلاد المملكة المتحدة، الإقليم المهيمن المتغطرس الذي يفكر فيه الغرباء بكسل وقلة ذوق عندما يقولون «اليونان».

[159] تختلف عن سيلا الوحش البحري المرعب، التي تشكل بالاتحاد مع الدوامة كاريبديس Charybdis عائقًا يستحيل عبوره لمضيق مسينة Straits Of Messina بين جزيرة صقيلة والأرض الإيطالية القارية.

[160] في الواقع كاليستو تعمل بوظيفيتين في السماء، فهي تعيش أيضًا كأحد أقمار جوبيتر [المشترى].

[161] اعتقد الإغريق أن صيحات الهدهد تقول ?pou ?pou، أي «أين؟ أين؟»، ربما المقصود نداء تيريوس على ابنه. شكسبير أطلق على العندليب اسم (فيلوميل) في سوناتا 102، «حينما يغني الفيلوميل في مطلع الصيف»، لكن المربك أن اسم فيلوميلا شائع أكثر في الأدبيات العلمية لطائر السمنة المطربة: Turdus philomelos.

[162] الكلمة اليونانية التي تعني «الذي يُظهر التين» هي (سيكوفانت sycophant) إما أن بائعي التين في الشوارع والأسواق كانوا معروفين بنداءاتهم المعسولة المداهنة، أو إن إظهار التين كان المكافئ بشكل ما للإيماءات القضيبية (كان التين يُعتبر على الدوام فاكهة إيروتيكية على أي حال)، أو ربما يتعلق ذلك بالطريقة التي يُحصد بها التين. أيًا كان السبب، أصبحت كلمة sycophancy أو إظهار التين مرتبطة في السياق القانوني الأثيني بأولئك الذين يرفعون الدعاوى القضائية لأسباب تافهة أو خبيثة أو غير مبررة. سلوكهم المتزلف تسبب في إعطاء كلمة sycophancy معناها الشائع اليوم [تملق].

[163] كريون كان الحاكم الجيد ذا الروح البراجماتية الذي كان تاريخ أسرته التعيس مادة لمسرحيات سوفوكليس الثلاثة عن ثيفا: (أوديبوس الملك)، و(أوديبوس في كلونا)، و(أنتيجوني). لعبت دوره وأنا في السادسة عشر من عمري، وتلقيت عليه تعليقات... لن أقول أكثر من ذلك.

[164] في مسرحية (حلم ليلة منتصف الصيف) الشكسبيرية، يعبث بوتوم وأصدقاؤه المرتبكون بأسماء هذين العاشقين التعيسين في أدائهم لمسرحية « بيراموس وثيزبي»:

بيراموس (بوتوم): كان شافالوس لبروكريس صادقًا.

ثيزبي (فلوت): مثل شافالوس لبروكريس أنا لك.

[165] شكلت تلك العلاقة موضوع قصيدة جون كيتس John Keats الطويلة (إندميون).

[166] لاوميدون كان ابن شقيق جانيميد الأكبر إيلوس، ملك طروادة.

[167] أو حشرة زيز في بعض نسخ الأسطورة. لطالما عرفت أنه تحول إلى جندب، ربما لأن الجنادب شائعة في بريطانيا، ربما اعتقدت كتب الأطفال البريطانية أننا سيصعب علينا تخيل حشرة الزيز. الغريب أن اسم تايثونوس مستمر في البيولوجيا ليس كجندبٍ أو زيزٍ، بل كنوع من الفراشات خطافية الذيل أو الأجنحة الطائرة: أورنيثوبترا تايثونوس Ornithoptera tithonus.

[168] فكرة سعيدة ألهمت عالم الجيولوجيا ألبرت أوبل Albert Oppel بتسمية آخر العصور الجوراسية باسم العصر التيثوني Tithonian كإيماءة تحية إلى إيوس، فقد كان العصر الذي كان فجر العصر الطباشيري. قصيدة «تايثونوس Tithonus» هي أحد أشهر قصائد الشاعر الإنجليزي ألفريد تنيسون Tennyson Alfred، تأخذ شكل مونولوجٍ دراميٍّ موجهٍ إلى إيوس، يتوسل فيه لها لترحمه من شيخوخته.

... بعد صيف ثم صيف، تموت البجعة
أما أنا فليس لي إلا الخلود القاسي
أتداعى، أذبل ببطء بين ذراعيك
في حافة العالم الهادئة
ظل أشيب أنا، يهيم كما الحلم...

وفيها سطر ربما يعتبر من أهم تيمات الميثولوجيا الإغريقية:

حتى الآلهة لا تستطيع استرداد عطاياها.

[169] سجل أوفيد شكواها في مسخ الكائنات: «حضارة الإنسان سنت القوانين، وما تسمح به الطبيعة تحرمه القوانين القاسية».

[170] قصيدة شكسبير الطويلة (فينوس وأدونيس) تعيد حكي الأسطورة استنادًا إلى النسخة التي حكاها أوفيد في مسخ الكائنات. شكسبير جعل موت أدونيس يجعل فينوس تلعن الحب وتقرر أنه من الآن فصاعدًا لن يأتي الحب إلا بصحبة المأساة، مثلما تتنبأ في حزنها:

الحب والأسى بعد الآن لن ينفصلا

سيكونان سببًا للحرب وأتعس الأحداث

وبذرة الشقاق بين الابن وأبيه

ومن سيحب أكثر لن يجد في حبه لذة

هذه نبوءة تحققت بالكامل

[171] لاحظ تشابه جريمته مع جريمة أكتيون الذي تلصص على أرتيميس، يبدو أن حياء الربات ساعة الاغتسال كان عظيمًا.

قام تي. إس. إليوت بإشارة جديرة بالذكر إلى تايريسياس في قسم (موعظة النار) بقصيدته (الأرض اليباب The Waste Land):

أنا تايريسياس، رغم العمى، اختفق بين حياتين

رجل عجوز بثديي أنثى متغضنين، أقدر أن أرى...

أنا تايريسياس بضرعين متغضنين

رأيت المشهد وتنبأت بالبقية...

أنا تايريسياس سبق أن عانيت هذا كله...

[المقطع من ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة لقصيدة الأرض اليباب إلى العربية - المترجم].

[172] قد يبدو أن تحكيم فانٍ بين الآلهة شرف عظيم، لكن ما تريه لنا عنه هذه القصة، ومثلما سيكتشف الأمير الطروادي باريس Paris لاحقًا، أن النتائج قد تصبح كارثية.

[173] المويراي لو لا تزال تذكر هن ربات القدر. شعر الإغريق أن كل فرد كان له مويرة خاصة يمكن التعبير عنها كمزيج من الضرورة والهلاك والعدل والحظ، شيء ما بين الحظ والقدر.

[174] طبقًا لبعض المصادر تحول أمينياس إلى عشب طيب الرائحة، ربما الشبت أو الكمون أو الينسون.

[175] بالطبع هذه ليست علامات أي شخص نعرفه.

[176] بقايا بابل كامنة تحت رمال الصحراء على بعد حوالي خمسين ميلًا من جنوب بغداد في العراق.

[177] في الإنتاج المسرحي الهزلي في مسرحية (حلم ليلة منتصف الصيف) الشكسبيرية، بيراموس الذي يلعب دوره بوتوم يصيح بينما يطعن نفسه:
هكذا أموت، هكذا هكذا هكذا
والآن قد قضيت
الآن قد مضيت
الروح في السماء
قد آن للسان ألا ينطقا
وآن للأقمار ألا تشرقا
والآن مت موتًا وموتًا.. ثم موتًا ثم موتًا.
[المقطع من الترجمة العربية لد. محمد عناني للمسرحية، بعنوان حلم ليلة صيف].

[178] كلمة تغطي معاني الانسلاخ والتبدل وإعادة التقييم، تجاوز شيء ما والوصول إلى شيء آخر.

[179] لمزيد من التفاصيل المبهرة، انظر see David D. Leitao, 'The Perils of Leukippos: Initiatory Transvestism and Male Gender Ideology in the Ekdusia at Phaistos', in Classical Antiquity, vol. 14, no. 1 (1995).

[180] لا تخلط بين دافني ودافنيس، الثاني هو شاب من صقلية ذو جمال أخاذ وُجد رضيعًا تحت شجرة غار فأخذ منها اسمه [إذ أن Daphne باليونانية تعني نبات الغار]. أحبه كلٌ من هرمس وبان، وعلمه بان العزف على الناي. سيصبح شديد الأهمية حتى أن الأجيال اللاحقة ستنسب له اختراع الشعر الرعوي. في القرن الثاني الميلادي كتب مؤلف من ليسبوس قصة رومانسية (تنافس المؤخرة الذهبية على لقب أول رواية في التاريخ) تدعى دافنيس وكلوي Daphnis and Chloë،

تحكي عن عاشقين رعويين خاضا شتى أشكال المحن والمغامرات التي تختبر حبهما. ألف أوفنباخ Offenbach أوبريت قصيرة تستند إلى حكايتهما، والأشهر كان عرض الباليه الثوري عام 1912 الذي وضع موسيقاه موريس رافيل Maurice Ravel وصمم رقصاته مايكل فوكين Michel Fokine ورقصه فاسلاف نغينسكاي Vaslav Nijinsky.

[181] كلمة بافيان Paphiam باتت تستخدم لوصف أفروديتي وفنون الحب. جورج برنارد شو George Bernard Shaw اختار «بجماليون» ليكون عنوانًا لمسرحيته عن رجل يحاول تحويل فتاة كوكنية [من الطبقة العاملة في لندن] إلى (سيدتي الجميلة).

[182] لا يُعرف الكثير عن لياندر، لا تخبرنا قصيدة كريستوفر مارلو Christopher Marlowe عنه أكثر من أنه قابل هيرو ووقع في حبها، كتب جيمس لي هنت James Leigh Hunt أخرى لكنها لم تحتوِ معلومات أكثر.

[183] في قصيدة مارلو كانت ترتدي وشاحًا مُطرزًا بالزهور بواقعية شديدة لدرجة أنها كانت مضطرة لهش النحل عنها...

[184] اسم لياندر لا يزال حيًا في أكثر نوادي التجديف عراقة وتفردًا، ذلك الذي يثير اللون الوردي لزي أعضائه في سباق القوارب الأشهر (هنلي ريجاتا Henley Regatta) انتباه الجميع.

[185] هذا الإنجاز كان بالتأكيد يعني الكثير للشاعر أحنف القدمين الرياضي في ذات الوقت. كتب بايرون لصديقه هنري دروري Henry Drury: «سبحت هذا الصباح من سيستوس إلى أبيدوس. المسافة لا تتجاوز الميل، لكن التيار يجعلها شديدة الخطورة، خطيرة لدرجة أني أشك إن كانت قدرات مستر لياندر على الحب لم تبرد إلا قليلًا في سباحته اليومية إلى الجنة». وبعد ستة أيام من مأثرته كتب قصيدة بطولية ساخرة بعنوان «كُتبت بعد السباحة من سيستوس إلى أبيدوس Written After Swimming From Sestos To Abydos»، فيها قارن بين فعله الذي قام به في شهر مايو بهدف المجد، وفعل لياندر الذي قام به في ديسمبر بهدف الحب، وأطرى بايرون على نفسه لأنه كان الأكثر حكمة لاختياره موعدًا ذكيًا، وأن السباحة لأجل المجد أفضل بالتأكيد منها بغرض الحب.

[186] لم يتجاوز أريون في المهارة والشهرة إلا أورفيوس، الذي تنتمي حكايته إلى عصر الأبطال اللاحق.

[187] كلمة جيتار guitar مشتقة من كيثارا kithara. [الكيثارا Kithara هي نسخة مطورة من القيثارة Lyre، المعجم الموسيقي العربي لا يفرق بين الاثنين ويترجمهما قيثارة، اخترنا هنا تعريب آلة أريون بالكيثارا تمييزًا لها عن قيثارة أبولو الأصلية - المترجم].

[188] برياندر كان شخصية تاريخية حقيقية، ذُكر كواحد ممن قيل عنهم «حكماء الإغريق السبعة» الذين ذكرهم سقراط في معرض استعراضه لخصال الحكمة المأثورة التي يجب أن يسعى لها البشر.

[189] لا تزال رقصة التارنتيلا شائعة في أوروبا.

[190] هذه الثيوزينيا theoxenia، أو الاختبار السماوي لقواعد الضيافة، تشبه إلى حد ملحوظ ما ذُكر في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين. يزور الملائكة سدوم وعمورة ولا يستقبلهم بلطف واحترام إلا لوط وزوجته. غير أن سكان سدوم لم يطلقا خلف الملائكة الكلاب، بل أرادوا أن «يعرفوهم» بلغة الإنجيل الحرفية. قيل للوط وامرأته مثل فيلمون وباوكيس أن يتخذا طريقهما عبر الباب ولا ينظرا خلفهما بينما يحل العقاب السماوي على مدن السهل، غير أن زوجة لوط نظرت وتحولت لا إلى زيزفونة، بل إلى عمود من الملح.

[191] سابيزيوس هو تجسيد لزيوس على ظهر حصان، وكان يعبده التراقيون والفريجيون.

[192] عندما سمعت بتلك الحكاية أول مرة نزل أليكساندر من نظري، قلت «هذا غش»، لنفترض أني قمت بحل مكعب روبيكي بتفكيكه باستخدام مفك حتى تقع عنه كل القطع، ثم بإعادة تركيبهم مجددًا بالترتيب السليم، من سيمدحني على هذا؟ لكن التاريخ هنأ أليكساندر على «تفكيره خارج الصندوق» وقالوا عنه ألكساندر العظيم [الإسكندر الأكبر]! هذا عالم يكيل بمكيال للملوك المحاربين العباقرة، ومكيال أخر لبيقتنا.

[193] يخبرنا العلماء الآن عن أحد أقمار زحل سُمي على اسم إنسلادوس على بعد

800 مليون ميل فقط من الأرض، ويبدو أنه يحتوي على المقومات الأساسية للحياة. ربما وضعت جايا في النهاية خططًا بعيدة المدى للتوسع بذريتها في عوالم أخرى.

[194] معجمي الإنجليزي/ اليوناني لا يساعدني كثيرًا في حالة بوليبوتس، ربما كان اسمه يعني «المغذي كثيرًا» أو «الذي يتغذى كثيرًا» أو «الخصيب».

[195] لهذا يحمل التين في اليونانية اسم سيكيوس Syceus.

[196] شخص آخر غير الإله الثانوي لتربية النحل الذي يحمل الاسم ذاته.

[197] من المرشحين الشائعين لهذا الدور روبين من لوكسلي Robin of Loxley أو اللورد فيتزوث Lord Fitzooth إيرل مدينة هانتينجدون Huntingdon.

[198] من المثير للاهتمام أن الأصل الأساسي لفعل legere له معنى الجمع gather، مثلما في college [كلية - مجمع] أو collect [يجمع]، إذًا ربما الأساطير ذات الأصل الواقعي في النهاية ليست إلا حكايات مُجمعة مثل تلك التي كُتبت لتُقرأ.

[199] كان متهمًا بالرفض اللاديني للاعتراف بآلهة الدولة الأثينية.

في هذا النص الذي يقدم فيه ستيفن فراي إعادة سرد للأساطير مليء بالحيوية... نتأمل في تعجب كيف ولدت أثينا الحكيمة من تصدّع في الرأس العظيم لزيوس، ونتتبع بيرسفوني المخطوفة إلى الظلام والوحدة في مملكة العالم السفلي، ونرتجف عندما تفتح باندورا صندوق الشرور والعذابات، ونتأثر بمشاهدة علاقة الحب الأسطوري بين إيروس وسايكي..

كتاب ميثوس يعيد تصوير هذه الأساطير الاستثنائية بلغة تتناسب مع وقتنا المعاصر، مع الاحتفاظ بسحرها وبهائها.

***

"قراءة مثالية لعصرنا الحالي، نص حماسي، مضحك... يعيد فراي سرد الأساطير اليونانية بشكل أنيق ومبهر.. عن طريق اللعب والمرح يتألق فراي في حكيه لحيوات الآلهة اليونانية القديمة.. تلك الآلهة ستكون ممتنّة له".

The Times

"كتابة عبقرية... أسلوب فراي في الكتابة يجعل نصوصه جذّابة للجميع".

The Herald

"حيوية وظريفة وحسّاسة وحميمة... إعادة سرد الأساطير بهذه الطريقة لها سحرها الخاص".

The Guardian

"وليمة أولمبية.. لا بد أن الآلهة تبتسم لفراي فأساطيره مبهرة".

Evening Standard

***

ستيفن فراي، ممثل كوميدي حاصل على جوائز عالمية ومقدم برامج ومخرج، كما أنه روائي مرموق تصل رواياته إلى قوائم الكتب الأكثر مبيعًا.

